جامعة بيروت العربية



ابن أبي عتيق

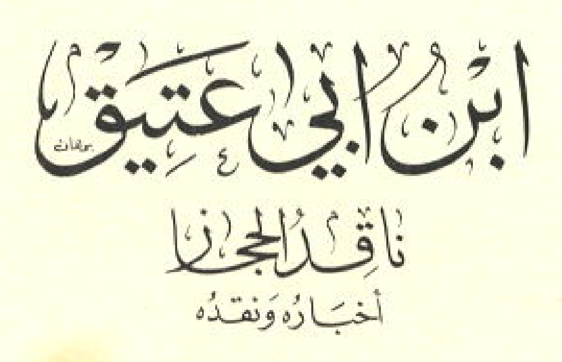
ناقد الحجاز

أخباره ونقده

الدكتور عبد العزيز عتيق
أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٧٢

جامعة بيروت العربية



الدكتور عبد العزيز عتيق
أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٧٢

طبع في دار الاحد (البحيري اخوان) بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح الأستاذ أحمد أمين .

وإلى عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين . أطال الله بقاءه .

كان كلاهما يعجب بابن أبي عتيق الناقد الأديب ، ويودُّ لو أتيح له الوقتُ ليكتب عنه دراسة خاصة .

فإليهما أهدي في تواضع هذا البحث .

عبد العزيز عتيق

١٦ آذار (مارس) سنة ١٩٧٢

مقدمة

ابن أبي عتيق : هو عبد الله بن أبي عتيق محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق . حجازيٌ من أهل المدينة ، قضى الشطر الأكبر من حياته في عصر بني أمية ، وغلبت كنية أبيه على اسمه ، فعُرف لدى القدماء والمحدَثين باسم « ابن أبي عتيق » .

ويُستدل من أقوال القدماء عنه ومن أخباره التي انتهت إلينا ، أنه كان من نبلاء قريش ؛ فجده الثاني هو خليفة رسول الله الأولُ أبو بكر الصديق . هذا عن نسبه .

وإلى جانب ذلك كان مشهوداً له بالفضل والنُّسك والصلاح والعفاف والشرف ، كما كان مشهوراً بالظَّرف والدُّعابة وحلاوة الفكاهة ، والميل إلى اللهو والمزاح والغزَل !

وأكثر اهتمام القدماء به — كما يبدو — كان من ناحية إعجابهم بفكاهته وبِظَرفه الذي يقال عنه إنه بَذَّ به ظرفاء الحجاز عامة . وقلما اهتموا بأخباره من جهة ما فيها من قِيَم نقديّة تتصل بأدب معاصريه من شعراء الحجاز .

أما المحدثون ، فمع إعجابهم كذلك بحلاوة فكاهته وظرفه ، فإننا نراهم قد التفتوا أكثر ما التفتوا إلى ما في أخباره من آراء له في النقد الأدبيّ تدل على ذوق سليم ، ونظر ثاقب ، وبَصَرٍ بالشعر ، وبما فيه من مواطن القوة والضعف .

فالأستاذ أحمد أمين على سبيل المثال يقول في معرِض الحديث عن

نقاد الحجاز في العصر الأموي : « أما النقاد أنفسهم غير الشعراء ، فخير مَن يمثلهم في ذلك العصر ابن أبي عتيق والسيدة سُكَيْنة ، وكلاهما يمثل نزعة أهل الحجاز وظَرفَهم ، فكلاهما له منزلة دينية عالية ، ومع هذا يُعنى بالأدب ونقده » .

« فابن أبي عتيق من أعلى الناس حسَباً ، فهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق . ويقول عنه المبرد : « إنه من نُسّاك قريش وظرفائهم ، وقد غلبت عليه الدُّعابة وشُهر بها » . وكان من الرواة الموثوق بهم في الرواية ، يذكره المحدّثون فيوثّقونه ، وهو مع كل هذا يقول عن نفسه : « أنا بالحُسْن عالم نظّارُ » . كما وصفه عمر بن أبي ربيعة بقوله :

ودعاني ما قال فيها عتيقٌ   وهو بالحُسْن عالمٌ نَظّارُ

« وقد ملأ الحجاز في عصره نقداً ظريفاً لكثير من الشعراء ، فتعقّب عمر في شعره ، وكان يفضّله على معاصريه . وكتاب الأغاني مملوء بنقد ابن أبي عتيق لشعر عمر[1] » .

وكثيراً ما سمعت الأستاذ أحمد أمين – رحمه الله – يذكر ابن أبي عتيق ، ويُبدي إعجابه به كناقد ، ويتمنى لو أُتيح له الوقت ليضع كتاباً عن حياته وأخباره ونقده .

وفيما كتبه الأستاذ الدكتور طه حسين عن شعراء الحجاز في العصر الأموي نراه يشير إلى ابن أبي عتيق مرتين .

مرة في حديثه عن الشاعر « العَرْجيّ » والتعليل للهوه ومجونه بفعل السياسة الأموية التي ضيّقت على أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين ، وحالت بينهم وبين العمل الجاد ، وأسلمتهم إلى اليأس والغنى والفراغ .

---

(١) النقد الأدبي لأحمد أمين : ج ٢ ص ٤٥٣ – ٤٥٤ .

عن ذلك يقول الأستاذ الدكتور طه حسين : « ... ورأينا أبناء أبي بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشميّ مضطرين إلى أن يحيَوْا في ضِياعهم. فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون ، وأما أقلّهم فانصرف إلى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ بحظه من متاع الحياة . ولعلك تعلم أن هذا الماجن الذي ازدان به الحجاز حيناً ، وهو ابن أبي عتيق ، كان من سلالة أبي بكر ، وأن العَرْجِيّ الذي أريدُ أن أحدثك عنه اليوم كان من سلالة عثمان [1] » .

ومرة أخرى أشار إلى مسعاه في طلاق « لُبنَى » حتى تخلّص إلى صاحبها الشاعر قيس بن ذَريح ، ثم يستطرد فيقول : « ولا بد من أن نخصّص في يوم من الأيام فصلاً لابن أبي عتيق [2] » .

***

أما صُحبتي شخصياً لابن أبي عتيق فهي صحبة قديمة ترجع إلى عهد الدراسة والطلب . كنت في هذا العهد ألتقي به من حين إلى آخر في ديوان عمر بن أبي ربيعة ، وفي الأصول الأدبية والتاريخية الكبرى فأعجب بظَرفه ونقده. وظل هذا الإعجاب متصلاً ينمو ويزداد على مرّ الأيام .

وفي محاضراتي بجامعة بيروت العربية عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب في العصر الأموي التقيت به لقاء الدارس الذي يريد أن يتعرف منهجه وآراءه النقدية التي أسهم بها في توسيع مجال النقد العربي ، ثم يُعرّفَ بها .

وقد وجدتُ للرجل في هذا الباب الشيء الكثير مما لا تتسع له محاضرات محددة الزمن . ولعل ذلك هو ما حدَا بي إلى التفكير في القيام بدراسة موسّعة مستقلة عن ظريف الحجاز وناقده ...

---

(١) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢١٥ .

* * *

ولكن أين هي أخبار ابن أبي عتيق ؟ أجل ، أين أخباره التي يعتمد عليها الباحث في المحل الأول ، ويستقي منها ما يتطلبه البحث من مادة ؟

إن محمد بن النديم صاحب الفَهْرِسْت يحدثنا أن كلا من أبي الحسن علي بن محمد المدائني[1] «١٣٥–٢١٥ هـ.» وسليمان[2] بن أيوب المديني قد جمع أخباره في كتاب أسماه « كتاب ابن أبي عتيق » . ولكن أين هذان الكتابان ؟ لقد ضاعا فيما ضاع عَبْر العصور والأجيال من تراثنا العربي !!

كان عليَّ إذن أنْ أبحثَ عن أخباره وأن أتتبعها في جميع مَظانّها من كتب الأدب والطبقات والتاريخ ، وأن أجمع منها ما أستطيع جمعه للانتفاع به في البحث .

لم يكن ذلك أمراً سهلاً ، فقد استغرق وقتاً طويلاً ، ولكني استطعت في النهاية أن أجمع له ٧٤ خبراً. حقاً إن ما جمعته ليس هو كلَّ أخباره ، ولو أتيحت للباحثين جميعُها لكان من الممكن الخروج منها بصورة أوضح وأشمل لحياته ونقده .

على أية حالٍ إن ما جمعناه من أخباره يكفي لأن يعطينا عن حياته ، وعن طبيعة نقده واتجاهه وآرائه النقدية صورةً أوضح وأشمل مما هو معروف عنه حتى الآن .

ثم إن الجهد الذي بُذل في جمع ما جمعناه من أخباره ، هو في حد ذاته عمل علمي . فلأول مرة يجد الدارس أو الباحث مجموعة من أخبار ابن أبي عتيق بين يديه ، توفّر عليه الكثير من العناء والوقت ، إذا ما راح يلتمسها مبعثرةً في شتى الكتب . هذا شيء .

(١) الفهرست لابن النديم : ص ١٥٣ – ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١٧ – ٢١٨ .

***

وعمل آخر ليس أقلَّ صعوبة من عملية جمع الأخبار كان علينا أن نواجهه بصدد هذا البحث .

إن ابن أبي عتيق ينتمي بنسبه إلى أبي بكر الصديق ، وآلُ أبي بكر تتشابه أسماؤهم إلى حد كبير ، وهذا التشابه قد أدَّى بدوره إلى شيء من الخلط والاضطراب في أخبارهم .

فعلى على سبيل المثال ، هناك من آل أبي بكر : عبدالله بن أبي بكر ، وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن محمد بن أبي بكر ، وعبدالله ابن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر :

وهناك عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن عبدالله بن محمد ابن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر !

ثم هناك محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ومحمد ابن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر !

والرواة والمؤرخون وأصحاب الطبقات كثيراً ما كانوا يختصرون أسماء هؤلاء الرجال في معرض الحديث عنهم ، فيقولون مثلاً : عبدالله بن أبي بكر ، أو محمد بن أبي بكر ، أو عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهم يقصدون في الواقع واحداً من وَلد هؤلاء .

واختصار أسمائهم على هذا النحو له خطورته ، فهو يؤدي في كثير من الأحيان إلى اختلاط أخبارهم بعضها ببعض . وهذا من شأنه أن يصيب الباحث في تاريخ هذه الشخصيات بالحيرة ، وأن يوقعه في الزلل ، فينسبَ إلى هذا أو ذاك من الأخبار ما ليس له .

من أجل ذلك اقتضاني البحث في كل ما يتصل بابن أبي عتيق أن أترجم لآل أبي بكر الصديق بالقدر الذي يحول دون الخلط والاضطراب في أخبارهم .

***

وكان ابن أبي عتيق حفيّاً بالغناء محباً له ، يغشى مجالسه ، ويهتز أيما اهتزاز لسماعه ، بل كان هو نفسه يغنّي أحياناً !

وكصاحبه عبد الله بن جعفر كان يشجع على الغناء ، ويتعهد الموهوبين فيه ، ويعطف على رباته وأربابه ، ويقف في وجه كل من يحاول أن يضيّق عليهم ، أو يؤذيَ أحداً منهم .

ولما كان فن الغناء قد نهض نهضة قوية في الحجاز ، وأثّر تأثيراً شديداً في حياة أهله ورقيّهم اجتماعياً ، وكان ابن أبي عتيق ممن شاركوا في ازدهار هذا الفن في عصره ، فقد رأينا أن نتحرى حقيقة هذه النهضةِ الغنائية والعواملَ التي ساعدت عليها .

وتحقيقاً لذلك استأدانا الأمر أن نبحث في « الغـــناء العربي » بحثاً تاريخياً يرينا نشأته ومدى تطوره حتى نهاية العصر الأموي .

***

ومن معاصري ابن أبي عتيق وأصدقائه شخصيةٌ لها قيمة أدبية ، هي شخصية أبي السائب المخزوميّ .

كان الرجلان يلتقيان في صفات كثيرة . فكلاهما كان من أشراف المدينة ومن أهل النُسك والفضل في الحجاز ، وكلاهما كان يحب الغناء ويغشى مجالسه ، وكلاهما كان من أصحاب الفكاهة والمُلَح والنوادر ، وكلاهما كان يتذوق الشعر ، وشعرَ الغزل خاصــة ، وكلاهما كان نِدّاً للآخر في ظرفه ، وإن اختلفت طبيعة هذا الظّرف عند كل منهما .

ومن محاسن الصدف أثناء جمعنا أخبارَ ابن أبي عتيق أننا عثرنا لمعاصره وصديقه أبي السائب المخزوميّ على ٢٦ خبراً . وهذه الأخبار وإن كانت في جملتها تعليقات عجيبــة على ما استحسن أو لم يستحسن من الشعر ،

فإنها تمثل إلى حدٍّ ما صورةً من صور نقد الشعر الحجازيّ في عصره.

وقد رأينا جمع هذه الأخبار أيضاً لقيمتها الأدبية والنقدية. فهي من ناحية صالحةٌ للمقارنة بينها وبين أخبار ابن أبي عتيق من الوجهة النقدية، وهي من ناحية أخرى تُعدُّ نواةً لمن تحدّثه نفسه مستقبلاً بدراسة شخصية أبي السائب المخزوميّ، هذه الشخصية النادرة الفريدة في بابها!

***

من كل ما تقدم يتضح لنا الآن أبعادُ هذا البحث ومنهاجُه الذي تضمّن خمسة كتب.

فالكتاب الأول منها يضم تراجم لأبي بكر وآله، والكتاب الثاني يبحث في الغناء العربي من حيث نشأتُه وتطورُه حتى نهاية العصر الأموي، والكتاب الثالث يشتمل على ترجمة حياة لابن أبي عتيق تتلوها أخباره التي جمعناها، والكتاب الرابع خاص بأخبار أبي السائب المخزوميّ مع ترجمة له، أما الكتاب الخامس والأخير من البحث فيحتوي على أربعة فصول: الأول عن النقد في العصر الجاهليّ، والثاني عن النقد في صدر الإسلام، والثالث عن عصر ابن أبي عتيق، والرابع عن نقده ومدى ما أسهم به في تطوير النقد العربي وفتح آفاق جديدة فيه.

والآن... لم يبق أمامي إلا أن أُخَلّيَ بين القارىء والبحث. واللهَ أسأل أن يجد فيه من الفائدة والنفع بمقدار ما بُذل فيه من الجهد...

عبد العزيز عتيق

الكتاب الأول

أبو بكر وآله

تراجم

- أبو بكر الصديق
- عائشة أم المؤمنين
- أسماء ذات النطاقين
- أم كلثوم
- عبد الله بن أبي بكر
- عبد الرحمن بن أبي بكر
- محمد بن أبي بكر

أبو بكر الصِّدّيق

هو أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر التيميّ القرشيّ. كان اسمه في الجاهلية «عبدَ الكعبة» وعندما أسلم سمّاه رسول الله ﷺ «عبدَالله» ولقّبه «عتيقاً».

واختلف العلماء في معنى هذا اللقب وسبب التلقيب به. قال الليث ابن سعد وجماعة معه: إنما قيل له «عتيق» لجماله وعَتاقة وجهه.

وقال مُصعب الزبيري وطائفة من أهل النسب: إنما سُمّي أبو بكر «عتيقاً» لأنه لم يكن في نسبه شيءٌ يُعاب به.

وقيل: إنما سُمّي «عتيقاً» لما أُثِر عن رسول الله ﷺ من أنه قال عنه: «إنه عتيق من النار». ويُعزى هذا الخبر إلى عائشة أمّ المؤمنين، فقد رُوي عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ بفِناء البيت إذ جاء أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «مَن سَرّه أن ينظر إلى عتيق من النار، فلْينظر إلى أبي بكر»، فغلب عليه اسم «عتيق»[1].

كذلك سُمّي أبو بكر «صِدّيقاً». قيل: لتصديقه الرسول في خبر الإسراء، وقيل: لمبادرته إلى تصديق رسول الله في كل ما جاء به.

هذا عن اسمه ولقبه. أما عن نسبه فهو أبو بكر بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيم بن مُرّة بن كعب بن لؤيّ

(١) الإصابة لابن حجر: ج ٢ ص ٣٣٣–٣٣٤.

ابن غالب بن فِهر بن مالك . وينسب إلى تيم قريش ، فيقال له : التيميُّ القرشيُّ .

وأمه أمُّ الخير ، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة [1] .

ووالده أبو قحافة عثمان تأخر إسلامه : فلم يُسلم إلا يوم فتح مكة . قيل إنه أُتي به إلى رسول الله في ذلك اليوم فقال : ألا أقررتم الشيخ في بيته حتى كنا نأتيه تكرمةً لأبي بكر ؟ [2] وقد بايع في ذلك اليوم وأتى المدينة وبقي فيها حتى مات في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربعَ عشرةَ ، وله من العمر سبع وتسعون سنة [3] .

وقد أسلمت أم أبي بكر بعد إسلامه . قيل أنه أحضرها إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله هذه أمّي فادعُ لها وادعها إلى الإسلام ، فدعا لها الرسول ودعاها فأسلمت . وقد عاش والداه بعده ، وتوفيت أمه قبل أبيه [4] .

وكان لأبي بكر أختان : قُرَيْبة ، وأمُّ فروة . أما قُريبة فكانت عند سعد بن قيس بن عبادة ، وأما أمُّ فروة فتزوجها رجل من الأسْد فولدت له جارية ، ثم تزوجها تميم الداريّ ، ثم خلف عليها من بعده الأشعث بن قيس .

وكان مولد أبي بكر بعد عام الفيل بثلاث سنوات [5] ورُوي عن عائشة أن رسول الله وأبا بكر تذاكرا ميلادهما عندها ، فكان النبي ﷺ أكبر .

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٥ .

(٢) الإصابة لابن حجر : ج ٢ ص ٤٥٤ .

(٣) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٧ .

(٤) الإصابة : ٤ ص ٤٢٩ .

(٥) مروج الذهب للمسعودي : ج ٢ ص ٣٠٤ .

واختلف الرواة في أيّهما أسبق إلى الإسلام : أبو بكر أم عليّ بن أبي طالب ؟ قال ابن إسحاق : أول مَن اتبع رسول الله وآمن به عليّ بن أبي طالب ، وهو ابن تسع سنين ، ثم زيد بن حارثة ، ثم أبو بكر ، ثم أسلم رهط من المسلمين : منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقّاص ، وطلحة بن عبيد الله .

ورُوي بسند إلى معاذة بنت عبد الله العدوية أنها قالت : سمعت عليّ ابن أبي طالب على منبر البصرة وهو يقول : أنا الصديق الأكبر . آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل يُسلم أبو بكر .

وحدّث الجُرَيْري أنه سمع أبا نضرة يقول : قال أبو بكر في الخلافة : ومَن أحق بها مني ؟ أوَ لست أول من أسلم ؟

والصحيح الذي انعقد عليه الأجماع أن أبا بكر هو أول القوم إسلاماً . روى الشعبي أن ابن عباس سئل : أي الناس كان أول إسلاماً ؟ فقال : أما سمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شجْواً من أخي ثقةٍ
فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التاليَ الثانيَ المحمودَ مَشهدُهُ
وأولَ الناس طُرّاً صدّقَ الرُسلا
خيرُ البريّةِ أتقاها وأرأفها
بعد النبيّ وأوفاها بما حَملا ؟ (١)

وروى صاحب جمهرة أشعار العرب بسند إلى عبد الله بن مسعود قال : بلغ النبي ﷺ أن قوماً نالوا أبا بكر بألسنتهم . فصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! ليس أحدٌ منكم أمَنّ عليّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر .

---

(١) ديوان حسان : ص ١٧٤ .

كلكم قال لي : كذبت ، وقـــال لي أبو بكر : صدقت . فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ثم التفت إلى حسان فقال : هات ما قلت في أبي بكـر . فقال حسان : قلت يا رسول الله .... ثم أنشد القصيدة التي منها الأبيات السابقة . فقال ﷺ : صدقت يا حسان . دعوا لي صاحبي ! قالها ثلاث مرات [1] .

وفي الصحيح عن عمرو بن العاص أنه قال : قلت يا رسول الله : أيُّ الناس أحبُّ اليك ؟ قال : عائشة . قلت : من الرجال ؟ قال : أبوها .

وقال ابن إسحاق في السيرة الكبرى : كان أبو بكر رجلاً مؤلَّفاً لقومه مُحبَّباً سهلاً ، وكان أنسبَ قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبمـا كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً ذا خُلق ومعروف ، وكانوا يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الإسلام مَن وثق به من قومـه ممن يغشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العَوّام وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرحمن بن عوف . ومن مناقبه أيضاً أنه أعتق سبعة كلّهم يُعذّب في الله : منهم بِلال وعامر بن فهَيْرة . ولقد بُعث النبي وعند أبي بكر أربعون ألفاً فكان يعتق منها ويَعُول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف ، وكان يفعل فيها كذلك [2] .

وروى أبو بكر كثيراً عن النبي ﷺ ، وعنه روى كلٌّ من عمر وعثمان وعليّ ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبي هُرَيرة ، وأبي سعيد الخُدَري . كذلك روى عنه أولاده : عبد الرحمن وعائشة ومحمد وغيرُهم من جِلّة الصحابة وكبار التابعين [3] .

---

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشي : ص ٣١ .

(٢) الإصابة : ج ٢ ص ٣٣٤ ، وتاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣١٧ .

(٣) الإصابة لابن حجر : ج ٢ ص ٣٣٣ .

***

وقد صحب أبو بكر النبي قبل البعثة ، وكان أسبقَ القوم إلى الإيمان به ، واستمر معه طوال إقامته بمكة ، ورافقه في الهجرة وفي الغار ، وشهد معه أكثر الغزوات ، وكانت الراية معه يوم تَبُوك ، وحج بالناس في حياة الرسول سنة تسع ، فأرى المسلمين مناسكهم .

وبعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى بُويع لأبي بكر بالخلافة ، واستقر خليفةً في الأرض من بعد الرسول ، ولقبّه المسلمون « خليفةَ رسول الله » .

وعلى إثر البيعة العامة له خطب الناس في مسجد الرسول خطبة قصيرة جامعة بسط فيها دستوره أو سياسته التي عزم على انتهاجها قال :

« أما بعد أيها الناس ، فإن قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني : الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقويُ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله .

لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلّا ضربهم الله بالذل : ولا تشيع الفاحشة في قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصَيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله (١) .

وكان أبوبكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجراً وكان منزله بالسُّنْح (٢) ، ثم تحوّل إلى المدينة . وقد روى كثيرون عن عائشة أنها قالت : كان منزل أبي بالسُّنْح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٢١٠ .

(٢) السُّنْح : إحدى محال المدينة ، كان بها منزل أبي بكر حين تزوج حبيبة بنت خارجة ابن زيد الأنصاري ، وهي في طرف من أطراف المدينة ، وبينها وبين منزل النبي ميل. انظر في ذلك معجم البلدان لياقوت : ج ٣ ص ٢٦٥ .

الحارث بن الخزرج . وكان قد حجَّر عليه حُجرة من سَعَف ، فما زاد على ذلك حتى تحوّل إلى منزله بالمدينة .

فأقام هنالك بالسُّنْح بعدما بويع له ستةَ أشهر ، يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له ، وعليه إزار ورداء مُمَشَّق[1] ، فيوافي المدينة فيُصلّي الصلوات بالناس ، فإذا صلّى العِشاء رجع إلى أهله بالسُّنْح . فكان إذا حضر صلّى بالناس ، وإذا لم يحضر صلّى بهم عمر ابن الخطاب .

وكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقَدَر الجمعة فيُجمِّع بالناس . وكان رجلاً تاجراً ، فكان يغدو كل يوم إلى السوق ، فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما كُفِيَها فرُعِيَتْ له .

وكان يحلُب للحيّ أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحيّ : الآن لا تحلب لنا منائح[2] دارنا . فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمري لأحلبَنَّها لكم ، وإني لأرجو ألّا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه ، فكان يحلب لهم ، فربما قال للجارية من الحي : يا جارية ، أتحبين أن أرعى لك أو أُصرِّح[3] ؟ فربما قالت : ارعَ ، وربما قالت : صرّح ، فأيُّ ذلك قالته فعل !

فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها ، ونظر في أمره ، فقال : لا والله ما تُصلِح أمورَ الناس التجارةُ ، وما يُصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ، ولا بدّ لعيالي مما يُصلحهم .

فترك التجارة ، واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ، ويحجّ ويعتمر . وكان الذي فرضوا له في كل سنةٍ ستةَ آلاف

---

(١) رداء ممشّق : أي ممزّق .

(٢) المنائح : جمع منيحة ، والأصل في المنيحة أن يجعل الرجل لبن شاته أو ناقته لآخرَ سنةً .

(٣) أصرّح : أحلُب ؟

درهم ، فلما حضرته الوفاة ، قال : رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وإنّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ، فدُفع ذلك إلى عمر ولَقوحاً[1] وعبداً صيقلاً[2] ، وقطيفةً ما تساوي خمسةَ دراهم ، فقال عمر : لقد أتعب مَن بعده[3] .

***

واشتهر أبو بكر في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات في الخطوب ، والانتصار للحق .

بلغه عن أبي سفيان بن حرب أمر ، فأحضره وأقبل يَصيح عليه ، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له . وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر . فقال لقائده : على مَن يصيح ابني ؟ فقال له : على أبي سفيان . فدنا من أبي بكر وقال له : أعَلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله ، وقد كان بالأمس سيدَ قريش في الجاهلية ؟ لقد تعديت طورك وجُزت مقدارك ! فتبسم أبو بكر ومَن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال له يا أبتِ إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذلّ به آخرين[4] .

ولم يكد ينهض بأعباء الخلافة حتى ارتدّت العرب عن الإسلام ومنعت الزكاة إلا أهلَ المدينة ومكة والطائف فجرّد عليهم الجيوش حتى قمعهم وأعادهم إلى الإسلام ، وساقهم توّاً إلى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم ، وتستولي على حصونهم ومدائنهم وتنشر الإسلام في ربوعها .

كذلك اشتهر بالتواضع والزهد مقتدياً في ذلك برسول الله ﷺ ، حتى كان إذا مُدِح يقول : « اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي

---

(١) اللقوح : الناقة الحلوب . (٢) الصيقل : شحّاذ السيوف وجَلّاؤها .

(٣) الطبري : ج ٣ ص ٤٣١ — ٤٣٣ . (٤) مروج الذهب للمسعودي : ج ٢ ص ٣٠٦ .

منهم . اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون » .

وقدم اليه زعماء العرب وملوك اليمن وعليهم الحُلل والحِبَر وبُرود الوشي المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنُسك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ، ونزعوا ما كان عليهم !

وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملكُ حِمْير ، ومعه ألفُ عبدٍ دون مَن كان معه من عشيرته ، وعليه التاج والحلل الموشاة ، فلما شاهد هيئة أبي بكر وحالته ، ألقى ما كان عليه وتزيّى بزّيه ، حتى إنه رُئيَ يوماً في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته لذلك وقالوا له : قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ! فقال : أفأردتم مني أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام ؟ لا هَا الله ، لا تكون طاعة الربّ إلا بالتواضع له والزهد في هذه الدنيا[1] .

وكان أبو بكر كريم اليد كثير البذل حتى لقد أنفق كل ثروته على رسول الله وفي سبيل الله . قال رسول الله : « ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر » .

وكان يُسمّى الأوّاه لرأفته وشدة مراقبته لنفسه ، كذلك كان معروفاً بين الصحابة بالعلم ، والتفقّه في الدين ، والفصاحة ، وأصالة الرأي ، وصِدْق الفراسة ، ودقة الفهم ، وذكرت عائشة أنه لم يقل بيت شعر في الإسلام حتى مات ، وأنه كان قد حرّم الخمر في الجاهلية هو وعثمان .

هذه لمحة عن علمه وخُلُقه وسجاياه . أما عن صفاته الخِلقيّة فيروي شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه عن

---

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٠٥ .

عائشة رضي الله تعالى عنها أنها نظرت إلى رجل من العرب مَرّ وهي في هودجها فقالت : ما رأيت رجلاً أشبه بأبي بكر من هذا ، فقلنا لها: صفي أبا بكر. فقالت : رجل أبيض نحيف خفيف العارضين ، أجْنَأ[١] لا يستمسك إزاره ، يسترخي عن حَقْوَيه[٢] ، معروق الوجه[٣] ، غائر العينين ، ناتئ الجبهة ، عاري الأشاجع[٤] .

وحدّث علي بن محمد المدائني عن صفاته الجسمية أيضاً فقال : إنه كان أبيض يخالطه صفرة ، حسنَ القامة ، نحيفاً أجنأ ، رقيقاً عتيقاً ، أقنى[٥]، معروق الوجه ، غائر العينين ، حَمْش[٦] الساقين ، ممحوص[٧] الفخذين ، يخضب[٨] بالحنّاء والكتَم[٩] .

* * *

وقد ظل أبو بكر منذ إسلامـــه وفي خلافته مجاهداً في سبيل الله داخل الجزيرة وخارجها ، عاملاً على توحيد كلمة العرب ، وإعلاء شأن الإسلام ، وإرسال الجيوش تلو الجيوش من المسلمين لفتح الممالك والأمصار ونشر رسالة التوحيد فيها ، ولم يُقعدْه عن كل ذلك إلا مرضُه الأخير.

وقد اختُلِف في سبب هذا المرض الذي انتهى بوفاته . حدّث عليُّ ابن محمد المدائني عمن حدّث عنهم أنهم قالوا : وكان سبب وفاتــه – أبي

---

(١) الأجنأ : الأحدب .

(٢) الحقو : الخصر .

(٣) معروق الوجه : قليل لحم الوجه .

(٤) الأشاجع : عروق ظاهر الكف .

(٥) أقنى : أي طويل الأنف ، دقيق أرنبته ، مع حدب في وسطه .

(٦) حَمْش الساقين : دقيقهما .

(٧) ممحوص الفخذين : قليل لحمهما .

(٨) يخضب : يصبغ شيبه بحمرة أو صفرة .

(٩) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٤ ، والكتَم : نبت فيه حمرة يخلط مع الوسمة ويصبغ به الشعر .

بكر – أن اليهود سَمته في أرُزّة ، ويقال في جَذيذة[1] ، وتناول معه الحارث بن كلَدة – وكان طبيباً – منها ، ثم كف وقال لأبي بكر: أكلت طعاماً مسموماً سُمّ سنة . فمات بعد سنة . ومرض خمسة عشر يوماً ، فقيل له : لو أرسلت إلى الطبيب ! فقال : قد رآني . قالوا : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء .

وقال آخرون : كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة ، سنة ثلاثَ عشرةَ ، وكان يوماً بارداً فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس ، ويدخل الناس يعودونه ، وهو يَثقُل[2] كلّ يوم ، وهو نازل في داره التي قطع له رسول الله ﷺ وِجاه دار عثمان ابن عفان ، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه[3] .

وعقَد أبو بكر في مرضته التي توفي فيها لعمر بن الخطاب عَقْدَ الخلافة من بعده . وذكر أنه لما أراد العَقْد له دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال : أخبرني عن عمر . فقال : يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غِلظة .

فقال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقاً . ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمّقته[4] ، فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له أراني الشدة عليه . لا تذكر يا أبا محمد مما قلت شيئاً . قال : نعم .

---

(١) الجَذيذة : شربة من سويق ، وقيل : هي حشيشة تُعمل من السويق الغليظ ، لأنها تُجذّ أي تقطع قطعاً وتُجَش .

(٢) يثقل : يشتد مرضه .

(٣) الطبري : ج ٣ ص ٤١٩–٤٢٠ .

(٤) رمّقته : أدمت النظر اليه .

ثم دعا عثمان بن عفان ، قال : يا أبا عبدالله ، أخبرني عن عمر . قال : أنت أخبر به . فقال أبو بكر : عليّ ذاك يا أبا عبدالله ! قال : اللهم إن علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله .

قال أبو بكر رحمه الله : رحمك الله يا أبا عبدالله ، لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً ، قال : أفعل ، فقال أبو بكر : لو تركتُه ما عَدَوتَك . وما أدرى لعله تاركه ، والخِيرةُ له ألّا يليَ من أموركم شيئاً ، ولودِدت أني كنت خِلواً من أموركم ، وأني كنت فيمن مضى من سلفكم ! يا أبا عبدالله ، لا تَذكرنَّ مما قلت لك من أمر عمر ، ولا مما دعوتك له شيئاً.

ثم أشرف أبو بكر على الناس من كَنيفه[1] وأسماء بنت عُمَيس — زوجته — ممسكته ، موشومةَ اليدين ، وهو يقول : أترضَوْن بمن أستخلفُ عليكم ؟ فإني والله ما ألَوْتُ[2] من جَهد الرأي ، ولا ولَّيت ذا قرابة. وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا[3] .

وحدَّث عبدالله التيمي عن محمد بن عبدالعزيز أن أبا بكر الصديق حين حضرته الوفاة كتب عهده وبعث به مع عثمان بن عفان ورجلٍ من الأنصار ليقرآه على الناس . فلما اجتمع الناس قاما فقالا : هذا عهد أبي بكر فإن تُقرّوا به نقرأه، وإن تنكروه نرجعْه . فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهـــد أبي بكر بن أبي قحافة عند آخرِ عهده بالدنيا خارجاً منها ، وأولِ عهده بالآخرة داخلاً فيهـا ، حيث يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني أمّرت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن عدلَ واتّقى فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدّل وغيّر فالخيرَ أردت ، ولا يعلم الغيبَ إلّا الله[4] .

(١) الكنيف هنا : الساتر .
(٢) ما ألوت : ما قصّرت .
(٣) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٨ .
(٤) العقد الفريد : ج ٤ ص ٢٦٧ .

وحدث القاسم بن محمد بن أبي بكر عن أسماء ابنة عُمَيْس قالت : دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر ، فقال : استخلفتَ على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناسُ منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ! وأنت لاقٍ ربك فسائلُك عن رعيتك . فقال أبو بكر — وكان مضطجعاً — : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال لطلحة : أبالله تفرّقني — أو أبالله تخوّفني ؟ — إذا لقيتُ الله ربي فساءلني ، قلت : استخلفت على أهلك خيرَ أهلك[1] .

وحدث يونس بن عبد الأعلى بسند إلى عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه ، أنــه دخل على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي تُوفي فيه ، فأصابه مهتماً ، فقال لــه عبد الرحمن : أصبحت والحمد لله بارئاً !

فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أتراه ؟ قال : نعم . قال : إني وَلَّيْتُ أمرَكم خيرَكم في نفسي ، فكلكم وَرِمَ أنفُه من ذلك ، يريد أن يكون الأمرُ له دونه ، ورأيتم الدنيا قــد أقبلت ولمّا تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد[2] الديباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذريّ[3] ، كما يألم أحدكم أن ينامَ على حسَك[4] .

والله لأنْ يُقدَّم أحدكم فتضرَب عنقه في غير حَدٍّ ، خيرٌ له من أن يخوض في غمرة الدنيا وأنتم أول ضالٍّ بالناس غداً ، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً . يا هاديَ الطريق ، إنما هو الفجر أو البَجْر[5] .

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٤٣٣ .

(٢) نضائد الديباج : واحدتها نضيدة ، وهي الوسادة .

(٣) الصوف الأذري : المنسوب إلى أذربيجان .

(٤) الحسك : نبات يضرب إلى الصفرة ، وله شوك يسمّى الحسك أيضاً ، وهـو ينبت متفرّقاً على الأرض .

(٥) البجر : الأمر العظيم ، وقوله : « إنما هو الفجر أو البجر » مثال ضربــه لغمرات الدنيا وتحيير أهلها .

فقلت له خفّض عليك رحمك الله ، فإن هذا يَهيضُكَ في أمرك . إنما الناس في أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيتَ فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشيرٌ عليك وصاحبُك كما تحب . ولا نعلمك أردت إلّا الخير : ولم تزل صالحاً مصلحاً ، وأنك لا تأسى على شيءٍ من الدنيا .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أجل ، إني لا آسي على شيءٍ من الدنيا إلا على ثلاثٍ فعلتهنّ وودِدت أني تركتهنّ ، وثلاثٍ تركتهنّ ودِدت أني فعلتهنّ ، وثلاثٍ وددت أني سألت عنهنّ رسول الله ﷺ .

فأما الثلاثُ اللاتي ودِدت أني تركتهنّ ، فودِدت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيءٍ ، وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب [1] ، وودِدت أني لم أكن حرقت الفجاءة [2] السُّلَمي ، وأني كنت قتلته سريحاً [3] أو خلّيتُه نجيحاً [4] . وَودِدت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين — يريد عمر وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً ، وكنت وزيراً .

---

(١) لعله يشير بذلك إلى ما كان بينه وبين فاطمة عندما طالبته هي والعباس بميراثها من رسول الله من أرضه من فدك وسهمه من خيبر . فقد قال لها أبو بكر : « أما إني سمعت رسول الله يقول : لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد في هذا المال . وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفنها عليّ ليلاً ، ولم يؤذِن بها أبا بكر . (انظر في ذلك تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٠٧) .

(٢) الفجاءة السُّلمي : هو إياس بن عبدالله بن عبد ياليل من بني سُليم . جاء إلى أبي بكر مدعيا الإسلام وطلب منه أن يعينه بالسلاح ويأمره بمن شاء من أهل الرّدة ، فأعطاه سلاحاً وأمره أمره : ثم انتهى إلى أبي بكر من يقين الخبر أن عدو الله قد استعرض الناس : المسلم والمرتد يأخذ أموالهم ، ويقتل من خالفه منهم . ولما بلغ ذلك أبا بكر أرسل إلى طُرَيفة بن حاجز يأمره أن يجمع له ويسير اليه ففعل ، ولما اقتتل الجمعان هرب الفجاءة فلحقه طُريفة فأسره وقدم به على أبي بكر ، فقال : اخرج به إلى هذا البقيع فحرّقه فيه بالنار ، فخرج به طريفة إلى المصلى فأوقد له ناراً فقذفه فيها . (الطبري : ج ٣ ص ٢٦٤ – ٢٦٥) .

(٣) قتلته سريحاً : أي قتلاً سهلاً لا مُثْلة فيه ولا تنكيل .

(٤) خليته نجيحاً : لعله يعني تركته مضيقاً عليه في حياته يستنجح الحاجات ويستنجزها .

وأما اللاتي تركتهن، فوددت أني يوم أتيت بالأشعث[1] بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه، فإنه تخيل إليّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه. ووددت حين سيّرت خالد بن الوليد إلى أهل الرِّدة كنت أقمت بذي[2] القَصّة، فإن ظفر المسلمون ظفروا، وإن هُزموا كنت بصدد لقاء أو مدد. ووددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجّهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يديّ كلتيهما في سبيل الله — ومد يديه —.

ووددت أني كنت سألت رسول الله ﷺ: لمن هذا الأمر؟ فلا يُنازَعُه أحد. ووددت أني كنت سألته: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددت أني كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعَمّة، فإن في نفسي منها شيئاً[3].

فأبو بكرٍ الأمينُ مع نفسه ولدينه لا يفوته وهو في مرضه الأخير أن يراجع صحيفة أعماله وأن يعترف في أسىً بأمور فعلها وكان يتمنى لو تركها، وأمور تركها وكان يتمنى لو فعلها. وأمور وَدّ لو سأل الرسول عنها!

***

وروى القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت

(١) هو الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندي، تزوج الرسول أخته قُتيلة بنت قيس، وتوفي عنها قبل أن يدخل بها فارتدت عن الإسلام مع أخيها الأشعث، وكان له في حروب الردة مواقف كثيرة ضد المسلمين، ولما أتي به أسيراً إلى أبي بكر قال له: ماذا تراني أصنع بك، فإنك قد فعلت ما فعلت! قال: تَمُنّ علي فتفكني من الحديد وتزوجني أختك أم فروة، فإني قد راجعت وأسلمت. فقال أبوبكر: قد فعلت وزوجه أخته التي كان قد خطبها عند مقدمه على الرسول. فكان بالمدينة حتى فتح العراق. (الطبري: ج ٣ ص ٣٣٩).

(٢) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً. وبه نزل أبو بكر في خلافته لما وجه خالد بن الوليد لقتال أهل الردة (انظر معجم البلدان).

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٤٢٩–٤٣١.

على أبيها في مرضه الذي مات فيه ، فقالت له : يا أبتِ اعهد إلى خاصّتك ، وأنفذ رأيك في عامّتك ، وانقل دار جَهازك إلى دار مُقامك .

إنك محضور[1] ومتصل بقلبي لوعتك ، وأرى تخاذل أطرافك وانتقاع لونك ، فإلى الله تعزيتي عنك ، ولديه ثوابُ صبري عليك ، أرقأ فلا أرقأ[2] وأشكو فلا أشكى .

فرفع رأسه فقال : يا بُنية ، هذا يوم يُخَلّي لي فيه عن غطائي ، وأشاهد جزائي ، إنْ فرحاً فدائم ، وإنْ ترحاً فمقيم . إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة ، والحذر تفريطاً . فشهيدي اللهُ ما كان بقلبي إلا إياه ، فتبلّغت بصَحْفتهم[3] ، وتعللتُ بدرّة لِقحتهم[4] ، وأقمت صلاي[5] معهم ، لا مختالاً أشِراً ، ولا مكابراً بطِراً ، لم أعْدُ سَدّ الجَوْعة ، وتورية[6] العورة ، من طوىً ممغص[7] تهفو منه الأحشاء ، وتجب[8] له الأمعاء ، واضطررت إلى ذلك اضطرار الجَرِض[9] إلى الماء المعيف[10] الآجن .

فإذا أنا مت فردّي صحفتهم وعبدَهم ولِقحتهم ورحاهم ودِثارةً ما فوقي اتقيت بها أذى البرد ، ووِثارةً ما تحتي اتقيت بها أذى الأرض ، كان حشْوُها قِطَعَ السّعَف .

---

(١) المحضور : الذي دنا أجله .

(٢) أي أسكّن نفسي فلا تسكن .

(٣) تبلّغ بالشيء : اكتفى به . والصحفة : وعاء كالقصعة .

(٤) الدّرة : اللبن . واللقحة : الناقة الحلوب .

(٥) الصّلا : وسط الظهر من كل إنسان ومن كل ذي أربع. وإقامة صلاه : كناية عن مساواته بينهم وبين نفسه .

(٦) تورية العورة : أي سترها .

(٧) الطوى المغص : الجوع الموجع .

(٨) تجب : تضطرب .

(٩) الجرِض : الذي يبتلع ريقه بجهد .

(١٠) المعيف : المكروه .

وجاء في «العقد الفريد» أن عائشة قالت وأبوها يُغَمَّض :

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

فنظر اليها كالغضبان ، وقال : ذلك رسول الله ﷺ ثم أغميَ عليه ، فقالت :

لعمرُك ما يُغني الثَّراء عن الفتى
إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فنظر اليها كالغضبان ، وقال : قولي : «وجاءت سكرةُ الموتِ بالحق ذلك ما كنتَ منه تَحيد» ثم قال : انظروا مُلاءتيّ فاغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت !

ودخل عليه عمر فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ ، لقد كلّفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصَباً . فهيهات مِن شقّ غبارك ، فكيف باللحاق بك ؟[1] .

وتمثّل أبو بكر في مرضه الذي تُوفي فيه بقول عَبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذي إبلٍ موروثُ وكلُّ ذي سَلَبٍ مسلوبُ
وكلُّ ذي غيبةٍ يَئوب وغائب الموت لا يئوب[2]

• ومن مأثور كلماته قوله لخالد بن الوليد : «احرص على الموت تُوهب لك الحياة[3]» .

• وكان آخر دعائه في خطبته : اللهم اجعل خيرَ زماني آخِرَه ، وخيرَ عملي خواتِمَه ، وخيرَ أيامي يومَ لقائك[4] .

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٣٢ .
(٢) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٣ .
(٣) رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ٣٧٧ .
(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٢٢ .

• وكان آخرُ ما تكلم به : ربّ « تَوَفّني مُسْلِماً وألحِقْني بالصّالحين[1] ».

• وحينما نُعي إلى والده أبي قحافة في مكة قال : رُزْءٌ جليل ![2].

***

وتوفي أبو بكر الصديق خليفةُ رسول الله مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثَ عشرةَ من الهجرة ، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

وقد دُفن كما أوصى إلى جنب النبي في الليلة التي توفي فيها ، وحُمِل على السرير الذي حُمل عليه رسول الله ﷺ ، وصلّى عليه عمر في مسجد الرسول ، ودخل قبره عمرُ ، وعثمان ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن أبي بكر[3] .

ولما قُبِض ارتجّت المدينة بالبكاء عليه ، ودَهِش القوم كيوم قُبِض رسول الله ، وجاء علِيّ بن أبي طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر . كنت والله أوّل القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدّهم يقيناً ، وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله ﷺ ، وأحرَبَهم [4] على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبهَهم برسول الله ﷺ ، خُلُقاً وفضلاً وهدْياً وسَمْتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً .

صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس ، وواسيتَه حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، سمّاك الله في كتابه صدّيقاً فقال : « والذي جاء بالصِّدق وَصدّق به » يريد محمداً ويريدك .

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٢٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٢٠ – ٤٢٢ .

(٤) أحربهم على الاسلام : أي أشدّهم غضباً للإسلام ، من حَرِب الرجل يحرَب حَرَبًا : اشتد غضبه .

كنت والله للإسلام حصناً ، وعلى الكافرين عذاباً ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك . كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تُزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله : ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، قليلاً على الأرض ، كثيراً عند المسلمين .

لم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قويٌّ حتى تأخذ الحق له . فلا حرَمنا الله أجركَ ، ولا أضلّنا بعدك[1] .

وكان وداع عائشة له مؤثراً حقاً ، فقد وقفت على قبره حين دفْنه تَرثيه بهذه الكلمة التي أجملت رأيها فيه عن حق وصدق .

قالت : نضّر الله وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مُذِلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزّاً بإقبالك عليها .

ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزْؤك ، وأعظمَ المصائب بعده فقدُك ، فإن كتاب الله ليَعِدُ بحُسْن الصبر عنك حُسْنَ العِوَض منك . وأنا استنجز موعودَ الله فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك .

أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا ، لقد قمت بأمر الدين لمّا وَهَى[2] شعبه ، وتفاقم[3] صدعه ، ورجفت[4] جوانبه .

فعليك سلام الله توديــع غير قاليةٍ[5] لحياتك ، ولا زاريةٍ[6] على القضاء فيك[7] .

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٤٠ – ٢٤١ .
(٢) وَهَى شعبه : تفرق شمله .
(٣) تفاقم صدعه : اتسع كسره .
(٤) رجفت جوانبه : اضطربت .
(٥) قالية : مُبغضة .
(٦) زارية : عائبة .
(٧) زهر الآداب : ج ١ ص ٣٩ .

وَرَوَى عمرو بن عثمان عن عائشة أنه بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها ، فأرسلت اليهم ، فلما حضروا قالت : إن أبي والله لا تعطوه الأيدي[1] ، طودٌ مُنيف ، وظلٌ ممدود ، أنجحَ إذ أكديتم[2] ، وسبق إذ وَنَيْتُم « سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ[3] » .

فتى قريش ناشئاً ، وكهفُها[4] كهلا ، يفُكُّ عانيَها ، وَيَرِيش مملقَها[5] ، ويرأب صَدعَها ، ويلُمُّ شعَثَها . فما برحت شكيمته[6] في ذات الله تشتد ، حتى اتخـــذ بفنائه مسجداً يُحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان وَقيذ الجوانح[7] ، غزير الدَّمعة ، شجيَّ النشيج .

وأصفقت[8] اليه نسوانُ مكة وولدانُها يسخرون منه ويستهزئون به ، والله يستهزىء بهم ويَمدُّهم في طُغيانهم يَعْمَهون ، وأكبرت ذلك رجالات قريش ، فما فلُّوا له صفاةً ، ولا قصفوا قناةً ، حتى ضرب الحقُّ بجرانه[9] ، وألقى بَرْكَه[10] ، ورست أوتاده .

فلما قبض الله نبيَّه ضرب الشيطانُ رُواقه ، ومدَّ طُنُبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ، فقام الصدِّيق حاسراً مشمراً . فردَّ نَشْرَ الإسلام على غَرِّه ، وأقام أَوَده بثقافه ، فأبذعرَّ[11] النفاق بوطئـــه ، وأنتاش[12] الناس بعدله ، حتى أراح الحق على أهله ، وحقَنَ الدماء في أهُبها[13] .

---

(١) لا تعطوه : لا تبلغه .
(٢) أنجح : أي أعطى ، وأكدى : منع .
(٣) أي إذا بلغ الغاية .
(٤) الكهف : الملجأ .
(٥) يريش مملقها : أي يصلح حاله .
(٦) الشكيمة هنا : العزيمة .
(٧) وقيذ الجوانح: أي محزون القلب.
(٨) أصفقت اليه : اجتمعت .
(٩) أي حتى ثبت الحق واستقر .
(١٠) البرك من البعير : صدره .
(١١) أبذعرَّ : تفرق وتبدد .
(١٢) انتاش الناس : انتشلهم وأنهضهم .
(١٣) كنتْ عائشة بكل هذه الفقرة عن ارتداد بعض العرب عن الإسلام عقب وفاة النبي ، ومحاربة أبي بكر لأهل الردة حتى أعادهم إلى الإسلام .

ثم أتته منيَّته، فسدَّ ثُلمتَه نظيرُه في المرحمة، وشقيقُه في المعدلة، ذلك ابن الخطاب. لله درُّ أمٍّ حفَلت له، ودَرَّتْ عليه. ففتح الفتوح، وشرَّد الشرْك، وبعجَ[1] الأرض، فقاءتْ[2] أُكُلَها، ولفظتْ جَناها، ترأمه ويأباها، وتريده ويَصدِف عنها، ثم تركها كما صحِبَها.

فأرُوني ما ترتابون؟ وأيَّ يومَيْ أبي تنقمون؟ أيومَ إقامته إذ عدلَ فيكم، أم يومَ ظَعْنه[3] إذ نظر[4] لكم؟ أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم[5].

وبسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر كان يُضرب المثل، إذ لا عهد بمثلها بعد النبي ﷺ.

وكان عبد الملك بن مروان يقول: «أنصفونا يا معشر الرعيّة! تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كُلًّا على كُلٍّ[6]».

***

نساء أبي بكر وأولاده:

حدَّث عليُّ بن محمد المدائني عمَّن حدَّث قال:

- تزوج أبو بكر في الجاهلية «قُتَيْلة» ابنة عبد العُزَّى بن عبد بن أسعد ابن جابر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤيّ، فولدت له عبدالله، وأسماء.

---

(١) بعَج الأرض: شقها وأذلها، وكنَت عائشة بذلك عن فتوح عمر.

(٢) قاءت أكُلها: أي أظهرت نباتها وخزائنها وخيراتها.

(٣) يوم ظَعْنه: يوم رحيله عن الدنيا.

(٤) أرادت عائشة بنظره لهم: عهدَه بالخلافة إلى عمر.

(٥) العقد الفريد: ج ٤ ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٦) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي: ص ٨٥.

• وتزوج أيضاً في الجاهلية « أمّ رومان »[1] بنت عامر بن عميرة بن ذُهْل بن دُهمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، فولدت له عبد الرحمن وعائشة .

فكل هؤلاء الأربعة من أولاده ، ولدوا من زوجتيه اللتين سميناهما في الجاهلية .

• وتزوج — أبو بكر — في الإسلام أسماءَ بنت عُمَيْس ، وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب . وهي أسماء بنت عُميس بن معْد التيميّة ، فولدت له محمد بن أبي بكر .

• وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير ، من بني الحارث بن الخزرج ، وكانت نسْأً[2] حين توفي أبو بكر ، فولدت له بعد وفاته جارية سُمّيَتْ « أمُّ كلثوم »[3] .

وعلى هذا فأولاد أبي بكر الصديق ثلاث إناث هنّ عائشة ، وأسماء ، وأم كلثوم ، وثلاثة ذكور هم : عبدالله ، ومحمد ، وعبد الرحمن .

وفيما يلي تراجم لآل أبي بكر هؤلاء : بادئين بترجمة أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ...

---

(١) كانت أم رومان تحت عبدالله بن الحارث بن سَخْبرة ، فولدت له الطفَيْل بن عبدالله بن الحارث ، ولما مات زوجها عبدالله تزوجها أبو بكر ، فكان الطفيل أخا عائشة وعبدالرحمن لأمها وقد أسلمت أم رومان وبايعت وهاجرت وتوفيت سنة ست (الإصابة لابن حجر : ج ٤ ص ٤٢٢) .

(٢) النسء : المرأة التي يُظَنّ بها الحمل ؛ وقيل : التي ظهر حملها .

(٣) انظر تاريخ الطبري في نساء أبي بكر وأولاده : ج ٣ ص ٤٢٥-٤٢٦ .

عائشة أم المؤمنين

هي الصدّيقة بنت الصدّيق، العتيقة بنت العتيق، البريئة المبرّأة في كتاب الله، حبيبة حبيب الله، وزوجة رسول الله، عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

والدها أبو بكر الصديق، وهو من هو إسلاماً وإيماناً، وفقهاً وعلماً، وزهداً وتواضعاً، وصدقَ صحبةٍ لرسول الله.

وأمها «أمُّ رومان» التي أثر عن الرسول قوله فيها حين دفنها: «من سرّه أن يرى امرأة من الحور العِين فلينظر إلى أمّ رومان[1]».

قيل: إن رسول الله تزوج عائشة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة خديجة، وهي ابنة ست سنين أو سبع، وبَنى بها بعد أن هاجر إلى المدينة بثمانية أشهر، وقيل: بسبعة أشهر، في شوال، ثم توفي عنها وهي ابنة ثمان عشرة، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرَها.

وروى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأيُّ نساء رسول الله كانت أحظى عنده مني! وكانت عائشة تستحب أن يُدخَل بالنساء في شوال[2].

وحدّث يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عائشة أنها قالت: لما توفيت خديجة، قالت خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص، امرأةُ

---

(١) الإصابة: ج ٤ ص ٤٣٢

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٣٩٨—٣٠٠، والطبري: ج ٣ ص ١٦٤.

عثمان بن مظعون وذلك بمكة : أيْ رسولَ الله ، ألا تَزوّج ؟ فقال : ومَن ؟ فقالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . فقال : فمن البكر ؟ قالت : ابنة أحب خلق الله اليك عائشةُ ابنـة أبي بكر . قال : ومن الثيِّب ؟ قالت: سودة بنت زمعة بن قيس ، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه.

قال : فاذهبي فاذكريها علَـيَّ. فجاءت فدخلت بيت أبي بكر ، فوجدت أمّ رومان ، أمّ عائشة ، فقالت : ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة .

قالت : ودِدت ! انتظري أبا بكر . فإنه آتٍ ، فجـاء أبو بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . قال : وهل تصلح له ؟ إنما هي ابنة أخيه !

فرجعتْ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له ذلك ، فقال : ارجعي اليه ، فقولي له : أنت أخي في الإســلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي . فأتت أبا بكر فذكرت ذلك له ، فقال لها : انتظريني حتى أرجع .

فقالت أم رومان : إن المُطعم بن عديّ كان ذكرها — عائشة — على ابنه ، ولا والله ما وعد شيئاً قطُّ فأخلف.

فدخل أبو بكر على مُطعم ، وعنده امرأته أمُّ ابنه الذي كان ذكرها عليه . فقالت العجوز : يا ابن أبي قحافة ، لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تَصبئه[1] وتُدخلـه في دينك الذي أنت عليه ! فأقبل — أبو بكر — على زوجها المطعم ، فقال : ما تقول هذه ؟ فقال : إنها تقول ذاك .

قال : فخرج أبو بكر ، وقد أذهب الله العِدَة التي كانت في نفسه من عِدَته التي وعدها إياه ، وقال لخولة : ادعي لي رسول الله ، فدعته فجاء فأنكحه ، وهي يومئذ ابنةُ ست سنين ...

---

(١) تصبئه : ترده عن دينه .

قالت عائشة : فقدمنا المدينة فنزل أبو بكر السُّنُح في بني الحارث ابن الخزرج ، قالت : فجاء رسول الله فدخل بيتنا ، فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء . فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عَذقين[1] يُرجَح بي ، فأنزلتني وقد وفت جُميمة[2] كانت لي ، ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني ، حتى إذا كنت عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفَسي ، ثم أدخِلت ورسولُ الله جالس على سرير في بيتنا .

قالت : فأجلستني في حِجره ، فقالت : هؤلاء أهلك ، فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك ! ووثب القوم والنساء ، فبنى بي رسول الله في بيتي ، ما نُحرت جَزورٌ ، ولا ذُبحت شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله ﷺ[3] .

وحبُّ الرسول لزوجته عائشة أمر متواتر مُجْمَع عليه . فهي تَروي أنها كانت أحظى نسائه عنده ، وعمرو بن العاص يسأل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فيقول : عائشة . والزُّهري يروي عن أنس قوله : أولُ حُبٍّ كان في الإسلام حُبُّ النبي ﷺ لعائشة .

وروى الزبير عن عائشة أنها قالت : قلت يا رسول الله : كيف حُبُّك لي ؟ قال : « كعُقْدَةِ الحَبْل » ، فكنت أقول : كيف عقدة الحبل يا رسول الله ؟ فيقول : « هي على حالها » .

وروى الزبير عنها أيضاً أنها قالت : كان رسول الله يَخْصِفُ[4] نعلَه وكنت أغزل . قالت فنظرت إلى رسول الله فجعل جبينه يَعرَق وجعل عَرَقُه يتولّد نوراً ، قالت : فبُهِتُّ . قالت : فنظر إليّ فقال : « ما لكِ بُهِتِّ ؟ فقلت : يا رسول الله ، نظرت اليك فجعل جبينك

---

(١) العَذق : كل غصن له شُعب ، وهو أيضاً : النخلة عند أهل الحجاز .

(٢) الجميْمة : تصغير الجُمّة ، وهي مجتمع شعر الرأس ، وقيل : ما سقط من شعر الرأس على المنكبين ، ووفت الجميمة : كثر شعرها . (٣) الطبري : ج ٣ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٤) يخصف النعل : يضمُّ بعضها على بعض ويخرزها .

كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيِّباً . قالت : أيضاً ؟ قال : هلكتْ قلادتك بالأبواء فأصبح رسول الله ﷺ يلتقطها ، فلم يجدوا ماء ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ « فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً » . فكان ذلك بسببك وبركتك ما أنزل الله تعالى لهذه الأمة من الرُّخْصَةِ .

وكان من أمر مِسْطَح ما كان فأنزل الله تعالى براءتَك من فوق سبع سماواته ، فليس مسجد يُذكَر الله فيه إلَّا وشأنك يُتلَى فيه آناءَ الليل وأطراف النهار .

فقالت يا ابن عباس : دَعْني منك ومن تزكيتك . فواللهِ لودِدْتُ أني كنتُ نَسْياً مَنْسِيًّا .

***

ذكر المدائني عن سفيان بن عُيَيْنة عن هشام بن عروة أن عائشة توفيت سنة سبع وخمسين . وقيل إنها توفيت سنة ثمان وخمسين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، ولها من العمر ست وستون سنة . ودفنت - كما أرادت - بالبقيع ليلاً ، فلم تُرَ ليلةٌ أكثرَ ناساً منها ، وصلَّى عليها أبو هريرة ، ونزل قبرها خمسة : عبدالله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر ، وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن أبي عتيق محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر .

تلك بعض جوانبَ من حياة فقيهة نساء الأمة ، أمِّ المؤمنين عائشة ، الصِّدِّيقةِ بنت الصدِّيق ، العتيقة بنت العتيق ، البريئة المبرَّأة في كتاب الله ، حبيبة حبيب الله ، وزوجة رسول الله . رضي الله عنها[1] .

---

(١) يرجع في كثير من الأخبار الواردة في هذه الترجمة إلى : كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : ج ٤ ص ٣٤٨ ، وكتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبي على هامش الإصابة : ج ٤ ص ٣٤٥ ، وكتاب حلية الأولياء للحافظ الأصبهاني : ج ٢ ص ٤٣ ، والنجوم الزاهرة : ج ١ ص ١٥٠ .

الفصل الثالث

أسماء ذات النطاقين

هي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وُلِدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة ، وأمُّها هي وأخيها عبدِالله بن أبي بكر قُتَيْلَةُ بنت عبد العُزَّى العامريةُ القرشية .

أسلمت أسماء قديماً بمكة بعد إسلام سبعة عشر إنساناً ، وتزوجها الزبير بن العوام بمكة ، ثم هاجرت إلى المدينة وهي حامل بولده عبدالله فوضعته بقُباء ، وطلقها الزبير بن العوام بعد أن ولدت له عدة أبناء ، وظلت بعد طلاقها مقيمةً بمكة مع ابنها عبدالله حتى قُتِل .

ورَوَى عنها ابنها عروة أنها قالت : « تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك غير فرسِه ، فكنت أعلِف فرَسَه وأكفيه مؤونته وأسُومه . . . حتى أرسل إليّ أبو بكر بعد ذلك خادماً فكَفَتْني[1] سياسة الفرَس » .

وكانت أسماء تُسمَّى « ذات النّطاقين » . وسبب هذه التسمية أن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج والهجرة إلى المدينة صنعت أسماء سُفرَتَه[2] في بيت أبي بكر ، فقال لها أبوها : إبغيني مِعلاقاً[3] لسُفرة رسول الله وعصاماً لِقربته ، فقالت : ما أجد إلّا نطاقي ، فقال : هاتيه ،

---

(١) كفتني : صرف عني .

(٢) السفرة في الأصل : طعام يتخذه المسافر ، ثم أطلق مجازاً على جلد مستدير يحمل فيه هذا الطعام ، وتطلق أيضاً على ما يبسط ليؤكل عليه .

(٣) المعلاق : ما يُعلق به الإناء أو الوعاء .

فشقّته نصفين، فجعل أبوها أحدَهما مِعلاقاً للسفرة، والآخر عصاماً[1] لقربة الماء. لذلك سماها رسول الله « ذات النّطاقين ».

وقال الزبير إن الرسول لما رأى ذلـك منها قال لها: « أبدلك الله عزّ وجلّ بنِطاقك هذا نطاقين في الجنة ». فقيل لها: « ذات النطاقين ».

ولما بلـغ ابنَ الزبير أن الحجاج يُعَيِّره بذات النطاقين أنشد قول أبي ذؤيب الهُذَلِيّ متمثّلا:

وَعيَّرها الواشون أني أُحِبُّهـا
وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عَارُها[2]

فإن أعتذرْ عنهـا فإني مُكَذَّبٌ
وإنْ تعتذرْ يُرْدَدْ عليها اعتذارها[3]

وَرَوَى عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء أنها قالت: لما خرج رسول الله وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر مالَه كلَّه معه، خمسةَ آلاف أو ستة آف درهم، فانطلق بها معه.

قالت: فدخل عليَّ جَدّي أبو قحافة — وقد ذهب بصره — فقال: والله إني لأراه قـد فجعكم بماله مع نفسه! قالت: كلّا واللهِ يا أبَتِ! إنه قـد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُـوَّةٍ في البيت كان أبي يضع فيهـا مالَه، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيده فقلت: ضع يدك يا أبي على هذا المال. قالت: فوضع يده فقال: لا بأس. إن كان قد ترك لكم كلَّ هذا فقد أحسن، ففي هذا لكم بلاغ. قالت: ولا واللهِ ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك.

---

(١) العصام: عصام القربة: حبل أو ما أشبهه تُشَدُّ به.

(٢) ظاهر عنك: أي لا يعلق بك.

(٣) يقول: إن اعتذر من حبها وأقلّ: ما بيني وبينها شيء، فإني مُكذَّب، وإن تعتذر هي تُكذَّب.

وحدّثت أسماء قالت : لما خرج رسول الله وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت اليهم فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي . فرفع أبو جهل يده — وكان فاحشاً خبيثاً — فلطم خدّي لطمة خرّ منها قُرطي ، ثم انصرفوا[1].

وكأختها عائشة أمّ المؤمنين روت أسماء عن غيرها ورُوي عنها . رَوَتْ عن رسول الله عدة أحاديث وردت في الصحيحين والسُّنن .

وروى عنها ابناها عبدالله وعُروة ، وأحفادها : عبّاد بن عبدالله ، وعبدالله بن عروة ، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير ، وعبّاد بن حمزة بن عبدالله ابن الزبير ، ومولاها عبدالله بن كيسان ، وابن عباس ، وصفية بنت شيبة ، وابن أبي مُلَيْكة ، وغيرهم .

وحدث هشام بن عروة عن أبيه قال : دخلت أنا وعبدالله بن الزبير على أسماء قبل قَتل ابن الزبير بعشر ليال وإنها وَجِعَةٌ . فقال عبدالله : كيف تجدينك ؟ قالت : وَجِعَةٌ . قال إن في الموت لعافية[2] . قالت : لعلك تشتهي موتي ، فلذلك تتمناه . فلا تفعل .

فالتفت إليّ عبدالله فضحكتُ ، فقالت : والله ما أشتهي أن أموت حتى يأتي عليّ أحد طرفيك : إما أن تُقتل فأحتسبك ، وإما أن تظفر فتقرّ عيني عليك. وإياك أن تعرض خطة لا توافق ، فتقبلها كراهيةَ الموت .

ودخل عليها عبد الله بعد أن خذله أنصاره مستيئسين من النصر على الحجاج فقال لها : يا أماه ! ما ترين ؟ قد خذلني الناس ، وخذلني أهل بيتي ! فقالت : لا يلعبَنّ بك صبيان بني أمية. عش كريماً أو مت كريماً. فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير ، فجعل يقاتل في شجاعة جيش الحجاج .

(١) الطبري : ج ٢ ص ٣٧٩ — ٣٨٠ .

(٢) إنما عَنَى ابن الزبير بهذه الكلمة أن يُقتَل فيحزنَها ذلك .

ولما ناداه الحجاج ليقبل الأمان ويدخل في طاعة أمير المؤمنين ، دخل على أمه أسماء فقال لها : إن هذا – يعني الحجاج – قد أمّنني . قالت : يا بنيّ ، لا ترْضَ الدنيّة ، فإن الموت لا بد منه . قال : إني أخاف أن يُمثّل بي . قالت : إن الكبش إذا ذُبح لم يأمن السلخ . عندئذ خرج فقاتل قتالاً باسلاً حتى قُتل !

وأقبل عليه الحجاج وهو مثخن بالجراحات لا يستطيع النهوض ، فدعا بالنّطع [1] فحز رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة ، ثم بعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، وصلّبه مُنكّساً .

وعظم الأمر على أمه أسماء – وكان قد ذهب بصرها – فخرجت إلى الحجاج تقتادها بعض جواريها ، فلما دخلت عليه قالت له : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فقال الحجاج : المنافق ؟ فقالت : لا والله ما كان منافقاً ، وإنما كان صوّاماً قواماً . قال : اذهبي فإنك عجوز قد خَرِفت [2]. فقالت : لا والله ما خرفت . سمعت رسول الله يقول : « يخرج في ثقيف كذاب ومُبير . فأما الكذاب فقد رأيناه [3] ، وأما المُبير فأنت هو !

ثم جاء كتاب عبد الملك بن مروان بإنزال ابنها من الخشبة ودفْعه إلى أهله ، فغسّلته أمه أسماء وطيّبته وحنّطته ، ثم دفنته !

وكانت وفاتها بعد ذلك بأيام سنة ثلاث وسبعين ، وقد بلغت مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يُنكَر لها عقل ... ! [4]

---

(١) النّطع : بساط من الأديم ، أي الجلد المدبوغ .

(٢) خَرِفت : فسد عقلك من الكبر .

(٣) المراد بالكذاب هنا : المختار الثقفي . انظر مروج الذهب : ج ٣ ص ١٢٢ .

(٤) ارجع في ترجمة أسماء إلى كتاب « الإصابة » لابن حجر : ج ٤ ص ٢٢٤ ، وإلى كتاب « الاستيعاب » لابن عبدالله القرطبي على هامش الإصابة : ج ٤ ص ٢٢٨ ، وإلى كتاب « حلية الأولياء » للحافظ الأصبهاني : ج ٢ ص ٥٥ ، وإلى العقد الفريد : ج ٤ ص ٤١٤–٤١٩ .

الفصل الرابع

أمّ كُلثوم

هي صغرى بنات أبي بكر الصديق ، تابعية . وأمها حبيبة بنت خارجة الخزرجية ، وضعتها بعد وفاة أبيها .

روت عن أختها عائشة أمّ المؤمنين ، وروى عنها جابر بن عبدالله الأنصاري الصحابي ، وجابر بن حبيب ، وطلحة بن يحيى ، والمغيرة ابن حكيم وغيرُهم .

خطبها عمر بن الخطاب وهي صغيرة ، وأرسل في ذلك إلى عائشة ، فقالت له : الأمر اليك . فلما ذكرتْ ذلك عائشةُ لأم كلثوم قالت : لا حاجة لي فيه .

فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم . إنه خَشِنُ العيش شديدٌ على النساء . فأرسلت عائشة إلى المغيرة بن شُعْبة وقيل إلى عمر بن العاص فأخبرته ، فقال لها : أنا أكفيك .

فأتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني عنك أمر أعيذك بالله منه . قال : وما هو ؟ قال : بلغني أنك خطبت أمّ كلثوم بنت أبي بكر ، قال : نعم . أفرَغِبتَ بها عنّي أم رَغِبتَ بي عنها ؟

قال : لا واحدة منها ، ولكنها حدَثة نشأت تحت كَنَفِ خليفة رسول الله ، وقيل تحت كنف أم المؤمنين[1] في لين ورِفْق ، وفيك

(١) الطبري : ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

غلظة ، ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خُلُق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوتَ بها ! كنت قد خلفتَ أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك .

فقال : فكيف لي بعائشة وقد كلّمتُها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير لك منها ؛ أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب ، من فاطمة بنت رسول الله ، تتعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ [1]

وكان عليٌّ قد عَزَل [2] بناته لولد جعفر بن أبي طالب ، فلقيه عمر فقال : يا أبا الحسن ، أنكِحْني ابنتك أمّ كلثوم بنتَ فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ .

قال : قد حبَسْتُها لابن جعفر . قال : إنه واللهِ ما على الأرض أحد يرضيك من حُسْن صحبتها بما أرضيك به ، فأنكِحْني يا أبا الحسَن. قال : قد أنكحتُكَها يا أمير المؤمنين .

فأقبل عمر فجلس في الروضة بين القبر والمنبر ، واجتمع إليه المهاجرون والأنصار ، فقال زفّوني . قالوا : بِمَن يا أمير المؤمنين ؟ قال : بأم كلثوم ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل سبب ونسَب ينقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسَبي » وقد تقدّمتْ لي صحبة فأحببت أن يكون لي معها سبب [3] .

وإذا كانت أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق قد امتنعت عن زواج أمير المؤمنين عمر لخشونة عيشه وشدته على النساء ، فإنها تزوجت من ابن عمها طلحة بن عُبيدِالله بن عثمان القرشيّ التيميّ ، والذي لقّبه رسول الله « بطلحة الفيّاض » لكثرة ما بذل في سبيل الله

---

(١) الطبري : ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) عزل بناته : حبسهنّ .

(٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ٨٩ — ٩٠ .

وطلحة بن عُبيد الله هذا هو أحد العشرة الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ، وأحد الستة أصحاب الشورَى . شهد غزوة أحُد ، وكان أحَـد الصحابة الذين بايعوا الرسول فيها على الموت حين انهزم المسلمون ، وَوَقَى النبيَّ بنفسه ، واتّقى النَّبْل عنه بيده حتى شُلّت إصبعُه . وظل طلحة يعمل للإسلام ويجاهد في سبيله على حسب معتقده حتى قُتل في موقعة الجمل ، وكان مقتله على يد مروان بن الحكم سنة ست وثلاثين ، وله أربع وستون سنة [١] .

وقد ولدت أم كلثوم لطلحة : ابنه زكريا وابنته عائشة المعروفة بعائشة الصغرى والتي « كانت تشبّه بعائشة أم المؤمنين خالتها » [٢] . وخلف عليها بعد مقتل طلحة عبدُ الرحمن بن أبي ربيعة أخو عمر ابن أبي ربيعة .

واشتهرت ابنتها عائشة بالجمال الفائق في عصرها . مرت ذات يوم في المسجد وعليها مِلحفَة تريد عائشة أمّ المؤمنين فرآها أبو هريرة فقال : سبحان الله ! كأنها من الحور العين ! ووصفها المِسعَر فقال : لم يكن لها شبه في زمانها حُسناً ودماثة وجمالاً وهيئة ومتانة وعفة [٣] .

وكانت عائشة بنت طلحة لجمالها مصدرَ إلهام لبعض شعراء عصرها من أبناء القرشيين . تغزّل بها عمر بن أبي ربيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والحارث بن خالد الذي كان يهواها وأخّر الصلاة في موسم الحج من أجلها حتى فرغت من طوافها ، الأمر الذي أغضب أهل الموسم ، ودعا عبد الملك بن مروان إلى عزله من الولاية على مكة [٤] .

وكان لها معابثات مع بعض الشعراء . قال ابن قتيبة في كتاب الشعراء :

---

(١) الإصابة لابن حجر : ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .
(٢) الأغاني : ج ١١ ص ١٨٠ .
(٣) المرجع السابق : ص ١٨٠ — ١٨٣ .
(٤) الأغاني : ج ٣ ص ٢٠٠ .

بعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله إلى كثيّر : يا ابن أبي جمعة ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في عَزّة وليست على ما تصف من الجمال؟ لو شئتَ صرفت ذلك إلى مَن هي أولى به منها : أنا أو مثلي . وإنما أرادت تجربته بذلك . فقال :

إذا وصلتنا خُلّةٌ كي تُزيلها
أبَيْنا وقلنا : الحاجبيّة أوّلُ(١)

لها مَهَلٌ لا يُستطاع دِراكُه
وسابقةٌ مِلْحُبٌ لا تتحوّلُ(٢)

سَنُوليكِ عُرْفاً إن أردتِ وِصالنا
ونحن لتلك الحاجبيّةِ أوْصَلُ

فقالت : والله لقد سمّيْتَني لك « خُلّةً » وما أنا لك ، وعرضتَ عليّ وِصالك وما أريد ! هلاّ قلتَ كما قال جميل :

يا رُبّ عارضةٍ علينا وصلَها
بالجِدِّ تخلطهُ بقول الهازلِ

فأجبتُها بالرفق بعد تَستّرٍ
حُبّي بُثينةَ عن وصالكِ شاغلي

لو كان في قلبي كقدر قُلامةٍ
وَصَلتُكِ كُتْبي أو أتتْكِ رسائلي(٣)

ورآها ابن أبي ربيعة في طوافه وهي تريد الرُكْنَ تستلمه ، فبُهِتَ لمّا رآها ورأته ، وعلمت أنها وقعت في نفسه ، فبعثت اليه بجارية لها وقالت : قولي له : اتّقِ الله ولا تقل هُجْراً ، فإن هذا مَقام لا بُدّ

---

(١) الخُلّة : بضم الخاء : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع في ذلك سواء .
(٢) المهَل : التقدم في الشرف والفضل ، وملحب : من الحب .
(٣) بلوغ الأرب للألوسي : ج ٣ ص ٢٠٨ .

فيه مما رأيت . فقال للجارية : أقرئيها السلام ، وقولي لها : ابنُ عمك لا يقول إلاّ خيراً . ثم قال فيها شعراً منه :

لعائشة ابنـةِ التيميّ عندي
حِمىً في القلب ما يُرعى حِمَاهَا
يذكّرني ابنـةَ التيميّ ظَبيٌ
يَرود بروضةٍ سهلٍ رُبَاهـا
أظـلُّ إذا أكلّمُهـا كأني
أكلّم حيّةً غلبَتْ رُقاهـا

وتتابعت فيها أشعاره ، فمشى إليه ولدُ أبي بكر وولد طلحة بن عبيد الله وسألوه ألاّ يعرض لها في شعره ، فقال لهم : والله لا أذكرها في شعر أبداً . ثم قال بعد ذلك فيها ، وكنى عن اسمها .

ولقيها مرة بمكة وهي تسير على بغـلة لها ، فقال لها : قِفِي حتى أسمعَكِ ما قلتُ فيك . قالت : أوَ قد قلتَ يا فاسق ؟ قال : نعم ! فوقفت فأنشدها قصيدة منها :

يا ربّةَ البغلةِ الشهباء هل لكمُ ..
في عاشقٍ دَنِفٍ لا تُرهِقي حَرَجَا[1]
قالت : بدائك مُتْ أو عِشْ تُعالِجُهُ
فمـا نرى لـك فيما عندنا فَرَجا
قـد كنتَ جرّعتَني غيظاً أعالجُهُ
فإن تَقِدني فقد عَنّيتَني حِجَجَا[2]
حتى لوَ اَسْطيعُ مما قد فعلتَ بنـا
أكلتُ لحمَكَ من غيظٍ وما نَضِجَا
فقلتُ : لا والذي حجّ الحَجيجُ لَهُ
ما مَحّ حبُّكِ من قلبي ولا نَهَجا[3]

(١) أي لا تحمّليه أكثر من طاقته (٢) إن تَقِدني : إن تقتصّ مني .
(٣) الأغاني : ج ١ ص ١٩٩ – ٢٠٢ . ومحّ الحب ونهج : أخلق وبلي .

وتزوجت عائشة ثلاثة من أقاربها : تزوجت أولاً عبدَ الله ابن خالها عبدِ الرحمن بن أبي بكر ، ثم ثنّت بمصعب بن الزبير ، وهو ابن خالتها أسماء ذاتِ النطاقين ، ثم خلف عليها من بعده ابن عمٍّ لها ، هو عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان القرشيّ التيميّ ، أحد أجواد قريش . وقد أقامت معه ثماني سنوات ، ثم مات عنها سنة اثنتين وثمانين ، فتأيّمَتْ بعده ، تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، ومن حين لآخر تخرج إلى مال لها بالطائف عظيم ، وإلى قصر لها هناك ، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيّات فتتناضل بين الرُّماة [1] . وكانت وفاتها سنة ثلاث وعشرين ومائة [2] .

***

ولعل خير ما نُنهي به ترجمة بنات أبي بكر الصديق تلك الكلمة الدالة على قوة شخصيّتهنّ بالقياس إلى شخصية إخوتهنّ . قال الثعالبيّ : « كان يقال : لو كان أبناء أبي بكر كبناته لَعَزَّ على عمرَ نيلُ الخلافة ، لأن عائشةَ صاحبةُ يوم الجمل ، وأسماءَ هي التي حضَّتْ ابنها عبد الله بن الزبير على صدق القتال والجِدِّ في المكافحة والتحصُّن بالكعبة . ولما قال لها عبد الله وقد اشتد به الأمر في محاصرة الحجاج إياه : يا أمّ ، إني لا أخاف الموت ، ولكني أخاف المُثْلَة ، قالت : يا بُنيّ ، إنّ الشاة المذبوحة لا تأْلَم للسلخ ، فسار قولها مثلاً ... [3] » .

ونحن نضيف إلى ذلك شجاعة أمّ كلثوم وصراحتها حين أبتِ الزواج من عمر بن الخطاب ، لا لشيء الاّ لأنه في نظرها خَشِنُ العيش ، شديدٌ على النساء !

(١) الإصابة : ج ٢ ص ٢٢٠ ، ٣٣٣ ، ٤٣٢ . وانظر كذلك الأغاني : ج ١١ ص ١٩٠ .
(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩٠ .
(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي : ص ٢٩٤ .

الفصل الخامس

عبد الله بن أبي بكر

هو عبدالله بنُ أبي بكر الصديق بنِ أبي قحافة عثمانَ بنِ عامر القرشيّ التيميّ، شقيقُ أسماءَ ذاتِ النطاقين، وأمها قُتيلة ابنة عبد العُزّى القرشية.

وعبدالله صحابيٌّ ثبتَ ذكره في قصة الهجرة عن عائشة، إذْ قالت: وكان عبدالله بن أبي بكر يأتيهما – الرسول وأبا بكر – بأخبار قريش، وهو غلام شاب فطِن، فكان يبيت عندهما ثم يخرج من السَّحَر، فيُصبح مع قريش.

وذكر الطبري في تاريخه أن عبدالله بن أُرَيْقط، الذي كان دليلَ النبي لما رجع إلى مكة بعد وصول النبي إلى المدينة، أخبر عبدالله بن أبي بكر الصديق بوصول أبيه إلى المدينة، فخرج عبدالله بعيال أبي بكر ومعهم طلحة بن عبيد الله حتى قدموا المدينة.

وشهد عبدالله فتح مكة وحُنَيْناً والطائف. وذكر أصحاب المغازي أنه رُمي بسهم فجُرِح، رماه به أبو مِحجن الثقفي فيما ذكر الواقديّ، ثم اندمل جرحه، ثم انتقض به فمات في خلافة أبيه سنة إحدى عشرة، وبعد وفاة رسول الله بأربعين ليلة. وقد صلى عليه أبوه، ونزل في قبره عمر وطلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر، وكان يُعَدُّ من شهداء الطائف، وخلّف سبعة دنانير فاستكثرها أبوه. هذا ولا عقِب لعبدالله[1].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٠٦.

وقد أورد أبو الفرج الأصبهاني خبر زواج عبدالله من عاتكة النُّفَيْلِيَّة مَرْوِيّاً عن بعض الرواة فقال :

« تزوج عبدالله بن أبي بكر الصديق من عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نُفَيْل ، وكانت امرأةً لها جمال وكمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالةِ رأيها .

وكانت قد غلبته على رأيه ، فمرّ أبو بكر أبوه وهو في عِلِّيَّة[1] يناغيها[2] في يوم جمعة وأبو بكر مُتَوَجِّهٌ إلى الجمعة ، ثم رجع وهو يناغيها فقال : يا عبدالله أَجَمَّعْتَ[3] ؟ قال : أَوَصلَّى الناس ؟ قال : نعم!

قال : وقد كانتْ شغلته عن سوقٍ وتجارةٍ كان فيها ، فقال له أبو بكر : قد شغلتك عاتكةُ عن المعاش والتجارة ، وقد أَلْهَتْكَ عن فرائض الصلاة . طَلِّقْها . فطلَّقَها تطليقةً وتحولتْ إلى ناحية .

فبينا أبو بكر يصلّي على سطح له في الليل إذ سمعه وهو يقول :

أعاتِكُ لا أنساكِ ما ذَرَّ شارقٌ
وما ناحَ قُمْرِيُّ الحَمامِ المطَوَّقُ[4]

أعاتِكُ قلبي كلَّ يومٍ وليلةٍ
لديكِ بما تُخفي النفوسُ مُعلَّقُ

فلم أرَ مثلي طلَّقَ اليومَ مثلَها
ولا مثلَها في غير جُرْمٍ تُطلَّقُ

فسمع أبو بكر قوله فأشرف عليه وقد رَقَّ له فقال :

يا عبدالله راجعْ عاتكةَ . فقال : أُشْهِدُكَ أني قد راجعتُها .

---

(١) العِلِّيَّةُ : الغرفة .

(٢) يناغيها : يغازلها ويحادثها بما تهواه ويسرُّها .

(٣) أجَمَّعْتَ ؟ : أي أصلَّيْتَ صلاة الجمعة ؟

(٤) ما ذرّ شارق : ما طلع الشرق وهو الشمس .

وأشرف على غلامه أيمن . فقال له : يا أيمنُ ، أنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى . أُشهِدُكَ أني قد راجعتُ عاتكةَ .

ثم خرج اليها يجري إلى مؤخّر الدار وهو يقول :

أعاتِكُ قد طُلِّقْتِ في غير ريبةٍ
وَرُوجِعْتِ للأمر الذي هو كائنُ

كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ
على الناس فيه أُلْفَةٌ وتبايُنُ

ومـا زال قلبي للتفرُّقِ طائراً
وقلبي لمـا قد قرّبَ اللهُ ساكنُ

لِيَهْنِكِ أني لا أرى فيك سَخْطَةً
وأنك قد تمّتْ عليك المحاسنُ[1]

فإنكِ مِمّن زيّن اللهُ وَجْهَهُ
وليس لوجه زانه اللهُ شائِنُ[2]

قال : وأعطاها حديقةً له حين راجعها على ألّا تتزوّج بعده . فلما ماتَ من السهم الذي أصابه بالطائف أنشأتْ تقول :

فلِلّه عَيْنَا مَن رأى مثلَه فتًى
أكرَّ وأحْمَى في الهِياج وأصْبَرَا

إذا شُرِعَتْ فيه الأسنة خاضها
إلى الموت حتى يُترَكَ الرمحُ أحمرَا

فأقسمتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً
عليكَ ولا ينفكُّ جلديَ أغْبَرَا

مدَى الدهرِ ما غَنَّتْ حمامةُ أيكةٍ
وما طردَ الليلُ الصباحَ المنوَّرَا

---

(١) لا أرى فيك سخطة : لا أرى فيك ما يُكرَهُ أو يُغضَبُ منه .

(٢) شائن : عائب .

فخطبها عمر بن الخطاب ، فقالت : قد كان – عبدُالله بنُ أبي بكر – أعطاني حديقةً على أن لا أتزوّج بعده . قال : فَاسْتَفْتِي . فاستفتتْ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : رُدّي الحديقة على أهله وتزوّجي فتزوّجَتْ عمر.

فدعا عمر عِدّةً من أصحاب رسول الله فيهم عليُّ بنُ أبي طالب لمّا بَنَى[1] بها . فقال له عليٌّ : إنّ لي إلى عاتكةَ حاجةً أريد أنْ أذكرَها إيّاها ، فقل لها تستتر حتى أكلّمها .

فقال لها عمر : استتري يا عاتكة ، فإن ابن أبي طالب يريد أن يكلّمك ، فأخذتْ عليها مِرْطَها[2] فلم يظهر منها إلا ما بدا من براجمها[3] ، فقال يا عاتكة :

فأقسمتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً
عليكَ ولا ينفكُّ جِلدي أغْبرَا

فقال له عمر : وما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : وما أرادتْ إلى أن تقول ما لا تفعل ، وقد قال الله تعالى : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ؟ » . وهذا شيء كان في نفسي أحببتُ والله أن يخرج . فقال عمر : ما حسَّنَ اللهُ فهو حسَنٌ .

فلما قُتِل عمر قالت عاتكة ترثيه :

عَيْنُ جُودِي بعَبْرَةٍ ونَحيبِ
لا تَمَلّي على الإمـامِ النّجيبِ
فجعتْنا المنونُ بالفارِسِ المُعْـ
ـلَمِ يومَ الهِياجِ والتّلْبيبِ[4]
قلْ لأهل الضرّاءِ والبؤسِ موتوا
قد سَقَتْهُ المنونُ كأسَ شَعوبِ[5]

(١) بنى بها : دخل بها وزُفّتْ اليه . (٢) المِرط : كل ثوب غير مخيط .
(٣) البراجم : مفاصل الأصابع ، جمع بُرجمة ، والمراد هنا الأصابع .
(٤) التلبيب : لُبْسُ السلاح والتشمّر للقتال .
(٥) شَعوب : المنية ، وسميت المنية شعوباً لأنها تَشْعَب ، أي تفرّق .

فلما انقضت عِدَّتُها خطبها الزبير بن العَوَّام فتزوَّجها، فلما ملكها قال: يا عاتكة، لا تخرجي إلى المسجد، وكانت امرأةً عجراءَ [1] بادنةً. فقالت: يا ابن العوام، أتريد أنْ أدعَ لغَيْرَتِكَ مُصَلًّى صلَّيْتُ مع رسول الله وأبي بكرٍ وعمرَ فيه؟ قال: فإني لا أمنعك.

فلما سمع النداء لصلاة الصبح توضأ وخرج، فقام لها في سقيفة بني ساعدة، فلما مَرَّتْ ضرب بيده على عجيزتها، فقالت: مالك؟ قطع الله يدك! ورجعت.

فلما رجع من المسجد قال: يا عاتكة، مالي لم أرك في مُصلاَّكِ؟ قالت: يرحمك الله أبا عبد الله [2]. فسد الناس بعدك! الصلاةُ اليومَ في القَيْطون [3] أفضل منها في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة! وفي رواية أخرى أنها قالت: كنت أخرج والناس ناس، وقد فسد الناس، فبيتي أوسع.

فلما قُتل عنها الزبير بوادي السباع رَثَتْهُ فقالت:

غَدَرَ ابنُ جُرْموزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ
يومَ اللقاءِ وكانَ غيرَ مُعَرِّدِ [4]
يا عمرو لو نَبَّهْتَه ... لوَجَدْتَهُ
لا طائشاً رَعِشَ اللسانِ ولا اليَدِ

(١) عجراء بادنة: أي ممتلئه عظيمة البطن سمينة الجسم.

(٢) تعني عمر بن الخطاب، وكان يُكنى بابنه عبدالله بن عمر.

(٣) القيطون: المخدع.

(٤) ابن جُرموز: هو عمرو بن جُرموز من بني تميم، قتل الزبير بن العوام غدراً. والزبير هو حواريُّ الرسول، وابن عمته صفيةَ بنتِ عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. والبُهمة: الشجاع، وهو في الأصل مصدر وُصِف به، ولهذا يقال: فارسُ بُهمة، أي فارسٌ شجاع. والمعرِّد: مِن عرَّدَ الرجل عن قِرنه، إذا أحجم عنه ونكل، والتعريد: الفِرار.

هبِلَتْكَ أمُّكَ إنْ قتلتَ لَمُسْلِماً
حلَّتْ عليكَ عقوبةُ المتعمِّدِ [1]

فلما انقضتْ عِدَّتُها تزوَّجتِ الحسينَ بنَ عليِّ بن أبي طالب، فكانت أولَ مَن رفعَ خدَّه من التراب، ولعَنَ قاتله والراضيَ به يومَ قُتِل، وقالت ترثيه:

وحُسَيْناً فلا نسيتُ حُسَيْناً
أقْصدَتْهُ أسنَّةُ الأعداءِ [2]
غادَرُوهُ بكَرْبَلاءَ صريعاً
جادتِ المُزْنُ في ذُرَى كَرْبَلاءِ

ثم تأيَّمَتْ [3] بعده. فكان عبد الرحمن بن عمر يقول: من أراد الشهادة فَلْيتزوَّجْ بعاتكة ... ! ويقال إن مروان خطبها بعد الحسين عليه السلام فامتنعت عليه وقالت: ما كنت لأتخذ حَماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [4].

***

وحدَّث محمد بن سلام عن أبيه قال: بينا فتيةٌ من قريش ببطن مُحَسِّرٍ [5] يتذاكرون الأحاديث ويتناشدون الأشعار إذ أقبل طُوَيس وعليه قميص قُوهِيٌّ [6] وحَبَرَةٌ [7] قد ارتدى بها، وهو يَخطِر [8] في مِشيته فسلَّمَ ثم جلس.

---

(١) هبلتك أمك: أي ثكلتْك. إنْ قتلتَ لمسلماً: إنك قتلت مسلماً. وهذا شاهد في النحو على نُدرة وشذوذ أن يلي «إنْ» المخففة من الثقيلة فعل ماض غير ناسخ، لأن الأكثر في هذه الحالة أن يليها فعل ماض ناسخ نحو «وإنْ كانت لكبيرة»، وتلزم لام الابتداء بعد إن المهملة، فارقة بين الإثبات والنفي.

(٢) أقصدته أسنة الأعداء: أصابته فلم تخطئه (٣) تأيَّمتْ بعده: أي أقامت بعده لا تتزوج.

(٤) الأغاني: ج ١٨ ص ٥٩ – ٦٢. (٥) بطن مُحَسِّر: هو وادي المزدَلفة.

(٦) القُوهيُّ: ضرب من الثياب بيض منسوبة إلى قوهستان.

(٧) الحَبَرَة: ضرب من الثياب اليمانية مَوْشِيٌّ مُخطَّط. (٨) يخطِر: يتبختر.

فقال القوم يا أبا عبدالله غَنّنا شعراً مليحاً له حديث ظريف فغنّاهم بشعر عاتكة بنت زيد ترثي عمرَ بنِ الخطاب :

مُنِعَ الرقادُ فعادَ عينيَ عِيدُ
مما تضمّنَ قلبيَ المعمودُ[1]

يا ليلةً حُبِست عليَّ نجومُها
فسهرتُها والشامتون هُجودُ

قد كان يُسهِرني حِذارُك مرةً
فاليومَ حقّ لعينيَ التسهيدُ

أبكى أميرَ المؤمنين ودُونَهُ
للزائرين صفائحٌ وصعيدُ

فقال القوم : لمن هذه الأبيات يا طُوَيس ؟ قال لأجملِ خَلْقِ الله وأشأمِهم . فقالوا : بأنفسنا أنت مَن هذه ؟ قال : هي والله مَن لا يُجهَل نسبُها ولا يُدفع شرفُها . تزوجت بابن خليفةِ نبيّ الله ، وثنّتْ بخليفةِ خليفةِ نبيّ الله ، وثلّثتْ بحواريّ نبيّ الله ، وربّعَتْ بابن نبيّ الله ، وكلّا قتلتْ !

قالوا جميعاً : جُعِلنا فِداك . إن أمرَ هذه لعجيب ! بآبائنا أنتَ مَن هذه ؟ قال : عاتكةُ بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل . فقالوا : نعم ! هي على ما وصفتَ ، قوموا بنا لا يُدْرِك مجلسَنا شؤمُها . قال طُوَيس : إن شؤمَها قد مات معها . قالوا أنت والله أعلم منا[2] .

---

(١) القلب المعمود : القلب الوجيع الحزين . وعِيد : ما اعتاد من مرض أو حزن أو نحوه .
(٢) الأغاني : ج ١٨ ص ٥٩ — ٦٣ .

فخطبها عمر بن الخطاب ، فقالت : قد كان — عبدُالله بنُ أبي بكر — أعطاني حديقةً على أن لا أتزوّج بعده . قال : فَاسْتَفْتي . فاستفتتْ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : رُدّي الحديقة على أهله وتزوّجي فتزوّجتْ عمر .

فدعا عمر عِدّةً من أصحاب رسول الله فيهم عليُّ بنُ أبي طالب لمّا بَنَى[1] بها . فقال له عليٌّ : إنّ لي إلى عاتكةَ حاجةً أريد أنْ أذكرَها إيّاها ، فقل لها تستتر حتى أكلّمَها .

فقال لها عمر : استتري يا عاتكة ، فإن ابن أبي طالب يريد أن يكلّمَكِ ، فأخذتْ عليها مِرْطها[2] فلم يظهر منها إلا ما بدا من براجمها[3] ، فقال يا عاتكة :

فأقسمتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً
عليكَ ولا ينفكُّ جِلديَ أغْبرَا

فقال له عمر : وما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : وما أرادتْ إلى أن تقول ما لا تفعل ، وقد قال الله تعالى : « كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ؟ » . وهذا شيء كان في نفسي أحببتُ والله أن يخرج . فقال عمر : ما حسّنَ اللهُ فهو حسَنٌ .

فلما قُتِل عمر قالت عاتكة ترثيه :

عَيْنُ جُودي بعَبْرَةٍ ونَحيبِ
لا تملّي على الإمام النّجيبِ
فجعتْنا المنونُ بالفارسِ المُعْـ
ـلَمِ يومَ الهِياج والتّلْبيبِ[4]
قلْ لأهل الضّرّاءِ والبؤسِ موتوا
قد سَقَتْهُ المنونُ كأسَ شَعوبِ[5]

---

(1) بنى بها : دخل بها وزُفّتْ اليه . (2) المِرط : كل ثوب غير مخيط .
(3) البراجم : مفاصل الأصابع ، جمع بُرجمة ، والمراد هنا الأصابع .
(4) التلبيب : لُبْسُ السلاح والتشمّر للقتال .
(5) شَعوب : المنية ، وسميت المنية شعوباً لأنها تَشْعَب ، أي تفرّق .

فلما انقضتْ عِدَّتُها خطبها الزبير بن العَوَّام فتزوَّجَها، فلما ملكها قال: يا عاتكة، لا تخرجي إلى المسجد، وكانت امرأةً عجراءَ[1] بادنةً. فقالت: يا ابن العوام، أتريد أنْ أدعَ لغَيْرَتِكَ مُصَلَّى صلَّيْتُ مع رسول الله وأبي بكرٍ وعمرَ فيه؟ قال: فإني لا أمنعك.

فلما سمع النداء لصلاة الصبح توضأ وخرج، فقام لها في سقيفة بني ساعدة، فلما مرَّتْ ضرب بيده على عجيزتها، فقالت: مالك؟ قطع الله يدك! ورجعت.

فلما رجع من المسجد قال: يا عاتكة، مالي لم أرك في مُصلاَّكِ؟ قالت: يرحمك الله أبا عبد الله[2]. فسد الناس بعدك! الصلاةُ اليومَ في القَيْطون[3] أفضل منها في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة! وفي رواية أخرى أنها قالت: كنت أخرج والناس ناس، وقد فسد الناس، فبيتي أوسع.

فلما قُتل عنها الزبير بوادي السباع رَثَتْهُ فقالت:

غَدَرَ ابنُ جُرْموزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ
يومَ اللقاءِ وكانَ غيرَ مُعَرِّدِ[4]
يا عمرو لو نَبَّهْتَه ... لوَجَدْتَهُ
لا طائشاً رَعِشَ اللسانِ ولا اليَدِ

---

(١) عجراء بادنة: أي ممتلئة عظيمة البطن سمينة الجسم.

(٢) تعني عمر بن الخطاب، وكان يُكنى بابنه عبدالله بن عمر.

(٣) القيطون: المخدع.

(٤) ابن جُرموز: هو عمرو بن جُرموز من بني تميم، قتل الزبير بن العوام غدراً. والزبير هو حواريُّ الرسول، وابن عمته صفيةَ بنتِ عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. والبُهمة: الشجاع، وهو في الأصل مصدر وُصِف به، ولهذا يقال: فارسُ بُهمة، أي فارسٌ شجاع. والمعرِّد: مِن عرَّدَ الرجل عن قِرنه، إذا أحجم عنه ونَكَل، والتعريد: الفِرار.

هبلَتْكَ أمُكَ إنْ قتلتَ لَمُسْلماً
حلَّتْ عليكَ عقوبةُ المتعمِّدِ [1]

فلما انقضتْ عِدَّتُها تزوَّجت الحسينَ بنَ عليِّ بن أبي طالب ، فكانت أولَ مَن رفعَ خدَّه من التراب ، ولعَنَ قاتله والراضيَ به يومَ قُتِل ، وقالت ترثيه :

وحُسَيْناً فلا نسيتُ حُسَيْناً
أقْصَدَتْهُ أسِنَّةُ الأعداءِ [2]
غادَرُوهُ بكَرْبلاءَ صريعاً
جادتِ المُزْنُ في ذُرَى كَرْبَلاءِ

ثم تأيَّمَتْ [3] بعده . فكان عبد الرحمن بن عمر يقول : من أراد الشهادة فَلْيتزَوَّجْ بعاتكة ... ! ويقال إن مروان خطبها بعد الحسين عليه السلام فامتنعت عليه وقالت : ما كنت لأتخذ حَماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] .

***

وحدَّث محمد بن سلام عن أبيه قال : بينا فتيةٌ من قريش ببطن مُحَسِّرٍ [5] يتذاكرون الأحاديث ويتناشدون الأشعار إذ أقبل طُوَيس وعليه قميص قُوهِيٌّ [6] وحَبَرَةٌ [7] قد ارتدى بها ، وهو يَخطِر [8] في مِشيته فسلَّمَ ثم جلس .

(١) هبلتك أمك : أي ثكلتك . إنْ قتلتَ لمسلماً : إنك قتلت مسلماً . وهذا شاهد في النحو على نُدرة وشذوذ أن يلي « إنْ » المخففة من الثقيلة فعل ماض غير ناسخ ، لأن الأكثر في هذه الحالة أن يليها فعل ماض ناسخ نحو « وإنْ كانت لكبيرة » ، وتلزم لام الابتداء بعد إن المهملة ، فارقة بين الإثبات والنفي .

(٢) أقصدته أسنة الأعداء : أصابته فلم تخطئه (٣) تأيَّمتْ بعده : أي أقامت بعده لا تتزوج.

(٤) الأغاني : ج ١٨ ص ٥٩ — ٦٢ . (٥) بطن مُحَسِّر : هو وادي المزدَلفة .

(٦) القُوهيُّ : ضرب من الثياب بيض منسوبة إلى قوهستان .

(٧) الحَبَرة : ضرب من الثياب اليمانية مَوشيٌّ مُخطَّط . (٨) يخطِر : يتبختر .

فقال القوم يا أبا عبدالله غَنِّنا شعراً مليحاً له حديث ظريف فغنّاهم بشعر عاتكة بنتِ زيد ترثي عمرَ بنِ الخطاب :

مُنِعَ الرقادُ فعـاد عينيَ عِيدُ
مما تضمّـنَ قلبيَ المعمودُ[1]

يا ليلةً حُبِست عليَّ نجومُها
فسَهِرْتُها والشامتون هُجودُ

قد كان يُسهِرني حِذارُك مرةً
فاليومَ حقٌّ لعينيَ التسهيدُ

أبكى أميرَ المؤمنين ودونَه
للزائرين صفائحٌ وصعيدُ

فقال القوم : لمن هذه الأبيات يا طُوَيس ؟ قال لأجملِ خلْقِ الله وأشأمِهم . فقالوا : بأنفسنا أنت مَن هذه ؟ قال : هي والله مَن لا يُجهَل نسبُها ولا يُدفع شرفُها . تزوجت بابن خليفةِ نبيِّ الله ، وثنَّتْ بخليفةِ خليفةِ نبيِّ الله ، وثلّثتْ بحواريِّ نبيِّ الله ، وربّعتْ بابن نبيِّ الله ، وكلّا قتلتْ !

قالوا جميعاً : جُعِلنا فِداك . إن أمرَ هذه لعجيب ! بآبائنا أنتَ مَن هذه ؟ قال : عاتكةُ بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل . فقالوا : نعم ! هي على ما وصفتَ ، قوموا بنا لا يُدْرك مجلسَنا شؤمُها . قال طُوَيس : إن شؤمَها قد مات معها . قالوا أنت والله أعلم منا[2] .

---

(١) القلب المعمود : القلب الوجيع الحزين . وعِيد : ما اعتاد من مرض أو حزن أو نحوه .
(٢) الأغاني : ج ١٨ ص ٥٩ – ٦٣ .

الفصل السادس

عبد الرحمن بن أبي بكر

هو أبو محمد ، وقيل : أبو عثمان ، وقيل : أبو عبدالله . وهو شقيق عائشة ، وأمهما أمُّ رُومانَ « دَعد » بنت عامر الكنانية . كان اسمه في الجاهلية عبدَ العُزّى ، فسماه رسول الله عبد الرحمن . وكان — كما يقال — أسَنَّ ولدِ أبيه [1] .

جاء في الأغاني أنه كان له صحبة بالنبيّ ﷺ ، وأنه لم يهاجر مع أبيه صِغَراً عن ذلك ، فبقيَ مكانَه ، ثم خرج قبل « الفتْح » مع فتية من قريش مهاجراً إلى النبي في المدينة فأسلموا ، وسمّاه رسول الله « عبد الرحمن » [2] . وقيل تأخر إسلامه إلى يوم الفتح سنة ثمان فأسلم وحَسُنَ إسلامه .

وكان عبد الرحمن من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم . ففي الجاهلية شهد بدراً وأُحُداً مع المشركين ، ودعا إلى المبارزة ، فقام اليه أبوه ليبارزه ، فقال له الرسول : « مَتِّعْنَا بنفسك » [3] .

وفي الإسلام شهد مع خالد بن الوليد حروبَ الرِّدّة في اليمامة فقتل سبعةً من أكابرهم منهم مُحَكَّمُ اليمامة . روى الزبير بن بكّار بإسناد إلى عمه مصعب أن مُحَكَّمَ اليمامة وقف على ثُلْمَةٍ فحماها فلم يَجُزْ

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حَجَر : ج ٦ ص ١٤٦-١٤٧

(٢) الأغاني : ج ١٧ ص ٣٥٦ .

(٣) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن حَجَر : ج ٢ ص ٣٩٢ .

عليه أحد فرماه عبد الرحمن بن أبي بكر فقتله — وكان أحدَ الرماة — فدخل المسلمون من تلك الثُّلْمَة[1].

ويَرْوِي عُروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب نَفَلَه ليلى بنتَ الجُوديّ مَلِك دمشق. وقصة عبد الرحمن مع بنت الجودي هذه تكشف إلى حدٍّ ما عن جانب من مزاجه وطبيعته الشعرية.

وخلاصة القصة أنه قدِم الشام في تجارة فرأى هناك ليلى بنت الجُوديّ بن عَديٍّ الغسّانيّ فلم يَرَ أجملَ منها فأحبها وشُغِف بها وعمل فيها أشعاراً منها:

تذكَّرْتُ ليلى والسَّماوةُ بيننا
وما لابنة الجُوديّ ليلى وماليَا؟
وأنّى تُعاطِي قلبَه حارثيّةٌ
تَحُلُّ بِبُصْرَي أو تَحُلُّ الجوابِيا؟
وكيف يُلاقيها؟ بلى، ولعلّها
إذا الناسُ حَجُّوا قابلاً أن تُوافِيَا

ومنها:

يا ابنةَ الجُوديّ قلبي كئيبُ
مُسْتَهامٌ عندها ما يُنِيبُ
ولقد قالوا فقلتُ: دَعُوها
إنَّ مَن تَنْهَوْنَ عنه حبيبُ
إنما أبْلَى عظامي وجسمي
حُبُّها، والحبُّ شيء عجيبُ
جاورَتْ أخوالَها حيَّ عكٍّ
فلِعَكٍّ من فؤادي نصيبُ

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ٣٥٧. والثُّلْمة: فُرجة المكسور والمهدوم.

وذُكِر أن عمر خاطبه بشأنها قائلاً : ما لك ولها يا عبد الرحمن ؟ فقال : والله ما رأيتها قطُّ إلاَّ ليلةً في بيت المقدس في جِوارٍ ونساء يَتَهادَيْنَ ، فإذا عثرت إحداهن قالت : يا ابنة الجُودي ، فإذا حلفتْ إحداهُنَّ حلفتْ يا ابنة الجُوديّ .

فكتب عمر إلى صاحب الثغر الذي هي به : إذا فتح الله عليكم دمشق فقد غَنَّمتُ عبد الرحمن بن أبي بكر ليلى بنت الجُوديّ . فلما فتح الله عليهم غَنَّمُوه إياها .

وقد أفرط عبد الرحمن في حبها وإيثارها على نسائه . وكانت عائشة تكلمه فيما يصنع بها ، فيقول : يا أُخَيَّة ، دعيني ، فوالله لكأني أرشُف من ثناياها حبَّ الرُمّان ! ثم مَلَّها وهانت عليه .

وسبب ذلك ، كما يروي عروة بن الزبير ، أن عبد الرحمن كان إذا خرج من عندها ، ثم رجع اليها رأى في عينيها أثر البكاء ، فيقول : ما يُبكيك ؟ اختاري خصالاً أيها شئتِ فعلتُ بك : إما أن أعتقَكِ وأنكحَكِ ، فتقول : لا أشتهيه ، وإن شئتِ رَدَدْتُكِ على قومكِ ، قالت : ولا أريد ، وإنْ أحببتِ رَدَدْتُكِ على المسلمين ، قالت : لا أريد . قال : فأخبريني ما يُبكيكِ ؟ قالت : أبكي الملك من يوم البؤس .

وقد شكته ليلى إلى عائشة فقالت له : يا عبد الرحمن لقد أحببتَ ليلى فأفرطتَ ، وأبغضتَ ليلى فأفرطت ! فإما أن تُنصِفَها ، وإما أن تُجَهِّزَها إلى أهلها ، فجهّزَها إلى أهلها . ومع ذلك ظل متعلقاً بها موصولَ الحنين اليها كما يدل على ذلك الأبيات التالية :

فإما تصبحي بعد اقتراب
بِسَلْعٍ أو ثَنِيّاتِ الوَداع (١)

---

(١) سلع : موضع بقرب المدينة ، وحصن بوادي موسى قرب بيت المقدس . وثنيات الوداع : موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة .

فلم أَلْفِظْكِ من شِبَعٍ ولكنْ
لأقضِيَ حاجةَ النفس الشَّعاعِ[١]

كأنَّ جوانحَ الأضلاعِ مِنّي
بُعَيْدَ النوم مُبْطَنَةُ اليَراعِ[٢]

***

وكان عبد الرحمن من الصحابة الرواة : روى عن النبي وعن أبيه أبي بكر ، ورَوَى عنه : ولداه عبدُالله وحفصةُ ، وابنُ أخيه القاسم ابن محمد بن أبي بكر ، وعمرو بن أوس الثقفي ، وأبو عثمان النَّهديّ ، وموسى ابن وَردان ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى ، وعبدالله بن أبي مُلَيْكة وغيرُهم . وقال عنه الزبير بن بكار : كان امرأً صالحاً وكانت فيه دُعابة . وروى الزبير أيضاً بإسناد إلى ابن المسيَّب أن عبد الرحمن لم يُجرَّبْ عليه كَذِبةٌ قطُّ[٣] .

ولمعاوية بن أبي سفيان رأي خاص فيه بشأن التطلّع إلى الخلافة ، أورده في وصيته الأخيرة لابنه يزيد . ففي هذه الوصية يقول معاوية ليزيد :

« ولستُ أخاف عليك إلا أربعةَ رجال : الحسنَ بنَ عليّ ، وعبدَالله ابن عمر ، وعبدَ الرحمن بنَ أبي بكر ، وعبدَالله بن الزبير .

فأما الحسينُ بنُ عليّ فأحسب أن أهل العراق غيرُ تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن فعل ، فظفرت به فاصفح عنه . وأما عبدالله بن عمر فإنه رجل قد وَقَذَتْه[٤] العبادة ، وليس بطالبٍ للخلافة إلّا أن تأتيه

---

(١) النفس الشعاع : النفس المتفرقة .

(٢) الأغاني : ج ١٧ ص ٣٥٦ – ٣٦١ . وانظر كذلك الأغاني طبعة مكتبة الحياة : ج ٢١ ص ١١١ .

(٣) تهذيب التهذيب لابن حَجَر : ج ٦ ص ١٤٦–١٤٧ .

(٤) وقذته العبادة : أنهكته وغلبت عليه .

عفواً . وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه ليس له في نفسه من النباهة والذكر عند الناس ما يمكّنه طلبها ويحاول التماسها ، إلّا أن تأتيه عفواً . وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك روغان الثعلب ، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك عبدُالله بنُ الزبير . فإن فعل وظفرت به ، فقطّعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحاً . فإنْ فعل فاقبلْ منه ، واحقن دماء قومك بجهدك ، وكُفّ عاديتهم بنوالك ، وتغمّدهم بحلمك »[1] .

وإذا كان عبد الرحمن لم يسع إلى الخلافة ، فإنه قد عارض معاوية معارضة شديدة في اتجاهه نحو تحويل خلافة المسلمين إلى مُلْك عضود يتوارثه آل بيته من بعده .

وتفصيل ذلك أن مروان بن الحكم عاملَ معاويةَ على الحجاز عندما قام يدعو الناس إلى بيعة يزيد ، ويخبرهم أن أمير المؤمنين معاوية قد اختار لهم باستخلاف ابنه يزيدَ من بعده ، — وأن هذه سُنة أبي بكر وعمر — لم يلق معارضةً إلاّ مِن عبد الرحمن بن أبي بكر .

فقد خاطبه عبد الرحمن قائلاً : كذبت والله يا مروانُ ، وكذب معاوية ! ما الخيارَ أردتُما لأمة محمد ، وإنما تريدون أن تجعلوها كِسْرَوِيّةً أوْ هِرَقْلِيّةً ، كلما هلَكَ كِسْرَى أو هِرَقْلُ ملكَ كِسْرَى أو هِرَقْلُ !

فقال مروانُ : أيها الناس ، هذا الذي قال لوالديه : « أفٍّ لكما أتعِدَانني أنْ أُخْرَجَ[2] وقد خلتِ القرونُ من قبلي ، وهما يستغيثان اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إنّ وعد اللهِ حَقٌّ ، فيقولُ ما هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين[3] » .

---

(١) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدّينَوريّ : ص ٢٢٦ .

(٢) أن أخرجَ : أنْ أبعث من القبر .

(٣) سورة الأحقاف : ١٧ .

فصاحت به عائشة : أَلِعبد الرحمن تقول هذا ؟ كذبتَ واللهِ ، ما هو به . ولو شئتُ أن أُسمّيَ من أُنزِلتْ فيه لَسمّيتُه . ولكنّ أشهد أنّ رسول الله ﷺ لعنَ أباك وأنت في صلبه ، فأنت فَضَضٌ[1] من لعنة الله[2] .

وقد أورد ابنُ الأثير ردَّ عائشةَ على مروانَ بعبارة أخرى فقال : فسمعتْ عائشة مقالته – مروان – ، فقامت من وراء الحجاب وقالت : يا مروان ! يا مروان ! فأنصتَ الناسُ ، وأقبل مروانُ بوجهه ، فقالت : أنت القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن ؟ كذبت والله ، ما هو به ، ولكنه فلانُ بن فلان . ولكنك فَضَضٌ من لعنة نبيّ الله . وقام الحسين ابن عليّ فأنكر ذلك ، وفعل مثله ابنُ عمر وابنُ الزبير[3] .

أولاده :

ذكر المسعودي أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق له عقب كثير بَدْوٌ وحَضَر في ناحية الحجاز مما يلي الجادة من طريق العراق في الموضع المعروف بالصُّفَيْنِيَّات والمسح[4] .

وأولاد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق هم : عبد الله ، ومحمد ، وميمونة ، وقُرَيبة ، وأم حكيم ، وأم كلثوم ، وحفصة الكبرى .

تزوجت ميمونة هشام بن عبد الملك ثم طلّقها ، وتزوجت أختها قُرَيبةُ القاسمَ بن محمد بن أبي بكر ، فولدت عبد الرحمن بن القاسم الفقيه المشهور .

---

(١) أنت فَضَضٌ من لعنة الله : أي قطعة من لعنة الله .

(٢) الأغاني : ج ١٧ ص ٣٥٧ ، والإصابة لابن حجر : ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير : ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي : ج ٢ ص ٣٠٦ . ولعل الصُّفَيْنِيَّات هي « الصُّفَيْنة » التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان : ج ٣ ص ٤١٥ ، وهي – كما ذكر – قرية بالحجاز على يومين من مكة ، ذات نخل وزروع وأهل كثير ، وهي طريق الزبيدية يعدل اليها الحاجّ إذا عطشوا . وعقبة « صفينة » يسلكها حاج العراق ، وهي عسيرة .

وتزوجت أم حكيم موسى بن عبيدالله بن عثمان التيمي، فولدت له: محمداً ويحيى، وعائشة التي تزوجت عبد الملك بن مروان، وولدت له بكّار [1] بن عبدالملك.

وتزوجت أم كلثوم طلحة بن عبيدالله بن مسافع التيمي [2]، ويقال: هو الذي أنزل فيه: «وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللهَ ولا أنْ تَنكِحوا أزواجَه مِن بَعدِه أبداً» وذلك لأنه قال: لئن مات رسول الله ﷺ لأتزوّجَنّ عائشة [3].

أما حفصة الكبرى فتزوجت في أوّل أمرها الحسنَ بنَ عليٍّ، وكان المنذرُ بنُ الزبير يهواها، فبلغ الحسنَ عنها شيءٌ فطلّقها، فخطبها المنذر فأبت أن تتزوّجه وقالت: شَهّرَني! وخطبها عاصم بن عمر ابن الخطاب فتزوجها، فرَقّى [4] المنذرُ عنها شيئاً فطلّقها، وخطبها المنذرُ فقيل لها: تزوّجيه ليعلم الناس أنه كان يعْضَهُكِ [5]، فتزوجته [6]. فعلم الناس أنه كذَب عليها، فقال الحسَنُ لعاصم: لِنستأذنْ عليها المنذر فندخلَ اليها فنتحدّث عندها، فاستأذناه، فشاور أخاه عبدالله بن الزبير، فقال: دَعْهُما يدخلان. فدخلا فكانتْ إلى عاصم أكثرَ نَظراً منها إلى الحسَن، وكان أبسط للحديث. فقال الحسَنُ للمنذر: خُذْ بيد امرأتك. وقام الحسنُ وعاصمٌ فخرجا. وكان الحسنُ يهواها، وإنما طلّقها لما رَقّى اليها المنذر [7]. هذا عن بنات عبد الرحمن بن أبي بكر.

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص ١٣٦-١٣٨.
(٢) جمهرة أنساب قريش وأخبارها: ص ٤٥٨.
(٣) الإصابة لابن حجر: ج ٢ ص ٢٢٢.
(٤) يقال: رَقّى فلان عليّ الباطل ترقية، إذا تقوّل ما لم يكن وزاد فيه.
(٥) عَضَهَهُ عضْها: قال فيه ما لم يكن.
(٦) جمهرة أنساب قريش وأخبارها: ص ٢٤٦.
(٧) انظر قصة حفصة هذه مع أزواجها في رسائل الجاحظ: ج ٢ ص ١٥٢-١٥٣.

***

أما ابنه عبدُ الله فهو شقيق أمّ حكيم ، وأمها قُرَيْبة[1] الصغرى بنتُ أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ ، وخالتُها أمُّ سلَمةَ بنتُ أبي أمية زوجُ النبي ﷺ ، وعمتُها عائشةُ الكبرى أمُّ المؤمنين .

وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق هو زوجُ عائشة بنتِ طلحةَ المعروفةِ بعائشةَ الصغرى ، وهي ابنة عمته أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق ، وكان عبدُ الله لها مُحبّاً .

وحدث أن صَارَمَتْه وخرجتْ من دارها غَضْبى فمكثتْ عند عائشةَ أربعةَ أشهر ، وكان عبدُ الله قد آلىَ منها فأرسلت اليه عائشة : إني أخاف عليك الإيلاء[2] ، فضمّها اليه . وقد قيل له عندما كان مُولِياً منها : طَلّقْها ، فقال :

يقولون طَلّقْها لِأُصبحَ ثاوياً
مُقيماً عليّ الهمُّ ، أحلامُ نائم

وإنّ فراقي أهلَ بيتٍ أُحِبُّهم
لهم زُلْفَةٌ عندي لإحدَى العظائم

وقد تُوفيَ عبدُ الله بعد ذلك وهي عنده ، فما فتحتْ فَاهَا عليه ، وكانت عائشةُ أمُّ المؤمنين تُعَدّدُ عليها هذا في ذنوبها التي تُعَدّدُها[3] .

ولم تلد عائشة بنت طلحة من أحد من أزواجها سوى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر . ولدت له : عمرانَ وبه كانت تُكنَى ،

---

(١) قُرَيْبة هذه تزوجها أولاً عمر بن الخطاب في الجاهلية ، ثم فارقها في الهدنة فتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (الطبري : ٤ ص ١٩٩) .

(٢) الإيلاء : اليمين ، وهو في الشرع أن يُقسم الزوج ألاّ يقربُ امرأته ، وحكمه أن يتربّصَ بالإيلاء أربعة أشهر ثم يوقف ، فإما أن يطلق بعد ذلك او يرجع .

(٣) الأغاني ج : ١١ ص ١٨١ .

وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحةَ ، ونفيسةَ زوجةَ الوليد بن عبد الملك ، وأمَّ فروة . ولكل هؤلاء عقب . ومن أولاده أيضاً « أمُّ أبيها » زوجةُ ابنِ أبي عتيق ، وأمها هي « مريمُ » بنتُ عبد الله بن عِقال العُقيليّ"[1] .

وعن أولاد عبد الله يقول ابن حزم الأندلسيّ : « وأبو بكر بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر ثار بالسُّوس زمانَ مروانَ بنِ محمد ، وابنُه هاشمُ بنُ أبي بكر وَليَ قضاء مصر ومات بها وله بقية بالكوفة . وعمرانُ ابن عبد الله بن عبد الرحمن له عقب يسير ، منهم ابنه عمر ، وأخوه عبد الرحمن بن عبد الله لا عقب له . وأولادُ طلحةَ بنِ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر لهم بنجد عَقِبٌ عظيم يحاربون الحُسَيْنِيِّين والجعفريين فيَنْتصِفون ، وقد انحدروا في وقتنا هذا — القرن الخامس الهجري — إلى أعمال مصر[2] .

وذكر ابن قتيبة أيضاً أن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر له عَقِبٌ كثيرون ينزلون بالقرب من المدينة[3] .

ومن أولاد طلحة ابنته « عُتَيْبَةُ » وهي أمُّ أبي بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، والدِ الزبير بن بكار صاحبِ « جمهرة نسب قريش وأخبارها[4] .

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق معدود من أجواد قريش . مدحه أبو بَصِيرٍ البَكّائيُّ فقال :

وإنَّ فَتَىَ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ لَلَّذِي
لعائشة الصغرى ولابنِ أبي بكرِ

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ١٣٦ – ١٣٨ ، والطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٥ ص ١٩٤ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ١٣٦ – ١٣٨ ، والطبري : ٣ / ٤١٩ .

(٣) كتاب المعارف لابن قتيبة : ص ١٨٤ .

(٤) جمهرة نسب قريش وأخبارها : ص ١٥٦ .

ومدحه الحزين الدِّيلي [1] فقال :

فإنْ تــكُ يا طـلحُ أعطيتني
عُـذافِرَةً تستخِفُ الضِّفــارا [2]
فـمـا كان نفعُكَ لي مَـرّةً
ولا مَرّتــين ولكن مِرارا
أبوك الذي صَـدّق المصطفى
وسارَ مع المصطفى حيث سارَا [3]
وأمُّـكَ بيضاءُ تَيْمِـيّةٌ
إذا نُسِبَ الناسُ كانوا نُضَارَا [4]

ومن المواقف الدالة على جوده ما حدّث به الزبير بن بكّار بإسناد إلى سليمان بن عيّاش السعديّ قال :

« قدِمَ النظّار [5] الأصغرُ الأسديُّ ، ثم الفَقْعسيُّ ، المدينة ، فاعتمد دور القرشيّين يسأل في حاجةٍ أصابته ، فلم يصنع به أحد شيئاً ، حتى أتى طلحةَ بنَ عبدِالله بن عبدِالرحمن بن أبي بكر الصديق في داره دار أبي يسارٍ ، فشكا اليه مصيبتهُ وما لقِيَه به الناسُ ، وفي دار طلحةَ يومئذٍ خمسُ خَليّاتٍ [6] كأنهنّ القِبابُ .

---

(١) الحزين الدِّيليّ : هو « عمرو بن عبيد بن وهب » من بني الديل من كنانة بن خزيمة ، من شعراء الدولة الأموية، كان هجّاءً خبيث اللسان يرضيه اليسير .

(٢) العُذافرة : الناقة الشديدة العظيمة . والضِّفار : حبل من شَعْر مفتول يُشَدُّ به البعير . و « تستخف الضّفارا » يعني أن الناقة تجدُّ في سيرها حتى تَضمر ويسترخي الحبل المضفور بسبب ضمورها .

(٣) قوله : « ابوك الذي صدق المصطفى » ، إنمــا أراد : « جَدُّك » ، يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

(٤) الأغاني : ج ١١ ص ١٨٠ ، و « البيضاء » هنا من الكرم ونقاء العرض من الدنس والعيوب، لا من بياض اللون . و « النضار » الذهب الخالص من كل شائبة .

(٥) هو النظّار بن هاشم بن الحارث بن ثعلبة، من بني حذلم بن فَقْعَس من بني أسد .

(٦) الخليّة : الناقة تُخلّى للحلب ، وذلك أنها إذا نتجت وهي غزيرة الدرّ ، يُجَرُّ ولدُها من تحتها ، فيُجعَل تحت أخرى أو يُذبَح ، وجمع الخلية « الخلايا » .

فقال له طلحة : يا أخا بني أسَدٍ ، وما الذي يَكفيك حتى أعْطِيكَهُ ولا تذُمَّ قومي ؟ فقال : خلاياك أولاءِ . قال : فهنَّ لك . قال : فقال النظّار :

قَرَعْنَا دُورَهُمْ باباً فباباً
فخيرُ الدُّورِ دارُ أبي يَسارِ

بها من سِرِّ تَيْمٍ مَضْرَحِيٌّ
يُهينُ كرائمَ الكُومِ العِشارِ (١)

لِصِدّيقِ النبيِّ أبوه بخْ بخْ
وأمُّكَ بنتُ تيّارِ البحارِ (٢)

هما اجتمعا عليكَ فجئتَ خِرْقاً
تُباري الريحَ من كَرَمِ النِّجارِ (٣)

***

ومن أولاد عبد الرحمن بن أبي بكر بالإضافة إلى من ذكرنا وفصّلنا القول عنهم ابنه محمد .

وهو أبو عتيقٍ محمدُ بن عبد الرحمن بنِ أبي بكر الصديق بن أبي قحافة القرشيّ التيميّ ، أدرك النبيَّ ﷺ هو وأبوه وجدُّه وأبو جدِّه أبو قحافة أربعتهم ، وليست هذه المنقبة لغيرهم .

---

(١) المضرحيّ : السَّرِيُّ الكريم . والكوم : جمع كَوْمَاء وهي الناقة العظيمة السَّنام الطويلة . والعِشار من الإبل : الحديثة العهد بالنتاج وأحسنُ ما تكون الأبل وأنفسُها عند أهلها ، إذا كانت عشاراً .

(٢) بَخْ بَخْ وبخٍ بخٍ ، بالتنوين ، وبخٍ بخْ : كل ذلك كلمة تقال عند تعظيم الإنسان ، وعند التعجب من الشيء ، وعند المدح والرضا بالشيء ، وتكرر للمبالغة فيقال : بَخْ بَخْ ، فإن فَصَلْتَ خَفَّفتَ ونوّنتَ فقلتَ : بَخٍ . وأمك : يعني عائشة بنت طلحة . والتيار : موج البحر ولُجّته . وتيار البحار : كني به عن جده لأمه « طلحة بن عبيدالله التيميّ » الذي سماه الرسول « الفيّاض » بكرمه وجوده وبذله في سبيل الله .

(٣) جمهرة نسب قريش وأخبارها : ص ١٥٨ – ١٥٩ ، والخِرْق : السَّخِيُّ المتخرِّق في في الجود . والنجار : الأصل والحسب .

ذكر البخاريّ قال : حدثني عبد الرحمن بن شيبة عن محمد بن عبدالله ابن عبد الرحمن بن القاسم قال : قال موسى بن عقبة : ما نعلم أحداً في الإسلام أدركوا هم وأبناؤهم النبيّ ﷺ أربعةً إلّا هؤلاء الأربعة : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه أبو عتيق بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن أبي قحافة . قال عبد الرحمن بن شيبة واسم أبي عتيق محمد[1].

وقد اختُلِف في سبب تلقيبه « بأبي عتيق » . فابن قتيبة يذكر أن عقِب محمد بن عبد الرحمن يقال لهم : آل عتيق ، من بين ولد أبي بكر . وذلك أن عِدّةً من ولد أبي بكر تفاضلوا ، فقال أحدهم : أنا ابن الصديق ، وقال الآخر : أنا ابن ثاني اثنين ، وقال غيره : أنا ابن صاحب الغار . وقال محمد بن عبد الرحمن : أنا ابن أبي عتيق فنُسِب إلى ذلك هو وولده الى اليوم[2] .

ويُفهم مما أورده البلاذريّ في هذا الشأن أن ابنه عبد الله هو الذي لقّبه بهذا اللقب . قال البلاذري : وإنما قيل له — لعبد الله — « ابنُ أبي عتيق » لأنه كان يرمي ذات يوم فانتمى إلى أبي قحافة ، فقال : « أنا ابن أبي عتيق » فغلب ذلك الاسم على أبيه »[3] .

وتزوج أبو عتيقٍ محمدُ بن عبد الرحمن رُمَيْثَةَ بنتَ الحارثِ بنِ حذيفةَ بن مالك بن ربيعة بن أعْيَا بن مالك بن علقمة بن فراس من بني كنانة[4] ، فأولدها ابنه عبدَ الله المعروفَ « بابن أبي عتيق » والذي سنترجم له في الكتاب الخاص بأخباره .

ورَوَى أبو عتيقٍ محمدٌ أكثر ما روى عن عمته عائشة أمّ المؤمنين[5].

---

(١) الاستيعاب على هامش الاصابة : ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) المعارف لابن قتيبة : ص ١٧٤ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري : ج ١ ص ٤٢٠-٤٢١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ١٣٦ ، والطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٥ ص ١٩٥

(٥) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن حجر : ج ٤ ص ١٤٣ .

***

هؤلاء هم ولدُ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وأعقابُهم . ومن أدب أبيه له ما رواه عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه محمد بن أبي بكر قال : مَرَّ أبو بكر الصديق بابنه عبد الرحمن وهو يُمَاظُّ جاراً له فقال : لا تُمَاظَّ جارَكَ فإن هذا يبقى ويذهب الناس [1] .

ومن كلماته المأثورة : من أحب البقاء — ولا بقاء — فَلْيُوَطِّنْ نفسه على المصائب [2] .

ومن مواقفه الدالة على كرمه وأريحيته ما رواه الأصمعيُّ قال : وقفتْ أعرابيـة من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ، فقالت : إني أتيتُ من أرض شاسعة ، تَهْبِطني هابطة وترفعني رافعة ، في بَوادٍ بَرَيْنَ لحمي ، وهضَنَ عظمي ، وتَرَكْنَني والهةً قد ضاق بي البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة العدد . لا قَرابةَ تُؤْويني ، ولا عشيرةَ تحميني ، فسألتُ أحياء العرب : مَنِ المُرْتجى سَيْبُه ، المأمونُ غَيْبُه ، الكثيرُ نائلُه ، المَكْفِيُّ سائلُه ، فدُلِلْتُ عليك . وأنا امرأةٌ من هوازن فَقَدْتُ الولدَ والوالدَ ، فاصنعْ في أمري واحـدةً من ثلاث : إما أنْ تُحْسِنَ صَفَدِي [3] ، وإمّا أنْ تُقيمَ أَوَدِي [4] ، وإمّـا أنْ تَرُدَّني إلى بلدي . قال : بل أجمَعُهُنَّ لك . ففعل ذلك بها أجمع [5] .

ومما يدل على ثبات عقيدته وعدم المقايضة عليها بأيِّ ثمن ، ما رُوِي من أن معاوية بعث له ، عقب موقفه الصريح الجريء من البيعة لابنـه

---

(١) الكنز : ج ٥ ص ٤٤ ، وكتاب حياة الصحـابة للكاندهلوي : ج ٣ ص ٥٢ ، ويُماظّ : ينازع ، والمماظة المنازعة والمخاصمة مع طول الملازمة .

(٢) العقد الفريد : ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) الصفَـد : العطاء .

(٤) الأوَد : العِوَجُ ، وإقامة الأوَد ، كناية عن إصلاح غير المستقيم من الحال .

(٥) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤٣٢—٤٣٣ .

يزيدَ ، بمائة ألف درهم فردها عبد الرحمن وقال : لا أبيع ديني بدنياي[١] .

وكانت وفاة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق سنة ثلاث وخمسين ، وقيل خمس وخمسين . قيل خرج من المدينة إلى مكة قبل أن تتم البيعة ليزيدَ بن معاوية ، فأدركته منيّتُه فجأة في جبل « حُبْشِيٍّ » على عشرة أميال من مكة ، فحُمل اليها ودُفن بها .

ولما بلغ أختَه عائشة أمَّ المؤمنين نَبَأُ موته خرجت حاجّةً فوقفتْ على قبره وبكتْ عليه ، وتمثّلتْ بقول مُتَمِّمِ بن نويرة في أخيه مالك :

وكُنّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبَةً
من الدهر حتى قيل : لن يتصدّعا
فلما تفرّقْنَا كأني ومالِكاً
لطول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعَا !

أما والله لو حضرتُك لدفنتُك حيث مت ، ولو حضرتُك ما بكيتُك[٢] .

---

(١) الإصابة لابن حجر : ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) ارجع في أخبار عبد الرحمن بن أبي بكر أيضاً الى كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : ج ٢ ص ٣٩٩ ، والى كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبي على هامش الإصابة : ج ٢ ص ٣٩١ .

الفصل السابع

محمد بن أبي بكر

هو أبو القاسم محمد بن أبي بكر الصديق ، وأمه أسماء بنتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّةُ .

كانت أسماء تحت جعفر بن أبي طالب ، وهاجرت معه الى الحبشة ، فولدت له هناك عبدَ الله بن جعفر الجواد ، ثم قُتِل عنها يوم مُؤتَةَ [١]، فخلف عليها أبو بكر الصديق ، فأولدها محمداً عام حجة الوداع ، ثم مات عنها وعمرُ محمد ثلاثُ سنين ، فخلف عليها عليٌّ بن أبي طالب ، فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر على حد قول هشام بن محمد ، أو يحيى وعَوْناً على حد قول الواقدي [٢] .

وكان محمد بن أبي بكر ربيبَ عليٍّ بن أبي طالب وخِرِّيجَه ، وجارياً عنده مَجْرَى أولاده ، رضع الولاء والتشيّع منذ زمن الصِّبا ، فنشأ عليه ، فلم يكن يَعرِف له أباً غيرَ عليٍّ ، ولا يعتقد لأحدٍ فضيلةً غيره ، حتى قال عليٌّ كرّم الله وجهه : محمدٌ ابني من صُلْب أبي بكر [٣] .

وشهد محمد مع عليٍّ بن أبي طالب يومَ الجمل سنة ست وثلاثين وكان على الرَّجالة ، ثم ولاّه مصر .

---

(١) مُؤتة : قرية بالشام قبل الكرك ، حدثت فيها أولى الغزوات بين المسلمين والروم ، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان ، وفيها قتل جعفر بن أبي طالب . انظر تاريخ ابي الفداء : ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ١٥٤ .

(٣) شرح نهج البلاغة تحقيق « محمد ابو الفضل ابراهيم » : ج ٦ ص ٥٣ — ٥٤ .

ومن عهد علـيٍّ له حين قلّده مصرَ قولُه : « ... فاخفض لهم – أهل مصر – جناحَك . وألِنْ لهم جانبك . وابْسُطْ لهم وجهَك ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمعَ العظماء في حَيْفِك[1] لهم ، ولا ييأسَ الضعفاء مِن عدلك عليهم ، فإن الله يسائلكم معشرَ عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة ، والظاهرة والمستورة ، فإن يُعذِّبْ فأنتم أظلم ، وإن يَعفُ فهو أكرم ...

وأحذروا عبادَ الله الموتَ وقربَه ، وأعِدُّوا له عُدّتَه ، فإنه يأتي بأمر عظيم ، وخطب جليل ، بخيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبداً ، أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً .

فمَن أقربُ إلى الجنة مِن عاملها ؟ ومَن أقربُ إلى النار من عاملها ؟ وأنتم طُرَداءُ الموت ؛ إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، وهو ألزم اليكم من ظلكم .

الموتُ معقود بنواصيكم ، والدنيا تُطوَى من خلفكم ، فاحذروا ناراً قَعرُها بعيد ، وحَرُّها شديد ، وعذابُها جديد ؛ دارٌ ليس فيها رحمة ، ولا تُسمَع فيها دعوة ، ولا تُفرَّج فيها كُربة .

وإن استطعتم أن يشتد خوفُكم من الله ، وأن يَحْسُنَ ظنُّكم به فاجمعوا بينهما ، فإن العبد إنما يكون حُسْنُ ظنه بربّه على قدر خوفه من ربّه ، وإن أحسنَ الناس ظنّاً بالله أشدُّهم خوفاً لله .

واعلم – يا محمّدُ بنَ أبي بكر – أني قد ولّيتُكَ أعظمَ أجنادي في نفسي أهلَ مصر ، فأنت محقوق أن تخالف[2] على نفسك ، وأن تنافح[3] عن دينك ، ولو لم يكن لك إلاّ ساعةٌ من الدهر . ولا تُسخطِ الله

---

(١) حيفك لهم : أي ظلمك لأجلهم .

(٢) تخالف على نفسك : أي تخالف شهوة نفسك .

(٣) المنافحة : المدافعة والمجادلة .

برضَى أحدٍ من خَلْقه ، فإنّ في الله خَلَفاً[1] من غيره ، وليس من الله خَلَفٌ في غيره ...

وإنه لا سواءَ ، إمامُ الهُدَى وإمامُ الرَّدَى ، ووَليُّ النبيّ وعدوُّ النبيّ . ولقد قال رسول الله ﷺ : « إني لا أخاف على أمّتي مؤمناً ولا مشركاً ؛ أما المؤمن فيمنعه اللهُ بإيمانه ، وأمـــا المشرك فيقمعه[2] الله بشركه . ولكني أخاف عليكم كلّ منافقِ الجَنان[3] ، عالِم اللسان[4] ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تُنكرون[5] » .

ولكنّ ولايةَ محمدِ بن أبي بكر الصديق لمصر لم تَصْفُ له ولم يَطُلْ أمَدُها فقد قُتِل بها ؛ قتله معاوية بن حُدَيج وألقاه في جيفة حمـــار وأحرقه بالنار ، ودخل عمرو بن العاص مصر وبايع أهلُها لمعاوية ، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين[6] .

ولما بلغ عليَّ بنَ أبي طالب نبأُ مقتل محمد بن أبي بكر جزع عليه وقال : « ... إن حزننا عليه على قدر سرورهم به ، إلاّ أنهم نقصوا بغيضاً ، ونقصنا حبيباً[7] » .

ثم كتب إلى عبد الله بن عباس عقبَ مقتل محمد كتاباً يدل على شدة تأثره ويأسه من رجاله معاً . قال علي كرّم الله وجهه : « أما بعد فإن مصرَ قد افتُتِحتْ ، ومحمدَ بن أبي بكر — رحمه الله — قد استُشهد ، فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً ، وعاملاً كادحاً ، وسيفاً قاطعاً ، ورُكناً دافعاً .

---

(١) الخلف : العوَض .

(٢) يقمعه : يقهره .

(٣) منافق الجَنان : مَن أسرّ النفاق في قلبه .

(٤) عالِم اللسان : من يقول قولاً يعرفه المؤمنون ويفعل منكراً ينكرونه .

(٥) نهج البلاغة تحقيق الدكتور صبحي الصالح .

(٦) تاريخ أبي الفداء : ج ٢ ص ٩١

(٧) نهج البلاغة : ص ٥٣٢ تحقيق الدكتور صبحي الصالح .

وقد حَثَثْتُ الناسَ على لَحاقِـه ، وأمرتُهم بغياثه قبلَ الوقعة ، ودعوتُهم سِرّاً وجَهراً ، وعَوْداً وبَدْءاً ، فمنهم الآتي كارهاً ، ومنهم المُعتَلُّ كاذباً ، ومنهم القاعدُ خاذلاً .

أسأل الله تعالى أن يجعل لي منهم فَرَجاً عاجلاً ، فوالله لولا طمَعي عند لقاء عدُوّي في الشهادة ، وتوطيني نفسي على المنيّة لأحببتُ ألاّ ألْقَى مع هؤلاء يوماً واحداً ، ولا ألتقي بهم أبداً (١) .

ولما بلغ عائشةَ أمَّ المؤمنين مَقْتَلُ أخيها محمدٍ جزِعتْ عليه ، وقَنَتَتْ في دُبرِ كلّ صلاة تدعو على معاوية وعمرو بن العاص ، وضمّتْ عيالَ أخيها محمد إليها (٢) .

وفي حديث عائشة : أنها لما قُتِل أخوها محمد بن أبي بكر ، أرسلت عبد الرحمن أخاها فجاء بابنه القاسم وبنته من مصر ، فلما جاء بهما أخذَتْهما عائشة فرَبَّتْهما إلى أن استقلاّ (٣) ثم دعت عبد الرحمن فقالت : يا عبد الرحمن لا تَجِدْ (٤) في نفسك من أخذ بني أخيك دونك ، لأنهم كانوا صِبياناً فخشِيتُ أنْ تتأفّفَ بهم نساؤك ، فكنتُ ألطفَ بهم وأصبرَ عليهم . فخذهم اليك ، وكنْ لهم كما قال حُجَيَّةُ بنُ المُضرّب لبني أخيه سَعْدانَ (٥) ، وأنشدته الأبيات :

لَجِجْنَا ولَجَّتْ هذه في التغضُّبِ
وشَدّ الحجابِ بيننا والتَّنقّبِ (٦)
تلوم على مالٍ شَفاني مكانُهُ
إليكِ فَلُومي ما بدا لك وأغضبِ

(١) نهج البلاغة تحقيق صبحي الصالح : ص ٤٠٨ (٢) تاريخ أبي الفداء : ج ٢ ص ٩١
(٣) استقلاّ : شبّا وكبِرا . (٤) لا تجد في نفسك : أي لا تغضبْ في نفسك منّي .
(٥) لسان العرب : ج ٩ ص ٧ - ٨
(٦) المعنى : تمادت امرأتي في الغضب والهجران ، واللوم والاحتجاب : وكل ذلك منها في مال شفاني موضعه الذي وضعته فيه ، ثم أقبل عليها مستهيناً بها وبفعلها ، فقال : اليك فلُومي ما بدا لك .

رأيتُ اليتـامى لا تَسُدُّ فُقُورَهم

هـدايا لهم في كل قَعْبٍ مُشعَّبِ [1]

فقلتُ لِعَبْدَيْنا أريحـا عليهمُ

سأجعل بيتي مثـلَ آخَرَ مُعْزِبِ [2]

عيالي أحقُّ أن ينالوا خَصاصةً

وأن يشربوا رَنْقاً إلى حينِ مَكسَبي [3]

ذكرتُ بهم عظامَ مَن لو أتيتُه

حَريباً لآسـاني لدى كلِّ مَركبِ [4]

أخـوك الذي إنْ تَدْعُه لِمُلِمَّةٍ

يُجِبْكَ وإنْ تغضبْ الى السيف يغضبِ [5]

***

وجاء في جمهرة أنساب العرب أن من أبنـاء محمد بن أبي بكر أيضاً ابنه عبد الله، وأن أمه هي جَبْرَةُ الخزاعية [6]، وقـد روى عبد الله هذا عن عمته عائشةَ أمِّ المؤمنين، كما روَى عنه: سالم بن عبد الله بن

---

(١) يعني باليتامى أولاد أخيه المتوفى يريد: رأيتهم لا تسد مفاقرهم ولا تقيم مختلّ أمورهم تحف أو هدايا تحمل نحوهم في قعاب مشعوبة، وفي ذلك إزراء بصنيع امرأته، من الوقوف في البِرّ بأولاد أخيه عند حد إرسال اللبن اليهم.

(٢) فقلت لعبدينا: يعني راعييه اللذين أمرهما بسوق الإبـل المردودة من المراعي الى فنـاء أولاد أخيه.

(٣) المعنى: إن عيالي ولهم كاسب مثلي أحق بمزاولة الفقر ورثاثة العيش الى أن أكسِب ما تعود به حالهم إلى ما ألفوه من الخِصب والسَّعَة.

(٤) المعنى: تذكرت بهؤلاء الأولاد أباهم الذي لو أتيته حزيناً مسلوباً لشملني بِرُّه على كل حال؛ لأن الأخ الكامل الأخوة هو الذي يشد أزرك، وإن دعوته لنائبة تنوب أجابك، وإن أعملت سيفك أعمل سيفه معك حثيثاً.

(٥) انظر هذه الأبيات في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ج ٣ ص ١١٧٦

(٦) جمهرة أنساب العرب: ص ١٣٦، والطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٥ ص ١٩٤

عمر ، ونافع مولى بن عمر. وقال عنه النسائي : ثقة . وقُتل يوم الحَرَّة[1] سنة ثلاث وستين .

أما القاسم بن محمد بن أبي بكر فأمّه أمُّ ولد ، يقال لها : سَوْدَة ، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى اليهم علم المدينة ، وقد أُسند اليه أنه قال : كانت عائشة تحلق رؤوسنا عشيةَ عرفةَ ، ثم تُحَلِّقنا وتبعث بنا إلى المسجد ، ثم تُضحى عندنا من الغد .

وأولاد القاسم بن محمد هم : عبد الرحمن ، وأم فروة ، وأم حكيم ، وَعبدة ، وأمُّهم قُرَيبة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق[2] .

وعبد الرحمن بن القاسم معدود من فضلاء قريش ، وله من الأبناء : إسماعيل ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الذي وَليَ قضاء المدينة للحسن بن زيد . ومن ولده محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وَلِيَ قضاء المدينة للمأمون[3] .

وأم فروة بنت القاسم تزوجها الباقر محمد بن علِيّ فأولدها جعفراً الصادق ، واليها واليه أشار الرضيّ أبو الحسن بقوله :

وحُزْنَا عتيقاً وهْوَ غايةُ فخركم
بمولدِ بنتِ القاسمِ بنِ محمّدِ
فجَدٌ نبيٌّ ثم جَدٌّ خليفةٌ
فأكْرِمِ بجدَّيْنا : عتيقٍ وأحمدِ
وما افتخرتْ بعدَ النبيِّ بغيره
يدٌ صَفقَتْ يومَ البِياع على يَدِ[4]

---

(١) هي حرة واقم، إحدى حرَّتي المدينة ، وهي الشرقية ، وفيها كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣ ، وكانت بعد مقتل الحسين ، ورمْيِ الكعبة بالمنجنيق من أشنع شيء جرى في أيام يزيد .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٥ ص ١٧٨

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ١٣٨ ، والطبقات الكبرى : ج ٥ ص ١٩٤

(٤) شرح نهج البلاغة تحقيق أبي الفضل . ج ٦ ص ٥٤ ، والبياع . المبايعة .

***

وكان القاسم بن محمد يحدّث بالحديث ، ولا يفسّر القرآن ، وما كان يجيب إلاّ في الشيء الظاهر . رُوِي أنــه قال في شيء : أرَى ، ولا أقول إنه الحق .

ومن كلماته المأثورة قوله لقوم يذكرون القَدَر : كفّوا عما كفّ الله عنه . ومن كلماته أيضاً : لأنْ يعيش الرجل جاهلا بعد أن يعلم ما افترض اللهُ عليه خيرٌ من أن يقول ما لا يعلم .

ومن وصيّته عندما حضره الموت : كفّنُوني في ثيابي التي كنت أصلّي فيها : قميصي وإزاري وردائي . فقال ابنـه : يا أبتِ ، ألا تريد ثوبين ؟ فقال : يا بُنيّ ، هكذا كُفّن أبو بكر في ثلاثة أثواب ، والحيُّ أحوج الى الجديد من الميت ! كذلك أوصى ألاّ يُبْنَى على قبره .

وكانت وفاته بقُدَيْد (١) سنة ثمـان ومائة ، وله من العمر سبعون ، وقيل اثنتان وسبعون سنة .

---

(١) قُدَيْد . اسم موضع قرب مكة .

الكتاب الثاني

الغناء العربي

نشأته وتطوّره حتى نهاية العصر الأموي

الغناء العربي

عرف العرب الغناء أولَ ما عرفوه حُداءً . كان العربيُّ في الجاهلية يَكِدّ ويَكدَح طلباً للرزق ، ومن أجل البقاء كان عليه أن يقضيَ معظم حياته ظاعناً غيرَ مُقيم ، إن أقام في مكانٍ حيناً فسرعان ما يرحل عنه ، إما فراراً من عدوٍّ أو التماساً للمرعى أو الماء أو نحو ذلك .

وكان في تنقلاته ورحلاته على ناقته في مسالك الصحراء الموحشة لا يجد غير الغناء شيئاً يأنس به ، فهو يغني ليهوّنَ على نفسه مشاقّ الطريق ووعثاء السفر ، وهو يغني ليُسَرّيَ عن ناقته اللاغبة ، ويستحِثّها على المسير . وبالإضافة إلى تغني الحُداة ترويحاً عن أنفسهم وإبلهم في مسالك الصحراء وشعابها ، كان الفتيان في فضاء خلواتهم يُرجّعون الأصوات ويترنّمون .

ولم يزل هذا شأنَ العرب في بداوتهم وجاهليتهم ، وإذا رحنا نلتمس أصل الغناء العربي فإننا نجد أنه كان ظاهراً شائعاً في أمهات القرى التي كانت تُعَدُّ مجامعَ أسواق العرب ، وهي مكة والمدينة وخيبر ووادي القُرَى ودومة الجندل واليمامة .

وكان غناءُ العرب في الجاهلية على ثلاثة أوجه : النّصْب والسّناد والهَزَج . فأما « النّصْب » فغناءُ الرُّكبان وغناءُ الفتيان ، ومنه كان أصلُ الحُداءِ كلّه ، وأما « السّناد » فهو الغناءُ الثقيلُ ذو الترجيع الكثيرِ النغمات والنّبَرات ، وهو على ست طُرُق : الثقيلُ الأولُ

وخفيفُه ، والثقيلُ الثاني وخفيفُه ، والرملُ وخفيفُه ، وأما « الهزَج » فالخفيفُ الذي يُرقَص عليه ويُمشَى بالدُّف والمِزمار ، فيُطرِب ويستخفُّ الحُلومَ ويُثير القلوب ...

* * *

ولما جاء الإسلام وتَمَّ للمسلمين ما تَمَّ من الفتوح الإسلامية ، وكانوا ما زالوا على ما عُرِفوا به من البداوة ، مع نضارة الدِّين الجديد ودعوته إلى التخلي عن كل ما ليس بنافع في دين ولا معاش ، فإنهم هجروا الغناء ما استطاعوا ، وإن لم يُغفلوا أثر الصوت الجميل في الترنُّم بالشعر الذي هو دَيْدَنُهم ومذهبُهم ، وفي تلاوة القرآن الكريم وترجيعه ، وفي أذان الصلاة ، فقد أُثِر عن رسول الله أنه طلب إلى بـلال أن يؤذِّن للصلاة لأنه كان نديَّ الصوت .

وظل الحال على ذلك في عهد الخلفاء الراشـدين الذين انصرفوا إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام . ويحدثنا أبو الفرج في كتابه الأغاني عن حالة الغناء في زمن عمر فيقول : « إن الغناء العربيَّ لم يكن يُعرَف في زمان عمر بن الخطاب ، إلا ما كانت العـرب تستعمله من النَّصْب والحُداء ، وذلك جار مجرى الإنشاد ، إلّا أنـه يقع بتطريبٍ وترجيع يسيرٍ ورفعٍ للصوت[1] .

ولما تسرَّب الترف إلى العرب وغلبت عليهم الرفاهية بمـا حصل لهم من غنائم الفتوح ، صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية ، واستحلاء الفراغ ، والاستمتاع بما يصاحبه عادة من اللهو والغناء .

وكان من جملة الغنائم كثيرٌ من رقيق الفُرس والروم ، ومن هؤلاء مَن عُرِفوا بالغناء فوقعوا إلى الحجاز وصاروا مواليَ للعرب ، وغنَّوْا جميعاً

(١) الأغاني : ج ٨ ص ١٤٩

الغناءَ المجزّأَ المؤلفَ بالفارسية والرومية بالعيدان والطنابير والمعازف والمزاهر [١].

وسمع العرب تلحين بعض موالي الفرس للأصوات فأخذوا يُلَحّنون عليها أشعارهم. وأولُ مَن فعلَ ذلك «سائب خاثر» [٢] مولى بني ليث، قيل: إن عبدالله بن جعفر اشترى ولاءه من مواليه، وقيل: بل اشتراه فأعتقه، وقيل: بل كان على ولائه لبني ليث، وإنما انقطع لعبدالله ابن جعفر فلزمه وعُرِف به. وكان يبيع الطعام بالمدينة.

قال ابن خرداذبة: كان عبدالله بن عامر اشترى إماءً نائحاتٍ وأتى بهنّ المدينة، فكان لهنّ يومٌ في الجمعة يلعبن فيه، وسمع الناسُ منهنّ فأخذْن عنهنّ. ثم قدم رجل فارسيٌ يسمى «بنشيط» فغنّى فأعجبَ عبدُالله ابن جعفر به، فقال له سائب خاثر: أنا أصنع لك مثلَ غناءِ هذا الفارسيّ باللغة العربية، ثم غدا على عبدالله بن جعفر وقد صنع:

لمــن الديارُ رسومُها قفرُ..
لعِبتْ بهـا الأرواحُ والقَطْرُ
وخَــلاَ لها مِن بَعد ساكنها
حِجَجٌ مضَيْنَ: ثمانٍ أوْ عشرُ
والزعفرانُ عــلى ترائبهـا
شَرِقٌ به اللبّاتُ والنّحْرُ؟ [٣]

قال ابن الكلبيّ: وهو أول صوت غُنّيَ بـه في الإسلام من الغناء العربيّ المتقن الصنعة. قال: ثم اشترى عبدالله بن جعفر «نشيطاً» بعـد

---

(١) بلوغ الأرب للألوسيّ: ج ١ ص ٣٦٨.
(٢) الأغاني: ج ٨ ص: ٣٢١ - ٣٢٦.
(٣) الترائب: جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر. وشرق الجسد بالطيب: امتلأ. واللبات: جمع لبّة، وهي وسط الصدر والمنحَر.

ذلك فأخذ عن « سائب خاثر » الغناء العربيَّ ، كما أخذ عنه ابنُ سُرَيْج وعزَّةُ المَيْلاء وجميلة ومَعبد وغيرُهم .

وكان سائب خاثر يُكنَى أبا جعفر ، ولم يكن يضرب بالعود ، وإنما كان يقرع بقضيب ويغني مرتجلاً .

ومع انقطاعه لعبد الله بن جعفر فإنه كان يخالط سَرَوَات الناس وأشرافَهم لظَرْفه وحلاوته وحسن صوته . وكان قد آلى ألَّا يُغنّيَ أحداً سوى عبد الله بن جعفر إلَّا أن يكون خليفةً أو وليَّ عهدٍ أو ابنَ خليفة ، فكان على ذلك إلى أن قُتِل يومَ الحَرَّة (١) سنة ثلاث وستين في خلافة يزيدَ بنِ معاوية .

يُروَى أنه خشِيَ على نفسه من أهل الشام في ذلك اليوم فخرج اليهم وجعل يحدثهم ويقول : أنا مُغَنٍّ ومِن حالي وقصتي كيتَ وكيتَ ، وقد خدمتُ أميرَ المؤمنين يزيدَ وأباه — أي غنّى لهما — فقالوا : فغَنِّ لنا ، فجعل يُغنّي ، فقام اليه أحدهم فقال له : أحسنتَ والله ! ثم ضربه بالسيف فقتله !

قال المدائني : وبلغ خبرُه إلى يزيد بن معاوية فقال : أوَ بلغ القتلُ إلى سائب خاثر وطبقتِه ! ما أرى أنه بقيَ في المدينة أحد . ثم قال : قبّحَكُم اللهُ يا أهل الشام ! تجدهم صادفوه في حديقة أو حائط مستتراً منهم فقتلوه (٢) .

وممن أخذ كذلك من غناء الفرس والروم وأدخله على الغناء العربي ابنُ مِسْجَح وابنُ مُحْرِز .

وابنُ مِسْجَح هو أبو عيسى سعيدُ بن مِسْجَح مولى بني جُمَح ، مُغَنٍّ أسودُ من فحول المغنين وأكابرهم ، رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم ،

(١) الحرة : هي حرة واقم شرقي المدينة . انظر معجم البلدان : ج ٢ ص ٢٤٩ ، وسَرَوات : جمع سَرَاةٍ (٢) الأغاني : ج ٨ ص ٣٢٥

وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً وتعلّم الضرب ، ثم قدم الحجاز وسمع غناء عُمّال الفرس ممن اجتلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة بعد حرْقها، ثم اقتبس من كل ذلك محاسن ألحانها وألقى ما رآه منها خارجاً عن غناء العرب من النبرات والنغم ، وغنّى على هذا المذهب . وبذلك كان أولَ مَن أثبت ذلك ولحّنه وأولَ مَن نقل غناء الفرس إلى غناء العرب من أهل مكة[1] .

ومن تلاميذه في الغناء ابن سُرَيْج والغَرِيض ، وعاش حتى لقيه معبدٌ وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك .

حدّث دَحْمانُ الأشقر قال : كنت عاملاً لعبد الملك بن مروان بمكة فنُمِيَ إليه أن رجلاً أسودَ يقال له سعيد بن مِسْجَح أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم . فكتب إليّ أن اقبضْ ماله وسَيِّرْه ففعلت، فتوجه ابن مِسْجَح إلى الشام . وهناك احتال عن طريق قرشيٍّ من سُمّار عبد الملك حتى دخل عليه متنكراً وغنّاه ألواناً من الغناء ، فاهتز عبد الملك طرَباً ، ثم قال : أقسم إنّ لك في القوم لأسماءً كثيرة ، مَن أنت ويلك ؟ قال له : أنا المظلوم المقبوض مالُه ، المسيَّرُ عن وطنه ، سعيدُ ابنُ مِسْجَح ... قبضَ مالي عاملُ الحجاز ونفاني . فتبسّم عبدُ الملك ثم قال : قد وَضَحَ عُذرُ فتيان قريش في أن يُنفقوا عليك أموالهم ، وأمّنَه ووصله ، وكتب إلى عامله بردّ ماله عليه وأن لا يعرِض له بسوء[2] .

هذا عن ابن مِسْجَح ... أما المغنّي الآخر الذي نهج نهجه في الاقتباس من غناء الفرس والروم فهو أبو الخطاب مُسلم بن مُحْرِز مولى بني عبد الدار ابن قُصَيّ . كان أبوه من سَدَنة[3] الكعبة ، أصله من الفرس ، وكان أصفر ، أحدب الظهر ، طويلاً .

---

(١) نهاية الأرب للنويري : ج ٤ ص ٢٣٩

(٢) الأغاني : ج ٣ ص ٢٧٦ – ٢٨٤

(٣) سَدَنة الكعبة : خُدّامها ، جمع سادن .

كان يتردَّدُ في سُكناه بين مكة والمدينة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر ، يتعلم الضرب من عَزَّة الميلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر يأخذ عن ابن مسجَح ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغناءهم ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم ويأخذ غناءهم أيضاً.

وكان بعدَ أن يجمع ما يجمع من ألحان الفريقين يُسقط منها ما لا يستحسن ويُبقي على محاسنها فيمزج بعضها ببعض ويؤلف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب ، وبذلك أتى بما لم يُسمَع مثلُه .

وكان ابن مُحرِز قليل الملابسة والمخالطة للناس ، فأخملَ ذلك ذِكْرَه ، فما يُذكَر منه إلّا غناؤه ، وأخذت أكثر غنائه جاريةُ صديقٍ له من أهل مكة كانت تألفه ، فأخذه الناسُ عنها .

وكان إذا قَدِمَ مكة بما يصيبه دفعَه إلى صديقه ذاك فيُنفقه كيف شاء ، لا يسأله عن شيء منه ، حتى إذا كاد أن ينفَد ، جهَّزه وأصلح من أمره ، وقال له : إذا شئت فارحل ، فيرحل ويعود ، ولم يزل كذلك حتى مات .

وابن مُحرِزٍ هو أول مَن غنّى بزَوْج من الشعر ، وعمِل ذلك بعده المغنون اقتداءً به . وكان يقول : الأفراد لا تتم بها الألحان . وذُكِر أنه أولَ ما أخذ الغناء أخذه عن ابن مِسْجَح .

ورَوَى حماد بن إسحاقَ الموصليّ عن أبيه قال : قال أبي : أولُ مَن غنّى الرملَ ابنُ مُحرِزٍ ، وما غُنّيَ قبلَه ، فقلت له : ولا بالفارسية ؟ قال : ولا بالفارسية .

وكان يقال له : صَنّاجُ[1] العرب لجودة غنائه ، كما كان يقال لأعشى بكر : صَنّاج العرب لجودة شعره .

---

(١) الصَّنْج : صفيحة مدوَّرة من النحاس يُضرب بها على أخرى مثلها للطرب ، والصَّنج أيضاً ما يُجعَل في إطار الدُّفّ من الهَنات المدوَّرة . وأما الصَّنج ذو الأوتار الذي يُلعب به فمختص بالعجم معرَّب . واللاعب يقال له : صَنّاج وصَنّاجة .

وقال أبو أيوب المدائنيُّ : بلغني أن ابن مُحرز لما شَخَص يريد العراق لَقِيَه « حُنَيْنٌ » – مغنّي العراق – فقال له : غَنِّني صوتاً من غنائك ، فغنّاه :

وَحُسْنُ الزَّبَرْجَدِ في نَظمِهِ
على واضحِ اللِّيتِ زانَ العُقودا[1]
يُفَصِّلُ ياقوتَه دُرُّهُ
وكالجمرِ أبصرتُ فيه الفريدا[2]

قال : فقال له « حنينٌ » حينئذٍ : كم أمَّلْتَ من العراق ؟ قال : ألفَ دينار . فقال له : هذه خمسمائة دينارٍ فخذْها وانصرف .

ولما شاع ما فعل ، لامَهُ أصحابُه عليه ، فقال : واللهِ لو دخل العراق لما كان لي معه فيه خبزٌ آكلُه ، ولاطُرِحْتُ وسقطتُ إلى آخرِ الدهر .

وكان إسحاق الموصليُّ يعدُّه من فحول الغناء ، فقد كان يقول : الفحول : ابن سُرَيج ، ثم ابن مُحرز ، ثم معبد ، ثم الغريض ، ثم مالك .

وسأل إسحاق يونس : مَن أحسن الناس غناء ؟ قال : ابنُ مُحرز . قلت : وكيف قلت ذاك ؟ قال : إنْ شئتَ فسَّرْتُ ، وإن شئتَ أجملتُ . قلت : أجمِلْ . قال : كأنه خُلِق من كل قلب ، فيغنِّي كلَّ إنسانٍ ما يشتهي[3] .

***

وقد شاع الغناء في العصر الأمويّ وشُغِف العرب به كثيراً على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، ولهذا تعدَّدَتْ مراكزه وتنوَّعت مدارُسه ، وانتشرت

---

(١) اللِّيت : صفحة العنق .
(٢) الفريد : الدرُّ إذا نُظِّم وفُصِّل بغيره .
(٣) الأغاني : ج ١ ص ٣٧٨ – ٣٨٢ .

دوره ومجالسه تلك التي كان الناس يغشونها للطرب والسماع . وكان أكثر المشتغلين والمشتغلات به من أصل فارسيّ .

ولعل بيئة الحجاز إبّانَ هذا العصر كانت أكثرَ البيئات العربية التي ازدهر فيها الغناء ، ثم انطلق منها إلى مواطن أخرى .

كان للغناء بمكة مدرسةٌ من رجالها : ابنُ مِسْجَح ، وابنُ مُحرِز ، وابن سُريْج [1] ، والغَريض [2] ، وابن مِشعب [3] والهُذَلِيُّ النقّاش [4] ، وعبادل [5] ، بن عطية ، وخليل بن عمرو [6] . ومن مغنياتها : سلّامة القَس [7] وأختها رَيّا ، وخُلَيْدةُ المكيــة ، وعُقَيْلة العقيقية وربيحة موليات ابن شماس ، والمعروفات بالشماسيات [8] .

وكان للغناء بالحجاز مدرسة أخرى بالمدينة من رجالها : سائب خاثر [9] ، ومعبد بن وهب [10] ، وابن عائشة [11] ، وطويس [12] ، ومالك [13] بن أبي السمح ، وهيت ، وطريف ، وحبيبٌ نَومَةُ الضحى ، وبرد الفؤاد ، وبُدَيْح [14] المليح ، ونافع ، وعَطَرّد [15] ، وابن صاحب الوضوء [16] ، والدّلال [17] ، والأبجر [18] ، والبُرْدان [19] ، وقَنْد ، ورحمة ، وهبة الله . ومن المغنيات : عزة الميلاء [20] ، وجميلة [21] ، وحَبابَةُ [22] ، وبَصْبَص [23] ، وفَرْعة ، وبلبلة ، ولذة العَيْش .

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢) الأغاني : ج ٢ ص ٣٥٩ .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص ٣٢١ .
(٤) الأغاني : ج ٥ ص ٦٥ .
(٥) الأغاني : ج ٦ ص ٩٦ .
(٦) الأغاني : ج ٢١ ص ١١٠ طبعة الحياة .
(٧) الأغاني : ج ٨ ص ٣٣٤ .
(٨) انظر خليدة وبقية الشماسيات في الأغاني : ج ١٦ ص ١٩٠ .
(٩) الأغاني : ج ٨ ص ٣٢١ .
(١٠) الأغاني : ج ١ ص ٣٦
(١١) الأغاني : ج ٢ ص ٢٠٣ .
(١٢) الأغاني : ج ٣ ص ٢٧ .
(١٣) الأغاني : ج ٥ ص ١٠١ .
(١٤) الأغاني : ج ١٥ ص ١٧٤ .
(١٥) الأغاني : ج ٣ ص ٣٠٣ .
(١٦) ج ٣ ص ١٣٣
(١٧) الأغاني : ج ٤ ص ٢٦٩ .
(١٨) الأغاني : ج ٣ ص ٣٤٤
(١٩) الأغاني : ج ٨ ص ٢٧٧ .
(٢٠) الأغاني : ج ١٧ ص ١٦١ .
(٢١) الأغاني : ج ٨ ص ١٨٦ .
(٢٢) الأغاني : ج ١٥ ص ١٢٢ .
(٢٣) الأغاني : ج ١٥ ص ٢٧ .

وكان في وادي القُرَى مدرسة ثالثة من رجالها : حَكَمٌ [1] الواديُّ ، ويعقوبُ الواديُّ ، وسليمان ، وخُلَيْد بن عتيك ، وعمر [2] الواديّ الذي كان يقول : ربما ترنَّمْتُ بالصوت وأنا غرثانُ فيُشبعني ، ومستوحشٌ فيؤنسني ، وكسلانُ فيُنشِّطُني .

هذا عن أهم مدارس الغناء بالحجاز وأشهر مغنّيها ومغنياتها في العصر الأمويّ . أما خارج الحجاز فلم يكن للغناء شأن يُذكَر إلّا في بيئتي العراق والشام ، ومع ذلك فلم يبلغ في هذين الإقليمين ما بلغه في الحجاز من شهرة واستفاضة وأصالة .

ففي العراق أيامَ الأمويين ظهر في الغناء حنينٌ [3] ، وهو أبو كعب حنينُ بن بَلْوَعَ الحيريّ ، مختلف في نسبه ، قيل : إنه من العِباديّين من تيم ، وقيل : إنه من بني الحارث بن كعب ...

وكان حنينٌ شاعراً مغنياً فحلاً من فحول الغناء ، وله صنعة فاضلة متقدمة ، وكان يسكن الحِيرة ويُكري الجمالَ إلى الشام وغيرها ، وكان نصرانياً . وهو القائل يصف الحيرة ومنزله بها :

أنا حُنَينٌ ومنزلي النَّجَفُ
وما نديمي إلّا الفتى القَصِفُ [4]

أقرعُ بالكأس ثغرَ باطيةٍ
مُتْرَعَةٍ تارةً وأغترفُ [5]

من قهوةٍ باكرَ التِّجارُ بها
بيتَ يهودٍ قرارُها الخَزَفُ

والعيشُ غضٌّ ومنزلي خَصِبٌ
لم تَغْذُني شِقْوَةٌ ولا عُنُفُ

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٨٠ (٢) الأغاني : ج ٧ ص ٨٥ (٣) الأغاني : ج ٢ ص ٣٤١

(٤) النجف : موضع بظهر الكوفة ، والكوفة قريبة من الحيرة . والقَصِف : حليف اللهو واللعب . (٥) الباطية : زجاجة الشراب .

وفي صباه كان حنينٌ يحمل الفاكهة والرياحين بالحيرة إلى بيوت الفتيان وأصحاب القيـــان والمتطرِّبين إلى الحيرة، فكان يسمع الغناء ويشتهيه ويصغي اليه حتى شدا منه أصواتاً فأسمعها الناس – وكان مطبوعاً حسن الصوت – فأحبوا غناءه وعشرته. وهكذا شُهِـر بالغنــاء ومَهر فيه، وبلغ منه مبلغاً كبيراً. ثم رحل إلى حَكَمٍ الواديّ وعُمرَ الواديّ في وادي القُرَى وأخذ منهما، وغنّى لنفسه في أشعار الناس، فأجاد الصنعة وأحكمها، ولم يكن بالعراق غيرُه فاستولى عليه في عصره.

ويُروَى عنه أنه خرج إلى حمص يلتمس الكسب ويرتاد مَن يستفيد منه شيئاً، فسأل عن الفتيان [1] بهـا وأين يجتمعون، فقيل له: عليك بالحمامات فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا. فجاء إلى أحدها فدخله فإذا فيه جماعة منهم فأنِس بهم، ثم أخذوه إلى منزل أحدهم فأكلوا جميعاً وشربوا، ثم غنّى لهم من أراجيز معبد وغناء الغريض وخفائف ابن سُرَيْج وأهزاج حكَمٍ الواديّ وأغانيه هو فلم يتحرك من القوم أحد، وجعلوا يقولون: ليت أبا مُنَبّه قد جاءنا. ثم جـــاء أبو مُنَبّه فوثبوا جميعاً اليه وسلموا عليه وقدّموا له الطعام والشرابِ، ثم أخذ العود واندفع يغنّي:

طَـرِبَ البحر فاعـبُري يا سفينهْ
لا تَـشُـقّـي على رجال المدينـــهْ

فأقبل القوم يصفّقون ويطربون ويشربون. فقال حنينٌ في نفسه: لئن أصبحت سالماً لا أمسيتُ في هذه البلدة.

---

(١) الفتيان: طائفة يدينون بالفتوّة وخصال الرجولة. وهم أشد الناس احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج، فيخدمون بالنهار ويشترون بمـا يتجمع معهم الفواكه والطعام. فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه وكان ذلك ضيافته لديهم، وإن لم يرد واردٌ اجتمعوا هم على طعامهم وشرابهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعاتهم بالغدو. وقد كان الخليفة الناصر العباسيُّ المتوفى سنة ٦٢٢ قد جعل نفسه رئيساً لهذه الطائفة، وكتب سنة ٦٠٧ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا كأس الفتوّة ويلبسوا سراويلها وأن ينتسبوا اليه برمي البندق.

ويُرْوَى أن خالد بن عبد الله القسريّ حرّم الغناء بالعراق في أيامه، ثم أذِن للناس يوماً في الدخول عليه عامة، فدخل اليه حنينٌ ومعه عود تحت ثيابه، فقال: أصلح الله الأمير، كانت لي صناعة أعود بها على عيالي فحرّمها الأمير فأضرّ ذلك بي وبهم. فقال: وما صناعتك؟ فكشف عن عُوده وقال: هذا، فقال له خالد: غَنِّ، فحرَّك أوتاره وغنّى:

أيها الشامتُ المعيّرُ بالدهـ
ـر أأنتَ المبرّأُ الموفورُ؟
أم لديكَ العهدُ الوثيق من الأيّـ
ـام؟ بل أنت جاهلٌ مغرورُ
مَن رأيتَ المنونَ خلّدْنَ أم مَن
ذا عليه من أنْ يُضامَ خفيرُ؟

قال: فبكى خالد وقال: قد أذِنتُ لك وحدَك خاصة، فلا تجالسَنَّ سفيهاً ولا مُعَرْبِداً. فكان إذا دُعِيَ قال: أفيكم سفيهٌ أو مُعَرْبِدٌ؟ فإذا قيل: لا، دخل!

قال إسحاق: ولم يكن بالحيرة مذكور في الغناء سوى حنين إلّا نفراً من السَّدْرِيّين يقال لهم: عباديس، وزيد الطّلَيْس، وزيد بن كعب، ومالك بن حُمَمَة. وكانوا يغنون غناء الحِيرة بين الهزَج والنَّصْب[1] وهو إلى النَّصْب أقرب، ولم يُدوَّن منه شيء لسقوطه وأنه ليس من أغاني الفحول، وما سُمِع لأحد من هؤلاء خبرٌ إلّا لمالك بن حُمَمَة.

وقال إسحاق أيضاً: قيل لحنين: أنت تغنّي منذ خمسين سنة ما تركت لكريم مالاً ولا داراً ولا عَقاراً إلّا أتيتَ عليه! فقال: بأبي أنتم، إنما هي أنفاسي أقسِمُها بين الناس، أفتلُومونَني أنْ أغْلِيَ بها الثمن!

---

(١) النَّصْب: غناء يشبه الحُداء إلا أنه أرق.

واستقدمه ابن سُرَيْج والغريض ومعبد إلى الحجاز فقدِمَ وغنّى في منزل سُكينةَ بنتِ الحسين فازدحم الناس، فسقط عليه السطح فمات تحت الهدم، فقالت سكينة: لقد كدّر علينا حُنَيْنٌ سرورنا، انتظرناه مدةً طويلة كأنا والله كنا نسوقه إلى منيّته[1]. وكان عمره حين وفاته مائةَ سنة وسبعَ سنين.

***

أما الشام فلم يظهر فيه مغنّون في العصر الأمويّ اللهم إلّا أبو كامل الغُزَيِّل الدمشقيّ مولى الوليد بن يزيد، فقد كان مغنياً محسناً وطيّباً مضحكاً. كان يغنّي الوليد فيطرب له، وغنّاه ذات يوم لحناً لابن سُرَيْج فطربَ الوليد وخلع عليه حتى قَلَنْسِيَةَ وَشْيٍ مُذْهَبَةٍ كانت على رأسه. فكان أبو كامل يصونها ولا يلبَسها إلّا من عيد إلى عيد ويمسحها بكمه ويرفعها ويبكي ويقول: إنما أرفعها لأني أجد فيها ريح سيدي — يعني الوليد. وللوليد في أبي كامل أشعار كثيرة منها:

سَقَيْتُ أبا كامـلٍ	من الأصفر البابلِي
وَسَقَّيْتُها مَعْبداً	وكلَّ فتىً فاضلِ
لِيَ المَحضُ من وُدِّهِمْ	ويغمرُهم نائـلِي
ومـا لامَـنِي فيهمُ	سوى حاسدٍ جاهلِ[2]

وما عدا ذلك من الغناء فقد كان — كالشعر — طارئاً على الشام من الخارج. فأهلُ الغناء — وأكثرهم من الحجاز — كانوا يرحلون إلى دمشق ويدخلون على بعض الخلفاء ظاهرين أو متنكرين متكسّبين — كالشعراء — بغنائهم.

ومن الخلفاء وأبنائهم مَن كانوا يستقدمون إلى مجالسهم أهل الغناء، ومن يشترون الجواريَ المغنيات ويستأثرون بهِنَّ لأنفسهم.

---

(١) الأغاني: ج ٢ ص ٣٤١ — ٣٥٥. (٢) الأغاني: ج ٧ ص ٩١—٩٤.

ويؤرخ الجاحظ لموقف خلفاء الأمويين من الغناء فيقول : كان الخلفاء الأوَلُ يستمعون في أوقات فراغهم لقصائد الشعراء ، ولم يلبث الغناء أن حلّ محلّ الشعر . فكان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لا يَظهرون للندماء والمغنين ، بل كان بينهم حجاب ، حتى لا يطّلعَ الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طَرِب .

فقد تأخذ نشوةُ الطربِ بلُبّه فيقوم بحركاتٍ لا يطّلع عليها إلّا خواصُّ جواريه . وإذا ارتفع من خلف الستارة صوتٌ أو حركة غريبة صاح صاحب الستارة : « حَسْبُكِ يا جاريةُ ! كُفّي ! انْتَهِي ! أقصري ! » ، مُوهِماً النُّدَماء أن الفاعل لتلك الحركات هو بعضُ الجواري .

وكان بعض خلفاء بني أمية يَظهرون للندماء والمغنين ، ولا يَحفِلون بإتيان حركاتٍ تُثيرها نشوةُ الطَّربِ في نفوسهم . وكان يزيد بن عبد الملك يبالغ في المجون بحضرة الندماء ، كما سَوّى بين الطبقة العليا والسفلى ، وأذِنَ للندماء في الكلام والضَّحِك والهزل في مجلسه ، فلم يتورّعوا في الردّ عليه ، وحذا حَذْوَه في ذلك الوليدُ بن يزيد[1]

ومن خلفاء الأمويين الذين اشتهروا باللهو والشراب وحبّ الغناء يزيد ابن معاوية ، فقد كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب . ومما أُثِر عنه أنه جلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابنُ زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اِسْقِني شَرْبةً تُرَوّي مُشَاشِي
ثم مِلْ فَاسْقِ مثلها ابنَ زيادِ[2]

صاحبَ السّرّ والأمانة عندي
ولتسديد مَغْنَمِي وجهادي

---

(١) كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ : ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) مُشاشي : جَوْفي .

ثم أمر المغنين فغنَّوْا بـه ... وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستُعملت الملاهي ، وأظهر الناس شُربَ الشراب[1].

ومنهم يزيد بن عبد الملك ، فهو بالإضافة إلى ما ذكره الجاحظ عنه كان يهوي قينتين من قيان أهل المدينة : سلّامة القَسّ وحَبابة ، وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين . وكانت سلّامـةُ أحسنَهما غناء ، وحَبابةُ أحسنَهما وجهاً ، وكانت سلّامةُ تقول الشعر ، وحَبابةُ تتعاطاه فلا تحسنه .

وعلى منزل سلّامـة كان يتردد الشعراء من أمثال الأحوص وابن قيس الرقيات والحارث بن خالد المخزومي وعبد الرحمن بن أبي عمار القَسّ ، فكانوا يُنشدونها وتُنشدهم : ويقولون فيها الشعر وتغنيه .

وقد أُثِر عن يزيد قوله : ما يُقِرُّ عيني مـا أوتيت من أمر الخلافة حتى اشتريَ سلّامةَ جاريةَ مُصعَبِ بن سهيل الزُّهري ، وحَبابةَ جاريةَ آلِ لاحقٍ المكية ، وتمّ ليزيدَ ما أراد فاشتراهما ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرّ بها النَّوَى
كما قـرّ عيناً بالإياب المسافرُ

ثم قال : ما شاء بعدُ من أمر الدنيا فلْيَفُتْني .

وغلبتْ حَبابة على يزيد وشغلته بحبها وصوتها عن مسؤولية الحكم وتبِعات الخلافة . غنّته يوماً :

لعمرُكَ إنـني لأحبُّ سَلْعاً
لرؤيتها ومَن بجنوب سَلْـعِ[2]
تَقَـرُّ بقُربها عيـني وإني
لأخشى أن تكون تريد فَجْعِي

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٧٧ .

(٢) سلع : جبل بسوق المدينة ، وقيل : موضع بقرب المدينة .

حلَفتُ بربِّ مكةَ والهدايا
وأيدي السابحاتِ غداةَ جَمْعِ
لأنتِ على التنائي فاعلميه
أحبُّ إليَّ من بَصَري وسَمْعِي

ثم تنفّستْ تنفُساً شديداً ، فقال لها : ما لك ، أنت في ذمة أبي ، لئن شئتِ لأنقلنّه اليك — يعني سَلْعا — حجَراً حجَراً . قالت : وما أصنع به ، ليس إياه أردت ، إنما أردت صاحبَه ، وربما قالت ساكنه .

وغنّتْه مرةً وقد نال منه الشراب فأخذ من شدة الطرب وسادةً فصيّرها على رأسه وقام يدور في الدار ويرقص ويصيح : « السمكُ الطريُّ أربعةُ أرطال عند بيطار حيّان[1] » حتى دارَ الدار كلّها ثم رجع فجلس في مجلسه !

وكان من شدة تعلّقه بها إذا غنّته وطرب يقول لها : أتأذنين لي أن أطير ؟ فتقول له : وإلى مَن تَدَعُ الناس ؟ فيقول : إليك !

وقد عذَلَه أخوه مَسلمةُ بنُ عبدالملك لِما عمَّ الناسَ من الظلم والجَوْر ، باحتجابه وإقباله على الشراب واللهو ، وقال له : إنما مات عمر أمس — يعني عمرَ بنَ عبد العزيز — وقد كان من عدله ما علمتَ ، فينبغي أن تُظهر للناس العدل ، وترفض اللهو ، فقد اقتدى بك عمّالك في سائر أعمالك وسيرتك ، فارتدعَ عما كان عليه ، فأظهرَ الإقلاعَ والندم ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، فغَلُظ ذلك على حَبابة ، فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومعبدٍ المغنّي : أنظرا ما أنتما صانعان ، فقال الأحوص في أبيات :

ألا لا تَلُمْهُ اليومَ أنْ يتبلّدَا ..
فقد غلب المحزونَ أنْ يتجلّدَا
إذا كنتَ لم تعشَق ولم تدر ما الهوى
فكنْ حجَراً من يابس الصّلْدِ جَلمَدَا

---

(١) كلمات يهذي بها .

فما العيش إلّا مـــا تَلَذُّ وتشتهي
وإنْ لامَ فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

وغنّاه معبدٌ، وأخذَتْه حَبابة. فلما دخل عليها يزيد قالت: يا أمير المؤمنين أسمع مني صوتاً واحداً، ثم أفعلْ ما بَدَا لك، وغنّتْه، فلما فرغتْ منه جعل يردِّد قولها:

فما العيش إلّا مـــا تلذُّ وتشتهي
وإنْ لامَ فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

ويضرب بخيزُرانته الأرض ويقول: صَدقتِ! صدقتِ! على مَسلمة لعنةُ الله. ثم عاد إلى سيرته الأولى.

واعتلَّتْ حَبابةُ فأقام يزيد أياماً لا يَظهر للناس، ثم ماتتْ، فأقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جَيَّفَتْ، فقيل له: إن الناس يتحدثون بجَزَعك، وإن الخلافة تَجِلُّ عن ذلك فدفنها وأقام على قبرها فقال:

فإن تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهوى
فباليأس تَسْلُو النفسُ لا بالتجـــلُّدِ!

وكان لحبابةَ جُوَيْرِيَةٌ تخدُمها فضمَّها اليه، فكانت تحدثه وتؤنسه، فبينا هو يوماً يدور في قصره إذ قال لها: هذا الموضع الذي كنا فيه! فتمثلتْ:

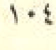
كفى حَزَناً للهائم الصَّبِّ أن يرَى
منازلَ مَنْ يَهْوَى مُعطَّلَةً قَفْرَا

فبكى حتى كاد يموت، ثم لم تزل تلك الجُوَيْرِيَةُ معه يتذكر بها حَبابة حتى مات سنة ١٠٥ للهجرة[١].

وورِثَ الوليدُ بنُ يزيدَ أباه في الخلاعة وزاد عليه حتى كان يُدْعَى «خليع بني مروان». فقد كان الوليد هذا صاحبَ شراب ولهوٍ وطرَبٍ

---

(١) انظر أخبار يزيد بن عبد الملك مع سلامة القَس وحبابة في: الأغاني: ج ٨ ص ٣٣٤، وج ١٥ ص ١٢٢، ومروج الذهب للمسعودي: ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٩.



وسماعٍ للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان اليه، وجالس المُلْهين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف. وفي أيامه كان ابنُ سُرَيْج المغنّي، ومعبدٌ، والغريض، وابن عائشة، وابن مُحْرِز، وطويس، وَعَطَرّد، ودَحمان، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه، وعلى الخاص والعام، واتخذ القيان، وكان متهتكاً ماجناً خليعاً (١).

ذكر أبو الفرج الأصبهاني أن الوليد بن يزيد كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم، وكان فاسقاً خليعاً متَّهماً في دِينه مَرْمِيّاً بالزندقة، وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقُتِل. وله أشعار كثيرة تدل على خُبثه وكفره. ومن الناس من ينفي ذلك عنه ويُنكره، ويقول: إنه نُحِلَه وأُلصِقَ اليه. والأغلب الأشهر غيرُ ذلك (٢).

يُرْوَى أن الوليد بلغه عن شراعة بن زيد حُسْنُ عِشْرة وحلاوةُ مجالسةٍ فبعث في إحضاره فلما أُدخِل اليه قال: إني ما بعثت اليك لأسألك عن كتاب ولا سُنَّة، قال: ولستُ من أهلها. قال: إنما أسألك عن القهوة، قال: سَلْ عن أيّ ذلك شئتَ يا أمير المؤمنين. قال: ما تقول في الشراب؟ قال: عن أيّه تسأل؟ قال: ما تقول في الماء؟ قال: يشاركني فيه البغل والحمار، قال: فنبيذ الزبيب؟ قال: خمارٌ وأذىً، قال: فنبيذ التمر؟ قال: ضراطٌ كلّه، قال: فالخمر؟ قال: شقيقةُ روحي، وأليفةُ نفسي.

قال: فما تقول في السّماع؟ قال: يبعث مع التأني على ذِكْر الأشجان، ويُجدّد اللهو على مواقع الأحزان، ويؤنس الخَلِيّ الوحيد، ويَسُرُّ العاشقَ الفريد، ويُبرد غليلَ القلوب، ويُثير من خواطر الضمائر خطرةً ليست من الملاهي لغيره، يُسرع تَرَقّيها في أجزاء الجسد، فتُهيج النفسَ، وتقوّي الحِسّ. قال: فأيُّ المجالس أحبُّ اليك؟ قال ما رأيتُ فيه

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ٢٢٥. (٢) الأغاني: ج ٧ ص ٢.

السماء من غير أن ينالني فيه أذىً. قال: فما تقول في الطعام؟ قال: ليس لصاحب الطعام اختيار، ما وجدَه أكلَه، فاتخذه الوليد نديماً[1].

وروى شيخ من تنوخ كان صاحبَ سِتْر الوليد بن يزيد أنه رأى عنده ابن عائشة وقد غنّاه:

إني رأيتُ صَبيحةَ النَّفْرِ
حُوراً نَفَيْنَ عزيمةَ الصَّبْرِ[2]
مثلَ الكواكب في مَطالعِها
بعد العشاء أطَفْنَ بالبدرِ
وخرجتُ أبْغِي الأجرَ مُحْتَسِباً
فرجعتُ مَوْفُوراً من الوِزْرِ

قال: فطرب الوليد حتى كفر وألحد وقال: يا غلامُ اسْقِنا بالسماء الرابعة — وكان الغناء يَعْمَلُ فيه عملاً ضلّ عنه مَن بعده — ثم قال: أحسنتَ والله يا أميري، أعِدْ بحقّ عبد شمس! فأعاد. ثم قال: أحسنتَ والله يا أميري، أعِدْ بحقّ أميّة! فأعاد. ثم قال: أعِدْ بحقّ فلان، أعِدْ بحقّ فلان حتى بلغ من الملوك نفسَه. فقال: أعِدْ بحياتي! فأعاده. قال: فقام اليه فأكبَّ عليه، فلم يُبقِ عُضواً من أعضائه إلّا قَبّله... ثم نزع ثيابه فألقاها عليه. وبَقِيَ مُجرّداً إلى أن أتَوْه بمثلها، ووهب له ألف دينار، وحمله على بغلة وقال: أركبْها — بأبي أنت — وانصرفْ، فقد تركتني على مثل المِقْلَى[3] من حرارة غنائك، فركبها على بِساطه وانصرف[4].

وظل الوليد وَلُوعاً بالغناء حَفِيّاً به إلى آخر يوم من حياته، فقد

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ٢٢٦.
(٢) النَّفْر في الأصل: التفرق، والمراد بصبيحة النفر هنا: صبيحة نزول الحجاج من منىً.
(٣) المِقْلَى والمِقلاة: هي ما يُقلى عليها اللحم ويُشوَى حتى يَنْضَج.
(٤) الأغاني: ج ٢ ص ٢٢٦.

كان معه من المغنين يوم مقتله عمرُ الواديُ . قال : كنتُ أغنّيه :

كذبَتْكَ نفسُكَ أم رأيتَ بواسطٍ
غلَسَ الظلام من الرَّبابِ خيالا

فما أتممتُ الصوت حتى رأيت رأسَه قد فارق بدَنه ، ورأيته يتشحّط في دمه (١) .

***

والحق أن الغناء العربيّ قد تطور كثيراً بعد الإسلام بفعل ما أُدخِل عليه من ألحان الفرس والروم ، وكذلك بفعل العوامل الجديدة التي طرأت على المجتمع الحجازيّ خاصة وأثّرت في نفوس أهله .

وعندما شاع الغناء ، وازداد الشغف به والإقبال على سماعه ، أخذ الناس يتكلمون ويتجادلون فيه من حيث الإباحةُ والتحريم ، واختلفت في ذلك أقوالهم ، وتباعدت مذاهبهم ، وتباينت استدلالاتهم .

فنهم من رأى إباحته وصمّم على إباحته ، ومنهم من رأى كراهته وأنكر استماعه ، واستدل على تحريمه ، ومنهم من فرّق بين أن يكون الغناء مجرّداً ، أو أضيف إليه آلةٌ كالعود والطنبور وغيرهما من الآلات ذوات الأوتار والدُّفوف والمعازف والقصب ، فأباحه على انفراده وكرهه إذا انضاف إلى غيره ، وحرّم سماع الآلات مطلقاً . وكان لكل فريق أدلة استدل بها على صحة دعواه .

فمن حُجَج مَن أجاز الغناء وأباحه أن أصله الشعر الذي أمر النبيّ ﷺ به ، وحَضَّ عليه ، وندب أصحابه إليه ، وتجنّد به على المشركين فقال لحسّان : شُنَّ الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لَشعرك أشدُّ عليهم من وقع السّهام في غلَسِ الظلام .

وقالت عائشة : علّموا أولادكم الشعر تَعذُبْ ألسنتُهم . وأردف

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٨١ .

النبيَّ ﷺ الشَّريدَ ، فاستنشده من شعر أميَّة ، فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه ! استحساناً لها .

ثم قالوا لمخالفيهم : إنكم تجيزون أن يؤخذ القرآن والأذان بلحنٍ حسنٍ ، وتأبَوْن ذلك في الشعر . فإذا كانت الألحان مكروهة ، فالقرآن والأذان أحقُّ بالتنزيه عنه . وإن كانت غيرَ مكروهة فالشعر أحوجُ إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حدّ الخبر . وما الفرق بين أن يُنشِد الرجل :

أتعرف رَسْماً كاطِّرادِ المذاهبِ
لِعَمْرَةَ وَحْشاً غير موقفِ راكبِ

مُتَرَسِّلاً أو يرفعَ بها صوته مُرْتجِلاً ؟ وإنما جعلتِ العربُ الشعرَ موزوناً لِمَدّ الصوت فيه والدَّنْدَنَةِ[1]. ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور .

واحتجوا في إباحة الغناء بقول النبي لعائشة عندما زَوَّجت ذاتَ قرابةٍ لها رجلاً من الأنصار : « أهْديتم الفتاة إلى بَعْلِها » ؟ قالت : نعم . قال : « وبعثتم معها مَن يُغنّي » ؟ قالت : لا . قال : « أوَمَا علمتم أن الأنصار قومٌ يعجبهم الغزَل ؟ ألا بعثتم معها مَن يقول :

أتيناكُمْ أتيناكُمْ نُحَيّيكُمْ نُحَيّيكُمْ
ولولا الحبَّةُ السَّمْرا ءُ لم نَحلُلْ بواديكُمْ » ؟

واحتجوا بحديث عبدالله بن أُوَيْس ابن عمّ مالك ، وكان من أفضل رجال الزُّهريّ قال : مَرَّ النبيّ ﷺ بجاريةٍ في ظلّ فارعٍ[2] وهي تُغَنّي :

هـل عليَّ وَيْحَكُمْ إنْ لهَوْتُ من حَرَجٍ ؟

فقال النبي : لا حَرَجَ إن شاء الله .

وقال النبي لأبي موسى الأشعريّ لمّا أعجبه حسنُ صوته : لقد أوتيتَ مِزماراً من مزامير آلِ داود .

(١) الدندنة في الأصل : صوت الذباب والنحل والزنابير ونحوها ، وهي أيضاً : النغمة والصوت والكلام الذي لا يُفهَم . (٢) فارع : حصن بالمدينة .

واحتجوا كذلك بأقوال بعض الخلفاء والصحابة والتابعين. رُويَ أن عمر بن الخطاب قال للنابغة الجعديّ: أسمعْنِي بعضَ ما عفا الله لك عنه من هَناتك، فأسمعه كلمةً له. قال: وإنك لقائلها؟ قال: نعم. قال: لطالما غنّيتُ بها خلف جِمال الخَطّاب.

وقال سليمان بن يسار: رأيت سعد بن أبي وقّاص في منزل بين مكة والمدينة قد أُلقِيَ له مُصَلّى فاستلقى عليه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يتغنّى. فقلت: سبحانَ الله أبا إسحاق، أتفعل هذا وأنت مُحْرِم؟ فقال يا ابنَ أخي، وهل تسمعني أقولُ هُجْراً؟[1].

ولعل الجاحظ خير من دافع عن إباحة الغناء واحتج له، وذلك إذ يقول:

«ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر. وكانت فارس تعدُّ الغناء أدباً والرومُ فلسفةً».

وكانت في الجاهلية الجرادتان لعبد الله بن جُدعان[2]. وكان لعبد الله ابن جعفر الطيّار جوارٍ يتغنّين، وغلامٌ يقال له «بُدَيْح» يتغنّى، فعابه بذلك مروان بن الحكم، فقال: وما عليّ أنْ آخذَ الجيّد من أشعار العرب وألقيَه إلى الجواري فيترنّمْن به ويُشَذّرْنَه[3] بحلوقهنّ ونغَمِهنّ!

وسمع يزيد بن معاوية الغناء. واتخذ يزيد بن عبد الملك حَبابة وسلاّمة، وأدخل الرجال عليهنّ للسماع، فقال الشاعر في حَبابة:

إذا ما حَنّ مِزهرُها اليها
وحنّتْ دونه أذنَ الكرامُ[4]

وأصغَوْا نحوَه الآذانَ حتّى
كأنهمُ وما ناموا نيامُ

---

(١) انظر حجج من أجازوا الغناء في كتاب العقد الفريد: ج ٦ ص ٦.

(٢) ابن جُدعان: من سادة قريش الأجواد في الجاهلية، وكان له جاريتان تتغنيان سمّاهما بجرادتيْ عاد. الاغاني: ٨/٣٢٧.

(٣) هو من قولهم: شذّر النظم: فصّله بالخرز ونحوه. (٤) أذن الكرام: استمعوا وأنصتوا.

وقال في سلاّمة :

ألم ترها والله يكفيك شرّها
إذا طرّبت في صوتها كيف تصنع؟

تردّ نظام القول حتى تردّه
إلى صُلصُلٍ من حلقها يترجّع

وكان يسمع فإذا طرِبَ شقّ بُردَه ثم يقول : أطير ! فتقول حَبابة : لا تطِرْ فإن بنا اليك حاجة .

ثم كان الوليدُ بن يزيد المتقدّمَ في اللهو والغزل ، والملوكُ بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيل الأول .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قبل أن تناله الخلافةُ يتغنّى . فمّا يُعرَف من غنائه :

أمّا صاحبيَّ نزُرْ سُعادا   لقُرب مَزارِها ودَعا البِعادا

وله :

عاودَ القلبُ سُعادَا   فقَلا الطَّرْفُ السُّهَادا [١]

ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شِعراً مكسوّاً نغماً : فما كان منه صِدْقاً فحَسَنٌ وما كان منه كذباً فقبيح .

وقال النبي ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » . وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « الشعر كلامٌ ، فحَسَنُه حسَنٌ ، وقبيحه قبيح » .

ولا نرى وزنَ الشعر أزال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضرُّه ذلك ، ولا يُزيل منزلته من الحكمة » .

---

(١) قَلاَ الشيء يقلوه ويقليه : أبغضه . ذكر أن عمر بن عبدالعزيز أول مَن دُوّنت له صنعة من الخلفاء وأولادهم ، ويقال : إنه صنع في أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلها . الأغاني : ٢١٩/٨ .

« فإذا وجب أن الكلام غيرُ محرّم فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلّة من العِلل . وإن الترجيع له أيضاً لا يخرج إلى حرام . وإن وزنَ الشعر من جنس وزن الغناء ، وكتابَ العروض من كتاب الموسيقى . . . . فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك في كتاب الله ولا سُنّة نبيّه ﷺ .

فإن كان إنما يُحرّمه لأنه يُلهي عن ذِكْر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصدُّ وتُلهي عن ذِكْر الله . ونعلم أنّ قَطْعَ الدهر بذكر الله لمَن أمكنه أفضل ، إلّا أنه إذا أدّى الرجلُ الفَرضَ فهذه الأمور كلّها له مباحة ، وإذا قصّر عنه لِزمه المأثم .

ولو سَلِم من اللهو عن ذكْر الله أحدٌ لَسَلِم الأنبياء عليهم السلام . هذا سليمانُ بن داودَ عليهما السلام ، ألهاه عَرْضُ الخيل عن الصلاة حتى غابت الشمس ، فعرْقَبَها وقطع رقابها »[1] .

* * *

أما مَن كرهوا الغناء وقالوا بتحريمه فقد استدلوا على التحريم بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من العلماء المسلمين .

فمن الكتاب العزيز استدلوا بآياتٍ مثل قوله تعالى : « ومِن الناسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ بغَيْرِ عِلْم » ، وقوله تعالى : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنهُمْ بِصَوْتِكَ » . فقد فسّر ابن عباس « اللهو » في الآية الأولى بالغناء وأشباهه ، وفسّر مجاهدٌ « الصوت » في الآية الثانية بصوت الغناء والمزامير .

ومن السُنّة استدلوا بقول عائشة : إن الله عزّ وجلّ حرّم القَيْنةَ وبَيْعَها وثَمَنَها وتعليمَها والاستماعَ إليها .

(١) رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦١ .

وأما أقوال الصحابة والتابعين، فقد رُوِيَ عن عثمان بن عفان أنه قال: «ما تغنَّيْتُ قطّ» فتبرّأ من الغناء وفخر بتركه. ورُويَ عن ابن مسعود أنه قال: الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء البقلَ.

ورُويَ أنّ ابنَ عمرَ مرّ على قوم مُحرِمين ومعهم رجل يغنّي فقال:

ألاَ لا أسمع اللهُ لكم، ألاَ لا أسمع اللهُ لكم! وعن إسحاق بن عيسى قال: سألت مالك بن أنَس عما ترخّص فيه بعض أهل المدينة من الغناء فقال: ما يفعله عندنا إلّا الفُسّاق.

ورُويَ أن رجلاً سأل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: ما تقول في الغناء أحرامٌ هو؟ فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: إذا كان يومُ القيامة فأُتِي بالحق والباطل أين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: فأفْتِ نفسَك.

ورُويَ عن داودَ الثقفيّ قال: كنا في حلقة ابن جُرَيْج وهو يحدثنا، وعنده جماعة فيهم عبدالله بن المبارك وعِدّةٌ من العراقيين إذ مرّ به ابنُ مَيْزَن المغنّي... فدعاه ابن جُرَيج فقال له: أحبُّ أن تسمعني، قال: أنا مستعجل، فألحّ عليه فغنّاه، وقال: لولا مكانُ هؤلاء الثقلاءِ عندك لأطلتُ معك حتى تقضيَ وَطرَك. فالتفت ابن جُرَيج إلى أصحابه فقال: لعلكم أنكرتم ما فعلت. فقالوا: إنا لنُنكره عندنا بالعراق ونكرهه. قال: فما تقولون في الرّجز؟ يعني الحُداء. قالوا: لا بأس به عندنا. قال: فما الفرق بينه وبين الغناء؟[1].

وقال الضحّاك: الغناء مفسدةٌ للقلب مَسْخَطةٌ للربّ. وقال بعضهم: الغناء رائد من رُوّاد الفجور. وقال آخرون: الغناء ينفّر القلوب، ويستفزُّ العقول، ويستخفُّ الحليم، ويبعث على اللهو، ويَحُضّ على الطرب،

(١) الأغاني: ج ١ ص ١٥٧. وابن جريج: هو عبدالله بن عبد العزيز القرشيّ بالولاء المكيّ. كان أحد العلماء المشهورين، ويقال: إنه أول من صنف الكتب في الإسلام.

وهو باطل في أصله . وكرِه قوم الغناء على طريق الزهد في الدنيا ولذاتها ، كما كرِهَ بعضهم الملاذّ .

وقال الوليد بن يزيد مع اشتهاره بما اشتهر به . يا بني أمية ، إياكم والغناءَ ، فإنه ينقص الحياءَ ويَزيد في الشهوة ويهدِم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السُكْر . فإن كنتم لا شك فاعلين ، فجنّبوه النساء ، فإن الغناءَ رُقيةُ الزّنا . وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبُّ إليّ من كل لذة ، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغُلّةِ الصادي ، ولكنّ الحقّ أحقُّ أن يقال [1] .

وأما أقوال الأئمة فقد قال الإمام الشافعيّ في كتاب أدب القضاة : الغناء لَهْوٌ مكروهٌ يشبه الباطل . وقال : من استكثر منه فهو سفيه تُرَدُّ شهادته . وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَد شهادته . ثم غلّظ القول فيه وقال : هو دِيَاثَةٌ .

وجعل أبو حنيفة سماع الغناء من الذنوب . وحدّث ابراهيم بن سعد الزُهريّ قال : قال لي أبو يوسف القاضي : ما أعجبَ أمرَكم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ! ما منكم من شريف ولا دنيء يتحاشى عنها !

قال : فغضبت وقلت : قاتلكم الله يا أهل العراق ! ما أوضحَ جهلَكم وأبعدَ عن السداد رأيَكم ! متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المُسْكِر ، فيترك أحدُهم صلاته ، ويطلّق امرأته ، ويقذف المحصَنة من جاراته ، ويكفر بربه ؟ فأين هذا من هذا الذي اختار شعراً جيداً ثم اختار له جِرْماً [2] حسناً فردّدَه عليه ، فأطربه وأبهجه ، فعفا عن الجرائم ، وأعطى الرغائب ؟ فقال أبو يوسف : قطعتني ، ولم يَحِرْ جواباً [3] .

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٧٠ . (٢) الجرم : الصوت .
(٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ٩ - ١١ .

وقال بعضهم عن حال سماعه :

أتذكرُ وقتَنا وقــد اجتمعنا
على طِيب الغِنــاء إلى الصباحِ
ودارتْ بيننــا كأسُ الأغاني
فأسكرتِ النفوسَ بغير راحِ
فــلم ترَ فيهمُ إلَّا نشاوَى
سروراً والسرورُ هنــاك صاحِ
إذا لَبَّى أخو اللذاتِ فيــه
منادي اللهــوِ حيَّ على السماحِ [1]
ولم نملك سوى المُهْجاتِ شيئاً
أرقناهــا لألحــاظٍ مِــلاحِ [2]

***

وقد ظهر الكلام في إباحة الغناء وتحريمه أكثر ما ظهر في العراق والشام والحجاز. ولعل الحجاز كان أكثر من غيره وَلَعاً بالغناء، وإقبالاً عليه، وتأثراً به، ورعايةً له.

فمن الحجازيين على اختلاف طبقاتهم مَن كان يُشغَف بالغناء، ويغشَى مجالسه أو يصطنعه، ومنهم مَن كان يعقد له المجالس الخاصة والعامة، ومَن كان يرعى ذوي المواهب فيه من الموالي والجواري.

ولكنْ كان منهم أيضاً مَن يعزف عن الغناء بعامل الدين أو عوامل أخرى، وحتى هؤلاء سرعان ما كان يزول تحرُّجهم أمام سلطان الغناء الحسن فلا يملكون إلَّا أن يطربوا له ويُجيزوه. وفي الأخبار التالية ما يؤيد كلَّ ذلك.

---

(١) حيَّ على السماح : أي هَلُمُّوا وأقبلوا اليه مسرعين.

(٢) انظر حجج إباحة الغناء وتحريمه في كتاب نهاية الأرب للنويري : ج ٤ ص ١٣٣ — ١٤٠.

• كان في المدينة في الصدر الأول مُغَنٍّ اسمه «قَنْد» ينتمي بالولاء إلى سعد بن أبي وقّاص، وكانت عائشة أمُّ المؤمنين تستظرفه، فضربه سعد، فحلفت عائشة، لا تكلّمه حتى يرضى عنه «قَنْد»، فدخل عليه سعد وهو وَجِعٌ من ضربه، فاسترضاه، فرضيَ عنه، وكلمته عائشة [١].

• وكان عبد الله بن عمر يحب عبد الله بن جعفر حباً شديداً. فدخل عليه يوماً وبين يديه جاريةٌ في حِجرها عُودٌ، فقال: ما هذا يا أبا جعفر؟ قال: وما تظن به يا أبا عبد الرحمن؟ فإن أصاب ظنُّك فلك الجارية. قال: ما أراني إلّا قد أخذتُها، هذا ميزانٌ رُوميٌّ. فضحك ابن جعفر وقال: صدقت. هذا ميزان يوزن به الكلام، والجاريةُ لك. ثم قال: هاتي. فغنّتْ:

أيا شوقاً إلى البلد الأمين

وحيٍّ بين زمزمَ والحَجُونِ

ثم قال: هل ترى بأساً؟ قال: هل غيرُ هذا؟ قال: لا، قال: فما أرى بهذا بأساً [٢].

• وقال جُرَيْرٌ المدنيّ المغنّي: مررتُ بالأسلم العابد وهو في مسجد رسول الله يصلّي، فسلمتُ عليه، فأومأ إليّ وأشار بالجلوس فجلست. فلما سلّم أخذ بيدي وأشار الى حَلْقي، وقال: كيف هو؟ قلتُ: أحسنُ ما كان قطُّ. قال: أمَا والله لَوَدِدْتُ أنه خلا لي وجهك وأنك أسمعْتَني:

يا لَقومِي لِحَبْلِكَ المَصْرومِ

يومَ شطّوا وأنتَ غيرُ مَلُومِ

أصبح الرَّبْعُ من أمامةَ قفراً

غيرَ مَغْنَى معارفٍ ورُسُومِ

(١) العقد الفريد: ج ٦ ص ٣٤. (٢) العقد الفريد: ج ٦ ص ١٢.

قلت : إذا شئتَ . قال : في غير هذا الوقت إن شاء الله[1] .

• وَوَلِيَ الأوقصُ المخزوميُّ قضاءَ مكة ، فما رُئِيَ مثلُه في العفاف والنُبْل . فبينا هو نائم ذات ليلة في عُلِّيَّةٍ له ، إذ مرَّ به سكرانُ يتغنّى ويَلْحَنُ في غنائه . فأشرف المخزوميُّ عليه ، فقال : يا هذا ، شرِبتَ حراماً ، وأيقظتَ نياماً ، وغنَّيْتَ خطأً ، خُذْه عنّي ، فأصلحَه عليه[2] .

• واختُلِف في الغناء عند محمد بن ابراهيم والي مكة ، فأرسل إلى ابن جُرَيْج وإلى عمرو بن عُبيد فأتياه فسألهما . فقال له ابن جُرَيْج : لا بأس به ، شهدتُ عطاءَ بنَ أبي رباح في ختان ولده ، وعنده ابن سُرَيْج المغنّي ، فكان إذا غنّى لم يقلْ له : اُسكتْ ، وإذا سكتَ ، لم يقلْ له : غنِّ ، وإذا لَحَنَ ردَّ عليه[3] .

• وغنّى رجل في المسجد الحرام ، وهو مُسْتلقٍ على قفاه صوتاً ، ورجلٌ من قريش يصلّي في جواره ، فسمعه خُدّامُ المسجد ، فقالوا: يا عدوَّ الله ، أتغنّي في المسجد الحرام ! ورفعوه إلى صاحب الشرطة ، فتجوّزَ[4] القرشيُّ في صلاته ، ثم سلّم وتبعه ، فقال لصاحب الشرطة : كذبوا عليه أصلحك الله ، إنما كان يقرأ . فقال : يا فُسّاق ، أتأتونني برجل قرأ القرآن تزعمون أنه غنّى ! خَلّوا سبيله . فلما خَلَّوْهُ ، قال له القرشيُّ : والله لولا أنك أحسنتَ وأجَدْتَ ما شهدتُ لك . اذهبْ راشداً[5] .

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١ ، وابن جريج : سبق ذكره ، وعمرو بن عبيد : من شيوخ المعتزلة وأحد الزهاد المشهورين، وعطاء بن أبي رباح : كان من أجلاء الفقهاء وتابعي مكة وزُهّادها.

(٤) تجوّز : تخفّف ،

(٥) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٤ .

• وحدّث حسين بن دَحمان الأشقر قال : كنت بالمدينة فخلا لي الطريق وسط النهار ، فجعلت أغنّي :

ما بالُ أهلكِ يا رَبابُ   خُزْراً[1] كأنهمُ غضابُ ؟

قال : فإذا خَوْخَةٌ[2] قد فُتحت ، وإذا وجهٌ قد بدا تتبعه لحية حمراء ، فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويساً قد نُشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله ! من أين لك هـذا الغناء ؟ فقال : نشأت وأنا غلام حدَث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لي أمي : يا بنيّ إن المغنّيَ إذا كان قبيح الوجه لم يُلتفَت إلى غنائه ، فدعِ الغناء واطلبِ الفقه ، فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بي عز وجل ما ترى ، فقلت له : أعِدْ جُعلت فداك ! قال : لا ولا كرامةَ ! أتريد أن تقول : أخذتُه عن مالك بن أنس ؟ وإذا هو مالك بن أنس ولا أعلم[3].

• وكان عروة بن أذَيْنة يُعَدّ ثقة ثَبْتاً في الحديث ، روى عنه مالك ابن أنس ، وكان شاعراً لَبِقاً في شعره غَزِلاً ، وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين[4].

• وكان الفقيه الورع عبد الرحمن بن عبد الله الملقب بالقَسّ يُعَدُّ عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة .

مرّ يوماً بسلّامة وهي تغنّي ، فقام يستمع غناءها ، فرآه مولاها فقال له : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ فأبى . فلم يزل به حتى دخل . ثم أوقفه في موضع بحيث يراها ولا تراه ، فغنّته فأعجبته ، فقال له مولاها: هل لكَ في أن أُخرجَها اليك ؟ فأبى ذلك عليه ، فلم يزل به حتى أجابه ،

(١) خزر : جمع أخزر ، والأخزر الذي في عينيه ضِيق وصِغَر .
(٢) الخَوْخَة : الباب الصغير في الباب الكبير .
(٣) الاغاني : ج ٤ ص ٢٢٢ . (٤) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٦ .

فلم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شُغف بها . ولما شعرت للحظه إياها غنّتْه :

رُبَّ رسولين لنا بَلّغا | رسالةً من قبل أن يَبْرَحَا
لم يُعْمِلا خُفًّا ولا حافِراً | ولا لِساناً بالهوى مُفصِحَا
حتى استقلّا بجوابَيْهما | بالطائر الميمون قد أنجحَا
الطَّرْفُ والطَّرْفُ بعثناهما | فقضَيَا حاجاً وما صرَّحَا

فأُغْمِيَ عليه وكاد أن يَهْلك ، وعُرِف أمرُه بمكة .

وقد نظم فيها شعراً رقيقاً مؤثراً ، كقوله :

ألا قلْ لهذا القلبِ هل أنت مُبصِرُ ؟
وهل أنت عن سلّامةَ اليومَ مُقصِرُ ؟
ألا ليتَ أني حين صارتْ بها النّوَى
جليسٌ لِسَلْمَى كلما عجَّ مِزْهَرُ

قالت له يوماً : إني والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك . قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك . قال : وأنا والله . قالت : فما يمنعك . فوالله إن الموضع لخالٍ . قال : أما سمعتِ قول الله تعالى : « الأَخِلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لِبعضٍ عدوٌّ إلّا المتّقينَ » . وأنا أخشى أن تكون صداقةُ ما بيننا عداوةً يومَ القيامة . ثم نهض وعاد الى طريقته التي كان عليها من النسك والعبادة ، وأنشأ يقول :

قد كنتُ أعذُلُ في السّفاهة أهلَها
فاعجبْ لما تأتي به الأيامُ
فاليومَ أعذُرُهم وأعلم أنما
سُبلُ الضلالةِ والهُدَى أقسامُ [1]

---

(١) الاغاني : ج ٨ ص ٣٣٨ ، وانظر كذلك العقد الفريد : ج ٦ ص ١٦ - ١٧ .

• وكان عبدالله بن جعفر على شرفه وعلو قدره وتقواه أكثرَ أهل زمانه حباً للغناء وعملاً له، وتعهداً لأهله بالرعاية والإكرام. وكثيراً ما ناله اللومُ بسبب ذلك من الخلفاء وغيرهم فلم يأبه له!

— كان يعيب عليه معاوية سماعَ الغناء، وحجَّ معاويةُ عاماً ونزل المدينة فمرَّ ليلةً بدار عبدالله بن جعفر، فسمع عنده غناء على أوتار، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول استغفرالله، استغفرالله!

فلما انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضاً، فإذا عبدالله قائم يصلّي، فوقف ليستمع قراءته، فقال: الحمد لله، ثم مضَى وهو يقول: «خلَطوا عمَلاً صالِحاً وآخرَ سيئاً عسَى اللهُ أنْ يتُوبَ عليهم»[1].

وبلغ ذلك ابنَ جعفر فأعدَّ لمعاوية طعاماً، ودعاه إلى منزله، وأحضر ابنَ صَيَّادٍ المغنّي، وقال له: إذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام فحرِّكْ أوتارَكَ وغَنِّ. فلما وضع معاوية يده في الطعام حرَّكَ ابنُ صيّاد أوتارَه وغنّى بشعر عَدِيِّ بنِ زيد وكان معاوية يُعجَب به:

يا لُبَيْنَى أوقِدي النارَا ... إنَّ مَن تَهْوَيْنَ قد حارَا
رُبَّ نارٍ بِتُّ أرْمُقُها ... تَقْضِمُ الهنديَّ والغارَا
ولها ظَبْيٌ ... يُؤَجِّجُها ... عاقِدٌ في الخَصْرِ زُنّارَا

قال: فأعجبَ معاويةَ غناؤُه حتى قبض يدَه عن الطعام، وجعل يضرب برجله الأرض طرَباً. فقال له عبدالله بن جعفر: يا أمير المؤمنين إنما هو مُختار الشعر يُركَّبُ عليه مُختار الألحان. فهل ترى به بأساً؟ قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الأوزان.

— وأرِق معاوية ذات ليلة فبعث إلى عبدالله مَن يخبره بخروجه إليه، فأقام مَن كان عنده، ثم جاء معاوية فلم يرَ في المجلس غيرَ عبدالله،

---

(١) العقد الفريد: ج ٦ ص ١٧ — ١٨.

فطلب إليه أن يُرجع كل من كانوا عنده فرجعوا حتى لم يبق إلّا مجلسُ رجل ، فقال معاوية : مجلس مَن هذا ؟ قال : مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين . قال : فإن أذني عليلة فمُرْه فليرجع إلى موضعه ، وكان موضعَ بُديح المغني ، فأمره ابن جعفر فرجع إلى موضعه . فقال له معاوية : داوِ أذني من علتها ، فتناول بُديح العود ثم غنّى ، فحرّك عبدالله بن جعفر رأسه ، فقال له معاوية : لِمَ حرّكت رأسك يا ابن جعفر ؟ قال : أريحيةٌ أجدها يا أمير المؤمنين ، لو لُقيت عندها لأبليت ، ولئن سئلت عندها لأعطيت . ثم غنّى بُديح ثانيةً فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرّك رجله . فقال ابن جعفر : يا أمير المؤمنين سألتني عن تحريك رأسي فأخبرتك . وأنا أسألك عن تحريك رجلك . فقال معاوية : كل كريم طروب [1] .

— وقدم عبدالله بن جعفر على معاوية بالشام ، فأنزله في دارٍ عالية وأكرمه بما كان يستحقه ، فغاظ ذلك فاختةَ بنتَ قَرظَةَ ، زوجةَ معاوية . وذات ليلة سمعتْ غناءً عند عبدالله بن جعفر ، فجاءتْ إلى معاوية فقالت : هَلُمَّ فاسمعْ ما في منزل هذا الذي جعلته بين لحمك ودمك ، وأنزلتَه في دار حَرَمِك .

فجاء معاوية فسمع شيئاً حرّكه وأطربه ، فقال : والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال تَخِرُّ له ، وما أظنه إلّا من تلقينِ الجِنّ ، ثم انصرف .

فلما كان من آخر الليل سمع معاويةُ قراءة عبدالله وهو قائم يصلّي ، فأنْبَهَ فاختةَ وقال لها : اسمعي مكان ما أسمعتني ، هؤلاء قومي : ملوكٌ بالنهار رُهبانٌ بالليل ! [2] .

— ووفد عبدالله بن جعفر على عبدالملك بن مروان فأقام عنده حيناً . فبينا هو ذات ليلة في سمره إذْ تذاكروا الغِناء . فقال عبد الملك : قَبَّح

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٩ . (٢) المرجع السابق : ص ١٨ .

الله الغناء ، ما أوضعه للمروءة ، وأجرحه للعرض ، وأهدمه للشرف ، وأذهبه للبهاء !

قال عبدُ الملك ذلك تعريضاً بعبدالله ، وأعانه عليه مَن حضر من أصحابه ، وعبدُ الله ساكت . فقال عبدُ الملك : مالك أبا جعفر لا تتكلم ؟ قال : ما أقول ولحمي يتمزّع وعِرضي يتمزّق ؟ قال : أمَا إني نُبئتُ أنك تُغنّي . قال : أجل ، يا أمير المؤمنين . قال أفٌّ لك وتُفٌّ[1] !. قال : لا أفٌّ ولا تُفٌّ ، فقد تأتي أنت بما هو أعظمُ من ذلك .

قال : وما هو ؟ قال : يأتيك الأعرابيُّ الجافي يقول الزورَ ويقذف المحصَنات ، فتأمر له بألف دينار ، وأشتري أنا الجاريةَ الحسناء من مالي فأختار لها من الشعر أجودَه ومن الكلام أحسنَه ، ثم تُردّدُه عليَّ بصوتٍ حسَنٍ ، فهل بذلك من بأس ؟ قال : لا بأس[2] .

— ومرَّ ببعض أزقّة المدينة إذ سمع غناءً فأصغى إليه ، فإذا بصوتٍ شَجيٍّ رقيقٍ لِقَيْنَةٍ تُغنّي :

قُلْ للكرام بِبَابِنا يَلِجوا
ما في التصابي على الفتى حَرَجُ

فنزل عبدالله عن دابته ودخل على القوم بلا إذْن . فلما رَأَوْه قاموا إليه إجلالاً له ورفعوا مجلسه . ثم أقبل عليه صاحب المنزل فقال : يا ابن عمّ رسول الله ، دخلت منزلنا بلا إذْن وما كنت لهذا بخليق .

فقال عبدالله : لم أدخل إلّا بإذنْ . قال : ومَن أذِنَ لك ؟ قال : قَيْنَتُك هذه ، سمعتها تقول :

* قلْ للكرام بِبَابِنَا يَلِجُوا *

(١) الأفّ : وسخ الأذن ، والتُفّ : وسخ الأظافر . وأفٌّ لك وتُفٌّ : تعبير يقال عند استقذار الشيء ، ثم استعمل ذلك عند كل شيء يُضجَر منه ، ويتأذى به .

(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٥٥ .

فَوَلَجْنا . فإنْ كنا كراماً فقد أَذِنَ لنا ، وإنَّ كنا لِئاماً خرجنا مذمومين . فضحك صاحب المنزل . وقال : صدقتَ - جُعِلتُ فداك - ما أنت إلّا من أكرم الأكرمين . ثم بعث عبدُالله إلى جارية من جواريه فجاءت ، فقال لها : غَنّي . فغنَّتْ ، فطرب القوم وطرب عبدالله . فدعا بثياب وطِيب ، فكَسَا القومَ وصاحبَ المنزل وطيَّبَهم ، ووَهب له الجارية ، وقال له : هذه أحذق بالغناء من جاريتك[1]

• وعن إسحاق : أنّ ابن سُرَيْج كان جالساً ، فمر به عطاء بن أبي رباح وابن جريج ، فحلف عليهما بالطلاق أن يغنّيَهما ، على أنهما إنْ نهياه بعد أن يسمعا منه تركه ، فوقفا له وغنّاهما :

إخوتي لا تبْعُدُوا أبداً وا بَلَى والله قد بَعُدُوا

فغُشِيَ على ابن جريج وقام عطاء فرقص[2] .

***

• وإذا انتقلنا إلى أخبار شعراء الحجاز وأدبائه مع أهـــل الغناء فإننا نرى أنفسَنا أمامَ قومٍ كأنما خُلِقوا للشعر والغناء والطرب ! وأخبارُ هؤلاء تَفيض بها كتب الأدب والغناء ، وكلّها تدلُّ على رقة عواطفهم وشغفهم بالغناء ، وتأثرهم بسماعه !

يجتمع عمر بن أبي ربيعة والأحوص الأنصاريُّ وابن أبي عتيق مثـلاً بمنزل « جميلة » في المدينـة وتغنيهم فيُسمَع للبيت زلزلةٌ وللدار همهمةٌ ، ويقول عمر : لله درُّك يا جميلة ! ماذا أُعطيتِ ! أنتِ أولُ الغناء وآخرُه !

وتغنيهم ثانيـة فيستخفُّ الغناءُ القومَ أجمعين ، فيصفقون بأيديهم ، ويفحصون بأرجلهم ، ويحركون رُءوسَهم ، ويقولون : نحن فداؤك من السوء ، ووقاؤك من المكروه . ما أحسن ما غنّيْتِ وأجملَ ما قلتِ !

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٠ .

(٢) الاغاني : ج ١ ص ٣١٦ ، وقوله « وا » هنا اسم لأعجب .

ثم تغنيهم بعد الغَداء والشراب من شعر عمر ، فيصيح : ويلاه ! ويلاه ! ثلاثاً ، ثم يعمِد إلى جيب قميصه فيشقّه إلى أسفله ، ثم يثوب إلى عقله فيندم ويعتذر ، ويقول : لم أملك نفسي شيئاً[1] !

ويمضي الأحوص مع معبدٍ يوماً إلى « عَقيلة » ليسمعا من غنائها وغناءِ جواريها فيلتقيان عند بابها بمعاذٍ الأنصاريّ وابن صياد ، فتأذن لهم ألّا الأحوص فإنهـا تقول : نحن على الأحوص غِضاب ! فينصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه لاستئثارهم بِحُظوتها دونه ، ثم يقول أبياتاً منها :

ضنّتْ عَقيلةُ عنك اليوم بالزاد
وآثرتْ حاجةَ السّاري على الغادي[2]

فغناء « عَقيلة » هو « زاده » كما يقول .

ويسمع ابن أبي عتيقٍ من سلّامة القسّ أن عثمان بن حيّان والي المدينة قد حرّم الغناء والرثاء « النّوْح » ، وأجّلَ أهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة فيفزع ابن أبي عتيق للنبأ ، ثم يحتال حتى يُدخلَ سلّامة على هذا الوالي فتغنّيه فيطرب ويقوم من محله ويقعد بين يديها ، ثم يُلغي أمره بإخراج المغنين من المدينة ، ويبيح الغناء بعد أن كان منعه[3] .

ويغني الغريض الحارث بن خالد المخزوميّ من شعره ، بعد جفوةٍ كانت بينهما فيقول له : يا غريض ، لا لَوْمَ في حُبك ، ولا عذرَ في هجرك ، ولا لَذّةَ لمن لا يُرَوِّحُ قلبَه بك ! يا غريض ، لو لم يكن لي في ولايتي مكةَ حظٌ إلّا أنتَ لكان حظي كافياً وافياً ! يا غريض ، إنمـا الدنيا زينة ، فأزينُ الزينة ما فرّحَ النفس . ولقد فَهِم قدرَ الدنيا على حقيقته مَن فَهِم قدرَ الغناء[4] !

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٢٠٦ .　　(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٥ .
(٣) الاغاني : ج ٨ ص ٣٤١ .　　(٤) الاغاني : ج ٣ ص ٣٢٧ .

وقال أبو نافع الأسود — وكان آخر من بَقِيَ من غلمان ابن سُرَيْج —: « إذا أعجزك أن تُطربَ القرشيَّ فغنّه غناءَ ابن سُرَيْج في شعر عمر ابن أبي ربيعة فإنك تُرقِصُه »[1].

أما عن عامة أهل الحجاز ومدى شغفهم بسماع الغناء فحسبنا أن نَدُلَّ عليه بالقصة التالية :

بينا ابنُ عائشة يسير عائداً من قِبَل الوليد بن يزيد إذ نظر اليه رجل من أهل وادي القُرَى كان يشتهي الغناء ويشرب النبيذ، فدنا من غلامه وقال : مَن هذا الراكبُ ؟ قال : ابنُ عائشة المغنّي، فدنا منه وقال : جُعِلتُ فداءك، هل أنت ابنُ عائشةَ أمّ المؤمنين؟ قال : لا، أنا مَوْلًى لقريش وعائشةُ أمّي، وحَسْبُك هذا فلا عليك أن تُكثِر .

قال : وما هذا الذي أراه بين يديك من المال والكُسْوَة ؟ قال : غنيّتُ أمير المؤمنين صوتاً فأطربتُه فكفَر وتركَ الصلاةَ وأمرَ لي بهذا المالِ وهذه الكُسْوة ! قال : جُعِلتُ فداءك، فهل تَمُنُّ عليَّ بأن تسمعَني ما أسمعتَه إيّاه ؟ فقال له : ويلك ! أمِثْلي يُكلَّم بمثل هذا في الطريق ! قال : فما أصنع ؟ قال : الْحَقْني بالباب. وحرّك ابنُ عائشة بغلةً شَقْراء كانت تحته لينقطع عنه، فعَدَا معه حتى وافَيَا الباب كفرَسَيْ رِهانٍ، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في أن يضجَر — الرجل — فينصرفَ، فلم يفعل. فلما أعياه قال لغلامه : أدخِلْه : فلما دخل قال له : وَيْلك ! من أين صَبَّكَ اللهُ عليَّ !

قال : أنا رجل من أهل وادي القُرَى أشتهي هذا الغناء. فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرف بها إلى أهلك .

فقال له : جُعِلتُ فداءك، والله أنّ لي لَبُنَيّةً ما في أذُنِها — علم

---

(١) الاغاني : ج ١ ص ٢٨٤ .

اللهُ — حَلْقَةٌ من الوَرِق فضلاً عن الذهب ، وإنَّ لي زوجةٌ ما عليها — يشهد اللهُ — قيصٌ . ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الخَلَّة [1] والفقرَ اللذين عرَّفْتُكَهما وأضعفتَ لي ذلك ، لكان الصوتُ أعجبَ إليَّ !

وكان آبن عائشة تيّاهاً لا يغنّي إلّا لخليفة أو لذي قَدْرٍ جليل من إخوانه ، فتعجب آبن عائشة من الرجل ورحمَه ، ودعا بالأداة وكان يغنّي مُرتجلاً ، فغنّاه الصوتَ ، فطرب له طرباً شديداً ، وجعل يحرّك رأسَه حتى ظنَّ — آبنُ عائشة — أنَّ عُنقَه سينقصف ، ثم خرج من عنده ولم يَرْزَأه شيئاً [2] ...!

وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد عن طريق ابن عائشة فاستدعى هذا الرجل ووصله صِلةً سَنيّةً ، وجعله في نُدمائه ، ووكلّه بالسَّقْي ، فلم يزل معه حتى مات [3] .

من كل ما تقدم ، وغيرُه كثير ، نرى مقدار احتفالِ الحجازيّين على اختلاف طبقاتهم بالغناء ، وحبّهم له ، والاختلافِ إلى دوره ومجالسه للاستماع . ومنهم من كان يدفعه الشغف بالغناء إلى التردد على ربّاته خارج الحجاز .

جاء في الأغاني بإسناد إلى عبدالله بن مصعب أنه قال : قدم عمر آبن أبي ربيعة الكوفة فنزل على دار عبدالله بن هلال الذي كان يقال له « صاحب إبليس » وكان له قينتان [4] حاذقتان ، وكان عمر يأتيهما فيسمع منهما فقال :

---

(١) الخَلَّة : الحاجة والخصاصة .
(٢) لم يَرزأه شيئاً : لم يُصِبْ من مال ابن عائشة شيئاً مكتفياً بالغناء .
(٣) الأغاني : ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٤) القينة : المغنية إذا كان الغناء صناعة لها . وقيل : هي الأمَة المغنية ، أو الأمة ، مغنية كانت أو غير مغنية .

يا أهلَ بابلَ ما نفِسْتُ عليكمُ . .
من عيشكم إلّا ثلاثَ خِلالِ :
ماءَ الفُراتِ وطيبَ ليلٍ باردٍ
وغِناءَ مُسْمِعتَيْنِ لابنِ هلالِ [1]

***

وكما رأينا كان الحجاز في العصر الأموي مزدهراً بالغناء وبما يتبعه من لهو ومجون ، ومن فكاهة حلوة ومنادرة .

والظاهرة التي تسترعي النظر والعجب معاً أن نرى الحجاز على بداوته وفقره يتفوّق على كلٍّ من العراق والشام الغنيّ المتحضر في الغناء وما يتصل به من ضروب اللهو والمجون .

ولعل مرجعَ ذلك إلى ما عُرِف به عامة أهل الحجاز من الظّرف ورقة العواطف وعذوبة الألسنة . سمع جريرٌ الشعبيَّ في المدينة يغنّي من شعره بلحن ابن سُرَيج فطرب وجعل يزحف نحوه حتى ألصق ركبته بركبته . فلما رأى الحاضرون أعجاب جرير بذلك الصوت قال له بعضهم : فكيف لو سمعت واضع هذا الغناء ؟ قال : أوَ إنّ له واضعاً غيرَ هذا ؟ فقيل له : نعم ، بمكة . فقال : لست بمفارقٍ حجازَكم حتى أبلغه . ثم مضى ومضى معه جماعة من طُلّابِ الشعر إلى ابن سُرَيج في مكة ، فإذا هو في فتيةٍ من قريش كأنهم المَها مع ظَرفٍ كثير .

وعندما رحّب به ابن سُرَيج وغنّاه اللحن قال جرير : لله دَرُّكم يا أهل مكة ، ما أعظمَ ما أوتيتُم ! والله لو أنّ نازعاً نزع [2] إليكم ليُقيم بين أظهركم فيسمعَ هذا صباحَ مساءَ لكان أعظمَ الناس حظاً

(١) الاغاني : ج ١ ص ١٢١ .
(٢) نزع إليكم هنا : ذهب إليكم .

ونصيباً! فكيفَ ومع هذا بيتُ الله الحرام، ووجوهُكم الحِسانُ، ورِقّةُ ألسنتكم، وحُسْنُ شارتكم، وكثرةُ فوائدكم![1].

وقد أيّد الأستاذ أحمد أمين هذا السبب وأورد أسباباً أخرى في تعليل هذه الظاهرة فقال: «لعل السبب ما نراه في ثنايا الكتب من ظَرْف أهل الحجاز ورقة شعورهم، وأنهم في ذلك العصر فاقوا أهل العراق والشام، حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدراً وأكثر تسامحاً في الغناء والمجون من أهل العراق...».

«وقد يكون السبب أن الحجاز كان به أرستقراطية العرب وهم العنصر الفاتح، وقد نال هؤلاء الارستقراطيون خيرَ الجواري وأرفعَهنّ نسباً، وأكثرَهنّ تأدُّباً، ومنهنّ مَن تربّى ببيت الملوك والأمراء، وتأدّب بآداب الحضارة، فنقلن ذلك إلى الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية، وكان لهن الفضل في تأسيس مدرسة الغناء في الحجاز. وقد تكون العلة أن البدو إذا تحضّروا وبُسِط لهم في العيش، أسرفوا في اللهو، شأن كثير ممن غَنِيَ بعد حرمان».

وربما كان السبب أن الأمويين تَبوّءوا الخلافة وحصروها فيهم، بل في بيت من بيوتهم، وضيّقوا على مَن عداهم من بطون قريش، وحجروا عليهم التفكير في الشئون السياسية، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلفاء بني أمية، والعراق هو العنصر المعارض، فانصرف فتيان الحجاز بما لهم من مالٍ وفير وجاهٍ عزيز عن الإمارة والخلافة والسياسة إلى اللهو، فكان الظّرف، وكان الغناء، وكان الشراب، وكان المجون. وقد يكون من الحق أن تكون كلُّ هذه أسباباً أنتجت ما ذكرناه، وكان لهذا النوع من الحياة أثر في الأدب كبير»[2].

---

(١) الأغاني: ج ١ ص ٢٩٥ – ٢٩٧.

(٢) فجر الأسلام: ص ٢١٨–٢٢٠.

***

وقد أدّى شيوعُ الغناء بالحجاز وافتتانُ الناس به ، وإقبالُهم على دوره ومجالسه للهو والسماع إلى انتشار ظاهرة «الخَنَث أو التخنُّث» بين رجال الغناء ، كوسيلة لاستهواء العامة واجتذابهم ، والدعاية لأنفسهم بهذا اللون من الشذوذ والخروج على المألوف ! ثم انتقلت ظاهرة التخنُّث هذه إلى بعض أهل اللهو والمجون من غير المغنين .

ويتمثّل التخنُّث في تَزَيِّي أصحابه من الرجال بزيّ النساء ، والتشبُّه بهنّ في صفاتهن من لينٍ ونعومةٍ وتثنٍ وتكسُّرٍ وطريقة كلام ، واسترخاء أعضاء ، ومن اتخاذ الثياب المصبغة المصقولة ، وتمشيط الشعر ، واختضاب اليدين إلى المرفقين أحياناً بالحنّاء .

وقد شاع التخنث أكثر ما شاع بين أئمة الغناء والحذّاق فيه ، فمن المغنين المخنّثين ابن سريج والغريض وهما مكيّان . وكان أهل المدينة يَعدُّون في الظرفاء وأصحاب النوادر من المخنثين ثلاثة : طُويس ، والدّلال ، وهِنْب ، فكان هِنْبٌ أقدمَهم ، والدّلالُ أصغرَهم ، ولم يكن بعدَ طُويس أظرفُ من الدّلال ، ولا أكثرُ مُلَحاً . وكان نَزْرَ الحديث ، فإذا تكلم أضحك الثكلى ، وكان يشاغل كلّ مَن جالسه بتلك الأحاديث كراهةً منه للغناء . ومن المغنين المخنّثين في المدينة أيضاً طريفٌ وحبيبٌ نومةُ الضحى . أما المخنثون من غير المغنين فمنهم : ابنُ نُغاش ، ومُخنّةُ المكيّ ، وزَرَجُون .

وكان هنـاك من يَعدُّ أولئك المخنثين من النساء . رُوِي أن الفضل ابن يحيى البرمكيّ سأل ابراهيم الموصليّ ليلةً ، وقد أخذ منه النبيذ : مَن أحسنُ الناس غناء ؟ فقال له : من الرجال أم النساء ؟ فقال : من الرجال . قال : ابن مُحرِز . قال : ومن النساء ؟ قال الموصليّ : ابنُ سُرَيْج [1] . وابن سريج كما سبق أن ذكرنا من المخنثين .

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٥٢ .

وكان المخنَّث إذا تحدَّث إلى مخنَّثٍ آخرا خاطبـه خطاب المؤنث .

حدَّث الواقديُّ عن عثمان الحاطبيّ قال : قدم مخنَّثٌ من مكة يقال له « مُخَّة » ، فجاء الى الدَّلال فقال : يا أبا يزيد ، دُلَّني على بعض مخنَّثي أهل المدينـــة أكايدْه وأمازحْه ثم أجاذبْه ، قال : قد وجدتُـه لك — وكان خُثَيْمُ بنُ عِراكٍ صاحبُ شرطـةِ زياد بن عبد الله الحارثيّ جارَه ، وقد خرج في ذلك الوقت ليصليَ في المسجد — فأومأ الدَّلال إلى « خُثَيْم » وقال لمخَّة : ألحَقْه في المسجد فإنه يقوم فيه فيصلّي ليرائيَ الناس ، فإنك ستظفر بما تريد منه .

فدخل المسجد وجلس إلى جنب ابن عراك فقـال : عَجّلي بصلاتكِ لا صلّى الله عليكِ ! فقال خُثَيْمٌ : سبحانَ الله ! فقال المخنث : سبَّحْتَ في جامعة [1] قرَّاصة ! انصَرِفي في حق أتحدَّثَ معكِ . فانصرف خُثَيْمٌ من صلاته ودعا بالشُّرَطِ والسِّياط فقال : خُــذوه ، فأخذوه فضربه مائةً وحبسه [2] .

ومن الأخبار المرويّة ما يُنبئ أن ظاهرة « الخنَث » كانت موجودة في عهد الرسول ، وأنه قاومَها هو والخلفاء الراشدون .

ذكر ابنُ عبدِ ربّه أن مُخنّثاً كان عند أمّ سلمة زوج النبي ﷺ ، فقال لعبد الله بن أبي أمية ، ورسولُ الله يسمع : أبا عبدالله ، إنْ فتح الله لكم الطائف فأنا أدُلُّك على بنت غيلان ، إنها تُقبل بأربع وتُدبر بثمانٍ . فقال رسول الله ﷺ : « لا يدخلَنَّ عليكنَّ هذا » [3] .

وورد هذا الخبرُ في الأغاني بصورة أخرى يُفهَم منها أن هذا المخنثَ هو « هيتٌ [4] » ، وأن بنت غيلان هي « باديةُ بنت غيلان بن مُعتِّب » ،

---

(١) الجامعة : الغُلّ لأنها تجمع اليدين الى العنق .

(٢) الأغاني : ج ٤ ص ٢٨٠ .

(٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٠٥ . (٤) كان مولى لعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ .

وأنه وصفها لمولاه ابن أبي أمية بقوله : إنها هيفاء شَموعٌ[1] نجلاء ، إنْ تكلَّمت تغنَّت ، وإن قامت تثنَّت ، تُقبل بأربعٍ وتُدبر بثمانٍ[2] ، مع ثغْرٍ كأنه الأقحُوانُ ، وبين رجليها كالإناء المكْفُوء .

فقال النبي ﷺ : « لقد غلغلْتَ النظر يا عدوّ الله » ، ثم جلاه عن المدينة إلى الحِمَى[3] ، فلم يزل « هِيتٌ » بذلك المكان حتى قُبِض النبيّ . فلما وَلِيَ أبو بكر كُلِّمَ فيه فأبى أن يَرُدَّه ، فلما وَلِيَ عمرُ كُلِّمَ فيه فأبى أن يُردَّهُ وقال : إنْ رأيتُه لأضربَنَّ عنقَه ، فلما وَلِيَ عثمانُ كُلِّمَ فيه فأبى أن يَرُدَّه ، فقيل له : قد كبِر وضعُف واحتاج ، فأذِنَ له أن يدخلَ كل جمعة فيسألَ ويرجعَ إلى مكانه[4] .

وقد أسرف المخنَّثون عامة بعد ذلك في المكايدة وتطلُّب العثرات ، وفي الخلاعة والتهتك والمجون .

من ذلك ما يُروَى أن الدَّلالَ المغنِّيَ المخنَّث صلَّى يوماً خلف الإمام بمكة ، فقرأ : « وَمَا لِيَ لا أعْبُدُ الذي فَطَرني وإليه تُرْجَعُونَ » ، فقال : لا أدري والله ! فضحك أكثر الناس وقطعوا الصلاة ! .

فلما قضَى الوالي صلاتَه دَعا به وقال له : ويلك ! ألاَ تَدَعُ هذا المجونَ والسَّفَهَ ! فقال له : قد كان عندي أنك تعبدُ الله ، فلما سمعتك تستفهم ، ظننتُ أنكَ قد تشكَّكتُ في ربِّك فثبَّتُّك . فقال له : أنا شكَكْتُ في رَبِّي وأنتَ ثبَّتَّني ! اِذهبْ لعنَك الله ! ولا تُعاوِدْ فأبالغَ والله في عقوبتك ![5] .

---

(1) الشَّموع : الضحوك اللعوب .

(2) يريد أن أطواء بطنها لسمنها إذا أقبلت أربع وإذا أدبرت ثمان .

(3) الحِمَى : جبل بالمدينة على ثلاثة أميال من العقيق .

(4) الأغاني : ج ٣ ص ٣٠-٣١ .

(5) الأغاني : ج ٤ ص ٢٨١ .

ومن ذلك أيضاً ما يُروَى من أنه قيل ليحيي بن الحكم أمير المدينة : إن بالمدينة مُخنَّثاً يقال له « النُّغَاشِيُّ » لا يقرأ من كتاب الله شيئاً ، فوجّه أعوانه في طلبه ، فأُتِيَ به كأنه امرأة في ثياب مصبّغة مصقولة ، وهو ممتَشط مُختضب ، فقال له : ما أحسبك تقرأ من كتاب الله عزّ وجلّ شيئاً . اِقرأ أمّ القرآن . فقال : يا أبانا لو عرفتُ أمّهُنّ عرفتُ البنات . فقال له : أتهزأ بالقرآن لا أمّ لـــك ! وأمر بضرب عُنُقه . وصاح في المخنّثين : مَن جاء بواحد منهم فله ثلاثمائة درهم[1] .

قال زَرَجُونُ المخنّث : فخرجت بعد ذلك أريد العالية ،[2] ، فإذا بصوت دُفّ أعجبني ، فدنوت من الباب حتى فهمت نغماتِ قومٍ آنسُ بهم : ففتحته ودخلت ، فإذا بطُويسٍ قائمٌ في يده الدُّفُ يتغنّى .

فلما رآني قال لي : إيه يا زَرَجُون ! قتَل يحيي بنُ الحكَم ابنَ نُغاشي ؟ قلت : نعم . قال : وجعـــل في المخنّثين ثلاثمائة درهم ؟ قلت : نعم . فاندفع يغنّي :

ما بالُ أهلِـكِ يا رَبابُ   خُـزْراً كأنهمُ غِضابُ ؟[3]
إنْ زرتُ أهلكِ أوعدوا   وتهِـرُّ دونَهمُ كلابُ

ثم قال لي : وَيحَـك ! أفما جعلَ فيَّ زيادةً ولا فضّلني عليهم في الجُعْل بفضلي شيئاً ؟[4]

***

وعندما اشتد مجونُ مخنّثي الغناء وخطَرُهم على أخلاق العامة ولاسيما النساء ، أمر بعضُ خلفاء الأمويين بخِصائهم[5] .

---

(١) قيل : عشرة دنانير . انظر الأغاني : ج ٣ ص ٢٩ .
(٢) العالية : اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة من قُراها وعمائرها إلى تهامة .
(٣) خُزْر : جمع أخزر ، وهو من ارتفعت حدقتاه إلى حاجبيه في تداه .
(٤) الأغاني : ج ٤ ص ٢٢١ .
(٥) الخِصاء : سَلُّ الخصيتين ، أي بيضتي التناسل ، يكون في الناس والدواب . وقيل : جَبُّ القُبُلِ (الأغاني : ٤/٢٨٥) .

وقد اختلف الرواة في سبب ذلك ، وفيمن أمر بخصائهم من الخلفاء . فمن الرواة مَن يذكر أنه قيل للوليد بن عبد الملك : إنّ نساء قريش يدخل عليهنّ المخنّثون بالمدينة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل عليكنّ هؤلاء » . فكتب إلى ابن حزمٍ الأنصاريّ عامله على المدينة أنِ اخْصِهِم ، فخصاهم [1] .

ومن الرواة مَن يذكر أن الذي أمر بخصائهم هو سليمانُ بن عبد الملك لا أخوه الوليد ، ثم تختلف رواياتهم بعد ذلك في السبب .

فالزبير بن بكّار الذي يزعم أنه أعلم خلق الله بالسبب الذي من أجله خُصِيَ الدّلال يُورد خبراً مُفاده أن ذلك المغنّي المخنّث كان يقصده في المدينة كلُّ مَن يريد الزواج من نسائها . فإذا قصده قاصدٌ في ذلك قال له : صفْ لي مَن تعرف من النساء للتزويج ، فلا يزال يصف له واحدةً بعد واحدة ، حتى ينتهيَ إلى مَن توافق هواه ، فيقول : كيف لي بهذه ؟ فيقول : مهرُها كذا وكذا . فإذا رضي بذلك أتاها الدّلال فقال لها : إني أصبت لكِ رجلاً ، ثم يروح يصف لها حاله ويشوّقها إليه حتى تطيعه ، فيأتيَ الرجل فيعلمه أنه أحكم له ما أراد .

فإذا سُوّيَ الأمرُ وتزوجته المرأة قال لها الدّلال : قد آن لهذا الرجل أن يدخل بكِ ، والليلة موعده ، ثم يروح يحاورها ويحتال عليها بحيل شيطانية ذكرها الأغاني حتى تستسلم له هو أولاً فيفسُقَ بها ! ثم يجيء إلى الرجل ويحتال عليه هو أيضاً حتى يجعله يفسق به . وهكذا يسبق الرجلَ الى زوجته ، والمرأةَ إلى زوجها !

وكان ذلك دأبَه ، إلى أن بلغ خبرُه سليمانَ بنَ عبد الملك ، وكان غيوراً شديد الغَيْرة ، فكتب بأن يُخصَى هو وسائرُ المخنّثين بالمدينة

---

(1) الأغاني : ج ٤ ص ٢٧٦ . كانت ولاية ابن حزم على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك من شعبان سنة ٩٣ إلى ٢٨ شوال سنة ٩٤ (الطبري : ٤٨٢/٦) .

ومكة ، وقال : إن هؤلاء يدخلون على نساء قريش ويُفسِدونهنّ . فورد الكتاب على ابن حزم فخصاهم[1] .

وهناك راوية أخرى مُفادها أن السبب في خِصاء الدّلال وسائر مخنّثي المدينة ، أن سليمان بن عبد الملك دَعَا ذات ليلةٍ بُوضوء فجاءت به جارية له . فبينا هي تصبُّ عليه إذْ أوْمَأ بيده وأشار بها مرتين أو ثلاثاً ، فلم تَصُبّ عليه ، فأنكر ذلك فرفع رأسه ، فإذا هي مُصغية بسمعها إلى ناحية العسكر وإذا صوتُ رجلٍ يغني ، فأنصت له حتى سمع جميع ما تغنّى به .

فلما أصبح أذِنَ للناس ، ثم أجرى ذِكْر الغناء فليّنَ فيه حتى ظنّ القومُ أنه يشتهيه ويريده فأفاضوا فيه ، وما زال يجاذبهم حديثَ الغناء حتى اهتدَى إلى المغنّي الذي كانت تُنصِت له الجارية فاستدعاه .

ولما تأكد لسليمان أنه هو أقبل على القوم وقال : هدرَ الجملُ فضبِعَت[2] الناقة ، ونبّ[3] التَّيْسُ فشَكِرَت[4] الشاة ، وهدرَ الحمام فزافَتِ[5] الحمامة ، وغنّى الرجل فطَرِبت المرأة ، ثم أمر بالمغنّي فخُصِيَ .

وسأل عن الغناء أين أصله ؟ فقيل : بالمدينة في المخنّثين وهم أئمّته والحذّاقُ فيه ، فكتب إلى أبي بكر محمد بن حزم[6] الأنصاريّ ، وكان عاملَه عليها ، أنِ اخْصِ مَن قِبلَك من المخنّثين المغنّين .

وزعم موسى بن جعفر بن أبي كثير أن بعض الكتّاب قال له : قرأتُ كتاب سليمان في الديوان ، فرأيت على الخاء نقطة كتمرة العجوة . قال :

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص ٢٧١-٢٧٢ .
(٢) ضبِعت الناقة : اشتهت الفحل .
(٣) ونبّ التَّيْس : صاح عند الهياج .
(٤) شكِرت الشاة : امتلأ ضرعها ، ويكنى بذلك عن حنينها .
(٥) زافت الحمامة : تبخترت في مشيتها بين يدي الذكر ، وأقبلت عليه ناشرة جناحيها وذُنابَاها .
(٦) عيّن سليمان بن عبد الملك أبا بكر بن حزم على المدينة سنة ٩٦ (طبري : ٦/٥٠٥) .

ومَن لا يعلم يقول إنه صحّف القارئ، وكانت أحْصِ. قال: فتتبّعهم ابنُ حزم فخصَى منهم تسعةً: منهم الدّلال، وطريفٌ، وحَبيبُ نومةَ الضُحَى[1]. ويُروَى أن الدّلال لمّا خُصِيَ قال: الآن تمّ الخَنَثُ[2].

وفي رواية ثالثة إن الذي هاج سليمان بن عبد الملك على ما صنعه بمن كان بالمدينة من المخنّثين أنه كان مستلقياً على فراشه في الليل، وجاريةٌ له إلى جنبه، وعليها غِلالةٌ[3] ورِداءٌ مُعَصْفَران، وعليها وشاحان[4] من ذهب، وفي عُنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، وكان سليمان بها مشغوفاً، وفي عسكره رجلٌ يقال له «سُمَيرُ الأَيْلِيُّ» يُغنّي، فلم يفكر سليمان في غنائه شُغْلاً بها وإقبالاً عليها، وهي لاهيةٌ عنه لا تجيبه مُصغيةٌ إلى الرجل، حتى طال ذلك عليه، فحوّل وجهه عنها مُغضَباً، ثم عاد الى ما كان مشغولاً عن فهمه بها، فسمع «سُمَيراً» يغني بأحسن صوت وأطيب نغمة.

محجوبةٌ سمعتْ صوتي فأرّقها ..
من آخر الليل حتى شفّها السَّهَرُ
تُدني على جِيدها ثِنْيَي مُعَصفرةٍ
والحَلْيُ منها على لَبّاتِها خَصِرُ[5]
في ليلة النصفِ ما يدري مُضاجِعُها
أَوَجْهُها عنـــده أبهى أم القمرُ
لو خُلّيَتْ لَمَشَتْ نحوي على قدمٍ
تكاد من رِقّةٍ للمشْي تَنْفَطِرُ

فلم يشكُكْ سليمانُ أن الذي بها مما سَمِعَتْ، وأنها تهوَى سُمَيراً،

(١) الأغاني: ج ٤ ص ٢٧٢ - ٢٧٤. (٢) الأغاني: ج ٤ ص ٢٦٩.
(٣) الغِلالة: الثوب الذي يُلبَس تحت الثياب أو تحت دِرع الحديد.
(٤) الوشاح: يُنسج من أديم عريضاً، ويُرصّع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وخصرها.
(٥) اللبّات: جمع لَبّة، وهي موضع القلادة من الصدر من كل شيء. والخَصِر: البارد.

فوجّه مِن فوره من أحضره وحبسه ، ودعا لها بسيف ونِطْعٍ ، وقال: والله لَتَصْدُقِنّي أو لأضرِبَنَّ عُنقَكِ ! قالت : سَلْني عمّا تريـد . قال : أخبريني عمّا بينك وبين هذا الرجل . قالت : والله ما أعرفه ولا رأيته قطُّ ، وأنا جاريةٌ مَنْشَئي الحجاز ، ومن هناك حُمِلتُ اليك ، ووالله ما أعرف بهذه البلاد أحداً سواك .

فرقّ لها ، وأحضر الرجل فسأله ، وتلطّف له في المسألة ، فلم يجد بينه وبينها سبيلاً ، ولم تطب نفسه بتخليته سَوِيّاً [1] فخصاه ، وكتب في المخنّثين بمثل ذلك [2] .

ويعلّق أبو الفرج الأصبهاني على هذه الرواية بقوله : « هـذه الرواية الصحيحة » ، وهذا يعني ضمناً أنه يرى أن سليمان بن عبد الملك — وليس الوليد أخوه — هو الذي أمر بخصاء المخنثين .

ولكن الجاحظ يعزو هـذا الأمر إلى هشام بن عبد الملك ، وأنه هو الذي كتب إلى عثمان بن حيّان المُرّيّ واليه على المدينة بخِصاء كلٍّ من الدّلال ونَومَةِ الضُّحى .

ثم يعرض إلى أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فيقول : « فمِن بني مروان مَن يدّعي أن عاملَ المدينة صحّف ، لأنه رأى في الكتاب : أحْص مَن قِبَلَك من المخنّثين ، فقرأها : اخْصِ مَن قِبَلَك من المخنّثين » .

ثم يستطرد الجاحظ قائلاً : « وذكر الهيثم عـن الكاتب الذي تَولّى قراءة ذلك الكتاب ، أنه قال : وكيف يقولون ذلك ! ؟ ولقد كانت « الخاء » مُعجمةً بنقطـة كأنها سُهَيلٌ أو تَمرةٌ صَيْحانيةٌ [3] . فقال اليقطريُّ : ما وجهُ كتاب هشامٍ في إحصاء عدد المخنّثين ، وهـذا لا معنى له ، وما كان الكتاب إلّا بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة » .

---

(١) سَوِيّاً : سليماً كاملاً . (٢) الأغاني : ج ٤ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٣) الصيحانيُّ : ضرب من التمر أسود صلب المضغ ، وسمّي صياحنيا لأن صيحان اسم كبش كان رُبط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت تمراً فنُسب إلى صيحان .

« وذُكر عن مشايخَ من أهل المدينة أنهم حكَوْا عنهما — الدَّلالِ ونَومةِ الضُّحى — أنهما قالا : الآن صِرْنا نساءً بالحق !! كأنَّ الأمر لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين ! قال وذُكِر أنهما خرجا بالخَصلتين من الخصاء والتخنيث ، من فتور الكلام ولين المفاصل والعظام ، ومن التفكُّك والتثنّي إلى مقدارٍ لم يرَوْا أحداً بلغه ، لا من مخنَّثات النساء ولا من مُؤنَّثِي الرجال »[1] .

وسواء أكان الوليد أو سليمان أو هشام بن عبد الملك هو الذي أمر بخِصاء المخنَّثين ، فإن الحقيقة تبقى في أن هذا الحادث قد وقع بأمر واحد من هؤلاء الخلفاء الثلاثة .

ولعلّ السبب هو الغَيْرةُ ، أو الحفاظ على أخلاق النساء ، أو الرغبةُ في كبح جماح هذه الظاهرة الانحلالية التي أخذت تشيع في مجتمع الحجاز ، أو لعلّ هذه الأسباب مجتمعة كانت هي الدافعَ إلى المأساة التي ألمّت بالمخنَّثين .

لقد كان المخنَّثون عامةً ، يتخذون من خَنَثِهم وشذوذهم وسيلةً للعبث والمجون ، ورخصةً للدخول على النساء والتغرير ببعضهن ، ولكنْ كان هناك أيضاً مَن وَقفْنَ منهم موقفاً متشدّداً صارماً ، صيانةً لسمعتهنّ وشرفهنّ .

جاء في الأغاني أن الدَّلال كان ملازماً لأمّ سعيد الأسلمية وبنتٍ ليحيي ابن الحكم بن أبي العاصي ، وكانتا من أَمجَنِ النساء ، كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدوَ خلاخيلُهما .

فقال معاوية لمروان بن الحكَم : اكْفِني بنت أخيك ، فقال : أفعل . فاستزارها وأمر ببئر فحُفِرتْ في طريقها ، وغُطّيتْ بحَصِيرٍ ، فلما مشت عليه سقطتْ في البئر فكانت قبرَها .

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ : ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ .

وطُلِبَ الدَّلالُ فهرَب إلى مكة . فقال له نساءُ أهل مكة : قتلتَ نساءَ أهل المدينة وجئتَ لتقتلَنا ! فقال : والله ما قَتَلَهنَّ إلا الحُكاك[1]. فقلْنَ : أعْزُبْ أخزاك الله ، ولا أدْنَى بِكَ داراً ، ولا آذانا بك ! قال : فَمَن لَكُنَّ بَعدي يَدُلّ على دائِكُنَّ ، ويعلم موضعَ شفائِكُنَّ ؟ والله ما زَنَيْتُ قطُّ ولا زُنِيَ بي ، وإني لأشتهي ما تشتهي نساؤكم ورجالكم[2].

***

وإذا عدنا بالغناء العربيّ إلى عهد عمر بن الخطاب مثلاً ، فإننا نجد أبا الفرج الأصبهانيّ في مَعرِض حديثه عن أغاني الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم يذكر كلاماً معناه أن الغناء العربيّ لم يُعرَف في زمان عمر بن الخطاب إلّا ما كانت العرب تستعمله من النَّصْب والحُداء ، وذلك جارٍ مَجرَى الإنشاد ، إلّا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت[3].

وإذا قارنا حالة الغناء هذه بما انتهت إليه في العصر الأموي ، وجدنا أن الغناء العربيّ قد تطوّر كثيراً ، وأن هذا التطوّر قد تمّ أكثر ما تمّ على أيدي موالي الفرس والروم .

وكما نقل العرب غناء الفرس والروم إلى غنائهم ، نراهم نقلوا عنهم كذلك صور مجالس الغناء والاجتماع لسماعه . ولم تكن هذه المجالس للغناء فحسب ، وإنما كانت أيضاً مجالس للأدب يُهذَّب فيها الشعر ويُرَقَّق حتى يتفق والذوقَ الموسيقيّ .

أضف إلى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالسُ من محاضرات أدبية ، وقَصَصٍ جميل ، وفكاهاتٍ رائقة ، وتنادُرٍ ممتع وتسابق بين الشعراء

---

(١) الحُكاك والحِكّة : إمرارُ جِرْم على جِرْم حكّاً .
(٢) الأغاني ج ٤ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .
(٣) الأغاني : ج ٩ ص ٢٥٠ ، والنصب : غناء للعرب يُشبه الحُداء إلا أنه أرقّ .

والأدباء للظهور فيها ونيل الحُظوة . وكل ذلك كان له أثره في تجديد الأدب ونهضته ونقده .

ولم تقتصر مجالس الغناء واللهو على الخلفاء ، وإنما كان للأمراء والولاة والأشراف وعظماء الدولة مجالسُهم أيضاً. حقاً كانت مجالس هؤلاء صورةً مصغرة لمجالس الخلفاء ، ولكنها كانت تفوقها من حيثُ حريةُ القائلين والمغنّين والسامعين ، فلا تحسُّبَ ولا حساب ، ولا توقُّرَ ولا تزمُّتَ ، وإنما هناك تنفيس عن المكبوت في اللاشعور ، وإطلاق للقول على سجيته . ولا يخفى ما في كل ذلك من عائد على الأدب والغناء والفن .

***

وإذا كان تطور الغناء العربيّ في صدر الإسلام يُعزى أكثر ما يُعزى إلى الموالي ، أي الرقيق ، فما الرقيق ؟ وكيف أتى إلى العرب ؟ وما وضعه الماليُّ والقانونيُّ ؟ وما مدى تأثيرِه في حياة العرب الاجتماعية ؟

لعل الأستاذ أحمد أمين خير من كتب حديثاً عن موضوع الرقيق ، فقد عقد له فصلاً خاصاً في كتابه « ضحى الإسلام »[1] ، ونحن هنا نقتبس من هذا الفصل ما يجيب عن الاسئلة السابقة .

فالرقيق على حسب المبادئ التي استنبطها الأئمة من أصول الشريعة هو الكافر الذي وقع أسيراً في يد المسلمين عند الحرب . فإذا حارب المسلمون الكافرين فمن أسر من المحاربين منهم جاز للإمام أن يسترقَّه ، كما يجوز له أن يسترقّ أهل البلد الذي فُتح في الحرب ، رجالاً كانوا أو نساء .

وعلى هذا فالكفر والوقوع في الأسر أثناء الحرب هما سبب الرق . ولا يشترط لأجل بقاءِ الرقّ بقاءُ سببه ، فلو وقع كافر في الأسر فاستُرِقّ ثم أسلم لا يزول عنه الرقُّ .

---

(١) ضحى الإسلام : ج ١ ص ٨١ - ١٠٣ .

وهذا الرقيق يُعَدُّ مالاً شأنه في ذلك شأنُ المتاع . فمن استُرِقَّ في الحرب عُدَّ جزءاً من الغنيمة كالآلات الحربية وكالنقود وكالخيل ، وعلى الجملة مَثَلُه كمثل كل شيءٍ مُقَوَّم وقع في يد الفاتحين .

وشأنُ الغنائم ، ومنها الرقيق ، أن الإمام ينقلها إلى دار الإسلام ، ثم يأخذ خُمُسَها للصالح العام . أمَّا أربعةُ الأخماس فتوزَّع على مَن اشترك في القتال . وهذا الحكم يُطبَّق على الرقيق كما يطبق على غيره من كل ما غُنِم . فخُمس الرقيق يذهب للصالح العام ، والباقي منه يُقسَّم على المقاتلين ، للفارس منهم سهمان أو ثلاثة ، وللراجل سهم واحد .

ولما كانت حروب الفتوح في صدر الإسلام تكاد تكون متصلةً ، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون متلاحِقاً مُطَّرِداً ، وكانت البلادُ المفتوحة لا تكاد تُعَدُّ ، فإنه يمكننا أن نتصوَّر كيف كان الرقيق لا يُحصَى كثرةً ، وكيف كان مختلِفاً متنوِّعاً تنوع الأمم التي اشتبك المسلمون معها في قتال .

لذلك كلِّه انتشر الرقيق بين المحاربين ، ودخل في بيت كلٍّ منهم . وإذْ كان الرقيق يُعَدُّ مالاً ، وتجري عليه كل العقود المالية من بيعٍ وشراءٍ وإجارةٍ ورَهْنٍ ، فإنه لم يقتصر على المحاربين ، وإنما كان في أيدي الناس جميعاً ، وكان له سوق يَشتري منه مَن شاء ، ويستخدمه كما شاء .

هذا عن وضع الرقيق من الناحية المالية . أما عن علاقة الرجال بالنساء من الناحية الجنسية ، فهناك سببان يُحِلَّانِ المرأة للرجل عَقْدُ الزواج ، ومِلْكُ اليمين .

- فأما عقد الزواج فلا يُحِلُّ للرجل الحُرِّ أن يتزوج أكثرَ من أربَع ، بمعنى أنه لا يَحِلّ له أن يكون على ذمته أكثرُ من أربع زوجات ، وإن كان يَحِلّ له أن يُطلِّق منهنَّ ويتزوج غيرَهُنَّ بعد انقضاء عِدَّتِهِنَّ .
- والأمر الثاني مما يُحِلُّ المرأة للرجل : « مِلْكُ اليمين » أعني مِلكيّةَ الرجلِ للأمَةِ . قال تعالى : « فإنْ خِفْتُمْ ألَّا تَعْدِلوا فَوَاحِدَةً

أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ، وقــال تعالى أيضاً : « والذين هم لفُروجهم[1] حافظون . إلّا على أزواجهم أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم فإنهم غيرُ مَلومين » . فمَن ملك جاريةً جاز أن يَتَسَرَّاها ، وهي حِلٌ له سواءٌ كان متزوجاً أو غـيرَ متزوج ، وسواءٌ كان متزوجاً واحدة أو أربعاً ، ولا يتقيّد الرجل في ذلك بعدد ، فيَحلُّ له أن يتزوج إلى أربع وأن يملك من الجواري ويتسرّى منهنّ ما شاء من العدد وإن كثر .

من أجل ذلك كان البيت الإسلاميُ فيه – غالباً – زوجةٌ أو زوجات لا يتجاوزن أربعاً ، وكان يجانبهنّ عددٌ من الجواري قد تسرّاهنّ ربُ البيت.

وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين الحرائر والجواري السرّاري بدافع الغيرة ، وكثيراً أيضاً ما كان الرجل الواحد يَنْسِل الحرائر والجواري ، فيفخر أولادُ الحرائر على أولاد الجواري ، ويعتزون بأنه لم يجر في عروقهم دمُ رقيق ، كالذي كان بين الأمين والمأمون ، فكلاهما ولدُ الرشيد ، ولكنْ أمُ الأمين زوجة حرّة ، وأمُ المأمون جاريةٌ سُرّيّة .

ولم تختلف بيوتُ الرعية عن بيوت الخلفاء في هذا الأمر ، فقد كان يوجد في هذه وتلك خليط من الإخوة والأخوات من أولاد الحرائر وأولاد الجواري . وهذا الرقيق من الرجال والنساء لا يستردُ حريتَه إلّا بأن يَعتِقَه مالكه .

ولكنْ كان هناك من الإماء نوعٌ له وضع خاص ، وهو الأَمَةُ التي يتسرّاها سيدُها وتلد منه . فهذه كانت تُسمّى « أمّ ولد » ، وقد رفعوها فوق منزلة الجارية التي لم تلد منــه ، ومنحوها حقوقاً لم تنلها غيرُها ، أهمها : أنه لايصح لمالكها « وهو مستولدها » أن يبيعها ولا أنْ يَهبَها ، ولكنها تبقى حِلّاً لمالكها حتى يموت ، فإذا مات صارت حُرّةً تَجري

(١) يطلق الفَرْج على كلٍّ من عورتي الرجل والمرأة .

عليها كلُّ أحكام الحرائر أما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار . وهذا هو الوضع القانونيّ لمسأله الرقيق .

ونتيجةً لكل ما تقدم نشأت تجارة الرقيق ، ثم انتشرت في المملكة الإسلامية في صدر الإسلام ، كما انتشرت في غيرها من الممالك ، ثم زادت انتشاراً في العصر العباسيّ .

***

وقد كان الرقيق ، وعلى الأخص الجواري ، أنواعاً منوعة ، ولكل نوع ميزات خاصة يُعرَف بها . كان منهن هنديات وسنديات ومكيّات ومدنيّات وسودانيات وحبشيات وتركيات وروميات وأرمنيات . وقد حفلتْ قصورُ الخلفاء والأمراء ومنازلُ الأشراف والأغنياء عن طريق الميراث أو الشراء برقيق من أمم وأجناس شتى يختلف بعضه عن بعض في الطباع والعادات والألوان واللغات والثقافات .

وقد تدفّق الرقيق أكثر ما تدفّق على الحجاز ، لأن معظم مَن شاركوا في الفتوح الإسلامية كانوا من أبنائه ، ولهذا كان حظهم من الغنائم في الرقيق وفيراً .

وكما مرّ بنا كان لهذا الرقيق الفضلُ الأول في تطوير الغناء العربيّ وتطعيمه بما أدخلوه عليه من ألحان غنائهم . وصادف هذا الغناء الجديد هوًى من نفوس الحجازيين المعروفين بالظّرف ورقة الشعور وحب الطّرَب ، فأقبلوا على الغناء يستمعونه ، ويشجعون عليه ، ويهيّئ بعضُهم الفُرَص إلى تعلّمه أمام الموهوبات من جواريهم خاصة ، حتى يتمتعوا بغنائهنّ ومنظرِهنّ معاً .

وتعلّمُ الغناء استتبع تعلّمَ الأدب ، لأن الناس كانوا يتغنّون بالشعر العربيّ الفصيح ، مثلِ شعر عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، والحارث بن خالد المخزوميّ ، ونُصَيْب ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وكُثَيِّر ، وجميل ،

وعبد الرحمن بن أبي عمار القَسّ ، وغيرهم من معاصريهم والمتقدمين عليهم. فالقينة لا تُحسن أن تُغنّي الأشعار أو أن تؤدّيها أداءً تاماً إلّا إذا حفظت كثيراً من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف ، واطّلعت على كثير من الأدب .

وفي كتاب الأغاني أخبار عن مغنيات أديبات كُنّ يغنين بما يخترعنه من شعر وصوت . ومن هؤلاء حَبابة وسلّامة اللتان يقول عنهما أبو الفرج: «كانت حَبابة وسلّامة القَسّ من قيان أهل المدينة ، وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين ، وكانت سلّامة أحسنَهما غناءً ، وحَبابة أحسنَهما وَجْهاً، وكانت سلّامة تقول الشعر ، وكانت حَبابة تتعاطاه فلا تُحسن»[1] .

إذن كانت الجارية كثيراً ما تُعلّم أدباً بجانب تعلّمها الغناء وكان هذا التعلّمُ أدباً وغناءً يُعلِي قيمتها أضعافَ ثمنها !

فدَحْمَانُ المغنّي مثلاً يشتري جاريةً بمائتي دينار ، وتُقيم عنده مدةً يَطرح عليها ويطرح عليها مَعبدٌ والأبجرُ ونظراؤهما من المغنّين ، ثم يخرج بها بعد ذلك إلى الشام وقد حَذِقت الغناء فيشتريها منه الوليد بن يزيد بعشرة آلاف دينار[2] .

ووالده يزيد بن عبد الملك ، وكان مولعاً أيضاً باللهو والغناء ، يقول : ما تَقَرُّ عيني بما أوتيت من الخلافة ، حتى أشتريَ سلّامةَ جارية مُصعَب الزُهريّ ، وحَبابةَ جارية آلِ لاحقٍ المكية[3] ، ثم يرسل مَن يشتري له سلّامة بعشرين ألفَ دينار[4] ، وحَبابة بأربعة آلافِ دينار[5] .

وهكذا كان للجواري المغنيات أثر ملحوظ في نهضة الغناء العربي وإشاعته ، وما يتبع ذلك من رقيّ في الذوق الفنيّ العام .

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٣٣٤ .
(٢) الأغاني : ج ٦ ص ٢٥–٢٦ .
(٣) الأغاني : ج ١٥ ص ١٢٣ .
(٤) الأغاني : ج ٨ ص ٣٤٣ .
(٥) الأغاني : ج ١٥ ص ١٢٤ .

وقد كان هؤلاء الجواري على ثلاثة أنواع: جوارٍ مغنيات استأثر بهنّ بعضُ الخلفاء والأمراء والأشراف لأنفسهم، بعدما استفاضت شهرتُهنّ في عالم الطرب والغناء.

ونوعٌ آخر تمثّلَ في مولّدات المدينة اللائي تميّزنَ بالجمال والدّلال والفكاهة السمحة، مع العفة وأصالة الغناء.

ومن هذا النوع على سبيل المثال لا الحصر عزّةُ الميلاء مولاةُ الأنصار. كان ابن سُرَيْج وهو مَن هو في الغناء يفضلها على كل مَن غنّى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء.

وكان مشايخ أهل المدينة إذا ذكروها قالوا: لله درّها! ما كان أحسنَ غناءَها، ومدّ صوتِها، وأندى حلْقها، وأحسنَ ضربَها بالمزاهر والمعازف وسائرِ الملاهي، وأجملَ وجهها، وأظرفَ لسانها، وأقربَ مجلسها، وأكرمَ خُلُقها، وأسخى نفسها، وأحسنَ مساعدتَها!

وكان طُوَيْسٌ المغنّي إذا ذكرَها يقول: هي سيدة مَن غنّى من النساء، مع جمال بارع، وخُلُقٍ فاضل، وإسلامٍ لا يَشوبُه دَنَسٌ، تأمر بالخير وهي من أهله، وتنهى عن السوء وهي مجانبة له، فناهيك ما كان أنبلها، وأنبلَ مجلسها! وكانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأنّ الطيرَ على رءوس أهلِ مجلسِها، مَن تكلّم أو تحرّك نُقِرَ رأسُه[1].

ومن هذا النوع جميلةُ مولاة الأنصار. كانت أصلاً من أصول الغناء، وأعلمَ خلق الله به. وكان معبدٌ يقول: أصلُ الغناء جميلةُ، وفرعُه نحن، ولولا جميلةُ لم نكن نحن مغنّين[2]، وكان المكيّون والمدنيّون من أهل الغناء يتحاكمون اليها فتسمع لهم ثم تقضي بينهم[3].

---

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٢) الأغاني: ج ٨ ص ١٨٦.

(٣) المرجع السابق: ص ١٨٨.

وكان منزل كلٍّ من جميلةَ وعزةَ الميلاء أشبهَ بمدرسة للغناء يقصدها طلّابه من رجال ونساء فتلقنهم أصوله. وقد أخذ عنها بعضُ شيوخ الغناء؛ فعن عزّة الميْلاء أخذ ابن سُرَيج وابن مُحرز وطُوَيْس، وعن جميلة أخذ كلٌّ من مَعبد، وابن عائشة وسلّامة القَسّ، وحَبابة، وعَقيلة العقيقية، والشماسيّتان: خُليدة ورَبيحة. وفي بعض أخبار جميلةَ التي أوردها أبو الفرج الأصبهانيّ ما يفيد بأن منزلها كان غاصّاً بعشرات الجواري اللائي قَدِمْنَ اليها لتعلم الغناء.

ويبدو أن جميلة لم تكن تقف مـع تلميذاتها من الجواري عند حد التعليم والتلقين، وإنما كانت أيضاً تؤاخي بينهنّ وتأخذهنّ بأدب الغناء. نفهم ذلـك من حديث رواه إسحاق بإسناد إلى أيوب بن عبَاية قال: كانت سلّامة ورَيّا لرجل واحد، وكانت حَبابة لرجل، وكانت المقدّمة منهنّ سلّامة، حتى صارتا إلى يزيد بن عبد الملك، فكانت حَبابةُ تنظر إلى سلّامة بتلك العين الجليلة المتقدمة وتعرف فضلها عليها.

فلما رأت أثرتها عند يزيدَ ومحبةَ يزيدَ لها استخفّت بها. فقالت لها سلّامة: أيْ أُخَيَّهْ! نسيتِ لي فضلي عليك! ويلك! أين تأديبُ الغناء وحقُّ التعليم! أنسيتِ قولَ جميلةَ يوماً وهي تطارحنا وهي تقول لك: خُذي إحكامَ ما أطارحك من أختك سلّامة، ولن تزالي بخير ما بَقيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفاً! قالت: صدقتِ خليلتي! والله لا عدتُ إلى شيء تكرهينه، فما عادت لها إلى مكروه. وماتت حَبابـةُ وعاشت سلّامة بعدها دهراً[1].

ولم يكن منزل كل منهما معهداً للغناء فحسب، وإنما كان أيضاً مُنتَدّى للسمر البريء وسماع الغناء، يختلف إليه من الأشراف أمثـالُ عبدالله ابن جعفر وابن أبي عتيق الذي كان معجباً بعزة الميْلاء، ومن الشعراء أمثالُ حسان بن ثابت وابنه عبد الرحمن، وعمـر بن أبي ربيعة، والأحوص،

---

(١) الأغاني: ج ٨ ص ٣٤١.

والعرجيّ ، ومن كبار المغنين أمثالُ معبدٍ ، وابن سريج ، وابن مُحرزٍ ، ومالك بن أبي السمح ، وطُوَيْس ، وابن عائشة ، والغريض . هذا عن النوع الثاني من الجواري المغنيات ، وهو نوع يغلب عليه الفن والأدب ، والاحتشام والتهذيب .

وهناك نوع ثالث هو قيانٌ عامة يملكهنّ مُقَيّنٌ فيعرضهنّ للغناء في أماكن يأوي إليها الفتيان لسماعهنّ والإنفاقِ عليهنّ . وكان لهذا النوع دُورٌ منتشرة في بعض مدن الحجاز والعراق .

ومن أمثلة ذلك في الكوفة دارُ عبدالله بن هلال الذي كان يقال له « صاحب إبليس » ودار ابن رامين .

أما ابن هلال فكان له قينتان حاذقتان ، ومن أجلهما كان يغشي الفتيانُ وروّادُ الطرب دارَه لسماعها . وقد مرّ بنا أن عمر بن أبي ربيعة كان يرحل إلى الكوفة ويأتيهما فيسمع منهما ويقول الشعر فيهما (١) .

وأما ابن رامين الذي كان يُعتبر في زمانه أجلّ مُقَيّنٍ بالكوفة ، فكان له جَوارٍ مغنيات أشهرهنّ سَعْدةُ وَرُبَيْحةُ وسلّامةُ الزرقاء ، وكان الفتيان والأدباء والشعراء يغشَوْن داره للسماع والشراب ، ويقولون الشعر فيه وفي قيناته . ومن ذلك قول إسماعيل بن عمّار الأسديّ :

هل مِن شفاءٍ لقلبٍ لجّ محزونِ
صَبًا وَصبٌ إلى رِيمِ ابنِ رامينِ ؟ (٢)
يا رَبّ مَا لابنِ رامينٍ له بَقَرٌ
عِينٌ وليس لنا غيرُ البراذينِ (٣) ؟

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) الريم : مخفف الرئم ، وهو الظبي الخالص البياض . والصبُّ : العاشق . يقال : صببتُ اليه صبابة فأنا صَبٌّ ، أي عاشق .

(٣) البراذين : جمع بِرْذَون ، وهو الدابة ، وأكثر ما يستعمل للحمار . والعين : جمع عيناء وهي الواسعة العينين ، وهو أعين : واسع العينين .

نُسْقَى شراباً لعمرانٍ يُعَتِّقُهُ
يُمسي الأصحّاءُ منه كالمجانينِ
إذا ذكرْنا صلاةً بعدما فَرَطَتْ
قمنا إليها بلا عقلٍ ولا دينِ[1]
نمشي إليها بطاءً لا حَراكَ بنا
كأنّ أرجُلَنا تُقلَعْنَ من طينِ
نمشي وأرجُلُنا عُوجٌ مَطارِحُها
مَشيَ الإوَزّ التي تأتي من الصينِ

وكان من أكثر روّاد داره للعبث والشراب وسماع قيناته محمد ابن الأشعث، ورَوح بن حاتم المهلبيّ ومعن بن زائدة، وهشام بن محمد السُّلَميّ، ومحمد بن جميل، وعبدالله بن المقفع.

وخرج ابن رامين حاجًّا وأخرج جواريَه كلَّهنّ، فارتاع رُوّاد بيته لخروجه، ووصف الشعراء منهم لوعتهم من فُرقة مجلسه، كما وصفوا كثرة الناس الذين كانوا يجتمعون في بيته طلباً للهو والغناء. وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث أحدُ فتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم:

أيّةُ حالٍ يا ابنَ رامينْ   حالُ المحبين المساكينْ
تركتَهم موتى وما مُوِّتوا   قد جُرِّعوا منكَ الأمَرَّينْ
وسِرتَ في رَكْبٍ على طِيّةٍ   رَكْبٍ تهامٍ ويمانينْ[2]
يا راعيَ الذَّوْدِ لقد رُعْتَنا   ويلَكَ من رَوْعِ المحبينْ[3]
فرَّقْتَ جمعاً لا يُرَى مِثلُهم   بين دُروب الروم والصّينْ[4]

---

(١) فرطت: سبقت وتقدمت.
(٢) يقال: سار على طيته، وعلى طِيّة: أي مضى لحاجةٍ أو قَصْدٍ أو نِيّةٍ انتواها.
(٣) الذّوْد في الأصل: القطيع من الإبل ما بين الثلاث إلى الثلاثين على خلاف في ذلك، ولا يكون الا من الإناث دون الذكور، والمقصود به هنا جمع الجواري الذي خرج مع ابن رامين.
(٤) الأغاني: ج ١٥ ص ٥٦ – ٦٨.

***

وما من شك في أن النوع الأخير من الجواري اللاتي احترفن الغناء واتخذنه وسيلة لاستهواء الفتيان ودَفْعِهم إلى عشقهنّ ، كان له أثر سَيِّئ في نشر الخلاعة والمجون .

ولعل الجاحظ خير من عرَض لعشق الجواري المغنيات بالوصف والتحليل ، وذلك إذ يقول في رسالة القيان :

« ومن الآفة عشقُ القِيان على كثرة فضائلهنّ وسكونِ النفس إليهنّ ، وأنهنّ يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض.

واللذاتُ كلُّها إنما تكون بالحواس : فالمأكول والمشروب – مثلاً – حظٌ لحاسة الذوق لا يَشرَكُها فيه غيرُها . فلو أكل الإنسانُ المسك الذي هو حظُ الأنف وجده بَشِعاً واستقذره ، إذْ كان دماً جامداً ...

فإذا جاء – العشقُ – بابَ القيان اشترك فيه ثلاثٌ من الحواسّ ، وصار القلب لها رابعاً . فللعين النظرُ إلى القينة الحسناء ... ، وللسمع منها حظُ الذي لا مؤونة عليه ، ولا تطرب آلتُه – الأذنُ – إلّا اليه ، وللّمس فيها الشهوة والحنينُ إلى الباه . والحواسُ كلها رُوّادُ القلب وشهودٌ عنده .

وإذا رفعت القينةُ عقيرةَ حلقها تغنّي حدّق اليها الطّرْف ، وأصغى نحوها السمع ، وألقى القلبُ اليها الملك ، فاستبق السمع والبصر أيُّهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه ، فيتوافيان عند حبة القلب ، فيُفرغان ما وَعَياه ، فيتولّد منه مع السرور حاسةُ اللمس ، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قطُ ، ولم تؤدّ اليه الحواسُ مِثْلَها . فيكون في مجالسته للقينة أعظمُ الفتنة ؛ لأنه رُوي في الأثر : « إياكم والنظرةَ فإنها تزرع في القلب الشهوة » . وكفى بها

لصاحبها فتنة ، فكيف بالنظر والشهوة إذا صاحبها السماع ، وتكانفتْها المغازلة ؟ » .

ثم يستطرد الجاحظ في سرد أساليب القيان في الغواية والإثارة واستهواء المعجبين ، حتى إذا بلغ من ذلك غايته قال :

« فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ، ولا عَلَمٌ يدعو اليه ، ولا فتنةٌ يستهوي بها الّا القيانُ لكفاه ! وليس هذا بذمٍ لهنّ ، ولكنه من فرط المدح . وقد جاء في الأثر : « خيرُ نسائكم السواحرُ الخَلّابات » . وليس يُحْسِنُ هاروتُ وماروتُ ، وعصا موسى ، وسحرةُ فرعون إلّا دونَ ما يُحسِنه القيان .

« وكيف تَسْلَم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفةً ، وإنما تكتسِب الأهواءَ ، وتتعلّم الألسنَ والأخلاق بالمنشأ ؟ وهي تنشأ من لَدُنْ مولدِها إلى أوانِ وفاتها بما يَصُدُّ عن ذكرِ الله من لهو الحديث ، وصنوفِ اللعب والأخانيث ، وبين الخُلَعاء والمُجّان ، ومن لا يُسمَع منه كلمةُ جِدٍّ ، ولا يُرجَع منه الى ثقة ولا دِين ، ولا صيانة ولا مروءة .

« وتروِي الحاذقةُ منهنّ أربعةَ آلافِ صوتٍ فصاعداً ، يكونُ الصوتُ بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عددُ ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرةُ آلاف بيت ، ليس فيها ذكْرُ الله إلّا عن غفلة ، ولا تَرهيبٌ من عِقاب ، ولا تَرغيبٌ في ثواب ، وإنما بُنيَتْ كلها على ذِكر ... والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة !

« ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصناعتها مُنكبّةً عليها تأخذ من المطارحين الذين طَرْحُهم كلّه تجميش[1] ، وإنشادُهم مُراودة ! وهي مضطرةٌ إلى

---

(١) التجميش : المغازلة .

ذلك في صناعتها ، لأنها إن جفَتْها تفلّتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت ، وكلّ واقفٍ فإلى نقصان أقرب..[1] » .

***

كذلك كان للقيان أثر في الأدب . فالمرأة كانت – وما زالت – تؤثّر في الإنتاج الأدبيّ من ناحيتين : الأولى ناحيةُ مشاركتها الرجلَ في الإنتاج الأدبيّ ، ولا سيما في الموضوعات التي تمسّ مشاعرَها ، وهي على ذلك أقدر ! والثانية ناحيةُ ما تثيره في نفوس الرجال من عواطف قوية تجيش في صدورهم ، فتطلق على ألسنتهم شعراً رقيقاً وأدباً ممتعاً .

والمستقرئ لأدبنا ، والعباسيّ منه بخاصة ، يجد أن « الجواريَ » كنّ أنشطَ من « الحرائر » في الناحيتين معاً : ناحيةِ الإنشاء الأدبيّ ، وناحيةِ الإيحاء إلى الشعراء والأدباء .

ويرجع السبب في ذلك إلى النظام الاجتماعي إذْ ذاك ، فقد كان الناس – كما يقول الجاحظ – يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري ، ويُحَجّبون الحرّة ويشدّدون في تحجيبها ، وإذا أراد أحد أن يتزوجها بعث بخاطبة تنظر إليها وتصف له محاسنَها وعيوبَها ، أما هو فلا يراها إلّا بعد الزواج !

وكان شأن الجارية غيرَ ذلك ؛ فالرجل لا يُعيَّر بها كما يُعيَّر بقريبته الحرّة . ولعلنا نذكر هنا كيف قتل مروان بن الحكم بنت أخيه يحيى عندما قال له معاوية : أكفِني بنت أخيك . وكلُّ ذنبها في نظر معاوية أنها كانت تخرج مع صديقةٍ لها فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدوَ خلاخيلُها[2].

---

(١) رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ١٧٠ – ١٧٧ .

(٢) الأغاني : ج ٤ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

ثم إن الجارية سافرةٌ إلى حد بعيد بحكم أنها في كل وقت عُرضةٌ لأن تُباعَ وتُشرَى ، وأنها تقضي للرجل حوائجه .

وإذا أراد أحد من عامة الناس أن يستمع لغناء أو يَلهُوَ بالقينات في بيوت المقيّنين ، فهنّ اللائي يُغَذّين ميلَه إلى السماع ورغبتَه في اللهو ، وهنّ — بحُكم سُفورهنّ — اللائي يقع عليهنّ نظرُ الناس ، أما الحرائر فلا يقع عليهنّ إلّا نظرُ أقاربهنّ . لذلك كان طبيعياً أن يُغذّيَ الشعراءُ والأدباءُ شعرَهم وأدبَهم بالجواري أكثرَ مما يغذونه بالحرائر .

ومن ناحيــة أخرى كان الرجال مدفوعين بباعث التجارة إلى العناية بتعليم الجواري أكثرَ من العناية بتعليم الحرائر ، على أساس أنّ علمَ الجارية أو أدبَها كان يُقوِّم بـــه بَدَنَها ، وأن الجارية إذا قُوّمت مثلاً بمائتي دينارٍ جاهلةً قُوّمت بأضعاف ذلـك مغنيةً أو أديبةً ، والمالُ في كل عصر هو قِوام الحياة الاجتماعية . أما الحرائرُ فلم يكن يُعنَى بتعليمهنّ وتربيتهنّ إلّا طبقةٌ قليلة ، هي طبقـــةُ الأشراف ومَن في حكمهم ، وقليلٌ ما هم .

وسبب آخر أن الناس كانوا يرون الجواريَ هنّ مَلْهَى الرجال ، فحاول القائمون بأمورهنّ أن يُرقّوا هذه الملاهيَ بكل مـا يتطلبه اللاهون ، ورأوا أن الجارية إذا كانت مغنيةً شاعرةً موسيقيةً كان ذلك أفعلَ في قلوب الرجال ، فلم يألوا جهداً في تحقيق مطالبهم . وكتب الأدب مليئةٌ بما كان بين الشعراء والأدباء وبين الجواري ، وما نشأ عن ذلك من شعر وقصص .

ولئن اغتبط الأدباء بما أنتجته هذه الحالةُ الاجتماعية من شعرٍ رقيق ، وقَصصٍ شائق ، وفنٍّ بديع ، فإن رجال الدين على الجانب الآخر قد ساءهم ما نتج عن ذلك من لهوٍ خليع ومجونٍ شنيع !

الأولون يحثُّون الناس على الاستمتاع بهذه الحياةِ المرحـــة الطليقة وَجَنْيِ ثمارِها ، والآخرون يَنعَوْن على الناس لهوَهم ومجونَهم ، حتى إذا يئسوا من التأثير فيهـــم وردِّهم إلى جـادَّةِ الصواب والاعتدال ، تَقَوْقَعُوا على أنفسهم ، واتخذوا من الزهد في الحياة والهرب من لذاتها ومغرياتها ملجأ وملاذاً لهم !

الكتاب الثالث

ابن أبي عتِيق وأخبَاره

- ترجمة ابن أبي عتيق
- أخبَاره

الفصل الأول

ابن أبي عَتِيق
ترجمة حياة

ومن دوحة أبي بكرٍ الصديق التي طابت أصلاً وزَكَتْ فروعاً نلتقي أخيراً بابن أبي عتيق ناقد الحجاز في عصره .

وهو أبو محمد عبدُ الله بنُ أبي عتيقٍ محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بن أبي بكرٍ الصديق بن أبي قُحافةَ القرشيُّ التَّيْميُّ .

ووالدُه أبو عتيقٍ محمدٌ أدرك النبيَّ هو وأبوه عبدُ الرحمن ، وجدُّه أبو بكرٍ ، وجدُّ أبيه أبو قحافة . ولا يُعلَم أربعةٌ رأَوْا النبيَّ على هذه الصفة غيرُهم [1] . وأمُّه هي رُمَيْثةُ بنتُ الحارث بن حذيفة بن مالك الكنانية [2] .

وأولاد عبد الله بن أبي عتيق هم : محمد ، وبه كان يُكنَى ، وعبد الرحمن ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعاتكة ، وزينب . وهؤلاء جميعاً أمُّهم « أمُّ أبيها » بنتُ عمه عبدِ الله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ، وأمُّها « مريم » العقيلية .

ومن أولاده أيضاً « عائشة » بنت عبدالله ، ويقال لها « أمُّ كلثوم » ، وأمُّها أمُّ ولد . وذكر ابنُ سعد في عداد أولاده بنتا رابعة اسمها « آمنة » ، وعنها وعن أمها يقول ابن سعد : « وآمنة بنت عبدالله ، وأمُّها أمُّ اسحاق

(١) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن حجر : ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ١٣٦ ، والطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٥ ص ١٩٥ .

بنت طلحة بن عبيدالله بن عثمان التيميّ ، وأختـها لأمّها فاطمةُ بنت الحسين ابن عليّ بن أبي طالب »[١] .

وأورد ابن قتيبة الخبر السابق بشيءٍ من التفصيل مـع تغيير « آمنة » إلى « أمية » فقال : « أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله كانت في أول أمرها تحت الحسن بن عليّ ، فولدت له طلحـة بن الحسن ، ولكنه مات صغيراً . ثم تزوجها الحسين بن عليّ ، فولدت له فاطمة بنت الحسين ، وهي أمُّ عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ ، ثم تزوجهـا عبدُ الله بنُ محمد ، ابنُ أبي عتيق فولدت له أُمَيَّة »[٢] .

ونحن نرجّـح قول ابن سعد بأنّ ولدَ ابنِ أبي عتيق من أم إسحاق بنتِ طلحة بن عبيدالله هي « آمنة » لا « أميّة » كما ذكر ابن قتيبة ، لأن احتمال التحريف في هذا الاسم قويّ ، ولأنه أشار إلى فاطمة بنت الحسين على أنها « أختها » أي أخت « آمنة » .

ويحدثنا الزبير بن بكار في « جمهرة نسب قريش وأخبارها » بأن إحدى بنات ابن أبي عتيق تزوجت ثابتَ بنَ عبدِالله بن الزبير ، وفي ذلك يقول : « وأمّا ثابتُ بنُ عبدالله بن الزبـير ، فكان لسانَ آل الزبير جَلَداً وفصاحةً وبياناً . وزوَّجَه عبدُالله بن الزبير ، قبلهم - أي قبل إخوته خُبَيْب وحمزة وعبَّاد - بنتَ ابنِ أبي عتيق ، عبدِالله بن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق ، فولدت له جاريتين ، يقال لإحداهما « حَكْمَةُ » . وكان يُكنَى أبا حَكْمةَ ، وكان أبوه يكنيه « أبا حُكَيْمة » . يُشبَّه لسانَه بلسان زَمْعَةَ بن الأسود ، وكان زَمْعَةُ يُكنَى « أبا حُكَيمة » . وكان ثابتُ يَشهد القتالَ مع أبيه ، ويُبارز بين يديه ، فعلَ ذلك أكثر من مرة »[٣] .

---

(١) انظر في أولاد ابن أبي عتيق الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٥ ص ١٩٥ ، وكذلك تاريخ ابن عساكر : ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٢) كتاب المعارف لابن قتيبة : ص ٢٣٣ ، ٢١٣ .

(٣) جمهرة نسب قريش وأخبارها : ص ٨٠ - ٨١ .

وفي بني ثابت بن عبد الله بن الزبير يقول المـُزَنيُّ[1] :

الثـَّابتيُّونَ قـومٌ في وِدَادِهمُ
غُنْمُ الحياةِ وفي أحقادهم تـَلـَفُ
اللاّحِظون بنور الله إنْ غَضِبُوا
والشاملونَ بِيُمْنٍ أينما انصرفوا
والفارطون فلا تُوبَى حِياضُهُمُ
بالواردين وإنْ ذُوَّادُها قَصَفُوا[2]

***

وقد مرَّ بنا في ترجمـة والده سببُ تلقيبه « بابن أبي عتيق » . فمن قائل : إنه كان يَرمي ذات يوم فانتمى الى أبي قحافة ، فقـال : أنا ٱبن أبي عتيق ، فغلب ذلك الاسم على أبيه[3] .

ومن قائل : إنَّ عَقِبَ محمدِ بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق يقال لهم : « آلُ عتيق » من بين ولد أبي بكر ، وذلك أن عِـدَّةً من ولده تفاضلوا ، فقال أحدهم : أنا ٱبن الصديق ، وقال الآخر : أنا ٱبن ثاني ٱثنين ، وقال غيره : أنا ٱبن صاحب الغار ، وقال محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر : أنا ٱبن أبي عتيق ، فـنُسِب إلى ذلك هو وولده إلى اليوم[4] .

وٱبن أبي عتيق مدنيٌّ تابعيٌّ ثقة ، وهو معدود من أهل الرواية ، ذُكِر

---

(١) المزنيّ : هو عبدالله بن أبي أصبح المزنيّ ، كان شاعراً فصيحاً أخذ عنه العلماء ، وله شعر كثير .
(٢) جمهرة أنساب قريش وأخبارها : ص ١٢٢ ، والفـارط : المتقدم إلى الماء يسبق من معه ، ويملأ الحياض ويستقي لهم . فلا تُوبَى حياضهم : أي لا توبأ من الوباء ، وهو المرض العام ، وسهّلت الهمزة . والمعنى : لا تصير حياضهم وخيمة تُعقب المرض . والذوّاد هنا : رعاة الإبل يذودونها ، أي يسوقونها ويطردونها . وقصفوا : ازدحموا على الماء وتدافعوا ، وكاد يكسر بعضهم بعضاً ، وسُمِع لهم صوت كالقصف عند مزدحم الماء .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذري : ج ١ ص ٤٢٠ – ٤٢١ .
(٤) كتاب المعارف لابن قتيبة : ص ١٧٤ .

أنه روى عن عمة أبيه عائشة أم المؤمنين ، وعن ابن عمر ، وعامر بن سعد ، وعنه روى أبناه محمدُ وعبدُ الرحمن ، وخالدُ بن سعد ، وعمرُ بن دينار ، ومحمدُ بن إسحاق ، وأبو حَزْرة يعقوبُ بن مجاهد وغيرُهم [1] .

***

صفاته وأخلاقه :

وقد عرّف به بعض العلماء والأدباء في كلمات موجزة دالّة ، تكشف لنا عن أهم ما اشتهر به من صفات تُعين على تَبَيُّن ملامح شخصيته .

- قال عنه محمد بن يزيد المبرد : كان ابن أبي عتيق من نُسّاكِ قريش وظرفائهم ، بل كان بَذّهم ظرفاً ، وله أخبار كثيرة [2] .
- وشهد له عبد الرحمن بن المغيرة الحِزامي الأكبر بأنه كان من أهل الفضل والعفاف والصلاح [3] .
- وأشار اليه الأزدي بقوله : وعبد الله بن أبي عتيق كان صاحب نوادر وسمَر ، وليس من أهل الحديث [4] .
- وقال عنه ابن عبد ربه : كان ابن أبي عتيق من نبلاء قريش وظرفائهم [5] .
- وعرّف به ابن عبد البر القرطبي صاحبُ الاستيعاب في ثنايا ترجمة أبيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فقال : وابنُه عبد الله المعروف بابن أبي عتيق غلبت عليه الدعابة [6] .

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ج ٦ ص ١١ ، وانظر كذلك كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي : ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ١٧٠ طبعة مكتبة صبيح .

(٣) الأغاني : ج ٨ ص ٣٤١ .

(٤) تهذيب التهذيب : ج ٦ ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(٥) العقد الفريد : ج ٦ ص ٤٩ .

(٦) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن حجر : ج ٤ ص ١٤٣ .

• ووصفه مُصعَب الزبيريّ بقوله : كان ابن أبي عتيق امرأ صالحاً ، وكان فيه دعابة [1] .

• وقال عنه أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ عليٍّ الحُصَريّ القيرواني : وابنُ أبي عتيق : هو عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه ! كان من أفاضل أهل زمانه وأجلّهم علماً وعفافاً ، وكان أحلَى الناس فكاهةً ، وأظرفهم مزاحاً ، وكان صاحبَ لهوٍ وغزَلٍ على عفافه وشرفه . وله عجائب وأخبار مُستطرَفة [2] .

وأبدى الجاحظ رأيه فيه ، وذلك في معرض إيراد رأي بني مخزوم في أخلاق ابن أبي ربيعة وعفته . قال الجاحظ : « وأما بنو مخزوم فيزعمون أن ابن أبي ربيعة لم يحلّ إزاره على حرام قطّ ، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عتيق ، فإن ابن أبي عتيق كان من أهل الطهارة والعفاف ، وكأنّ من سمع كلامه توهّم أنه من أجرإ الناس على فاحشة [3] .

ومن الكلمات السابقة نستخلص أنّ ابن أبي عتيق كان من نبلاء قريش، وأنه اشتهر بالفضل والنُّسك والصلاح والعفاف والشرف ، هذا إلى جانب ما عُرِف به من الظَّرْف والدعابة وحلاوة الفكاهة والميل إلى اللهو والمزاح والغزَل !

***

وإذا عدنا إلى أخباره التي جمعناها وأفردنا لها فصلاً خاصاً وجدناها تكشف لنا عن جانب آخر من صفاته وأخلاقه .

---

(١) تهذيب التهذيب : ج ٦ ص ١١ .

(٢) زهر الآداب للحصريّ : ج ١ ص ٢٥٧ ، وانظر له أيضاً كتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر : ص ٣١ ، ٥٢ ، ٥٥ .

(٣) الحيوان للجاحظ : ج ٢ ص ٨٤ .

• من ذلك أن خلقه الكريم كان يأبَى عليه المِكاسَ، أي المساومة.
سمع عمرَ بنَ أبي ربيعة يقول في إحدى قصائده:

من رَسولي إلى «الثريّا» فإني   ضِقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ

فقال إيّايَ أراد، وبي نوّه، لا جَرمَ! والله لا أذوق أكلاً حتى أشخَصَ إليه لأصلح بينهما. ثم نهض ونهض معه مولاه بلالٌ إلى قوم من بني الدِّيل بن بكر، لم تكن النجائب تفارقهم يُكرونها، فاكترى منهم راحلتين، وأغلى لهم بهما.

ورأى ذلك مولاه بلالٌ فقال له: استوضِعهم شيئاً، أو دعني أماكِسهم فقد اشتطوا. فقال له: ويحك! أما علمتَ أنّ المِكاس ليس من خُلُق الكرام؟[1].

• وشهد له الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بجُود النفس والأريحية.
حضر ابنُ عائشة المغنّي مجلس الحسن ذات مرة فقال له: غنّني «مَن رَسولي إلى الثُّريّا...» فسكت ابنُ عائشة. فقال له الحسن: مالَك؟ ويحك! أبكَ خبال؟ كان والله ابنُ أبي عتيق أجودَ منك بما كان عنده. فإنه لما سمع هذا الشعر قال لابن أبي ربيعة: أنا رسولك إليها، فمضى نحو «الثريّا» حتى أدّى الرسالة، وأنت معنا في المجلس تبخل أن تغنّيه لنا![2].

• وكان أميناً صادقاً مع نفسه، يأبَى أن ينافق طمعاً في المدح أو خوفاً من الهجاء. قدم الوليد بن يزيد المدينة يريد الحج، وهو إذ ذاك وليُّ عهد، فدخل عليه الناس ودخلت عليه الشعراء وفيهم «أبو معْدان» راويةُ الأحوص، وقد استعان على الوليد بعبدالله بن معاوية بن جعفر، وعمر بن مُصعَب بن الزبير وابنِ أبي عتيق، والمنذر بن أبي عمر كاتب الوليد بن يزيد.

(١) أمالي المرتضى: ص ٣٤٧. (٢) الأغاني: ج ١ ص ٢٢٧.

وأنشد الوليدَ النُّصَيْبُ الشاعرُ . ثم قـام « أبو مَعْدان » فأنشده مادحاً بشعرٍ يبدو عليه التكلف والاستجداء ، فأنكره الوليد وقال له : مَن أنت ؟ قال : أبو مَعْدان . فقال : ومَن أبو معدان ؟ فتدخل عبدالله ابن معاوية قائلاً : هـذا أبو معدان أصلح اللهُ الأمير ، وهو عندنا أنْبَهُ مِن أن يُجهَل ، وإنا لنتهادَى شعرَه كما نتهادَى باكورة الفاكهة .

ولكنَّ ابنَ أبي عتيق الناقد الذي يلتزم الأمانة والصدق مع نفسه في كل شيءٍ يأبَى ، حتى ولو لوجْه البرّ ، أن يقول في أبي معـدان وشعرِه ما لا يعتقد ، ولهـذا نراه يخذُله أمام الوليد بن يزيد . وكذلك فعل المنذرُ بن أبي عمرو . وفي ذلك يقول أبو معدان :

لم أجِـدْ مُنذراً تخوّفَ ذَمّي
يومَ لاقيتُـه ولا ابنَ عتيـقِ
أجْرَعَاني مَشُوبـةً مَذَقَاهَا
ليس صِرفُ الشراب كالمَمْذُوقِ[1]
كيف لا تجعـل المواعيدَ صِرفاً
لهفَ نفسي وأنت للصدّيـقِ ؟[2]

• وكان يرى إجازة الطلب عند الحاجة ، أما إذا جاوز الطلبُ مقدارَ الحاجة فأمرٌ ينبغي الاستحياء منه ، لأنه يكون عندئذٍ طمعاً وجشعاً ! قال ابن أبي عتيق : دخلتُ على أشعبَ يوماً وعنـده متاعٌ حسَنٌ وأثاث ، فقلت له : أما تستحي أن تطلب من الناس وعندك مثـلُ هذا ؟ فقال : يا فديتك ، معي من لُطْف المسألة ما لا تَطيب نفسي بتركه ! وكان يقول : أنا أطمع وأمّي تتيقّن ، فإذا اجتمع طمعي ويقينُ أمّي ، فقلّ ما يُفلتُنا ![3] .

---

(١) أجرعه : سقاه الجرعة . والمشوبة : المخلوطة غير الصافية . والشراب المذوق : المخلوط الممزوج بالماء . ومنه مَذَقَ المودة : أي خلطها ولم يخلصها .

(٢) جمهرة قريش وأخبارها : ص ٣٢٤ .

(٣) ذيل الأمالي والنوادر لأبي عليّ القالي : ص ١٧٦ - ١٧٧ .

• وكان أبِيّاً عزيزَ النفس . وصفَـــه عبدُ الله بن جعفر لعبد الملك ابن مروان ، وحدّثه عن إقلاله و كثرة عياله ، فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه .

وأعلمه ابن جعفر بما دار بينه وبين عبد الملك وبعث به إليه ، فدخل ابن أبي عتيق على عبد الملك ، فوجـــده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه يميسان كغُصنَيْ بانٍ ، بيـدِ كلّ جاريةٍ مِروحـةٌ تُروّح بها عليه ، مكتوبٌ بالذهب عليها أبيات من الشعر في وصفها !

قال ابن أبي عتيق : فلمـــا نظرتُ إلى الجاريتين هوّنتا الدنيا عليّ وأنستاني سوءَ حالي ، وقلت : إنْ كانتا من الإنس فما نساؤنا إلّا من البهائم ! فكلما كـرّرْتُ بصري فيهما تذكّرتُ الجنـة ، فإذا تذكّرت امرأتي ، وكنتُ لها مُحِبّاً ، تذكّرت النار !

قال : فبدأ عبد الملك يتوجّع اليّ بمـــا حكى له ابنُ جعفر عني ، ويخبرني بمالي عنده من جميل الرأي . فأكذبتُ له كلّ ما حكاه له ابنُ جعفر عنّي ، ووصفتُ له نفسي بغـاية المِلاءِ [1] والجِدَةِ . فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرتُ له ، وغمّاً بتكذيب ابن جعفر .

فلما عاد اليه ابنُ جعفر عاتبه عبدُ الملك على ما حكاه عنّي ، وأخبره بما حلّيْتُ نفسي به . فقال : كذب واللهِ يا أمير المؤمنين ، وإنه أحوج أهل الحجاز إلى قليل فضلك ، فضلاً عن كثيره .

وعندما لقيني ابن جعفر قال : ما حملَك أنْ كذّبتني عند أمير المؤمنين؟ قلتُ : أفكنتَ تُراني تُجلسُني بين شمس وقمر ، ثم أتـفاقـرُ عنده !؟ لا واللهِ ما رأيتُ ذلك لنفسي وإن رأيتَه لي ... [2] .

---

(١) المِلاء : الغنى . والجِدَة : من وجد يجد جِدَة : أي استغنى غنى لا فقر بعده .

(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٢-٢٣ .

• وكان يرعى حق الجليس ويأبى أن ينال أحد من عِرضه طالما هو في مجلسه . كان الحزين الكِناني الشاعر قد ضرب على كل رجل من قريش درهمين كلَّ شهر ، منهم ابن أبي عتيق . فجاءه على حمار أعجفَ [1] ، وكُثيِّر عزّةَ جالس معه . فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين . فقال الحزين لابن أبي عتيق : مَن هذا ؟ قال : هذا أبو صخر كُثَيّر بن أبي جمعة ، وكان كُثيِّر قصيراً دميماً .

فقال الحزين : أتأذن لي أن أهجوَه ببيت شعر ؟ قال : لا ! لعمري لا آذَنُ لك أن تهجوَ جليسي . ولكني أشتري عِرضَه منك بدرهمين آخرَين ، ودعا له بهما .

فأخذهما ثم قال : لا بُدّ من هجائه ببيت . قال : أوَ أشتري ذلك منك بدرهمين آخرَين ؟ ودعا له بهما ، فأخذهما ثم قال : ما أنا بتاركِه حتى أهجوَه . قال : أوَ أشتري ذلك بدرهمين ؟

إلى هذا الحد حاول ابن أبي عتيق صَرْفَ هذا الشاعرِ وكفَّ أذاه عن جليسه رعايةً لحقه . ولكنْ يبدو أن كُثيِّراً قد ضاق ذرعاً بإلحاح هذا الشاعر فقال لابن أبي عتيق : إيذَنْ له .. ما عسى أن يقول في بيت واحد ؟ فأذِنَ له ابن أبي عتيق فقال :

قصيرُ القميصِ فاحِشٌ عند بيته
يَعَضُّ القُرادُ بِاسْتِه وهْوَ قائمُ [2]

عندئذ وثب كُثيِّر اليه فلكَزَه [3] فسقط هو والحمار ، وخلّص ابنُ أبي عتيق بينهما ، وقال لكُثيِّر : قبّحك الله ! أتأذن له وتَسْفَهُ [4] عليه ؟ فقال كثيّر : أوَ أنا ظننتُه أن يبلغَ بي هذا كلَّه في بيت واحد؟ [5].

---

(١) أعجف : هزيل .
(٢) فاحش : قبيح . والقُراد : جمع قرادة ، ما يتعلّق بالبعير ونحوه ، وهو كالقمل للانسان . واسْتُه : دُبُره .
(٣) لكزه : ضربه بجُمْع كفه ، أي بكف مقبوضة في صدره .
(٤) تسفه عليه : أي تجهل عليه .
(٥) الأغاني : ج ٥ ص ١٠-١١ .

• ولعل أهمّ ما استفاضت به شهرتُه إلى جانب ما مرّ بنا من حميد سجاياه وأخلاقه ، هو ظَرفُه وخفةُ دعابتـــه ، وميلُه إلى حُلْوِ الفكاهة وحُسْنِ النادرة وطيبِ المزاح .

وكلُّ ما انتهى الينا من أخباره يدلُّ على أنه كان ممن رُزِقوا ملكةَ الظّرف وخِفّةَ الروح ولُطفَ الدعابة ، وأنـه كان يرى الأشياء من جانبها المشرق الضاحك . وكأني به قد اتخذ من كل ذلك طريقاً للتعبير عن خواطره وأفكاره بما يُستظرَف لخروجه عمـا يُعرَف . ونحن نورد هنا مثالين للدلالة بهما على طبيعة مزاحه الذي لم يكن فيـــه فاحشاً ولا متبذّلاً .

قال ابن أبي عتيق لامرأته : تمنّيْتُ لو أُهْدِيَ لنا مسلوخٌ[١] فنتخذَ من الطعام لونَ كذا ولونَ كذا . فسمعته جارةٌ له ، فظنت أنه أمر بعملِ ما سمعتْه ، فانتظرتْ إلى وقت الطعام ، ثم جاءت فقرعتِ البابَ وقالت : شمَمْتُ رائحةَ قُدورِكم فجئتُ لتطعموني منه . فقال ابن أبي عتيق : أنتِ طالق إنْ أقمنا في هذه الدار التي جيرانها يتشمّمُونَ الأماني ![٢]

ودخل على عمة أبيه ، عائشةَ أمّ المؤمنين وهي ثقيلة[٣] فقال لها : يا أمّهْ ، كيف تجدينك ، جُعِلتُ فداك ؟ قالت : هو الموت ! قال ابن أبي عتيق : فلا جُعِلتُ فداءَك إذن ! فضحكت وقالت : ما تَدَعُ مَزْحَكَ بحال !![٤]

على أن ابن أبي عتيق لم يكن في كل ذلك إلّا حجازيّاً مدنيّاً . فقد عُرِف أهلُ الحجاز عامةً وأهـلُ المدينة خاصةً ، بأنهم أكثرُ الناس

---

(١) المسلوخ : شاة سُلِخ جلدها .

(٢) جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري : ص ١٨٣ .

(٣) وهي ثقيلة : وهي مريضة مرضاً شديداً أشرفت منه على الموت .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري : ج ١ ص ٤٢١ .

ظَرفاً وطيباً، وأرقَّهم مِزاحاً وأدباً، وأشدَّهم اهتزازاً وطرباً للغناء وحُسْنَ أدبٍ لسماعه، وأبرعَهم شِيَماً، وأطبعَهم كرماً. ومن الكلمات المأثورة: دَلٌّ حجازيٌّ وعِشْقٌ يمانيٌّ.

وليس يقدح من مروءة الأشراف ولا يَغُضُّ من ديانتهم أن يستمعوا للغناء، أو المزاح البريء، أو الدعابة الحلوة، أو المُلَح والنوادر. وكثيراً ما كان ذلك طريقاً إلى نيل الحظوة والعطاء.

قال الأصمعيُّ: بالعلم وصلنا وبالمُلَح نِلْنا. ورُوي أنَّ عليَّ بن أبي طالب قال: مَن كانت فيه دُعابة فقد بَرِئَ من الكِبْر. وسُئل ابنُ أبي جُعدُبة: يا أبا الحكم، الرجلُ الذي يشدو بالأصوات، ما ترى فيه؟ قال سبحان الله! كنا إذا أتتْ على الرجل أربعون سنة، ولا يُحسن عَشْرةَ أصوات، عددناه من أهل بقيع الغرْقد — يعني من الموتى[1].

وقال عبد الله بن جعفر: إنَّ لي عند السماع هِزَّةً لو سُئلتُ عندها لأعطيتُ، ولو قاتلتُ لأبليتُ[2].

وكان عبد الملك بن الماجَشون يقول: لقد كُنّا بالمدينة، وإنَّ الرجل يحدثني بالحديث من الفقه فيُمليه عليَّ، ويذكر الخبرَ من المُلَح فأستعيده فلا يفعل، ويقول: لا أعطيكَ مُلَحِي، ولا أهَبُ لك ظَرفي وأدبي.

وكان يقول أيضاً: إني لأسمع الكلمة المليحة، ومالي إلّا قميصٌ واحد، فأدفعه إلى صاحبها، واستكسي اللهَ عزَّ وجلَّ[3].

إلى هذا الحد كان الحجازيون عامة والمدنيُّون منهم خاصة، من حيث ما رُكِّب في طبائعهم من الظَّرف والرقة، وحبِّ الدعابة والفكاهة والمُلَح والنوادر، والشغف بالغناء والتنادي لسماعه.

---

(١) جمع الجواهر: ص ٥٠، وبقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٢) زهر الآداب: ج ١ ص ١٨٢. (٣) جمع الجواهر: ص ٤٥، ٥٠.

ولكنّ ابنَ أبي عتيق ، وهو واحد منهم ، قد تميّز عنهم بأنه كان أوفاهم حظاً في كل ذلك . والمطلع على ما استطعنا جمعه من أخباره في الفصل التالي يرى مصداقَ هذا القولِ وشاهدَه ، فهي أخبار لا تخلو من نادرة طريفة ، أو دعابة مُستملحَة ، أو فكاهة ضاحكة ، أو نقد ظريف لمن اتصلوا بـه أو اتصل بهم من أبناء مجتمعه الحجازيّ على اختلاف طبقاتهم ، وتباين أهوائهم ونزعاتهم .

***

شخصيات أخباره :

وأخبار ابن أبي عتيق التي عثرنا عليها — وهي ليست كلّ أخباره — تـظهرنا على أن الرجل كان مرموقاً مقدّراً من معاصريه ، وأنه كان يعيش في صميم مجتمعه ، وعلى اتصال بشخصيات لهـا شأنُها ووزنُها على شتى المستويات .

فله أخبار مع شعراء الحجاز ، ومع أهل الغناء فيه من رجال ونساء ، ومع غير هؤلاء وهؤلاء ، من بعض آل بيت الرسول والخلفاء والأمراء والأشراف والأدباء وعامة الناس حتى الطفيليين !

كذلك تـظهرنا أخباره على أنه كان على اتصال قويّ بكل الحركات القائمة في عصره وبيئته من أدبية وفنية وسياسية واجتماعية ، يتأثر بها ويؤثر فيها بتعليقاته الظريفة المبهجة حيناً ، وبنقده الأصيل الساخر أحياناً !

ففي أخباره التي جمعناها نجد له أخباراً مع أحد عشر شاعراً من شعراء الحجاز ، هم : عمر بن أبي ربيعة ، وكثيّر عزة ، وعبيدالله بن قيس الرقيات ، والعرجيّ ، والأحوص ، ونـصَيْب بن رباح ، وقيس بن ذَريح ، وعروة بن أذينة ، والحزين الكنانيّ ، وعروة بن حزام ، وأبو معدان راويةُ الأحوص . وأخباره مع معظم هؤلاء الشعراء تتصل بنقد شعرهم ، كما سنرى فيما بعد .

وله أخبار أيضاً مع عشرة من أهل الغناء . وهؤلاء هم : ابن سُرَيج ، ومعبد ، وابن عائشة ، وبُدَيْح المليح ، والغريض ، والدَّلال ، وعزَّة المَيْلاء ، وجميلة ، وسلّامةُ القَس ، وبعض جواري عبد الله بن جعفر .

ومن غير الشعراء وأهل الغناء له أخبار مع عمة أبيه عائشةَ الكبرى أمّ المؤمنين ، والحسنِ بن الحسن بنِ علي ، وعبدِ الله بن الزبير ابن عمةِ أبيه أسماءَ ذاتِ النطاقين ، وعبدِ الملك بن مروان ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن يزيد ، وعبدالله بن جعفر ، وأبي السائب المخزوميّ ، ونافع بن جُبَيْر ، وعثمان بن حيان أحد ولاة المدينة ، وأشعب بن جبير ، ومن النساء غير من ذكرنا إحدى زوجات ابن أبي عتيق ، وعائشة بنت طلحة المعروفة بعائشة الصغرى ، والثريّا بنتُ علي بن عبد الله ، وزينبُ بنتُ موسى الجُمَحِيّة ، وسُعدَى بنتُ عبد الرحمن بن عوف ، من صواحب ابن أبي ربيعة .

ومن بين أولئك الذين اتصلوا به أو اتصل بهم في حياته ، نجد خمسةً منهم كانت أخبارُه معهم أكثر ، وعلاقتُه بهم أشدَّ وأوثق ؛ ذلك لأن كلَّ واحد منهم – كما يبدو – كان يلتقي معه في مَيْلٍ خاص من ميوله ، ويُغذّي جانباً معيناً من جوانب نفسه .

وهؤلاء الخمسة هم : عمر بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ، وعَزّةُ المَيْلاء ، وأبو السائب المخزوميُّ .

مع عمر :

ومن أخبار ابن أبي عتيق مع عمر بن أبي ربيعة نرى أن الرجلين كان يجمع بينهما صداقةٌ قوية ، ترجع أكثر ما ترجع إلى تقاربهما مَيْلاً ومزاجاً . فكلاهما كان يحب الشعر ، هـذا يقوله وذاك يتذوقه وينقده . وكلاهما كان يهوَى الغناء ، ويطرب له ، ويختلف إلى مجالس أربابه ورباتِه للسمَر والسماع ! وكلاهما رُزِق شخصية عَذبة محبَّبة ، وروحاً سَمِحةً تغلب عليها الدعابة !

كذلك كان يجمع بينهما الإعجاب المتبادل . فابن أبي عتيق يرى أن عمر قد طلع على الحجاز بفن جديد ومذهب جديد في شعر الغزل ، فلا يملك إلّا أنْ يُعجَب بهذا الشعرِ الذي تغلب عليه سيماء الحضارة ، والذي يعبّر عن روح العصر بكل تطلعاتها ونزوعها نحو الانعتاق والطلاقة والتجديد . ومن أجل هذا نراه في مواقف كثيرة يُشيد بهذا الشعر الجديد الجريء ويُعليه على شعر معاصريه ويلفت الأنظار إليه بنقد يساوقه في روحه وظرفه وبهجته ! وكثيراً ما كان يبتدر المناسبات التي بها يُذكي عاطفة الشاعر ، ويستجيش شاعريته ! ومن خلال أخبارهما ، بل ومن خلال شعر عمر أيضاً يطالعنا ابن أبي عتيق إما موحياً لصديقه الشاعر ، أو لائماً ، أو ناصحاً ، أو مسعفاً له في بعض مواقفه العاطفية ، أو ناقداً لشعره ، أو معلقاً عليه .

وعمر من جانبه كان يعجبه من ابن أبي عتيق ظَرفه ودعابته ونقده الساخر وتعاطفه معه ، ولهذا ذكره في أربعَ عشرةَ قصيدةً بالاسم الصريح « عتيق » أحياناً ، وبالكناية عنه باسم « بكر » أحياناً أخرى . وكان إذا قدم المدينة لا ينزل إلّا عنده ، وإذا لقيه ابتدره بانشاده الجديد من شعره . أنشده مرة قوله :

لم ترَ العينُ للثريّا شبيهاً
بمسيلِ التّلاعِ لما التقينا (١)

أعملت طَرفها إليّ وقالت :
حُبّ بالسائرين زَوْراً الينا (٢)

ثم قالت لأختها قد ظلمنا
إنْ رددْناه خائباً واعتدينا (٣)

في خلاء من الأنيس وأمْنٍ
فشفَينا غليله واشتفينا

---

(١) التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض .

(٢) حبّ : كلمة تقال للمدح . والزور : جمع زائر . (٣) اعتدينا : جاوزنا الحد في الظلم .

وضربنا الحديثَ ظهراً لبطنِ
وأتينا من أمرنا ما اشتهيْنا [1]
فلبِثْنا بذاك عَشْراً تِباعاً
فقضَيْنا ديونَنا واقتضيْنا
كان ذا في مسيرنا إذْ حَججْنا
علم اللهُ فيه ما قد نَوَيْنا

فكان ابن أبي عتيق يُعلّق على كل بيت تعليقاً ذكياً ظريفاً ، حتى إذا انتهى ابن أبي ربيعة إلى البيت الأخير قال له ابن أبي عتيق : إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه ، فأرْوِدِ [2] التفسير ، ولئن مُتَّ لأموتَنَّ معك . أُفٍّ للدنيا بعدك يا أبا الخطاب ! فقال عمر : بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد ! [3] .

على هذا النحو كان الإعجاب المتبادل بينهما .

***

مع ابن الزبير :

وأخبار ابن أبي عتيق مع عبد الله بن الزبير تُظهرنا على أنه كان زُبَيْرِيَّ الهوى ، وأنه كان معجباً بشخصية ابن الزبير إعجاباً شديداً .

أما عن زُبَيْرِيَّتِهِ فتتمثل في موقفه من الصراع الذي قام من أجل الخلافة بين ابن الزبير ومعاوية أولاً ، ثم بينه وبين يزيد بن معاوية ثانياً ، ثم بينه وبين عبد الملك بن مروان ثالثاً .

وقد جاءت فرصة ابن الزبير للسعي إلى الخلافة عندما نقض معاوية

---

(١) ضربنا الحديث ظهراً لبطن : أي قلّبناه على كل وجوهه المحتملة .
(٢) أرود التفسير : أي إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه ، فدع التفسير فلا حاجة إليه .
(٣) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٨ .

عهده مع الحسن بن عليّ ، وعقَدَ البيعة لابنه يزيد ، فقد كان ابن الزبير ممن عارضوا في مبايعته وطلب من معاوية واحداً من أمور ثلاثة : إما أن يترك الأمر للمسلمين كما فعل الرسول ، وإما أن يعهد بالخلافة إلى قرشيٍّ ليس من بنيه كما فعل أبو بكر ، وإما أن يجعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم واحد من بنيه كما فعل عمر بن الخطاب . ولكن معاوية لم يستجب إلى أيٍّ من هذه الأمور الثلاثة ، وأتمّ البيعة لابنه يزيد . وقبيل وفاته حذّرَ ابنه يزيد من ابن الزبير بقوله : « ... وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك رَوَغان الثعلب ، فإن أمكنته الفرصة وثب ، فذاك عبدالله بن الزبير . فإن فعل وظفِرت به فقطّعْه إرَباً إرَباً ، إلّا أن يلتمس منك صلحاً . فإن فعل فاقبلْ منه ، واحقِنْ دماء قومك بجُهدك ، وكُفّ عاديتهم بنوالك ، وتغمّدْهم بحلمك »[1] .

وقد تمّ الأمر لابن الزبير في الحجاز والعراق واليمن ومصر بعد موت معاوية ، وكاد يتمّ له الأمر في الشام لولا هزيمةُ الأمويين له في « مرج راهط » . ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ذهب بنفسه إلى العراق وحارب مصعب بن الزبير فهزمه وقتله سنة ٧١ هـ . ثم وجه الحجاج إلى مكة فحارب عبدالله بن الزبير وقتله أيضاً سنة ٧٣ للهجرة .

في هذا الصراع الذي قام من أجل الخلافة بين الزبيريين والأمويين وقف ابنُ أبي عتيق موقفاً إيجابياً بجانب عبدالله بن الزبير . ولعله في موقفه هذا كان مدفوعاً بعامل قرابته من ابن الزبير ، فهو ابن عمة أبيه أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصديق ، ثم بعامل آخر ، هو مشاركته ابن الزبير في حنينه لاستعادة الخلافة الإسلامية إلى الحجاز مهدِها الأول .

ومن أخبار ابن أبي عتيق ما يفيد لومَه لابن الزبير على عدم الأخذ برأيه في السماح لأنصاره بحسم الأمر مع معارضيه من أهل مكة عندما كانوا لا يزالون قِلّة ، وقبل أن يستعينوا عليه بالأمويين .

(١) الأخبار الطوال للدينوري : ص ٢٢٦ .

جاء في الأغاني أنَّ أبَا رَيْحانةَ عَمَّ أبي دَهْبَل الشاعر كان شديد الخلاف على عبدالله بن الزبير ، فتوعَّـدَه عبدُالله بن صفوان [١] ، فلحق بعبد الملك بن مروان ، فاستمدَّه الحجاج فأمـدَّه عبد الملك بطارق مولى عثمان في أربعة آلاف .

فأشرف أبو ريحانة على أبي قُبَيْس [٢] فصاح أبو ريحانة : أليس قـد أخزاكم اللهُ يا أهل مكة ؟ فقال له ابن أبي عتيق : بلى واللهِ قد أخزانا الله !

فقال له ابن الزبير : مهلاً يا ابن أخي ! فقال — ابن أبي عتيق : قلنا لك ائْذَنْ لنا فيهم وهم قليل فأبَيْتَ ، حتى صاروا إلى ما ترى من الكثرة [٣] !

ومع ذلك فقد ظل على ولائه لابن الزبير إلى آخر لحظة ، مع إعجابه بشخصيته ، وشجاعة قلبه ، ورباطة جأشه حتى في أحلك المواقف !

روى المدائنيُّ عن ابن ميمون أن ابن أبي عتيق قال : كان ابن الزبير مضطجعاً في المسجد وولدُه وأهـلُ مكة يخرجون إلى الحجاج وأنا عند رِجْـلِه ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ أين يذهبون ؟ قلت : إلى الحجاج . قال : فما يمنعهم أن يكفُّوا أصواتهم ، فقد منعونا من النوم ؟ فقلت في نفسي : أتُراه جادًّا ؟ ثم سمعتُ غطيطه !! [٤] .

***

مع عبدالله بن جعفر :

وكان عبدالله بن جعفر بن أبي طالب من أحب الناس وأقربهم مودة إلى ابن أبي عتيق . وهو أول مولود وُلِد في الإسلام بالحبشة ، وآخرُ مَن رأى النبيَّ من بني هاشم .

---

(١) كان من رجالات عبدالله بن الزبير وحضر معه مشاهده ، وقد قتله الحجاج وأرسل برأسه مع رأس ابن الزبير إلى عبدالملك بن مروان .

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

(٣) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٤ ، وانظر كذلك أخبار مكة المشرفة : ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري : ج ٥ ص ٣٧٧ . الغطيط : النخير ، وهو ترديد الصوت الذي يخرج مع نفَس النائم .

وكان له صحبة ورواية : روى عن النبي ﷺ ، وعن أبيه وعمه علي ابن أبي طالب .

وعلاقته بخلفاء الأمويين في عهده كانت حسنة في جملتها ، فقد كان يتبادل الزيارات مع معاوية ، وإذا قدم على معاوية أنزله في داره وبالغ في إكرامه ، كما كان يتردد على ابنه يزيد ، ثم على عبد الملك بن مروان من بعده .

وقد اشتهر ابن جعفر بالجود ، فكان يُدعَى الجواد ، وبحر الجود ، ويقال : إنه لم يكن في أجواد أهل الحجاز في الإسلام مَن هو أجود منه[1].

فكلُّ مالِه وكلُّ ما كان يأتيه من قِبَل الخلفاء كان يُنفقه على طالبيه من أهل المدينة وغيرهم .

جاءه البشير بمولد أحد أبنائه وهو عند معاوية ، وعرف معاويةُ الخبر ، فقال : سَمِّه معاوية ولك مائة ألف درهم . ففعل فأعطاه المال ، فأخذه وأعطاه للبشير[2] .

وقدم على يزيد بن معاوية فقال له : كم كان عطاؤك ؟ فقال له : ألفَ ألفٍ ، قال : قد أضعفناها لك ، قال : فداك أبي وأمي ، وما قلتُها لأحدٍ قبلك ، قال : أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلافِ ألف !؟ فقال ويحكم ! إنما أعطيتُها أهلَ المدينة أجمعين ، فما يدُه فيها إلّا عاريّة[3] .

والحق ما قاله يزيد هنا ، فلم يكن المال في يد ابن جعفر إلّا عاريّة تتداولها الناس . فالمال عنده ليس له ، وإنما هو لله في يده ! والحق أيضاً أنه كان من سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء والمساكين ويعيشون بعُرفهم !

---

(١) فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٤٤ .

(٢) الأغاني : ج ١٢ ص ٢٢٣ .

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٠ . والعاريّة مشددة الياء وقد تخفف والعارة : ما تداولوه بينهم .

ومن هنا كان ذهابُه في الجود إلى حد الغلوّ ، ولم يكن الرجل أبلهَ ، وإنما كان يتبالـهُ أمام قاصديه ، ويتلطـّف في أسلوبه مع من يحاولون غِشّه حتى لا يَجرح ، فعلَ ذوي المروءة والنبل والشرف .

• أتاه قَهْرَمانه [1] بحسابه ، فكان في أوله حَبْلٌ بخمسين درهماً ، فقال له عبد الله : لقد غَلَتِ الحِبال ! فقال القهرمان : إنـه أبرق [2] . فقال عبد الله : إن كان أبرق فأنا أجيزه [3] ! فصارت كلمته هذه مثلاً في المدينة !

• وجلب رجل إلى المدينة سُكَّراً فكَسَدَ عليه ، فقيل له : لو أتيت ابنَ جعفر قَبِلَه منك وأعطاك الثمن ، فأتى ابنَ جعفر فأخبره ، فأمره بإحضاره وبُسِطَ له ، ثم أمر بـه فنُثِر ، فقال للناس : انتهِبُوا . فلما رأى الرجل الناس ينتهبون قال : جُعلتُ فداءك ! آخذُ معهم ؟ قال : نعم ، فجعل الرجلُ يَهِيل في غرائره ، ثم قال لعبد الله : أعطني الثمن . فقال : وكم ثمن سُكَّرِك ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، فأمر له بها .

فقال الرجل : ما يدري هذا وما يَعقِل أخذَ أم أعطى ! لأطلُبَنّه بالثمن ثانية ، فغدا عليه فقال : ثمنُ سُكَّري ، فأطرق عبد الله مَلِيّاً ثم قال : يا غلام ، أعطه أربعةَ آلاف درهم ، فأعطاه إياها . فقال الرجل : قد قلتُ لكم : إن هذا الرجل لا يعقِل ، أخذَ أم أعطى ! لأطلُبَنّه بالثمن . فغدا عليه فقال : أصلحك اللهُ ! ثمنُ سُكَّري . فأطرق عبدالله مليّاً ، ثم رفع رأسه إلى رجل ، فقال : ادفعْ اليه أربعة آلاف درهم . فلما وَلّى ليقبضها قال له ابن جعفر : يا أعرابيُّ ، هذا تمامُ اثنيْ عشرَ ألفَ درهم ! فانصرفَ الرجل وهو يَعجب من فعله [4] !

---

(١) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس .
(٢) الأبرق : الذي فيه بياض وسواد . (٣) عيون الأخبار : ج ١ ص ٣٣٩ .
(٤) الأغاني : ج ١٢ ص ٢٢٠ .

ولعل ابن قيس الرقيات خيرُ مَن عبّر عن طبيعة جود ابن جعفر حين قال في إحدى مدائحه له :

لا خيرَ في المجتدَى في الحين تسأله
فاستمطروا من قريشٍ خيرَ مُختدَعٍ[1]

تخال فيهِ إذا حاورتَه بَلَهاً
مِن جوده وهْوَ وافي العقلِ والورَعِ

وقد عوتب ابن جعفر في جوده هذا فقال : إن الله عزّ وجلّ عوّدَني عادةً ، وعوّدَ الناسَ عادة ، فأخاف إنْ قطعتُها قُطِعَتْ عَنّي[2].

ولم تكن شهرته في عالم الغناء بأقل من شهرته في عالم الكرم والجود . فالرجل لم يكن يحب الغناء ويهتزّ لسماعه فحسب ، وإنما كان كذلك يُغنّي ، ربما لنفسه في خلَواته ، كما كان يرعى أهل هذا الفن ، ويتعهّدُ الموهوبات في الغناء من جواريه ، فيرَوّيهنّ رقيقَ الشعر ، ويستقدم لهنّ أرباب الغناء المطارحة وأخذ الألحان عنهم .

- رآه معاوية يحرك رأسه وهما يستمعان ذات ليلة في منزله للمغنّي بُدَيْح فسأله : لمَ حركتَ رأسك يا ابنَ جعفر ؟ فقال : أريحيّةٌ أجدُها يا أمير المؤمنين ، لو لُقيتُ عندها لأبليْتُ ، ولو سُئلتُ عندها لأعطيت[3] .

- ووفدَ على عبد الملك بن مروان فأقام عنده حيناً . وذات ليلة وهُما في مجلس سمَر سأله عبد الملك : أمَا إني نُبّئتُ أنك تغنّي ؟ فقال ابن جعفر : أجل ، يا أمير المؤمنين[4].

(١) المجتدَى : الذي تطلب جدواه أي عطاءه .
(٢) فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٤٤ .
(٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٩ .
(٤) المرجع السابق : ج ٦ ص ٥٥ .

• وكان يشتري الجارية الحسناء من ماله ، ثم يختار لها من الشعر أجودَه ، ومن الكلام أحسنَه ، فتردّدُه عليه بصوت حسَن ، ثم يأتي لها بكبار المغنين من أمثال بُدَيْح وطُوَيْس فيَطرحان عليها أغانيَها وألحانَها حتى تَحذِقَها . ومن جواريه مَن غلبتْ على أساتذتها في الغناء . وكان لجواريه قَيِّمةٌ تُشرف عليهنّ في كل شيء[1] .

والمستقرئ لأخباره في هذا الباب يُخيَّل إليه أن منزله كان في عصره أشبهَ بمعهد لتعهُّد الجواري الموهوبات في الغناء وتخريجهنّ ، ثقةً منه بأنّ الارتقاء بهذا الفنّ من شأنــه أن يَصقُلَ المواهب ، ويُحييَ المشاعر ، ويهذّبَ الأخلاق ، ويُرقّيَ الشعر ، ويُلقيَ على المجتمع ظِلًّا جميلاً .

ومع ذلك لم يسلم في اتجاهه هذا من المعارضة والتعريض ، فقد كان هناك من استقبح أو استكثر أن يرى رجلاً في مثل قدره وشرفه يهوَى الغناء ويرعَى أهله إلى هذا المدى . ولكنه لم يبال بمن ساء فهمُه ، وسار في طريقه يقابل المعارضة والتعريض بالتحدّي ! .

• بلغه أن معاوية يأخذ عليه الجمع بين الغناء والصلاة ، فأولمَ له ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابنَ صيادٍ المغنّي وطلب اليه أن يحرّك أوتاره ويغنّي عندما يضع معاويةُ يدَه في الطعام .

وسمع معاويةُ الغنــاء فأعجبه حتى قبض يدَه عن الطعام ، وجعل يضرب الأرض برجله طرباً . فقال له عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما هو مختار الشعر يركّب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الأوزان[2] .

• وضمّه وعبدَ الملك بن مروان ذات ليلة مجلسُ سمر فتذاكروا الغناء ، فقال عبد الملك : قبّح اللهُ الغنــاء ، ما أوضعَه للمروءة ، وأجرحَه

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٥٥ . (٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٧ - ١٨ .

للعِرض ، وأهدمَه للشرف ، وأذهبَه للبهاء ! قال هـذا وابن جعفر ساكتٌ ، فقال عبد الملك : مالك أبا جعفر لاتتكلم ؟ قال : ما أقول ولحمي يتمزّع وعِرضي يتمزّق ؟ قال : أمَا إني نُبئتُ أنك تغنّي ؟ قال : أجل يا أمير المؤمنين . قال : أفٌّ لك وتُفٌّ . قال : لا أفَّ ولا تُفّ ، فقد تأتي أنت بما هو أعظم من ذلك . قال : وما هو ؟ قال : يأتيك الأعرابيُّ الجافي يقول الزور ويقذف المحصَناتِ ، فتأمر له بألف دينار ...[1] .

- وقال له عبدُ الله بنُ صفوان ، وكان أميّاً : أبا جعفر ، لقد صِرْتَ حُجّةً لفتياننا علينا ؛ إذا نَهَيْناهم عن الملاهي ، قالوا : ابنُ جعفر سيّدُ بني هاشم يحضُرها ويتّخِذُها ! قـال له : وأنت أبا صفوان صِرتَ حُجةً لصبياننا علينا ؛ إذا لُمْنَاهم في ترك المكتب ، قالوا : هذا أبو صفوان سيّدُ بني جُمَح لا يقرأ آيةً ولا يَخُطُّها[2] !

***

ذلكم عبدُ الله بن جعفر أحبُّ الناس وأقربُهم مودةً إلى ابن أبي عتيق . ولعلنا من كل ما مرّ بنـا من أحوال الرجلين نعرف سبب المودة أو الصداقة التي كانت تجمع بينهما .

فكلاهما نبيل قرشيٌّ ، كريم أريحيّ يسكن المدينـة ، وكلاهما بصير بالشعر ؛ يتذوّقه ويستنشده ؛ وكلاهما حفِيٌّ بالغناء مغرم به إلى درجة الفتون ؛ فهو يعقد له المجالس ؛ ويطرب لسماعه أيمّا طرب ؛ ويشجع عليه ؛ ويرعى أربابه وربّاته !

ولعل التقاءهما كان في ميدان الغناء أكثر منه في أي ميدان آخر . وإضافةً إلى ما تقدم كان ابن أبي عتيق ؛ كابن جعفر ؛ يغني إذا خلا الى نفسه أو إلى بعض أصفيائه .

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٥٥ . (٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ٤٥ .

• دخل على عائشة أمّ المؤمنين ، وهي عمة أبيه ، فوضع رأسه في حِجرها أو على ركبتها ، ثم رفع عقيرته[1] يتغنّى :

وَمُقَيَّدٍ حَجِلٍ جررتُ برجله
بعد الهدوءِ له قوائمُ أربعُ
فاطربْ زمانَ اللهو من زمن الصِّبَا
وانزِعْ إذا قالوا أبَى لك مَنْزَعُ
فليأتينْ عليك يومٌ مرّةً
يُبكَى عليك مُقنّعاً لا تَسمعُ !

فقالت له عائشة : يا بُنَيَّ ، فاتّقِ ذلك اليوم[2] .

• وأهدى إليه عبد الملك بن مروان الجاريتين اللتين رآهما في مجلسه عندما ذهب لزيارته على إثر حديث ابن جعفر لهذا الخليفة عن إقلاله وكثرة عياله .

فلما صارتا إليه زار عبدَ الله بن جعفر – وكان على علم من الخليفة بهذه الهدية – فوجده قد امتلأ فرحاً ، وهو يشرب وبين يديه عُسٌ[3] فيه عسلٌ ممزوج بمسك وكافور . فقال : مَهْيَمْ[4] ؟ فقال ابن أبي عتيق : قد والله قبضتُ الجاريتين ! قال : فاشربْ ، فتناول العُسَّ فجرع جرعة . فقال : زِد . فأبى عليه . فقال ابن جعفر لجارية عنده تغنيه : إنّ هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين . فخُذِي في نعتهما ، فإنهما كما فلكتْ[5] صدورهما . فحركت الجارية العود ثم غنّتْ :

---

(١) عقيرة الرجل : صوته إذا غنّى أو قرأ أو بكى .
(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٠ – ٢١ .
(٣) العُسُّ : القدح الضخم .
(٤) مَهيم : كلمة استفهام معناها : ما وراءك ؟ .
(٥) فلك صدرُ الجارية : إذا استدار ثديُها وصار كالفَلْكة : وهو دون النهود .

عهدي بها في الحيّ قد جُرِّدتْ

زهراءَ مثلَ القمرِ الضامرِ

قد حجَّمَ الثديُ على نحرِها

في مُشرقٍ ذي بهجةٍ ناضرِ

لو أسندتْ مَيْتاً إلى صدرِها

قام ولم يُنقلْ إلى قابرِ

حتى يقولَ الناسُ مما رأَوْا :

يا عجباً للميِّت الناشرِ !

فلما سمع ابن عتيق الأبيات طربَ ثم تناول العُسَّ فشرب عَللاً [1] بعد نَهَلٍ ، ورفع عقيرته يغنّي :

سقَوْني وقالوا : لا تُغَنِّي ! ولو سقَوْا

جبالَ حُنَيْنٍ ما سقَوني لغنّتِ [2]

فمن هذين الخبرين يتّضح أن ابن أبي عتيق كان كصاحبه عبدالله ابن جعفر حسن الصوت ، وأنه كان إذا طرب ، أو خلا إلى نفسه أو إلى بعض خُلَصائه وأصفيائه رفعَ عقيرته بالغناء .

وكثيرةٌ هي الأخبار التي تتحدث عن مجالس الغناء التي كان يعقدها ابن جعفر في منزله ويحضرها ابنُ أبي عتيق وغيرُه من إخوانها ، أو المجالسِ التي كانت تُعقَد لهم ويغنّي فيها أمثال سائب خاثر وبُدَيْح ، وابن سُرَيْج ، وابن صياد ، وطُوَيْس ، والدّلال ، وعزة المَيْلاء ، وجميلة . ومن هؤلاء من كان منقطعاً لابن جعفر كبُدَيْح وابن سُرَيْج . وكانت جميلة التي آلت على نفسها ألّا تغنّيَ أحداً إلّا في منزلها تستزير بعضَ مَن تؤثرهم ، كابن جعفر ، وابن أبي عتيق ، وابن أبي ربيعة والأحوص ، وتعقد لهم مجالس خاصة تغنّي فيها هي وجواريها .

---

(١) العلَل والنهَل : العلَل : الشَّربة الأولى ، والنهَل : الشربة الثانية .

(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٢ - ٢٣ .

وإلى جانب كل ذلك كان ابن أبي عتيق يختلف كثير إلى منزل صاحبه عبد الله بن جعفر ليستمع إلى غناء جواريه . قال له عبد الله مرة : لو غنتك فلانةُ جاريتي صوتاً ما أدركتك ذكاتك[1] .

فقال ابن أبي عتيق : قلْ لها تفعل ، وليس عليك إن مِتُّ ضمانٌ[2]، فأخذ بيده عبد الله بن جعفر وأدخله منزله ، ثم أمر الجارية فخرجت وقال لها : هاتي ، فغنَّتْ :

بهواكِ صيَّرني العذولُ نكالاَ
وجد السبيل إلى المقال فقالاَ[3]

ونَهَيْتُ نومي عن جفوني فانتهى
وأمرتُ ليلي أن يطولَ فطالاَ

قال : فرمى بنفسه ابن أبي عتيق إلى الأرض ، وقال : « فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرّ »[4] .

هذا هو عبد الله بن جعفر أحبُّ الناس وأقربهم مودَّةً إلى ابن أبي عتيق ، وتلك صورة لنوع العلاقة التي كانت تربط بينهما ، ومنها يتجلَّى أنهما كانا يشتركان في أمور كثيرة . ولكنهما مع ذلك كانا يختلفان في النظر إلى المِكاس ![5] فابن أبي عتيق كان يرى أن المكاس ليس من خلق الكرام ، على حين كان عبدالله بن جعفر يماكس .

---

(١) الذكاة : الذبح . وقوله : « ما أدركتك ذكاتك » أي لمُتَّ من شدة الطرب قبل أن يدركك الذبح .

(٢) الضمان : الدية أو الغرامة .

(٣) النكال : العبرة .

(٤) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢١ - ٢٢ . واستشهاد ابن أبي عتيق بالآية الكريمة هو كناية عن أنَّ لهم إذا مات من شدة الطرب أن يفعلوا به ما يشاءون .

(٥) المكاس : المساومة .

• رُئِيَ مرة يماكس في درهم ، فقيل له : أتماكس في درهم وأنت تجود من المال بما تجود به ؟ فقال : ذلك ما لي جُدْتُ به ، وهذا عقلي بَخِلْتُ به ![1].

***

مع عزّة المَيْلاء :

لم يكن ابن أبي عتيق أديباً ناقداً للشعر فحسب ، وإنما كان كذلك ، وكما مرّ بنا ، حَفِيّاً بالغنـاء مُحِباً له ، يَغْشَى مجالسَه ، ويهتزّ أيّما اهتزاز لسماعه .

وكصاحبه عبدالله بن جعفر كان يشجّع الغناء ، ويتعهّد الموهوبين فيه ، ويعطف على أهله ، ويقف في وجه كل من يحاول أن يُضيّقَ عليهم ، أو يؤذيَ أحداً منهم . والأخبار الدالة على كل ذلك كثيرة .

• قدم ذات مرة إلى مكة فسمع غناء ابن سُرَيْج فقال : ما سمعت كاليوم قط ، وما كنت أحسب أن مثل هذا بمكة ، وأمر له بمال ، ثم أخذه معه إلى المدينة ليُهديَ إليها شيئاً لم ير أهلُها مثلَه حُسْناً ومنظراً وطيبَ مجلس ودماثةَ خلق ورقّةَ منظر ومِقَةً عند كل أحد . ثم أسمعه غناء معبد وسأله رأيه فيه ، فقال ابن سريج : إنْ عاش كان مغنّيَ بلاده[2] .

وقد حدث ذلك سنة ٦٣ والمدينة ثائرة على يزيد بن معاوية ، وفي حرب شديدة مع جيشه بقيادة مسلم بن عقبة المريّ ، وكأن اكتشافَ ابن سريج وتقديمَه إلى أهل المدينة كان عند ابن أبي عتيق أهمّ من كل شيء حتى الحرب !

---

(١) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ٦٨ .

• وكان يسوق في كل عام عن ابن سُرَيج بَدَنَة[1]، وينحرها عنه ويقول: هذا أقلُّ حقّه علينا[2]. وهذه إيماءة كريمة تدل على منتهى العطف والتقدير لأهل الغناء.

• وقدم عثمان بن حيان المريّ والياً على المدينة من قِبَل الوليد بن عبدالملك سنة ٩٤ للهجرة، فاجتمع إليه الأشراف من قريش والأنصار فقالوا له: إنك قد وَلِيتَ على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد الإصلاح فطهِّر المدينة من الغناء والرثاء «النَّوْح»، فصاح في ذلك وأجَّلَ أهلَ الغناء والرثاء ثلاثة أيام يخرجون فيها من المدينة.

وكان ابن أبي عتيق وقتذاك غائباً عن المدينة، وحدث أن عاد إليها آخر ليلة من الأجل، وكان أول شيء فعله قبل الذهاب إلى منزله أنْ توجَّه إلى سلَّامةَ القَسّ مُسَلِّماً فأخبرته الخبرَ فهالَه الأمرُ! ثم خرج فاستأذن على عثمان، وذكر له غَيبته، وأنه جاء ليقضيَ حقه، وقال له: إن أفضل ما فعلت تحريمُ الغناء والرثاء. فقال عثمان: إن أهلك أشاروا عليَّ بذلك. فقال: إنهم وُفِّقُوا ووُفِّقتَ.

ثم احتال ابن أبي عتيق حتى أدخل عليه سلَّامة القَسّ فأسمعه قراءتها ثم غناءها، فقام عثمان فقعد بين يديها، ثم قال: لا والله ما مثل هذه تخرج عن المدينة! فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، يقولون: أذِن لسلَّامة في المُقام وأخرج غيرها! فقال عثمان: قد أذنت لهم جميعاً[3].

• ويتذكر الغريض وقد أسَنَّ وكبر، فيرى من حقه عليه أن يسأل عنه، فيخرج إليه من المدينة فيزوره في مكة ويهدي له ويقيم عنده أياماً يؤنسه ويستمع لغنائه[4].

---

(١) البدنة: الناقة السمينة التي تساق للنحر والذبح، وهي من الإبل ما يُهدَى إلى الكعبة في موسم الحج للتصدق بلحمها لإطعام فقراء بيت الله الحرام، وهذا من شعائر الله.

(٢) الأغاني: ج ١ ص ٢٧٦.

(٣) المرجع السابق: ج ٨ ص ٣٤١-٣٤٢. (٤) الأغاني: ج ٢ ص ٣٦٨.

• وكان أبو جعفر محمد بن عائشة من أتيه خلق الله وأشدّهم ذهاباً بنفسه . فإن قال له إنسان : تَغَنَّ ، قال : أَلِمثلي يقال هذا ؟ وإن قال له إنسان وقد ابتدأ هو بغناء : أحسنتَ ، قال : أَلِمثلي يقال : أحسنتَ ؟ ثم يسكت . ويبدو أن طبيعته كانت تأبى أن يُفرَض عليه الغناء فرضاً ، وقد عرف الناسُ ذلك ، فكانوا يهيئون له الجوّ ويستثيرون عاطفته بأحاديث الشعراء وذِكْر بعض شعرهم ، وعندئذ يقول لهم : أفلا أغني لكم ذلك ؟

وكان ابن أبي عتيق لا يطيق أن يؤذيَ أحدٌ مغنيّاً . رأى ذات يوم حَلْقَ ابنِ عائشة مُخَدَّشاً فقال : مَن فعل هذا بك ؟ قال : فلان .

فمضى ابن أبي عتيق فنزع ثيابَه وجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتَلْبِيبه[1] وجعل يضربه ضرباً شديداً ، والرجل يقول : مالك تضربني ؟ أيّ شيءٍ صنعتُ ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، ثم خلّاه وأقبل على مَن حضر فقال : هذا أرادَ أن يكسر مزامير داود : شدّ على ابن عائشة فخنقه وخَدَش حَلقَه ![2] .

***

هذه نبذة عن نظرة ابن أبي عتيق إلى الغناء والاهتمام بأمره والتشجيع عليه ، والإعجاب ببعض أربابه ورباته . ولكنْ من بين أهل الغناء جميعاً كان إعجابه أشدّ بعزّة المَيْلاء . فمن عزّةُ المَيْلاءُ هذه ؟ وما خَبَرُه معها ؟

كانت عزّةُ مولاةً للانصار ، ومسكَنُها المدينة ، وهي أقدم مَن غنّى الغناء الموقّع من النساء بالحجاز ، وكانت من أجمل النساء وجهاً ، وأحسنِهنّ جسْماً ، وسُمّيت المَيْلاء لتمايلها في مِشيتها .

---

(١) أخذ بتلبيبه : جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجره .

(٢) الأغاني : ج ٢ ص ٢٠٤ .

وعندما قدم نَشيطُ وسائبُ خاثرٍ المدينة وغنّيا أغانيَ بالفارسيّة لَقِنَتْ عزّةُ عنهما نغماً ، وألّفتْ عليه ألحاناً عجيبة ، فهي أول مَن فتَنَ أهلَ المدينة بالغناء وحرّض نساءهم ورجالهم عليه .

وكان إذا ذكرها مشايخ أهل المدينة قالوا : لله دَرُّها ! ما كان أحسنَ غناءَها ، ومَـدَّ صوتِها ، وأندى حَلْقَها ، وأحسنَ ضربَها بالمزاهر والمعازف والملاهي ، وأجملَ وجهَها ، وأظرفَ لسانَها ، وأقربَ مجلسَها ، وأكرمَ خُلُقَها ، وأسخى نفسَها وأحسنَ مساعدتَها !

وكان طُوَيْسٌ يجاورها ، وكثيراً ما كان يأوي إلى منزلها . وكان إذا ذكرها يقول : هي سـيدةُ مَن غنّى من النساء ، مع جمال بارع ، وخُلُق فاضل ، وإسلام لا يَشوبه دَنَس ؛ تأمر بالخير وهي من أهله ، وتنهَى عن السوء وهي مجانبة له ، فناهيك ما كان أنبلَها ، وأنبلَ مجلسَها ! وكانت إذا جلسَتْ جلوساً عامّاً فكأنّ الطيرَ على رءوس أهل مجلسها ، مَن تكلّم أو تحرّك نُقِر رأسُه [1] .

أدركت حسّانَ بن ثابت في شبابها ، وقد كُفّ بصرُه وثَقُل سمعُه ، وغنّته مرةً من شعره ، فطرِب ، وجعلت عيناه تنضحان ، وهو مُصغٍ لها ! وكان يُقدّمها على سائر قيان المدينة [2] .

فسيدةٌ هذه صفاتُها الظاهرةُ والباطنة لا بد أن تنال الإعجاب مِن كل مَن رآها وسمعها ، وكان أشدَّ المعجبين بها ابنُ أبي عتيق .

• حدّثَ صالح بن حسّان قال : كان ابن أبي عتيق معجبا بغنـاء عزّةَ المَيْلاء ، كثيرَ الزيارة لها ، وكان يختار عليها قول خُزَز بن لَوْذَان :

لِمَن الديارُ عرفتُها بالشُّرْبُبِ ؟
ذهبَ الذين بهـا ولمّا تَذهبِ [3]

---

(١) الأغاني : ج ١٧ ص ١٦٢ — ١٦٣ . (٢) توفي حسان ثابت سنة ٥٤ للهجرة .
(٣) الشُّرْبُب : واد في ديار بني ربيعة .

فسألها يوماً زيارته فأجابته إلى ذلك ومضت نحوه ، فقال لها بعد أن استقرَّ بها المجلس : يا عزَّةُ ، أحِبُّ أن تغنيني صوتيَ الذي أنا له عاشق. فغنَّته هذا الصوت فطرِب كلَّ الطرَب ، وسُرَّ غاية السرور [١] .

• وكان عبد الله بن جعفر ، وابن أبي عتيق ، وعمر بن أبي ربيعة يغشَوْنها في منزلها فتغنِّيهم . وغنت يوماً عمر بن أبي ربيعة لحناً في شيء من شعره فشقَّ ثيابه ، وصاح صيحةً عظيمة صُعِق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهلُ يا أبا الخطاب ! قال : إني سمعت واللهِ ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي ! [٢] .

• وكان إذا غلبه الشوق اليها وأراد زيارتها استعان بصديقه ابن جعفر ؛ لأنها ، كما يزعم ، لا تنشط إلَّا بحضوره ! أتى يوماً عند عبد الله ابن جعفر ، فقال له : هل لك في عزَّة ؟ فقد اشتقت اليها ! قال : لا ، أنا اليوم مشغول . فقال ابن أبي عتيق : بأبي أنت وأمي ! إنها لا تنشط إلَّا بحضورك ، فأقسمتُ عليك إلَّا ساعدتَني وتركتَ شغلك، ففعل . فأتياها ورسولُ الأمير على بابها يقول لها : دَعِي الغناء ، فقد ضجَّ أهل المدينة منك ، وذكروا أنك قد فتنتِ رجالهَم ونساءهم !

فقال له ابن جعفر : ارجع إلى صاحبك فقل له عَنِّي : أقسم عليك إلَّا ناديتَ في المدينة : أيمُّا رَجلٍ فسد أو امرأةٍ فُتِنت بسبب عزَّة إلَّا كشف نفسَه لنعرفَه ويظهرَ أمرُه . فنادى الرسول بذلك فما أظهر أحدٌ نفسه !

ودخل ابن جعفر اليها وابن أبي عتيق معه ، فقال لها : لا يَهُولَنَّكِ ما سمعتِ ، وهاتي فغنِّينا ، فغنَّته بشعر القُطَامِيِّ :

إنا مُحَيُّوكَ فاسلمْ أيهُّا الطَلَلُ
وإن بَلِيتَ ، وإن طالتْ بكَ الطِّيَلُ [٣]

---

(١) الأغاني : ج ١٢ ص ١٥٦ . (٢) الأغاني : ج ١٧ ص ١٦٤ .

(٣) الطيل : جمع طِيلَة ، وهي العمر . وقوله : « وإن طالت بك الطيل » : أي وإن امتد بك الزمن .

فاهتزّ ابن أبي عتيق طرباً ، فقــال له عبد الله بن جعفر : ما أراني أدرك رِكابَك بعد أن سمعتَ هذا الصوتَ من عزّة[1] .

***

مع أبي السائب المخزومي :

كان أبو السائب المخزوميّ معاصراً لابن أبي عتيق ، وكانا يلتقيــان في صفات كثيرة . فكلا الرجلين كان من أشراف قريش في المدينة ، ومن أهل النسك والفضل في الحجاز ، وكلاهما كان يحب الغناء ويغشى مجالسَه ، وكلاهما كان من أصحاب الفكاهة والمُلَح والنوادر ، وكلاهما كان يتذوق الشعر ، وشعرَ الغزل خاصة ، وكلاهما كان ندّاً للآخر في ظَرفه ، وإن اختلفت طبيعة الظَّرف عند كلٍّ منهما .

فظَرف ابن أبي عتيق يتمثل أكثرَ ما يتمثل في نقـدٍ ظريف يجاري روحَ الشعر الذي ينقده ، على حين يتمثل ظَرف أبي السائب في تعليقاته على الشعر . وهذه التعليقات وإن كانت تثير أشد الضحك ، فإنهـا تدل في الوقت ذاته على ما كان يتمتع به الزجل من حُسْن الذوق ، ولطف التخيُّل ، ورهافة الحِسّ . وإذا كان عمرُ بنُ أبي ربيعة الشاعرَ المفضَّلَ عند ابن أبي عتيق ، فإن قيسَ بنَ ذَريح هو الشاعرُ المفضَّلُ عنـد أبي السائب .

ولما كانت أخبار أبي السائب المخزومي تمثّل صورة من صور نقد الشعر في عصره ، فقد عقدنا له كتاباً خاصاً في هذا البحث أتينا فيه على ترجمته وأخباره التي استطعنا جمعَها ، وذلك للمقارنة بينها وبين أخبـار ابن أبي عتيق من ناحية ، ولتكون من ناحية أخرى نواة لمن تحدثه نفسه مستقبلاً بدراسة هذه الشخصية الفريدة النادرة .

---

(١) الأغاني : ج ١٧ ص ١٧٦ .

وللدلالة على كل ما سبق نورد هنا بعض أخبار أبي السائب المخزومي مع ابن أبي عتيق وغيره .

• خرج أبو السائب المخزوميُّ وآبنُ أبي عتيق يتنزهـان في بعض نواحي مكة ، فنزل أبو السائب ليبول وعليه طويلته ، فانصرف دونها . فقال له آبن أبي عتيق : ما فعلتْ طويلتُك ؟ قال : ذكرتُ قولَ كُثيِّر :

أرَى الإزارَ على « لُبْنَى » فأحسُدُهُ
إنَّ الإزارَ على مـا ضَمَّ مَحْسُودُ

فتصدقتُ بها على الشيطان الذي أجرَى هذا البيتَ على لساني !

فأخذ آبنُ أبي عتيق طويلتَه فرمَى بها وقال : أتَسْبِقُنِي أنت على برِّ الشيطان ؟[1]

• وأنشد رجل أبا السائب المخزوميَّ قصيدةَ أبي دَهْبَل :

سَقَى اللهُ جازاناً فمن حلَّ وَلْيَهُ
فكلَّ فَسِيلٍ من سَهامٍ وسُرْدُدِ[2]

فلما بلغ قولَه :

فوانَدَمِي أنْ لم أعُجْ إذْ تقول لي :

تقدَّمْ فشَيِّعْنا إلى ضَحْوَةِ الغَدِ

قال أبو السائب : ما صنع شيئاً ! ألاَ اكترَى حماراً بدرهمين فشيَّعَهم ولم يقل « فوَانَدَمِي » أو اعتذر ؟ وإني أظن أنه قد كان له عُذر . قال الرجل : وما هو ؟ قال : أظنه كان مثلي لا يجد شيئاً ![3].

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٤ .

(٢) جازان : موضع في طريق حاجّ صنعاء . والوَلْيُ : القُرب . والفسيل : النحل الصغير ، وسهام : اسم موضع باليمامة ، وسردد : واد مشهور بتهامة اليمن .

(٣) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٠ .

• وأخبر الخليل بن سعيد قال : مررتُ بسوق الطير فإذا الناس قد اجتمعوا يركب بعضُهم بعضاً ، فاطّلعتُ فإذا أبو السائب المخزوميُ قائم على غراب يُباع ، وقد أخذ بطرَف ردائه ، وهو يقول للغراب . يقول لك قيس بن ذَريح :

ألا يا غرابَ البَيْنِ قد طرتَ بالذي
أحاذرُ من لُبْنَى فهل أنتَ واقعُ ؟

لِمَ لا تقع ؟ ويضربه بردائه والغرابُ يصيح !

قال : فقال قائل له : أصلحك الله يا أبا السائب ! ليس هذا ذاك الغراب. فقال : قد علمت ، ولكنْ آخذ البريء حتى يقع الجريء ![١] .

***

تاريخ ميلاده ووفاته :

إن الدارس لابن إبي عتيق يجد في الكتب التي عرضت له ذِكْراً لبعض أخباره متفرقة هنا وهناك ، وسكوتاً لا يُعرَف سببه عن تاريخ ميلاده ووفاته .

وإذا كانت المراجع التاريخية والأدبية التي اعتمدنا عليها في دراستنا له لم تذكر شيئاً عن تاريخ ميلاده أو وفاته ، فإننا نجد في بعض أخباره ما يُعين على معرفة هذين التاريخين على وجه التقريب .

• جاء في الأغاني أن أبا السائب قال : أخبرني ابن أبي عتيق قال : والله إني لأسير في أرض عُذْرة إذا بامرأة تحمل غلاماً جَزْلاً ليس يُحمَل مثلُه فعجبت لذلك حتى أقبلتْ به ، فإذا له لِحية ، فدعوتُها فجاءت، فقلتُ لها : وَيحكِ ! مَن هذا ؟ فقالت : هل سمعت بعروة بنِ حزام؟ فقلت : نعم .

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٦ .

قالت : هـذا والله عُروة . فقلت له : أنت عُروة ؟ فكلّمني وعيناه تذرفان وتدوران في رأسه وقال : نعم ، أنا والله القائل :

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكْمَهُ
وعَرّافِ حِجْرٍ إنْ هما شفياني

فقالا : نعم ، نشفي من الداء كلّه
وقاما مـــع العُوّاد يتبدرانِ

فعفراء أحظى الناس عندي مودّةً
وعفراءُ عنّي المعُرضُ المتـــواني

قال : وذهبت المرأة فما برحتُ من الماء حتى سمعتُ الصيحة . فسألت عنها فقيل : مات عروة بن حِزام ... [1] .

وهذا الخبر هو أحد أخبارٍ أربعة أوردها صاحب الأغاني عن وفاة عروة بن حزام . وقد ذكر ابن شاكر الكتبي أن عروة قـد مات عشقاً في حدود الثلاثين للهجرة [2] .

فإذا صح هذا الخبر ــ وأنا أشك في صحته لتضارب الأخبار الواردة فيمن شهد وفاته ــ كان ميلاد ابن أبي عتيق قبل الثلاثين للهجرة بزمنٍ ما.

- وذكر البَلاذُرِيُّ أنه نزل في حفرة عائشةَ أمّ المؤمنين عند دفنها عبدُ الله وعروةُ ولدا الزبير بن العوام ، والقاسمُ بن محمد بن أبي بكر ، وعبدُ الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو ابن أبي عتيق ، كما ذكر أن وفاة عائشة كانت سنة ثمان وخمسين للهجرة [3] .

ومعنى هذا أن ميلاد ابن أبي عتيق الذي شهد وفاة عائشة عمةِ أبيه سنة ثمانٍ وخمسين كان على الأرجح في خلافة عثمان بن عفّان ، أي في الفترة التي تقع بين سنة ثلاث وعشرين وخمس وثلاثين للهجرة .

---

(١) الأغاني : ج ٢٠ ص ٣٧٥ . طبعة دار مكتبة الحياة – دار الفكر .

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي : ج ٢ ص ٧٠ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذريّ : ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

هذا عن ميلاده ، أمــا عن تاريخ وفاته فهناك خبران آخران من أخباره يعينان على تحديد تاريخ وفاته على وجه التقريب .

• حدث الزبير بن بكار عن محمــد بن عبد الرحمن الحكَميّ قال : قدِم الوليد بن يزيد المدينة يريد الحج ، وهو إذ ذاك ولي عهد ، فدخل عليه الناس ، ودخل عليه الشعراء ، فدخل فيهم أبو مَعدان مهاجرٌ مولى آل أبي الحكم ، وكان رواية الأحوص .

وقد استعان — أبو مَعدان — بعبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب ، وعمَر بن مُصعب بن الزبير ، وابن أبي عتيق ، والمنــذر ابن أبي عمرو كاتب الوليد بن يزيد ، فأنشده النُّصَيْبُ ، ثم قام أبو معدان فأنشده ... الخ[1] .

ومن هذا الخبر يُفهَم أن ابن أبي عتيق قد شهد مجلس وليّ العهد الوليد ابن يزيد عندما قدم المدينة يريد الحج . وقد أورد أبو جعفر الطبريّ خبر خروج الوليد بن يزيـد للحج في أخبار سنة ١١٦ للهجرة فقال : « وحج بالناس في هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو ولي العهد ... »[2] .

ومن الخبرين السابقين نرى أن ابن أبي عتيق كان لا يزال على قيد الحياة سنة ستّ عشرةَ ومائةٍ للهجرة .

• وحدّث عبد الرحمن بن عبد الله الزُهريّ عـن ابن أبي فروة أن عروة ابن أذَيْنة أنشد ابن أبي عتيق أبياتاً قالها يرثي بها أخاه بكراً :

سَرَى هَمّي وهَمُّ المرء يَسْري
وغــار النجمُ إلّا قِيدَ فِتْرِ[3]
أراقب في المجرّةِ كلَّ نجمٍ
تعرّض في المجرّة كيف يجري

(١) جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار : ص ٣٢٤ .
(٢) تاريخ الطبريّ : ج ٧ ص ٩٨ . (٣) قِيد فتر : أي قدر فتر .

بحزنٍ مـا أزال له مُديماً ..
كأنَّ القلبَ أسعِرَ حرَّ جمرٍ
على بكرٍ أخي وَلَّى حميـداً
وأيُّ العيش يحسُن بعد بَكرٍ ؟

فضحك ابن أبي عتيق وقال : كلُّ العيش يحسُن حتى الخبزُ والزيتُ !
فحلَف ابنُ أذَيْنة لا يكلمه أبـداً . فمات ابن أبي عتيق وابن أذَيْنة مُهاجرٌ له [1] .

ومن هـذا الخبر يُفهَم أن ابن أبي عتيق مات وابن أذينة مهاجر له ، وإذا عرفنا أن ابن أذينة توفي في حدود الثلاثين ومائـة [2] ، كان معنى هذا أن وفاة ابن أبي عتيق كانت قبل هذا التاريخ بزمنٍ مـا لا يتجاوز سنة ستَّ عشرةَ ومائةٍ للهجرة .

واستنتاجاً من كل ما سبق يمكن القول ترجيحاً بأن ميلاد ابن أبي عتيق كان في زمن خلافة عثمان ، وأن وفاته كانت بعد سنةِ ستَّ عشرةَ ومائةٍ وقبل سنة ثلاثين ومائة للهجرة . والله أعلم . ولعل من يهتدي إلى أيٍّ من هذين التاريخين على سبيل التحديد أن يَدُلَّنا – مشكوراً – عليه .

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٥٢ . ومهاجر له : أي مقاطع له .
(٢) فوات الوفيات : ج ٢ ص ٧٤ .

الفصل الثاني

أخبار ابن أبي عتيق

- مع الشعراء
- مع أهل الغناء
- مع غير الشعراء وأهل الغناء

القِسْم الأوّل

أخبَاره مَع الشعَراء

مع عمر بن ابي ربيعة :

١ – شبّبَ عمر بن أبي ربيعة بزينبَ بنتِ موسى الجُمَحِيّة في قصيدته التي يقول فيها :

يا خليليَّ مِن مَلامٍ دَعَاني
وأَلِمّا الغداةَ بالأظعانِ

لا تلومَا في آل زينب إن الـ
قلبَ رَهْنٌ بآل زينب عاني

هيَ أهلُ الصفاءِ والوُدّ منّي
واليها الهوى فلا تعذُلاني

لم تدعْ للنساء عندي نصيباً
غيرَ ما قلتُ مازحاً بلساني

حينَ قالتْ لتِرْبِها ولأخرى
مِن قَطينٍ مُولَّدٍ : حدّثاني [1]

كيف لي اليومَ أنْ أرى عمرَ المُرْ
سِلَ سِرّاً في القول أن يلقاني ؟

(١) التِّرْب : اللِّدةُ المساوي في السِّنّ ، وتِرْبُ الرجل الذي ولد معه ، وأكثر ما يكون ذلك في المؤنث . والقطين : الإماء والحشَم والخدم والأتباع .

قالتا : نبتغي رسولاً إليه ...
وَنُميتُ الحديثَ بالكتمانِ

إنّ قلبي بعد الذي نِلتُ منها
كالمُعَمّى عن سائر النسوانِ

وكان سببُ ذِكْرِه لها أن ابن أبي عتيق ذكَرها عنده يوماً فأطراها، ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلبَ عمرَ وأمالَه إليها فقال فيها الشعر وشبَّبَ بها .

ولما بلغ ذلك ابنَ أبي عتيق لامه فيه وقال له : أتَنطِقُ الشعرَ في ابنة عمي ...؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيقُ حسبي الذي بي
إنّ بي يا عتيقُ ما قد كفاني

لا تلمني وأنت زَيّنْتَها لي
أنت مثلُ الشيطان للإنسانِ

إنّ بي داخلاً من الحب قد أبـ
ـلى عِظامي مكنونُه وَبَراني

لو بعينيك يا عتيقُ نظرنا
ليلةَ السّفْح قرّتِ العينانِ

هيَ دائي وهيَ الدواءُ لدائي
لو أداوَى بريقها لشفاني

قد قلَى قلبيَ النساءَ سواها
غيرَ ما قلتُ مازحاً بلساني [1]

---

(١) قلَى : كَرِهَ وأبغض . والغواني : جمع غانية ، وهي المرأة التي غنيت بجمالها عن الحليّ والزينة ، أو هي التي غنيت ببيت أبيها عن الأزواج .

جاء في الأغاني أن عمران بن عبد العزيز قال: لما عذَلَ ابنُ أبي عتيق عمر في ذِكْره لزينب في شعره قال له عمر:

لا تلمني عتيقُ حسبي الذي بي

إنَّ بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلمني وأنتَ زيّنْتَها لي . . . .

قال: فبدره ابن أبي عتيق فقال:

. . . . أنت مثلُ الشيطان للإنسانِ

فقال ابن أبي ربيعة: هكذا ورَبِّ البيت قلتُه. فقال ابنُ أبي عتيق: إن شيطانك ورَبِّ القبر[1] ربما ألَمَّ بي فيجد عندي من عصيانه خلافَ ما يجد عندك من طاعته، فيُصيب مِنّي وأصيب منه...

كذلك ذكر عِمرانُ بن عبد العزيز أن عمر لما قال في قصيدته الأولى:

لا تلوما في آل زينب إن الـ   قلب رَهْنٌ بآل زينب عاني

قال له ابن عتيق: أما قلبك فقد غُيِّبَ عنا، وأما لسانُك فشاهدٌ عليك...

وجاء في الأغاني عن يوسف بن الماجَشون أن أبا وداعةَ السَّهْمِيَّ لما بلغته قصيدة عمر التي يقول فيها:

يا خليليَّ من ملامٍ دعاني   وألمّا الغداةَ بالأظعانِ
لا تلوما في آلِ زينب إن الـ   قلب رَهْنٌ بآلِ زينب عاني

أنكرها أبو وَداعةَ وغضب. وبلغ ذلك ابن أبي عتيق، وقيل له: إن أبا وداعة قد اعترض لابن أبي ربيعة من دون زينب بنتِ موسى وقال: لا أقرُّ لابن أبي ربيعة أن يذكر امرأةً من بني هُصَيْص في شعره، فقال ابن أبي عتيق: لا تلوموا أبا وَداعةَ أن يُنعِظَ من سَمَرْقَنْدَ على أهل عَدَنَ!

(١) من عادة أهل المدينة القَسَم بالقبر وصاحب القبر. يريدون قبر النبي صلى عليه وسلم.

وحدَّث إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز عن أبيه قال : لما قال عمر بن أبي ربيعة في زينب :

لم تــدع للنساء عندي نصيبــاً
غــيرَ مــا قلتُ مازحاً بلساني

قال له ابنُ أبي عتيق : رضيتَ لها بالمودة وللنساء بالدَّهْفَشَةِ[1].

* * *

٢ - حدَّث العُمَريُّ عــن لقيط بن بكر المحاربيّ قال : أنشدني ابنُ أبي عتيق قولَ عمر :

ومَن لسقيمٍ يكتُمُ الناسَ ما به
لزينبَ نجوَى صدرِه والوساوسُ ؟[2]

أقول لمن يبغي الشفاءَ : متى تجيءْ
بزينبَ تدركْ بعضَ ما أنتَ لامسُ

فإنكَ إنْ لم تشفِ من سَقمي بها
فإنيَ مِن طِبِّ الأطبــاء آيسُ

ولستُ بنــاسٍ ليلةَ الدار مجلساً
لزينبَ حتى يعلوَ الرأسَ رامسُ[3]

خلاءً بــدتْ قَمْراؤه وتكشَّفتْ
دُجُنَّتُه وغابَ مَن هوَ حارسُ[4]

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٩٤ - ١٠١ ، والدهفشة : التجميش والمداعبــة والمغازلة والخديعة بالشيء اليسير .

(٢) السقيم : المريض ، ونجوى صدره : أراد حديث النفس ومناجاتها على انفراد .

(٣) حتى يعلو الرأس رامس : أراد حتى أموت . والرامس : القابر . والرمس : القبر .

(٤) بدت : ظهرت . وقمراؤه : أراد نوره . والدُّجُنّة : الظلام الشديد .

وما نلتُ منها مَحْرَماً غيرَ أنَّنا
كلانا من الثوب المُـوَرَّدِ لابسُ
نَجِيَّيْنِ نقضي اللهو في غير مأثمٍ
وإنْ رَغِمَتْ ،م الكاشحين المعاطِسُ[١]

قال : فقال ابنُ أبي عتيق : أمِنَّا يسخر ابن أبي ربيعة ؟ فأيُّ مَحْرَم بَقِيَ ؟ ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ .. ألم تخبرني أنك ما أتيتَ حراماً قطُّ ؟ قال : بَلى ! قال : فأخبرني عن قولك :

* كلانا من الثوب المورَّدِ لابسُ *

ما معناه ؟ قال : والله لأخبرنَّك ! خرجتُ أريد المسجد وخرجت زينب تريـــده ، فالتقينا فاتَّعدْنا[٢] لبعض الشِّعاب . فلما توسَّطْنا الشِّعْبَ أخذتنا السماء[٣] ، فكَرِهَتْ أن يُرَى بثيابها بَلَـلُ المطر ، فقال لها : ألاَ استترتِ بسقائف المسجد أنْ كنتِ فيه ؟ فأمرتُ غِلماني فستروتا بكساءِ خَزٍّ كان عليَّ ، فذلك حين أقول :

* كلانا من الثوب المورَّدِ لابسُ *

فقال له ابنُ أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيتُ يحتاج إلى حاضنة ... ![٤]

* * *

٣ – ذُكِرَ شعرُ الحارث بن خالدٍ وشعرُ عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق ، في مجلس رجلٍ من ولد خـالد بن العاصي بن هشام . فقال : صاحبُنا – يعني الحارثَ بن خالد – أشعرُهما . فقـال له ابن أبي عتيق :

---

(١) نجيين : يناجي كلٌّ منا الآخر ، أي يكلمه في سرٍّ وخفاء . ورغمت : لصقت بالرَّغام وهو التراب ، وم الكاشحين : أراد من الكاشحين وهم الحسَّاد . والمعاطس : الأنوف ، واحـدها مَعْطِس وهو مكان العُطاس .
(٢) اتعدنا : تواعدنا . (٣) أخذتنا السماء : أمطرت .
(٤) الأغاني : ج ١ ص ٩٩–١٠٠ .

بعضَ قولك يا ابن أخي ! لِشعرِ عمرَ بن أبي ربيعة نَوْطةٌ في القلب وعُلُوقٌ بالنفس ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر . وما عُصِيَ اللهُ جلّ وعزّ بشعرٍ أكثرَ مما عُصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة ، فخُذْ عنّي ما أصف لك : أشعرُ قريشٍ مَن دقّ معناه ، ولَطُفَ مَدخلُه ، وسَهُلَ مَخرجُه ، ومَتُنَ حشوُه ، وتعطّفتْ حواشيه ، وأنارتْ معانيه ، وأعرب عن حاجته .

فقال المفضّلُ للحارث : أليس صاحبُنا الذي يقول :

إني وما نَحَرُوا غداةَ مِنىً ... عند الجمار يَؤُدُها العَقْلُ [1]
لو بُدّلتْ أعلى مساكنِها ... سُفْلاً وأصبح سُفْلُها يعلو
فيكادُ يعرِفها الخبيرُ بها ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْلُ
لعرفتُ مَغْناها بما احتملتْ ... منّي الضلوعُ لأهلها قبلُ

فقال له ابن أبي عتيق : يا ابن أخي استُرْ على نفسك ، واكتُمْ على صاحبك ولا تشاهدِ المحافلَ بمثل هذا ! أما تطيّرَ الحارثُ عليها حينَ قلبَ ربْعَها ، فجعل عاليَه سافلَه ؟ ما بقِيَ إلّا أن يسأل اللهَ — تبارك وتعالى — لها حِجارةً من سِجّيل [2] ! ابن أبي ربيعة كان أحسنَ صحبةً للرّبْع من صاحبك ، وأجملَ مخاطبةً حيث يقول :

سائلا الرّبعَ بالبُليّ وقولاً : ... هجتَ شوقاً لنا الغداةَ طويلا [3]
أين حيٌّ حلّوكَ إذْ أنت محفو ... فٌ بهمْ آهِلٌ أراكَ جميلا ؟
قال : ساروا فأمعنوا واستقلّوا ... وبرَغمي لو استطعت سبيلا
سئمونا وما سئمنا مُقاماً ... وأحبّوا دماثةً وسُهولا [4]

قال : فانصرف الرجل خَجِلاً مُذعِنا ... [5] .

---

(١) أدَّهُ الأمر يؤدُه إذا دهاه . والعقل : الحَبْس ، وذلك لربطها وقَيْدها بالعِقال .

(٢) السجيل : الطين المتحجّر ، وهو فارسيٌّ معرّب .

(٣) البُلَيُّ : اسم موضع . هجتَ : أثرتَ .

(٤) يقال : « دَمِثَ المكان دَمَثاً » إذا سَهُل ولان . ويقال : « دَمُثَ فلان دماثة » إذا سهُل خُلُقه . (٥) الأغاني : ج ١ ص ١٠٨–١٠٩ .

***

٤ – جاء في الأغاني أنّ عمرَ أنشد ابن أبي عتيق قولـه :

بيـنما يَنعتنني أبصرْنَني
دونَ قِيدِ الميل يَعْدُو بِي الأغرْ (١)
قالتِ الكبرَى : أتعرِفْنَ الفتَى ؟
قالتِ الوُسْطَى : نعمْ هـذا عمرْ
قالت الصغرَى وقـد تيَّمْتُها :
قـد عرَفناهُ وهل يخفَى القمرْ ؟

فقال له ابن أبي عتيق : – وقد أنشدَها – أنت لم تَنسُبْ بها ، وإنما نسَبْتَ بنفْسك ! كان ينبغي أن تقولَ : قلتُ لها فقالتْ لي ، فوضعتُ خدّي فوطِئتْ عليه (٢) .

***

٥ – روى الزبير بن بكّار عن عمه مُصعَب أنه قال : « كان عمر بن أبي ربيعة يهوَى امرأة يقال لها « أسماء » فكان الرسول يختلف بينهما زماناً وهو لا يقدر عليها . ثم وعدته أن تزوره فتأهّبَ لذلك وانتظرها ، فأبطأت عنه حتى غلبتْه عينُه فنام .

وكانت عنده جاريةٌ له تخدُمه ، فلم تلبث أنْ جاءت – أسماء – ومعها جاريةٌ لها ، فوقفتْ حَجْرَةً (٣) وأمرت الجارية أن تضرب الباب ، فضربتْه فلم يستيقظ . فقالت لها : تطلّعي فانظري ما الخبر ؟ فقالت لها : هو مضطجع وإلى جنبه امرأة ، فحلفتْ لا تزوره حَوْلاً ، فقال في ذلك :

---

(١) يعدو بي : يُسرع السيرَ بي ، والأغرُّ : أراد فرسَه الذي في جبهته بياض .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ١١٨ – ١١٩ .

(٣) حَجرة : ناحية .

طال ليـــلي وتَـعنّـاني الطرَبْ
واعتراني طـــولُ هَمٍّ ووَصَبْ[1]

أرسلتْ أسمــاءُ في مَعْتَبَةٍ
عَتَبَتْها وهْيَ أحلى مَن عَتَبْ[2]

أنْ أتى منها رسولٌ مَوْهِنًا
وجـدَ الحَيَّ نيامًا فانقلبْ[3]

ضربَ الباب فــلم يشعُــرْ بهِ
أحــدٌ يفتـح بابًا إذْ ضربْ

فأتاهـــا بحـديثٍ غاظَهـــا
شَبَّــهَ القولَ عليهـــا وكذبْ[4]

قال : أيقـاظٌ ولكنْ حاجــةٌ
عرضَتْ تُـكتَم عنّا فاحتَجبْ

ولـَعَمْـــداً رَدَّني ، فاجتهدتْ
بيَمينٍ حَلْفَـةً عنـــد الغضبْ

يشهـــد الرحمن لا يجمعُنا
سقفُ بيتٍ رَجَبًا بعـد رَجَبْ

قلتُ : حِـلًّا فاقبـــلي مَعذِرَتي
ما كذا يَجزي مُحِبٌّ مَن أحبْ[5]

إنَّ كفّي لـك رَهْنٌ بالرّضا
فاقبلي يا هندُ قالتْ : قـد وَجبْ

---

(١) تعنّاني : أورثني العناء واشتد عليّ في ذلك . والنَّصَب : الوجع .
(٢) المعتبة : العتاب .
(٣) مَوْهِنًا : أي بعد مضي ساعة من الليل أو قبل انقضائه . وانقلب : رجع .
(٤) شبّه القول عليها : أراد أنه خلطه وغيّر فيه وبدّلَ .
(٥) حِلاً : أي تحلّلي من يمينك ولا تُصِرّي عليه .

فبعثنــــا طَبَّــةً عالمــةً

تَخلِطُ الجِــدَّ مراراً باللَّعبْ (١)

تُغلِظُ القولَ إذا لانتْ لهـــا

وتَراخَى عنــد سَوْراتِ الغضب (٢)

لم تزلْ تَصْرِفُها عــن رأيهـا

وتأتَّاهــا برفـــقٍ وأدبْ (٣)

ويَرْوِي الخبرُ أن عمرَ بعث إلى أسماء امرأة كانت تختلف بينه وبين معارفه، وكانت جزلةً (٤) من النساء فصدَّقتْها عن قصته وحلفت لها أنه لم يكن عنده إلّا جاريتُه فرضيت. وإيّاها عَنَى عمرُ بأبياته الثلاثة الأخيرة هنا.

ورُوِي أن عمر أنشد ابنَ أبي عتيق هذه القصيدة، فقال له ابن أبي عتيق: الناس يطلبون خليفةً منذ قُتِل عثمان في صفةِ قوّادتك هـذه يُدبّر أمورَهم فما يجدونه...! (٥).

***

٦ – جاء في الأغاني أن ابن عائشة قال:

حضر ابنُ أبي عتيق عمرَ بنَ أبي ربيعة وهو يُنشد قوله:

ومَن كان محزوناً بإهراق دَمْعَـةٍ

وَهيَ غَرْبُها فَلْيأتنا نُبْكِهِ غدًا (٦)

نُعِنْه على الإثكال إنْ كان ثاكلاً

وإن كان مَحْروباً وإن كان مُقصَدًا (٧)

---

(١) طَبَّة: حاذقة خبيرة عارفة بطرق الحيلة. (٢) تَراخَى: أراد تتراخى، تَراخَى تتهاون، وسورات الغضب: جمع سَوْرة، وهي الشدة. (٣) تأتّاها: أي تستميلها وتطلب منها التأني.

(٤) الجَزلة من النساء: العاقلة الأصيلة الرأي. (٥) الأغاني: ج ١ ص ١٣٤ – ١٣٥.

(٦) وَهيَ غَرْبُها: يريد ضَعُفَ دمعها. ونُبْكِه هنا: نُعِنْه في البكاء.

(٧) الإثكال: فقدان الحبيب، وأكثر ما يستعمل في فقدان الرجل والمرأةِ ولَدهما. والمحروب: المسلوب المنهوب. والمُقصَد: مَن طُعِن أو رُمِيَ بسهم فلم يخطيء مقاتله.

قال : فلما أصبح ابنُ أبي عتيق أخذ معه خالداً الخِرّيت [1] وقال له: قُمْ بنا إلى عمر . فمضَيا اليه ، فقال له ابن أبي عتيق : قد جئناكَ لموعدكَ . قال : وأيُّ موعد بيننا ؟ قال : قولُك : « فَلْيأتنا نُبكه غداً » . قد جئناك ، والله لا نبرحُ أو تبكيَ إنْ كنتَ صادقاً في قولك ، أو ننصرفَ على أنك غيرُ صادق . ثم مضى وتركه [2] .

***

٧ – وأنشد عمرُ ابنَ أبي عتيق قوله :

صَرَمَتْ حبلك البَغُومُ وَصدّتْ
عنكَ في غير ريبةٍ أسماءُ

والغواني إذا رأينك كهلا
كان فيهن عن هواك التواءُ

حبذا أنتِ يا بَغُومُ وأسما
ءُ وعِيصٌ يَكُنُّنا وخلاءُ [3]

ولقد قلتُ ليلةَ الجَزْلِ لمّا
أخضلتْ رَيْطَتي عليَّ السماءُ : [4]

ليت شِعري ، وهل يَرُدّنْ ليتٌ ؟
هل لهذا عند الرّبابِ جزاءُ ؟

كلُّ وَصْلٍ أمسَى لديّ لأنثَى
غيرِها وَصْلُها اليها أداءُ

---

(١) خالد الخِرّيت : هو خالد بن عبدالله القَسْري .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) العيص : الشجر الكثير الملتفّ .

(٤) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضلَ : بلّ . والرَّيْطة : مُلاءة كلّها نَسْجٌ واحد وقطعة واحدة .

كلُّ خَلْقٍ وإنْ دَنَا لوصالٍ
أو نَأَى فهو للرَّباب الفداءْ
فَعِدِي نائلاً وإنْ لم تُنيلي
إنما ينفع المحبَّ الرجاءْ

فقال له ابن أبي عتيق : ما أبقيتَ شيئاً يُتمنَّى يا أبا الخطاب إلّا مِرْجَلاً يُسَخِّنُ لكم فيه الماء للغُسْل ! [١].

***

٨ – حدّث إسماعيل بن جعفر عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابيّ قال:
حجت أمّ محمد بنتُ مروانَ بنِ الحكم ، فلما قضتْ نُسُكَها أتَتْ عمرَ بنِ أبي ربيعة وقد أخفتْ نفسَها في نِسْوة ، فحدّثها مَلِيّاً . فلما انصرفت أتْبعها عمرُ رسولاً عرَف موضعها وسأل عنها حتى أثبتها [٢]، فعادت اليه بعد ذلك فأخبرها بمعرفته إيّاها .

فقالت نَشَدتُكَ الله ألّا تشهّرني بشعرك ! وبعثتْ اليه بألف دينار ، فقبِلها وابتاعَ بها حُلَلاً وطِيباً فأهداه اليها ، فردّتْه . فقال لها : والله لئن لم تقبليه لأُنهِبَنّه [٣] ، فيكونُ مشهوراً ، فقبِلتْه ورحلتْ ، فقال فيها :

أيُّها الراكبُ المُجِدُّ ابتكارا
قد قضَى من تِهامةَ الأوطارا [٤]
مَن يكن قلبُه صحيحاً سليماً
ففؤادي بالخيف أمْسَى مُعارا [٥]
ليت ذا الدهرَ كان حَتْماً علينا
كلَّ يومين حِجّةً واعتمارا [٦]

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٦٤–١٦٦ .
(٢) أثبتها : عرفها وتحققها . (٣) لأنهبنّه : لأبيحنّه لمن شاء نَهْباً .
(٤) ابتكارا: أي لأجل إدراك غايته من أول فتها. ويقصد من تهامة هنا مكة، لأن مكة من تهامة.
(٥) الخيف في الأصل الوادي . وهو هنا مكان سكناها الذي رحلت اليه .
(٦) حِجّةً واعتمارا : كلاهما مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير نحج حِجّةً ونعتمر اعتمارا.

وأنْشِد ابنُ أبي عتيق قولَ عمرَ هـذا ، فقال : اللهُ أرْحَمُ بعباده أن يجعل عليهم ما سألته لِيَتِمَّ لكَ فِسْقُكَ[1] !

***

٩ – حدَّثَ بلالٌ مولى ابن أبي عتيق : أن الحارث بن عبدالله بن عيَّاش ابن أبي ربيعة قَدِمَ للحج ، فأتاه ابنُ أبي عتيق فسلَّم عليه وأنا معه . فلما قضَى سلامَه ومُساءلَتَه عـن حجه وسفره ، قال له : كيف تركتَ أبا الخطاب عمرَ بنَ أبي ربيعة ؟ قال تركته في بُلَهْنِيَةٍ[2] من العيش . قال ابن أبي عتيق وأنَّى ذلك ؟ قال : حَجَّتْ رملة[3] بنتُ عبدالله ابن خَلَفٍ الخزاعية فقال فيها :

أصبح القلبُ في الحبـال رهيناً
مُقْصَداً يومَ فـارقَ الظاعنينا[4]
قلتُ مَن أنتمُ ؟ فصدَّتْ وقالتْ :
أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالمينـا ؟[5]
نحـن من ساكني العراق وكُنَّا
قبـلَه قاطنين مكـةَ حينا ..
قد صَدَقْناكَ إذْ سألتَ فمن أنـ
ـتَ ؟ عسى أنْ يَجُرَّ شأنٌ شئونا
ونرى أننـا عرفنـاك بالنَّعْـ
ـتِ بِظَـنٍّ ومـا قتلنا يقينا
بسوادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونَعْتٍ
قـد نراه لنـاظرٍ مُسْتبينا

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٦٦–١٦٨ . (٢) البُلَهْنِيَةُ : سعةُ العيش .

(٣) رملة هـذه : هي أمُّ طلحةَ بن عمر بن عبيدالله بن مَعْمر التَيْمي ، وهي أخت طلحةِ الطَّلَحات بن عبدالله بن خَلَف الخُزاعي .

(٤) المقصَد : مَن طُعِن أو رُمِيَ بسهم فلم يخطىء مقاتله .

(٥) أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالمينا ؟ : معنـاه أمُقَسِّمٌ أنتَ سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعُمَّهم ؟

وبلغ ذلك «الثريا» وكانت غضبَى عليه، بلَّغَتْها أمُّ نوفل وأنشدتها قوله:

أصبح القلب في الحبال رهينا
مُقْصَداً يومَ فارق الظاعنينا

فقالت «الثريّا»: إنه لَوَقاحٌ[1] صَنَعٌ بلسانه، ولئن سلمتُ له لأرُدَّنَّ من شأوه[2]، ولأثْنِيَنَّ من عِنانه، ولأُعَرِّفَنَّهُ نفسَه.

فلما بلغتْ إلى قوله:

قلتُ من أنتمُ؟ فصَدَّتْ وقالتْ:
أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالَمينا؟

فقالت: إنه لَسَئّالٌ مُلِحٌّ[3]، قُبْحاً له! ولقد أجابَتْه إنْ وفَتْ.

فلما بلغت إلى قوله:

نحن من ساكني العراق وكُنَّا
قبلَه قاطنين مكَّةَ حينا

قالت: غمزته[4] الجَهْمَةُ! فلما بلغت إلى قوله:

قد صَدَقْناكَ إذْ سألت فمن أنْ
ت؟ عسَى أن يَجُرَّ شأنٌ شُئُونا

قالت: رمته الورهاء[5] بآخر ما عندها في مقام واحد. وهجرتْ عمر[6].

---

(١) الوَقاح: القليل الحياء. والصَّنَع: الحاذق، ويقال: رجل صَنَعُ اللسان وصَنَعٌ بلسانه، إذا كان ذَلِقَ اللسانِ فصيحاً.

(٢) الشأو هنا: الزِّمام.

(٣) المُلِحّ: مَن يعرض في كل شيء ويدخل فيما يعنيه.

(٤) غمزته الجهمة: أصل معنى الغمز الإشارة بالعين والحاجب والجفن. والجهمة: الضعيفة العاجزة. تريد أنها لضعفها لانت له بعد استعصائها.

(٥) الوَرْهاء: الحمقاء. تريد أنها رمت بنفسها بين يديه وأسلمت نفسها له.

(٦) الأغاني: ج ١ ص ٢١٤–٢١٦.

* * *

١٠ – ذكر ابن أبي حسّان بسند إلى ابن دابٍ قال : لمّا صرمت الثريّا عمرَ قال فيها :

مَن رسولي إلى الثريّا فإني
ضِقتُ ذَرْعاً بهجرها والكتابِ ؟ (١)

سَلَبَتْني مُجّاجةُ المسكِ عَقْلي
فسَلُوها ماذا أحلَّ اغتصابي ؟

وهْي مكنونةٌ تحيّر فيها
في أديمِ الخدّين ماءُ الشبابِ (٢)

ثم قالوا : تُحِبُّها قلتُ بَهْراً
عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ

وأخبر الحرَميُّ بن أبي العَلاء بسند إلى بلالٍ مولى ابن أبي عتيق قال : أنشِد ابنُ أبي عتيق قولَ عمر :

مَن رسولي إلى الثريّا فإني
ضِقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ ؟

فقال ابن أبي عتيق : إيّايَ أراد وبي نَوّه ! لا جرمَ واللهِ لا أذوق أكْلاً (٣) حتى أشخصَ (٤) فأصلحَ بينهما ، ونهض ونهضت معه ، فجاء إلى قوم من بني الدِّيَل بن بَكْر لم تكن تفارقهم نجائبُ لهم فُرْهٌ (٥) يُكْرونها (٦) ، فاكترَى منهم راحلتين وأغلى (٧) لهم .

---

(١) الثريا : هي بنت علي بن عبدالله ، وضقت ذرعاً : لم أعد احتمل . والكتاب : أراد القسم بالقرآن الكريم .

(٢) الأديم : الجلد ، يريد إن ماء الشباب يجري في وجهها .

(٣) الأكْل : ما يؤكل .

(٤) أشخص : أذهب .

(٥) فُرْه : جمع فاره ، والفاره من الدواب : النشيط الحاد القوي .

(٦) يُكرونها : يؤجرونها . (٧) أغلى لهم : بذل لهم أجراً غالياً .

فقلتُ له : اَسْتَوْضِعْهم أو دَعْني أماكِسهم[1] ، فقد اشتطوا عليك. فقال : ويحك ! أمَا علمتَ أن المِكاس ليس من أخلاق الكرام ! ثم ركب إحداهما وركبتُ الأخرى ، فسار سيراً شديداً ، فقلتُ : أبْقِ على نفْسك ، فإن ما تريد ليس يَفوتُك . فقال : وَيْحَكَ !

* أبادرَ حبلَ الوُدِّ أن يتقضّبَا[2] *

وما حلاوةُ الدنيا إن تمَّ الصدعُ[3] بين عمرَ والثريا ! فقدمنا مكة ليلاً غيرَ مُحْرِمَين ، فدقَّ على عمرَ بابَه ، فخرج اليه وسلّم عليه ولم ينزل عن دابته ، فقال له : اِركبْ أصْلِحْ بينك وبين الثريا ، فأنا رسولُك الذي سألتَ عنه .

فركب معنا وقدِمنا الطائف ، وقد كان عمرُ أرضى أمَّ نوفل ، فكانت تطلب له الحِيَل لإصلاحها فلا يمكِنها . فقال ابنُ أبي عتيق للثريّا : هذا عمر قد جشّمني السفرَ من المدينة اليك ، فجئت به مُعترِفاً لك بذنْب لم يَجْنِه ، فدعيني من التَّعْداد والتَّرْداد فإنه من الشعراء « الذين يقولون ما لا يفعلون » .

فصالحته أحسنَ صلح وأتمّه وأجملَه ، وكررْنا إلى مكة ، فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل . وزاد عمر في أبياته :

أزْهَقتْ أمُّ نوفلٍ إذ دَعَتْها
مُهْجَتي ، ما لقاتلي من مَتاب[4]
حين قالت لها : أجيبي ، فقالت :
من دعاني ؟ قالت : أبو الخطّاب
فاستجابتْ عند الدعاء كما لبّى رجالٌ يرجون حُسْنَ الثواب

(١) أماكسهم : أساومهم . (٢) يتقضّب : ينقطع .
(٣) أصل معنى الصدع : الشق في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط وغيرهما . والمراد به هنا : التفرّق .
(٤) المهجة : الروح ، وخالص النفس ، ودم القلب . وأزهقت أم نوفل إذ دعتها مهجتي : أي أذهبت أم نوفل روحي أو خالص نفسي ، إذ كنت أخشى ألا تجيبها الثريا لوصالي .

قال الزبير : وما دَعَتْها أمُّ نوفلٍ إلّا لابن أبي عتيق ، ولو دَعَتْها لعمر ما أجابتْ . قال : وسألتُ عمّي عن أمّ نوفل ، فقال : هي أمُّ ولدِ عبدِالله بن الحارث أبي الثريّا .

وسألتُه عن قوله :

... ... كما لبّى رجالٌ يرجون حسْنَ الثواب

قال : كرّرَتْ في التلبية كما يفعل المُحرِم ، فقالت : لَبّيْك لَبّيْك .

وحدّث أبو غسّان محمد بن يحيى بخبر الثريّا هذا مع عمر ، فذكر نحواً مما ذكره الزبير ، وقال فيه :

لما أناخ ابن أبي عتيق بباب الثريّا أرسلت إليه : ما حاجتك ؟ قال : أنا رسول عمر بن أبي ربيعة وأنشدَها الشعر . فقالت : ابنُ أبي ربيعة فارغ (١) ونحن في شُغُل ، وقد تعِبْتَ فانزلْ بنا . فقال : ما أنا إذنْ برسول . ثم كرّ راجعاً إلى ابن أبي ربيعة بمكة فأخبره الخبر فأصلح بينهما .

* * *

وجاء هذا الخبر في الأغاني مَرْوِيّا عن عبدالعزيز بن مروان وجماعةٍ قالوا : قدِمَ عمرُ بن أبي ربيعة المدينة ، فنزل على ابن أبي عتيق — وهو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر — فلما استلقَى قال : أوّهْ !

مَن رسولي إلى الثريّا فإني
ضِقتُ ذَرْعاً بهجرِها والكتابِ ؟

فقال ابن أبي عتيق : كلُّ مملوك لي حرٌّ إنْ بلّغها ذاك غيري . فخرج حتى إذا كان بالمُصلّى مرّ بنُصَيْبٍ وهو واقف فقال : يا أبا مِحْجَن . قال : لَبّيْكَ ! قال : أتودِعُ إلى « سَلْمَى » شيئاً ؟ قال : نعم .

---

(١) فارغ : ليس عنده ما يشغله .

قال : وما ذاك ؟ قال : تقول لها يا ابن الصّديق : إنكَ مررتَ بي فقلتَ لي : أتَـودع اليها شيئاً ، فقلت :

أتصبرُ عن « سَلْمَى » وأنتَ صبورُ
وأنتَ بِحُسْنِ العزمِ منك جديرُ ؟
وكِدْتُ ولم أخْلَقْ من الطير إنْ بَدَا
سَنَى بارقٍ نحو الحجـاز أطيرُ

قال : فمرَّ بسَلْمَى وهْيَ في قرية يقال لهـا « القَسْرِيَّةُ » فأبلغها الرسالة ، فزفرتْ زفرةً كادتْ أن تُفرّقَ أضلاعَها . فقال ابن أبي عتيق : كلُّ مملوكٍ لي حرٌّ إن لم يكن جوابُكِ أحسنَ من رسالته ، ولو سمِعكِ الآن لَنَعَقَ وصار غُراباً !

ثم مضَى إلى « الثريّا » فأبلغ الكتاب ، فقالت له : أمَا وَجَد رسولاً أصغرَ منك ؟ اِنزِلْ فأرِحْ [1]. فقال : لستُ إذن برسول ! وسألها أن ترضَى عليه ففعلتْ .

وقال الزبير في خبره : فقال لها : أنا رسول ابن أبي ربيعة اليك وأنشدها الأبيات ، وقال لها : خشيتُ أن تضيع هذه الرسالة . قالت : أدّى الله عنك أمانتك . قال : فما جواب ما تجشَّمْتُه اليـك ؟ قالت : تُنشده قولَه في رَملة :

وجَلاَ بُرْدُها وقد حَسَرَتْهُ ضوءَ بـدرٍ أضاءَ للناظرينا

فقال : أعيذُكِ بالله يا ابنة أخي أن تغلبيني بالمثـل السائر . قالت : وما هو ؟ قـال : « حَريصٌ لا يَرَى عَمَله » [2] ، قالت : فما تشاء ؟ قال : تكتبين اليه بالرضا عنه كتاباً يصل على يدي ففعلتْ . فأخـذ الكتاب ورجع من فَوره حتى قَدِمَ مكة فأتى عمر ، فقال له : من أين

(١) انزل فأرح : أي فأرح دابتك وأرح نفسك .
(٢) يضرب هذا المثل لمن لا يريد أن يُحرَمَ نتيجة عمله كما يُحرَم الحريص عادة .

أقبلت ؟ قال : من حيث أرسلتني . قال : وأنّى ذلك ؟ قال : من عند « الثريّا » ، أفْرِخْ رَوْعَكَ[1] ! هذا كتابها بالرضا عنك إليك[2] .

***

وروى المبرّد هذا الخبر بصورة أخرى في معرض حديثه عن ابن أبي عتيق فقال : وهو الذي سمع قول عمر بن أبي ربيعة :

مَــن رسولي إلى الــثريّا فإني
ضِقتُ ذرعاً بهجرِها والكتابِ ؟

فلبس ثيابه ، وركب بغلته ، وأتى باب الثريّا ، فاستأذن عليها ، فقالت : والله ما كنتَ لنا زَوّاراً . فقال : أجل ، ولكني جئتُ برسالة ؛ يقول لك ابن عمك عمر بن أبي ربيعة :

* ضِقْتُ ذَرعاً بهجرِها والكتابِ *

فلامه عمر ، فقال له ابن أبي عتيق : إنما رأيتُكَ متلدّداً[3] تلتمس رسولاً ، فخففْتُ في حاجتك . فإنما كان ثوابي أنْ أُشكَرَ ![4]

***

١١ – جاء في الأغاني أن الهيثم بنَ عَديٍّ حدّثَ فقال : قدِمتِ امرأةٌ مكة ، وكانت من أجمل الناس ، فبينا عمرُ بنُ أبي ربيعة يطوف، إذْ نظر اليها فوقعتْ في قلبه ، فدنا منها فكلّمها ، فلم تلتفت اليه . فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابَها . فقالت له : اليكَ عنّي يا هذا ، فإنك في حَرَمِ الله وفي أيام عظيمة الحُرْمة . فألحَّ عليها يكلّمها حتى خافتْ أن يُشهِّرَها .

---

(١) أفرِخْ رَوْعك : أي هدّىء خوفك وفزعك ، فإن الأمر ليس على ما تحاذر .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٣) المتلدّد : الذي يتلفت يمنا وشمالاً تحيُّراً . (٤) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٦ .

فلما كان في الليلة الأخرى قالت لأخيها: أخرجْ معي يا أخي فأرني مناسكَ الحج، فإني لستُ أعرفها، فأقبلتْ وهو معها. فلما رآها عمر أراد أن يَعْـرِضَ لها، فنظر إلى أخيها معها فعـدل عنها، فتمثلت المرأةُ بقول النابغة:

تعدو الذئابُ على مَن لا كلابَ له
وتَتَّقي صَوْلَةَ المستأسِدِ الحامِي (١)

***

وقد نسب الجاحظ هذا الخبر إلى محمد بن إبراهيم، ثم أورده موجزاً، وعلَّق عليه بقوله: «وأما بنو مخزوم فيزعمون أن ابنَ أبي ربيعة لم يَحُلّ إزارَه على حرامٍ قطُّ، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عتيق، فإنّ ابنَ أبي عتيقٍ كان من أهل الطهارة والعفاف، وكأنّ مَن سمع كلامَه توهَّم أنه من أجْرَإ الناسِ على فاحشة (٢).

***

١٢ – حدَّث الزبير عن يعقوب بن إسحاق الربَعيّ عن أبيه قال: أنشد عمرُ بنُ أبي ربيعة ابنَ أبي عتيق قوله:

لم ترَ العـينُ للثريّا شبيهاً..
بمَسِيل التـلاع يومَ التقَيْنا (٣)
أعملتْ طرْفَهـا إليَّ وقالت:
حُبَّ بالسائرِينَ زوْراً إليـنا (٤)

---

(١) الأغاني: ج ١ ص ٧٨. (٢) الحيوان للجاحظ: ج ٢ ص ٨٤.

(٣) المسيل: الموضع الذي يسيل الماء فيه. والتلاع: جمع تلْعة وهي ما ارتفع من الأرض أو انخفض منها.

(٤) حُبَّ: كلمة تقال للمدح. والزَّوْر: جمع زائر، ونظيره تجْر في جمع تاجر.

ثم قالت لأختها : قد ظلمنا
إنْ رَدَدْناهُ خائباً واعْتَدَيْنا[1]

في خلاءٍ من الأنيس وأمْنٍ
فشَفَيْنا غليلَه واشْتَفَيْنا[2]

وضَرَبْنا الحديث ظهراً لِبَطْنٍ
وأتَيْنا من أمرنا ما اشْتَهَيْنا[3]

فمكثنا كذاكَ عَشْراً تِباعاً
في قضاءٍ لِدَيْنِنا واقْتَضَيْنا

كان ذا في مسيرنا إذْ حَجَجْنا
علِم اللهُ فيه ما قد نَوَيْنا

قال : فلما بلغ عمر إلى قوله :

ثم قالتْ لأختها قد ظلمنا
إنْ رَدَدْناهُ خائباً واعْتَدَيْنا

قال ابن أبي عتيق : أحسَنَتْ والهدايا[4] وأجادتْ . ثم أنشد ابنُ أبي عتيق مُتَمَثّلا قولَ الشاعر :

أريني جواداً ماتَ هَزْلاً لعلّني
أرَى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخلَّدا[5]

ولما بلغ عمر إلى قوله في الشعر :

في خَلاءٍ من الأنيسِ وأمْنٍ
فَشَفَيْنا غليلَه واشْتَفَيْنا

(١) اعتدينا : جاوزنا الحدّ في الظلم .
(٢) الأنيس : كل مَن يُؤنَس به ، ويقال : ما بالدار من أنيس : أي ليس فيها أحد . والغليل : حرارة الجوف من عطش أو وجْدٍ أو نحوهما .
(٣) ضربنا الحديث ظهر البطن : أي قلّبناه على جميع وجوهه التي يحتملها .
(٤) والهدايا : الواو هنا للقسم ، والهدايا : جمع هدية ، وهي ما يُهدَى إلى البيت الحرام من النَّعَم لتُنْحَر . (٥) البيت لحاتم الطائي يخاطب امرأته .

قالَ ابنُ أبي عتيق : أمكنتْ للشارب الغُدُر[1] « مَن عالَ بعدها فلا انجبَر »[2] .

فلما بلغ إلى قوله :

فمكثنا كــذاكَ عشراً تِباعاً

في قضاءٍ لِدَيْنِنا واقتضَيْنا

قال ابن أبي عتيق : أمَا واللهِ ما قضيتَها ذهباً ولا فضةً ولا اقتضيتها إياه ، فلا عرّفكما اللهُ قبيحاً !

فلما بلغ إلى قوله :

كان ذا في مَسيرنا إذْ حججْنَا

عِلمَ اللهُ فيه ما قــد نوَيْنَا

قال ابن عتيق : إن ظاهر أمرك ليَدُلُّ على باطنه ، فأرْوِدِ التفسير[3] ، ولَئن مُتَّ لأموتَنَّ معك ! أفٍّ للدنيا بعدكَ يا أبا الخطّاب ! فقال له عمر : بل عليها بعدكَ العفاءُ[4] يا أبا محمد !

قال : فَلقِيَ الحارثُ بنُ خالد ابنَ أبي عتيق فقال : قد بلغني ما دار بينك وبين ابنِ أبي ربيعة ، فكيف لم تتحلّلا[5] مني ؟ فقال له ابنُ أبي عتيق يغفر الله لك يا أبا عمرو ! إن ابنَ أبي ربيعــة يُبْرِئُ القَرَحَ[6] ، ويضع

---

(١) الغُدُر : جمع غدير ، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل أي يتركها .

(٢) عال : افتقر . وقوله : « من عال بعدها فلا انجبر » مثال يضرب في اغتنام الفرصة عند الإمكان.

(٣) فأرود التفسير : أي تمهّــل به أو دَعْهُ . والمراد إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه ، فدَعِ التفسير فلا حاجة إليه .

(٤) العفاء : التراب . وعلى الدنيا العفاء كلمة سبٍّ وذمٍّ للدنيا . وفي الحديث الشريف : « إذا كان عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » .

(٥) لم تتحلّلا مني : لم تسألاني أن أجعلكما في حِلٍّ .

(٦) القَرَح : جَرَبٌ شديد يصيب الفُصْلان فلا تكاد تنجو . والفُصْلان : جمــع فصيل وهو ولد الناقة .

الهِناءَ[1] مواضعَ النُّقْبِ ، وأنت جميل الخَفْض[2] . فضحك الحارث ابن خالد وقال : « حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ[3] » . فقال ابن أبي عتيق : هيهاتَ أنا بالحُسْنِ عالِمٌ نَظّار[4] !

***

١٣ – روى الزبير بإسناد إلى عبد الرحمن المخزوميّ قال : كانت سُعْدَى بنتُ عبد الرحمن بن عَوْف جالسةً في المسجد ، فرأت عمر بن أبي ربيعة في الطواف ، فأرسلت اليه : إذا قضيتَ طوافك فائْتِنا .

فلما قَضى طوافه أتاها فحادثها ، وأنشدها ، فقالت : وَيْحَكَ يا ابن أبي ربيعة ! ما تزال سادراً في حَرَم الله مُنْتَهِكاً ، تتناول بلسانك رَبّاتِ الحِجال من قريش ؟ !

فقال : دَعِي هذا عنك ، أما سمعتِ ما قلتُ فيك ؟ قالت : وما قلتَ فيَّ ؟ فأنشدها :

أحِنُّ إذا رأيتُ جمالَ سُعْدَى
وأبكي إنْ رأيتُ لها قرينا
أسُعْدَى إنَّ أهلَكَ قد أجَدُّوا
رحيلاً ، فانظري ما تأمرينا ؟

فقالت : آمرك بتقوى الله ، وتَرْكِ ما أنت عليه .

---

(١) الهِناء : ضَرْبٌ من القَطِران . والنُّقَبُ : القطع المتفرقة من الجَرَب ، والواحدة نُقْبة . وقيل : هي أول ما يبدو من الجرب .

(٢) الخَفْض : الدَّعَة .

(٣) حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ : يريد حُبُّكَ الشيءَ يُخْفِي عليك مساويه ويُصِمُّكَ عن سماع العَذْلِ واللوم فيه .

(٤) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٨ – ٢٣٠ . وقول ابن أبي عتيق : « أنا بالحسن عالم نَظّار » هو اقتباس من بيت لابن أبي ربيعة يبدي فيه رأيه في رفيقه ابن أبي عتيق . وهذا البيت هو :

وَدَعاني ما قال فيها عتيقٌ وهو بالحُسْنِ عالمٌ بَيْطارُ

* * *

قال الزبير : وحدثني عبد الله بن مسلم ، قال : أنشد عمرُ بن أبي ربيعة ابنَ أبي عتيق قوله :

* أحِنُ إذا رأيتُ جمـــالَ سُعْدَى *

قال : فركب ابن أبي عتيق ، فأتى سُعْدَى بالجَناب من أرض بني فزارة، فأنشدها قولَ عمر ، وقال لهـا : ما تأمرين ؟ فقالت : آمره بتقوى الله يا ابن الصِّديق .

* * *

وقال الزبير بإسناد إلى عبـد الرحمن المخزوميّ قال : لَقِيَ عمر بن أبي ربيعة ليلى بنت الحارث بن عوف المُرّيّ ، وهو يسير على بغلة ، فقال لها : قفي أُسمعْكِ بعضَ ما قلت فيك ؟ فوقفت ، فقال :

ألا يا لَيْلَ إن شفاءَ نفسي   نوالُكِ إنْ بخلتِ فنَوِّلينا

قال : فما بلغنا أنها رَدّتْ عليه شيئاً ، ومضتْ .

* * *

قال أبو الفرج : وقد روى هـــذا الخبرَ ابراهيمُ بن المنذر عن محمد ابن مَعْن ، فذكر أنّ ابن أبي عتيق إنما مضى إلى ليلى بنت الحارث بن عَوْف ، فأنشدها هذا البيت ، وهو الصحيح ، لأن حُلولَها بالجناب من أرض فزارة أشبهُ بها منه بسُعْدَى بنت عبد الرحمن بن عوف . وقال عن الرواية الأخرى : إنها « وهم لاختلاط الشعرين في سُعْدَى وليلى[1] .

* * *

١٤ — حدث الحَرَميُّ بنُ أبي العلاء عن الزبير بن بكار عن عمه قال :

(١) الأغاني : ج ١٧ ص ١٥٧ – ١٥٨ .

إن عمرَ بنَ أبي ربيعة وابنَ أبي عتيق كانا جالسين بفناء الكعبة ، إذ مرّتْ بهما امرأةٌ من آل أبي سفيان ، فدعا عمرُ بكتِفٍ[1] فكتب إليها وكنى عن اسمها :

أَلِمَّا بذاتِ الخالِ فاستطلعا لنا
على العهد باقٍ وُدُّها أم تصرَّمَا ؟

وقولاَ لها : إن النَّوَى أجنبيّةٌ
بنا وبكم قد خِفتُ أنْ تتيَمَّمَا

قال : فقال له ابن أبي عتيق : سبحانَ الله ! ماذا تريد إلى امرأة مسلمة مُحْرِمة أن تكتب إليها مثلَ هذا ؟

قال : فكيف بما قد سيّرْتُه في الناس من قولي :

لقد حَبَّبَتْ «نُعْمٌ» إلينا بوجهها
مَساكنَ ما بين الوتائرِ والنقعِ[2]

ومِن أجل ذاتِ الخال أعملتُ ناقتي
أكلّفُها سَيْرَ الكلالِ مع الظَّلْعِ[3]

ومن أجل ذاتِ الخالِ يومَ لقيتُها
بمُنْدَفَعِ الأخبابِ أخضلني دمْعي[4]

ومن أجل ذاتِ الخال آلَفُ منزلاً
أحُلُّ به لا ذا صديقٍ ولا زَرْعِ

---

(١) الكتف : عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) الوتائر : مكان بين مكة والطائف . والنقع : موضع في جنبات الطائف .

(٣) الخال : نكتة سوداء في خدود الملاح وقيل : شامة في البدن يخالف لونها لونه . وأعملت ناقتي : حملتها على السير . وسير الكلال : السير الذي يتعبها ويضعفها . والظَّلْع : شِبْهُ العَرَج . (٤) مندفَع الأخباب : موضع قرب مكة .

ومن أجل ذات الخال عُدْتُ كأنني
مُخامِرُ سُقْمٍ داخلٍ أو أخو رِبْعِ[1]

ألم تَرَ ذاتَ الخالِ أنَّ مقالَها
لدى الباب زادَ القلبَ صَدْعاً على صَدْعِ؟

وأخرى لدى البيتِ العتيق نظرتُها
إليها تمشَّتْ في عظامي وفي سَمْعي؟

أما ترى ما سار لي من الشعر؟ ما علم الله أني أطّلعتَ حراماً قطُّ! ثم انصرفنا. فلما كان من الغد التقينا. فقال عمر — لابن عتيق —: أشَعَرْتَ أنَّ ذلك الإنسان قد ردَّ الجواب؟

قال: وما كان من رَدِّهِ؟ قال: كتب:

أمسَى قريضُك بالهوى نمَّاما
فارْبَعْ هُديتَ وكُنْ له كتَّامَا[2]

واعلمْ بأنَّ الخالَ حين وصفتَهُ
قعدَ العدوُّ به عليك وقامَا

لا تحسَبَنَّ الكاشحين عَدِمْتَهم
عمَّا يَسُوءُكَ غافلين نِيامَا

لا تُمكِنَنَّ من الدَّفينةِ كاشِحاً
يتلو بها حِفْظاً عليكَ إماما[3]

***

١٥ — قال أبو العباس المبرد في كتابه الكامل: زعم الرواة أن كلَّ

(١) مخامِر سقم: قد خالط السقم بَدَني. والرِّبْع: الحُمَّى التي تعرض يوماً وتترك يومين ثم تأتي في الرابع. (٢) اربَعْ: اكْفُفْ واقتصد.
(٣) الأغاني: ج ٩ ص ٢٤٠–٢٤١، وانظر كذلك الكامل للمبرد: ج ٢ ص ٢٩٠–٢٩١.

شيء ذكَر فيه عمرُ بنُ أبي ربيعة « عتيقاً » أو « بكراً » فإنمـا يعني ابنَ أبي عتيق [1] .

وقد أكدَ صاحبُ الأغاني هذا الخبر في تعليقه على البيت التالي من قصيدة لعمر بن أبي ربيعة :

فرأى سوابقَ دمعـةٍ مسكوبةٍ
« بكرٌ » فقال : بكى أبو الخطّابِ !

قال أبو الفرج في تعليقه : و « بكر » الذي ذكره ها هنـا عمرُ هو « ابن أبي عتيق » وهو يسميه في شعره ببكرٍ وبعتيقٍ ، وإياه يعني بقوله :

لا تلمـني عتيقُ حسبي الذي بي
إنّ بي يا عتيق ما قـد كفاني [2]

وتبلغ قصائدُ ابنِ أبي ربيعة التي ورد فيها ذكر « عتيق » أو « بكر » أربعَ عشرةَ قصيدة . وهذه كفيلة بأن تُمدنا بطائفة جديدة من أخبار ابن أبي عتيق ، كما أنها تُلقي مزيداً من الضوء على نوع العلاقة التي كانت قائمة بين ابن أبي ربيعة الشاعر وصديقه ابن أبي عتيق الناقد ...

***

القصيدة الأولى

وفيها يطلب عمر من ابن أبي عتيق ألّا يلومه على حبه لصاحبته «أم عمرو» وأن يلتمس له الدواء عند الطبيب بدل اللوم . قال عمر :

لا تَلُمْني عتيقُ ، حَسْبي الذي بي ..
والْتَمِسْ لي الدواءَ عند الطبيبِ [3]

---

(١) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٤ . (٢) الأغاني : ج ٩ ص ٢٤٢ .
(٣) حسبي : يكفيني. يقول: إن الذي نزل بي من ألم الحب يكفيني، فلا أطيق احتمال شيء بعده.

إنَّ قلـــبي ما زال من أمِّ عمرو

ضَمِناً بعدَ ليـــلةِ التحصيبِ [1]

يكتُم الناسَ ما به والذي يكـْـ

ـتُمُ بادٍ مُبَــيَّنٌ لِلَّبِـيبِ [2]

يا ابنةَ الخيرِ والسَّناءِ وفرعَ المَـ

ـجْدِ والمنصبِ الرفيعِ أثِيبِي [3]

فإليـــكِ انتهتْ فروعُ قُرَيْشٍ

بمساعي العُـــلا وطيبِ النسيبِ [4]

القصيدة الثانية

١٦ – والخبر في هذه القصيدة أن عمرَ أثناء مروره هو وأصحابه على مَطِيّهم بماءٍ لبني يربوع يُدعَى « الأنصاب » تذكر صاحبته « أمَّ الصلت » فبكى شوقاً لها .

وحاول أن يُخفِيَ دمعَه بثوبه عن أصحابه ، ولكنَّ « بكراً » أي ابن أبي عتيق رأى سوابق دموعــه فصاح قائلاً : بكى أبو الخطّاب ! وكأنه بذلك يسخر منه لضعفه في حبه وعدم تماسكه ! بيد أن الشاعر يأبى أن يُسَلِّم بذلك ، ويزعمُ أنَّ رَمَداً أصابه فهاج عينه بالدمع ، ثم يروح يقص قصته مع صاحبته .

قال ابن أبي ربيعة :

خطرَتْ لذاتِ الخالِ ذِكْرَى بعدَما

سَلَكَ المطيُّ بنـــا على الأنصابِ [5]

---

(١) ضَمِناً : مريضاً شديدَ المرض . وليلة التحصيب : ليلة رَمْيِ الجمار بِمِنىً .

(٢) يكتم الناس ما به : يخفيه عليهم ويستره . وبادٍ : ظاهر . واللبيب : العاقل الفطين .

(٣) السناء : رفعة القـــدر . أثيبي : أمر من الثواب ، وهو الجزاء والمكافأة ؛ أي ارجعي إلى ما كنت عليه من المودة . (٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص ٤٢٨ – ٤٢٩ .

(٥) الأنصاب : اسم ماء لبني يربوع بن حنظلة .

أنصابِ عَمرةَ والمطيُّ كأنها
قِطَعُ القَطا صدرَتْ عن الأجبابِ [1]

فانهَلَّ دمعي في الرِّداءِ صَبابةً
فستَرْتُه بالبُرْدِ دُونَ صِحابي [2]

فرأى سوابقَ عَبْرَةٍ مُهْرَاقةٍ
« بَكْرٌ » فقال : بكَى أبو الخطّاب ! [3]

فمَرَيْتُ نظرتَه وقلت : أصابني
رَمَدٌ فهاجَ العينَ بالتَّسْكابِ [4]

لم تَجزِ « أمُّ الصَّلْتِ » يومَ فِراقنا
بالخَيْفِ موقِفَ صُحْبَتي وركابي

وعرفتُ أنْ ستكونُ داراً غُرْبَةً
منها إذا جاوزتُ أهْلَ حِصَابي [5]

وتَبوَّأَتْ من بطن مكةَ مَسْكَناً
غَرِدَ الحَمامِ مُشَرَّفَ الأبوابِ [6]

ما أنْسَ لا أنسى غداةَ لَقِيتُها
بِمِنًى تريد تحيّتي وعتابي

وتَلَدُّدي شهراً أريدُ لِقاءَها
حَذَرَ العدُوِّ بساحةِ الأحبابِ [7]

---

(١) الأجباب : جمع جُبّ وهو البئر . (٢) انهلّ : انسكب وتتابع نزوله .

(٣) العبرة : الدمعة ، ومهراقة : مُراقة . (٤) مريت نظرته : جحدتها وأنكرتها .

(٥) جاوزت : فارقت . وأهل حصاب : أهل المحصَّب ، وهو مكان رَمْي الحجار بمنًى .

(٦) تبوأت مسكناً : اتخذته محل إقامة وأقامت به . غرد الحمام : أي حمامه ساجع مغرِّد ، لأنه آمن أن تمسه يد .

(٧) تلدُّدي : يصح أن يكون معناه تحيري وارتباكي ، كما يصح أن يكون معناه إقامتي وانتظاري .

تلـــك التي قالت لجيرانٍ لهــا
حورِ العيونِ كواعبٍ أترابِ :[1]
هـــذا المغيريُّ الذي كُنَّا بِه
نَهْذِي ورَبِّ البيتِ يا أترابي
قالت لذاك لهــا فتاةٌ عندها
تمشي بِــلا إتْبٍ ولا جِلبابِ[2]
قد كنتُ أحسَبُ أنها في غفْلَةٍ
عَمَّا يُسَرُّ بِــه ذوو الألبابِ :
هذا المَقامُ — فَدَيْتُكُنَّ — مُشَهَّرٌ
فاحْذَرْنَ قولَ الكاشِحِ المُرتابِ
فعَجِبْنَ من ذاكمْ وقُلْنَ لها : افتحي
— لا شبَّ قَرْنُكِ — مَفْتَحاً من بابِ[3]
قالت لهنَّ : الليلُ أخْفَى للذي
تَهْوَيْنَ من ذا الزائرِ المُنْتابِ[4]

القصيدة الثالثـــة

١٧ — تحكي هذه القصيدة ما قاله ابن أبي عتيق للشاعر عندما شكا يوماً اليه ما يعانيه من صبابته وشوقه الى صاحبته « الرباب » .

---

(١) حور : جمع حوراء ، وهي التي اشتد سواد عينها واشتد بياض بياضها ، والكواعب : جمع كاعب ، وهي التي كعب ثديها ونهد . والأتراب : اللدات المتساويات في السن .

(٢) الإتب : الدرع الذي تلبسه المرأة ، وما كان من الثياب قصيراً لا يزيد على نصف الساق : يريد أنها لا تزال صغيرة حدثة .

(٣) لا شب قرنك : لا كبِرتِ ولا قويت ، والمفتح هنا : موضع الفتح .

(٤) ديوان عمر : ص ٤١٤ — ٤١٥ . وانتابه فهو مُنتاب : نزل به أو زاره .

قال ابن أبي ربيعة :

يقول عتيقٌ إذْ شكَوْتُ صَبابَتي
وبيَّنَ داءٌ من فؤادي مُخامِرُ :[1]

أحقاً لَئِنْ دارُ «الرَّباب» تباعَدَتْ
أو انْبَتَّ حبْلٌ أنَّ قلبك طائرُ ؟[2]

أفِقْ قد أفاقَ العاشقون وفارقوا الـ
ـهَوَى واستمرَّتْ بالرجال المرائرُ[3]

زَعِ القلبُ ، واسْتَبْقِ الحياءَ ، فإنما
تُباعِدُ أو تُدْني «الرَّبابَ» المقادرُ[4]

فإنْ كنتَ عُلِّقْتَ «الرَّبابَ» فلا تكنْ
أحاديثَ مَن يَبْدو ومَن هو حاضرُ[5]

أمِتْ حُبَّها ، واجعلْ قديمَ وِصالِها
وعِشْرَتِها أمثالَ مَن لا تُعاشرُ

وهَبْها كشيءٍ لم يكنْ ، أو كنازحٍ
به الدارُ ، أو مَن غيَّبَتْهُ المقابرُ[6]

فإنْ أنتَ لم تفعلْ ولستَ بفاعلٍ
ولا قابلٍ نُصْحاً لمَن هو زاجرُ

---

(١) الصبابة : حرارة الشوق ، ورقة الهوى . وبيّن : ظهر ، مثل بان وتبيّن . وداء مخامر أي مخالط قلبي لا يبرحه .

(٢) انبتّ حبل : انقطع ، وأراد حبل المودة .

(٣) المرائر : جمع مريرة ، وهي العزيمة . واستمرت المرائر : أي قَوِيتْ العزائم واشتدت.

(٤) زَعْ : فعل أمر من « وزعه يزعه » أي كفّه يكُفّه ونهاه ينهاه . والمقادر : الأقدار .

(٥) أراد بمن يبدو سُكّان البادية ، وبمن هو حاضر سكّان الحضر . والمقصود الناس كلهم .

(٦) هَبْها : أعدُدْها واحسبها ، ونازح به الدار : أي بَعُدت دارُه عن دارك . والمعنى : ظُنّ هذه المرأة واحداً من ثلاثة أشياء : إما شيئاً لم يكن فأنت لا تعرف عنه شيئاً ، وإما صديقاً بَعُدتْ دارُه فأنت لا ترتقب رؤيته ، وإما حبيباً مات فأنت يائس من لقائه .

فلا تَفْتَضِحِ عَيْناً ، أتيْتَ الذي تَرَى
وطاوعتَ هذا القلبَ إذْ أنتَ سادرُ[1]

وما زلتُ حتى استنكر الناسُ مُدْخَلي
وحتى تَرَاءَتْني العيـــونُ النواظِرُ[2]

القصيدة الرابعة

١٨ – هذه القصيدة تقص تجربة من تجارب عمر العاطفية في أحد مواسم الحج ، وكان برفقته صاحبه « بكر » . وينبئنا الشاعر أن « بكراً » هو الذي لفت نظره إلى صاحبة التجربة وهما بِمِنىً ، فانطلق اليها يكلمها فلم يجد لديها استعداداً لأي شيء أكثر من لقائه في موسم الحج . ولهذا يُنحِي باللائمة على « بكر » الذي أوقعه في حبائلها فأحل دمه دون أن يرى فيما فعله ما يوجب إثماً . ثم يعود فيسأل « بكراً » عما إذا كان ما رآه منها من عدم المبالاة به راجعاً إلى تجلدها أم إلى عـــدم قدرته على استهوائها .

ولكنه مع ذلك لم ييأس فظل يلاحقها ويتتبع مسيرتها ، طالبـاً من « بكر » أن يسير بسيرها لمراقبتها هي وجواريها ، فلا يتقدم عليهن ولا يتأخر عنهن لئلا يفتنّه . وعلى عادة الشاعر تظهرنا القصيدة على أنه ظفر بها في النهاية فباح كلاهما بسِرِه وهواه إلى الآخر ، وقضى وطره منها .

قال عمر :

ألاَ يا لَقَوْمي للهَوَى المُتَقَسِّمِ
ولِلقلب في ظَلماءِ سَكْرَتِه العَمِي[3]

---

(١) السادر : التائه في الغيّ ، أو مَن هو غير متثبت مما يُقدم عليه ، أو غير مُبال أو مكترث.

(٢) ديوان ابن أبي ربيعة : ص ١٠٩ .

(٣) ظلماء سكرة القلب : ما غطى عليه من الافتتان بها والصبابة اليها . والعمِي : الذي لا يبصر مواطن الرشد .

ولِلْحَيْنِ أنَّى ساقَنِي فأتَاحَنِي
لِأَحْبُلِها من بـيـنِ مُثْرٍ ومُعْدِمِ ؟[1]

أَقَادَ دَمي بَكْرٌ على غيرِ ظِنَّةٍ
ولم يتأثَّمْ قاتلا غـيرَ مُنْعِمِ[2]

فقلتُ لِبَكْرٍ عاجباً : أتجلَّدَتْ
لكَ الخيرُ أم لا تُطعمُ الصيدَ أسهمي؟[3]

وما ذاك ألَّا تَعلَمَ النفسُ أنـه
إلى مِثلهـا يَصبُو فؤادُ المُتيَّمِ[4]

وإني لها مِن فَرعِ فِهْرِ بن مالكٍ
ذُرَاه وفَرعِ المجـدِ للمُتَوَسِّمِ[5]

على أنها قالت له : لَستَ نائـلا
لنـا ظِنَّةً إلَّا لقـاءً بمَوْسِمِ[6]

وقلتُ لبكرٍ حين رُحْنَا عَشِيَّةً
عن السِّرِّ : لا تَقْصُرْ ولا تتقدَّمِ[7]

لعلّي سَتُنْبِيني الجواري مَن التي
رأتْ عنـدها قلبي فلم تتألَّمِ ؟[8]

---

(١) الحَيْن : الهلاك . وأنَّى : كيف . وأتاحني : هيَّأني وأعدَّني . من بين مُثرٍ ومعـدم : من بين جميع الناس .

(٢) أقاد دمي : أحلَّه ، على غير ظِنة : على غير تُهمة ، ولم يتأثَّم : لم ير فيها فعله ما يوجب إثماً.

(٣) تجلَّد : تصبَّر وتكلَّف الجَلَد . ولا تطعم الصيدَ أسهمي : أي لا تنال أسهمي الصيد.

(٤) يصبو : يميل .

(٥) فهر بن مالك : قبيلة من قريش . وذراه : أعلاه ، وهو بدل من « فرع فهر » . المتوسم : الذي يحاول أن يعرف الناس .

(٦) لست نائلا : مدركاً ولا آخذاً . الظِّنَّة : التهمة . ولقاء بموسم : أراد به موسم الحج على عادته.

(٧) السِّرُّ : اسم موضع معين . لا تقصر : لا تتأخر عن القوم بدليل مقابلته بقوله «ولا تتقدم».

(٨) ستنبيني : ستخبرني ، وأصله ستنبئني ـ بالهمزة ـ فسهَّل الهمزة بقلبها ياء لانكسار ما قبلها. ومَن : اسم استفهام .

فليتَ منىً لم تجمع العامَ بيننا
ولم يَكُ لي حجٌّ ولم نتكلّمِ !

وليتَ التي عاصيتُ فيها عواذلي
لها قبِلتْ عقلاً ولم تحتملْ دمي ![1]

فرُحنا بقصرٍ نتّقي العينَ والرّيا
وقولَ العدوّ الكاشحِ المتنمّمِ[2]

وفي العينِ مرْجوٌّ وآخرُ يُتّقى
فيالكَ أمْراً بين بُؤسي وأنْعُمِ ![3]

فلمّا اكفهرّ الليلُ قالتْ لخُرّدٍ
كواعبَ في رَيْطٍ وعَصْبٍ مُسهّمِ[4]

نواعمَ قُبٍّ بُدّنٍ صُمُتِ البُرَى
ويملأْنَ عينَ الناظرِ المتوسّمِ[5]

رواجحِ أكْفالٍ تَباهَيْنَ ، قولُها
لديْهنّ مقبولٌ على كلّ مَزْعَمِ :[6]

---

(١) العَقْلُ هنا : الدّيةُ التي تؤخذ عند العفو عن القاتل عوضاً عن دم القتيل . وقد ضرب الشاعر ذلك الكلام مثلاً لتمنى أن تقبل منه شيئاً دون أن تعرّضه للموت في حبها .

(٢) نتقي العين : نجعل بين العيون التي تترصدنا وقاية وستراً . والرّيا : أراد به الظهور للناس . والكاشح : المبغض . والمتنمّم : الذي ينمّ علينا . والقصر : من نواحي مكة .

(٣) مَرْجُوٌّ : من يُرجى لقاؤه . وأراد بالذي يُتّقى الذي يَحذَر أن يراه . والأنعم : جمع نعمة . يتعجب لهذا الأمر الذي يجمع بين البؤس والنعمة .

(٤) الخُرّد : جمع خريدة ، وأصلها اللؤلؤة التي لم تُثقب ، تشبه بها النساء الحسان . وكواعب : جمع كاعب ، وهي التي كعب ثديها واكتنز . والربط : جمع رَيْطة وهي الملاءة . والعصب : ضرب من الثياب . والمسهّم : المخطّط .

(٥) نواعم : جمع ناعمة . والقُبّ : جمع قبّاء وهي الضامرة البطن . والبُدّن : البدينات الممتلئات البَدَن . وصُمُت : جمع صَمُوت ، وهي التي لا صوت لها . والبُرَى : جمع بُرَة ، أراد بها هنا الخلخال والسّوار . وكنى بصُمت البُرَى عن امتلاء سيقانهن وسواعدهن . ويملأن عين الناظر : كناية عن اجتماع صفات الحُسن فيهن . والمتوسّم : المتفرس المتعرف .

(٦) رواجح أكفال : أراد كبر عجائزهن . والمزعم هنا : القول .

لقد خَلَجَتْ عيني ، وأحسبُ أنّها
لقربَ أبي الخطاب ، ذلك مَزْعَمِي[1]

فقلنَ لها : أُمْنِيَّةٌ أو مُزَاحَةٌ
أردتِ بها عَيْبَ الحديث المُرَجَّمِ

فقالت لهنّ : أذهَبْنَ ، آمِرُنا معاً
لأمرك مجنوبٌ تَبُوعٌ فقدّمي[2]

أمامَكَ مَن يَرعَى الطريق ، فأرسلتْ
فتاةٌ حَصاناً عَذبَةَ المتبسّمِ[3]

وقالتْ لها : إمْضِي فكوني أمامنا
لحفظ الذي نخشى ولا تتكلّمِي

فقامت ولم تفعل ونامتْ فلم تُطِقْ
فقلنَ لها : قُومي ، فقامت ولَمْ لَمِ[4]

تُبِنْ غيرَ أن قد أوْمَأتْ فعَمَدْتُها
كشارب مكنونِ الشّرابِ المُختَّمِ[5]

فلمّا التقينا باحَ كلٌّ بسِرّهِ . .
وأبْدَى لها منّي السرورَ تَبَسُّمِي[6]

---

(١) خلجت عيني : تحركت وارتعشت . واختلاج العين عند العرب إرهاص بأمر سارّ مقبل . وفي المثل « أبشر بما سرّك عيني تختلج » . والمزعم هنا : الطمع .

(٢) أصل المجنوب : المطيــة يجنبها راكبُ مطيةٍ أخرى ليخلف اليها إذا تعبت مطيتـه . والتّبُوع : التابع .

(٣) أمامك : متعلق بقوله «قدّمي» في البيت السابق، وهذا عيب عروضيّ يسمّى « التضمين » وهو ألا يستقل البيت بمعناه، بل يكون المعنى مجزّأً بين بيتين أو أكثر. والحَصان:العفيفة.

(٤) لم ـ الأولى نافية جازمة ، ولم ـ الثانية مؤكدة لها .

(٥) تبن : هذا هو الفعل المجزوم بلم السابقـة ، والمعنى لم تتكلم فتبين ما في نفسها . وأومأت : أشارت ، وعمدتها : قصدتها ، ومكنون الشراب : الخمر الذي أخفيت وخبئت . والمختّم : الذي خُتِم عليه . والمراد أن هذه الخمر قد عُتّقت .

(٦) أبدى : أظهر ، وفاعله « تبسمي » و « السرور » مفعوله .

فيا لك ليلاً بِتُّ فيه مُوَسَّداً
إذا شئتُ بعد النومِ أكرمَ مِعْصَمِ !

وأُسْقَى بِعَذْبٍ باردِ الريق واضح
لذيذِ الثنايا طيِّبِ المُتَنَسَّمِ (١)

القصيدة الخامسة

١٩ – تُطلعنا هذه القصيدةُ على موقف من مواقف ابن أبي عتيق مع صاحبه عمر بن أبي ربيعة . فابن أبي عتيق في هذا الموقف يلوم عمر على حبه واشتياقه لصاحبته « سُلَيْمَى » وينصحه بأن يودّعها ويتخلّى عنها .

ولكن الشاعر الذي لا يطاوعه قلبه على التخلي عن حبيبته يلتمس من صاحبه أن يتعاطف معه فيبكي رثاءً لحاله بدل أن يلومه . قال عمر :

ليت شعري هل أقولَنْ لِرَكْبٍ
بفَلاةٍ هُمْ لدَيْها هُجوعُ (٢)

طالما عَرَّسْتُمُ فاركبوا بي
حانَ من نَجمِ الثُرَيّا طلوعُ ؟ (٣)

إنَّ هَمّي قد نَفا النومَ عنّي
وحديثُ النفسِ قِدْماً وَلوعُ (٤)

قال لي فيها عتيقٌ مَقالاً
فجَرَتْ مما يقول الدموعُ

---

(١) الديوان : ١٩٩ ، وطيِّب المتنسَّم : طيب الرائحة .

(٢) الركب : الجماعة الذين يركبون الإبل خاصة . ويقال : هم الراكبون عامة سواء أكان ما يركبونه إبلاً أم خيلاً أم غيرهما . والفلاة : الصحراء . وهجوع : جمع هاجع : وهو النائم مطلقاً ، أو في الليل خاصة .

(٣) التعريس : النزول ليلاً للاستراحة . وحان : قَرُبَ ودنا .

(٤) نفى النوم عني : أزاله وأذهبه بَتّةً . والوَلوع بالشيء : الغرام به وشدة تعلق القلب به .

قال لي : وَدّعْ سُلَيْمَى وَدَعْهَا
فأجابَ القلبُ : لا أستطيعُ !

لا شفاني اللهُ منها ولكنْ
زِيدَ في قلبي عليها صُدُوعُ[1]

لا تلُمْنِي في اشتياقي إليها
وابْكِ لي مما تُجِنُّ الضلوعُ[2]

القصيدة السادسة

٢٠ – تقصُّ القصيدةُ التالية موقفاً من مواقف الشاعر مع صاحبه ابن أبي عتيق الذي كَنَى عنه ببكر .

ومُفاد القصة كما يرويها الشاعر أن بكراً كان سببَ وقوعه في غرام صاحبته « سليمى » . ولهذا فهو يلومه يوم بانت ورحلت عنه مع قومها على ما يعانيه من حبها .

ويبدو أن بكراً نصحه بزيارتها للاستشفاء من حبه ، ولكنه على العكس يرى في زيارتها حَيْنَه وهلاكَه ، ويفضّل على ذلك أن يظل يشتشعر حبَّها واشتياقَه إليها .

قال عمر :

ولقد قلتُ يومَ بَانوا لبكرٍ :
أنتَ يا بكرُ سُقْتَنا ذا المَساقا[3]

أنتَ قربتَني إلى الحَيْنِ حتى
حُمِّلَ القلبُ منهمُ ما أطاقا[4]

---

(١) صدوع : جمع صَدع بفتح الصاد ، وأصله الشقُّ .
(٢) الديوان : ص ١٩٨ . وتُجِنُّ : تخفِي وتكتُم .
(٣) بانوا : فارقوا . (٤) الحَيْن : الهلاك ، وأطاق الشيء : حمله بجهد ومشقة .

ولقد قلتُ : لا أبَا لكَ دَعْنِي
إنَّ حَتْفِي في أن أزورَ الرِّفاقا[1]

إنَّ قَصْرِي أنْ يَشعُرُ القلبُ سُقماً
من سُلَيمى مُخامِراً واشتياقا[2]

قد أرانا ولا أُسَرُّ بأنْ تجـ
ـمعَ دارٌ ولا نُبالي الفِراقا[3]

ثمَّ ولَّوْا ، وما قَرابةُ مَن حلّ
بنجدٍ مِمَّنْ يَحُلُّ العِراقا ؟[4]

القصيدة السابعة

٢١ – الشاعر في هذه القصيدة ينبئنا بأن خيال صاحبته هند قد طرقه ليلا فأيقظه وأثار مشاعره وجدَّد شوقه وحنينه إليها .

وَكعادته في كثير من مواقفه العاطفية لا يجد من يتعاطف معه ويطمئن إذا أفضى إليه بمكنون عواطفه غيرَ صاحبه « بكر » . ولهذا يفزع إليه بالنداء ليُسمعه قصة هذا الخيال الزائر فيقول :

---

(١) لا أبَا لك: كلمة جرت مجرى المثل ، وأكثر ما تقال في المدح ، أي لا كافيَ لك غيرُ نفسك وقد تذكر في معرض التعجب ودفعاً للعين ، كقولهم : لله درُّك . وقد تذكر بمعنى جِدَّ في أمرك وشَمِّر ، لأن من له أبٌ اتكل عليه في بعض شأنه . وقد تذكر في معرض الذم ، كما يقال لا أمَّ لك . وقال الفرّاء إنها كلمة تفصِل بها العرب كلامها . لسان العرب : ج ١٤ ص ١١ – ١٣ .

(٢) يقال : قصر أمرك أن تفعل كذا ، وقصارى أمرك ، وحُماداه . والمعنى غاية شأنك . والسُّقْم : المرض . ومخامراً : مستمراً .

(٣) لقد كنا وحالنا أني لا أسر باللقاء ولا أعبأ بالفراق ، وليس هذا شأن المحبين .

(٤) الديوان : ص ٢٤٤ .

ألا يا بكرُ قد طرقا خيالٌ هيّج الرُّفقا[1]
أجاز البيدَ مُعترِضاً فعرّض الوادِ فالشَّفقا[2]
لهندٍ إنْ ذكرتَها .. تَرى من شيمتي خُلُقا[3]
ولو علمتْ — وخيرُ العلـ ـمِ للإنسان ما صدقا —
بأنّ بها حديثَ النفـ ـسِ والأشعارَ إنْ نطقا[4]
وحُبّاً راضياً للقلـ ـب لم أخلِطْ به مَلَقا[5]
فما إنْ مُغزِلٌ أدْما ءُ تَرْعى شادناً خرقا[6]
بأحسنَ مُقلةً منها إذا برزتْ ولا عُنُقا[7]
غداةَ غدتْ تودّعُنا وقد أزمعتُ منطلَقا[8]
ترى إنسانَ مقلتِها بدمع العين قد شرقا
وقد حلفتْ يميناً برّ ةً بمَحلِ من خلقا
لقد عُلِّقتُ من عُمرٍ حِبالاً مثلَها علِقا[9]

القصيدة الثامنة

٢٢ — لام ابن أبي عتيق عمر بن أبي ربيعة مرةً على هيامه بصاحبته هند فردَّ عمرُ على صاحبه بأن يقتصد في ملامه، وأن يبحث له — بدل اللوم — عن دواء يَشفيه من هذا الحب الذي غلب عليه أمرَه. ومن ثمّ

(١) طرقا : من الطروق ، وهو الإتيان ليلاً . والرفقا : مقصور الرفقاء ، جمع رفيق .
(٢) أجاز : اجتاز وقطع . والبيد : جمع بيداء ، وهي الصحراء ، سُميت بذلك لأن سالكها يَبيد فيها : أي يهلك .
(٣) الشيمة : الطبيعة والسجية .
(٤) حديث النفس : مناجاتها . والمعنى أنها هي مناه في سره وعلانيته .
(٥) الملق : الخداع .
(٦) « إنْ » في قوله « فما إنْ مغزل » زائدة . والمغزل : الظبية التي لها غزال . والأدماء : السمراء . والشادن : الظبي إذا اشتد قرنه وترعرع . والخَرِق : الأخرق الطائش .
(٧) المقلة : العين . وبرزت : ظهرت .
(٨) أزمعت : اعتزمت . والمنطلَق : مصدر ميميٌّ بمعنى الانطلاق .
(٩) الديوان : ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

أشار عليه ابن أبي عتيق بأن يلتمس الدواء عند صاحبة أخرى له هي « أسماء » لأنها أطبُّ منه وأخبر بدواء الحب . والقصيدة التالية تقص الحوار الذي دار بين ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة و « أسماء » في هذا الشأن.

قال عمر بن أبي ربيعة :

أقِلَّ الملامَ يا عتيقُ ، فإنَّني
بهندٍ طوالَ الدهر حرّانُ هائمُ

فقضَّ ملامي وأطلب الطبَّ إنني
أسيرُ جوًى من حبّها فهو رازمُ[1]

فقال : عليكَ اليومَ « أسماءَ » إنّها
أطبُّ بهذا ، والمباطنُ عالمُ .. [2]

فقلتُ : لأسماءَ اشتكاةً ؟ وأخضلتْ
مساربَ عينيَّ الدموعُ السّواجم[3]

أبيني لنا كيف السبيلُ إلى التي
نأتْ غربةٌ عنّا بها ما تلائمُ ؟

فقالت وهزّتْ رأسَها : لو أطعتنا
تجنّبْتَها أيامَ قلبُك سالمُ

ولكنْ دعتْ للحَيْنِ عينٌ مريضةٌ
فطاوعتَها عمداً كأنك حالمُ[4]

(١) الجوى : الحزن ، ورازم : مقيم لا يبرح .

(٢) عليك أسماء : أي الزمها ولا تفارقها ، وأطبُّ بهذا : أعرف بعلاجه ، والمباطن : الذي يخفي في باطنه شيئاً .

(٣) أخضلتْ : بلّتْ . والسواجم : جمع ساجم ، ومعناه السائل المنسكب .

(٤) الحَيْن : الهلاك . وأراد بالعين المريضة عينَها الفاترة ، أو عينَه التي لا ترى إلا محاسن هذه المحبوبة .

وكنتَ تَبوعاً للهوَى مُصْحِباً لهُ

إذا أعجبتكَ الآنساتُ النواعمُ(١)

تُكلِّفُ أفراسَ الصِّبَا تَعَباً لهُ

ولستَ تُبالي أن تلومَ اللوائمُ(٢)

ووَكّلْتَ أفراسَ الصِّبَا بطِلابِها

زماناً ، فقد هانتْ عليكَ الملاوِمُ

وعُلِّقْتَها أيامَ قلبُكَ مُوثَقٌ

لديْها ، فدَعْها الآنَ إذْ أنت سالمُ

فقلتُ لها : أنّى سَلِمْتُ وحُبُّها

جَوًى لبناتِ القلب يا «أسْمُ» لازمُ(٣)

فأنّى سُلُوُّ القلب عنها وقد سَبَا

فؤاديَ منها ذو غدائرَ فاحِمُ ؟(٤)

وجِيدُ غزالٍ فائقُ الدُّرِّ حَلْيُه

ورَخْصٌ لطيفٌ واضحُ اللونِ ناعمُ ؟(٥)

القصيدة التاسعة

٢٣ – في القصيدة التالية يعبّر عمر عن شعوره عندما دعاه «بكر» أي ابنُ أبي عتيق إلى الإلمام بصاحبته «زينب» وزيارتِها قبيلَ رحيلها . كما يعبّر عن موقفه ممن نهاه عن حبها أو حسده عليه ، وكذلك عن مدى حبّه لها وحبّها له .

(١) تبوعاً للهوى : كثير الاتباع له ، ومُصحِباً : أي منقاداً ذليلاً .

(٢) أفراسُ الصبا : أراد بها دواعي الصبابة .

(٣) أنّى سلمت : أي كيف سلمت . والجَوَى : حرقة الباطن .

(٤) فأنّى سلو القلب عنها : أي فكيف يسلو قلبي هواها . وذو غدائر فاحم : أي شعرها الغزير الاسود .

(٥) الديوان : ص ٢٠٩ . والجيد : العنق ، وأراد برخصٍ لطيفٍ خدَّها .

قال ابن أبي ربيعة :

أَلْمِمْ بزينب إن البين قد أَفِدَا
قلَّ الثَّواءُ لئن كان الرحيلُ غَدَا[1]

لعَمْرُها ما أراني إنْ نَوًى نزحتْ
ودامَ ذا الحبُّ إلّا قاتلي كَمَدَا[2]

« بكرٌ » دَعَا فأتى عمداً لِشِقْوَتِه
ما جاءِ مِن ذاك إن غَياً وإنْ رَشَدَا[3]

مَن يَنْهَ يُعْصَ ومَن يحسُدْ ولا وأبي
ما ضرَّهَا مَن وَشَى عِندي ومَن حَسَدَا[4]

هذا يُقرِّبُه منها ، وعَبْرَتُها
يومَ الفراق فما أرْعَى وما اقْتَصَدَا[5]

قد حلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْن جاهدةً
وما على المرءِ إلّا الصبرُ مُجتهِدَا ..[6]

لِتِرْبِها ولأخرَى مِن مَناصِفِها
لقد وَجدْتُ به فوق الذي وَجَدَا[7]

لو جُمِّعَ الناسُ ثم اختيرَ صفوتُهم
شخصاً من الناس لم أعْدِلْ بِهِ أحَدَا[8]

---

(١) ألمم بزينب : أي زُرْهَا . والبين : الفراق . وأفِد : دنا وقرُب موعده . والثواء : المقام .
(٢) نزحتْ : بَعُدتْ . والكمد : هَمٌّ أو حُزْنٌ لا يستطاع إمضاؤه ، أو هو الحزن المكتوم .
(٣) الغَيُّ : الضلال . والرُّشْد : ضده ، وهو الهُدَى .
(٤) مَن يَنْهَ يُعْصَ : يريد أنه لا يطيع من نهاه عن هواها . وَشَى : نمَّ وحاول الإفساد بين المتحابين .
(٥) العَبرة : الدمعة ، وقيل : هي تحلُّبُ الدمع وانهمارُه . فما أرْعى : فما أبْقَى .
(٦) الصَّوْرين : موضع ببقيع المدينة أو قربها . وجاهدةً أراد مؤكدةً عزمها .
(٧) التِّرْبُ : المساوية لها في السِّنِّ . والمناصف : الخَدَمُ والأتباع ، جمع مِنْصَف .
(٨) صفوة الناس : المختار منهم . لم أعدل به أحدا : لم أجد أحداً مساوياً له .

وقــد نَهيْتُ فؤادي عن تَـطَـلُّبِـها
فَاغْتَشَّـنِي وأتـى مـا شاءَ معْتَمِدَا[1]

القصيدة العاشرة

٢٤ – يصور الشاعر هنا إحدى مغامراته العاطفيـــة مع صاحبته زينب بنت موسى الجُمَحِيَّة .

فهو أولاً يشكو إلى « بكر » أي ابن أبي عتيق مما يعانيه بسبب رحيل زينب مع أهلها ، ثم يروح يقص كيف تتبعها مخاطراً حتى لِحقَ بها عند المساء وتحدَّث اليها .

قال عمر :

إن الخليط مع الصباح تصـدَّعُوا
فالقلبُ مُرْتَهَنٌ بزينب مُوجَـعُ[2]

أشكو إلى « بكرٍ » وقد جَزَعَتْ بها
بَغَلاتُهـا خُوصَ النواصفِ تَرفَـعُ[3]

قالوا بِمَرٍّ اليـومَ ، ثم مَبِيتُهمْ
ضَجْنَانُ أو عُسْفَانُ إنْ هُمْ أسرعوا[4]

حتى إذا حَسَرُوا بِصَارِعِ كَلِّـها
وبَدَا لهـم منها طريقٌ مَهْيَـعُ[5]

---

(١) ديوان ابن أبي ربيعة : ص ٣٩١ . الطلب : محاولة وجدان الشيء وأخذه . والتطلُّبُ : الطلب مرة بعد أخرى . واغْتَشَّنِي : ظنَّ بي الغِشَّ .

(٢) الخليط : القوم الذين أمرهم واحد . والمراد هنا أهل زينب . تصدَّعُوا : تفرَّقوا .

(٣) جزعتْ : قطعتْ ، تقول «جزع فلان الوادي» إذا قطعه عَرْضاً . الخوص : ورق النخيل وما شاكله . والنواصف : موضع . والمراد بخوص النواصف : نخيل هذا المكان .

(٤) مَرٌّ ، وضَجْنَان ، وعُسْفان : أسماء مواضع . وقالوا بمرّ : أي قضوا وقت القيلولة في هذا المكان .

(٥) حَسَرُوا : أعْيَوْا ، تقول : « حسَر الرجل والبعير » إذا أعيا وتعب . والكَلّ بفتح الكاف : الكَلال والتعب . والباء في « بصارع كلّها » للسببية ، أي أنهم أعيوا بسبب =

فأتيتُهم عنــد العِشاءِ مُخاطِراً

حَــذَرَ الأنيسِ وليس شيئاً يَسمَعُ[1]

أقبلتُ أخْفِي مِشْيَتِي مُتَقَنِّعاً

وأخو الخفــاءِ إذا مَشَى يَتقَنَّعُ

فأتيتُ حــين تضجَّعُوا بعدَ الوَنَى

مِن سيرِهم أو قبــلَ أنْ يتضجَّعُوا[2]

فإذا ثــلاثٌ بَيْنَهُنَّ عَقيلَةٌ

مثلُ الغمامــةِ نَشْرُهَا يتضوَّعُ[3]

فعرفتُ صُورَتَهــا ، وليس بِمُنكرٍ

أحــدٌ شُعاعَ الشمسِ ساعةَ تَطْلُعُ

قالت : نَشَدْتُكِ يا «لُبَابَ» ألم يكنْ

كُبْرَ المُنَى وبهِ حديثِيَ أجمعُ ؟

قالتْ : بلى ، فعجبتُ حين لَقِيتُها

من قولها : ليتَ النَّوَى بكَ تَجمعُ[4]

القصيدة الحادية عشرة

٢٥ – في هذه القصيدة لا يجد الشاعر مَن يُفضي إليه بمكنون سره غيرَ صاحبه « بكر » . فهو يخبره أولاً بأن خيال صاحبته زينب قد طرقه ليلاً فأرّقه ، ثم ينتقل إلى وصف بعض محاسنها عنــده ووصف حاله إذا ما ذكرها أحدٌ أمامه .

= كلال دوابهم ، وإضافة « صارع » إلى « كَلّها » من إضافة الصفة الى الموصوف ، أي بسبب الكلال الصارع الذي يطرحها بالأرض . وطريق مهيع : أي مستقيم واضح .

(١) اسم «ليس» هنا ضمير مستتر يعود على «الأنيس» .

(٢) أن يتضجعوا : أي ان يضجعوا ويرقدوا . والوَنَى : الفتور والضعف .

(٣) العقيلة : المخدرة الكريمة على أهلها . ونَشرها : ريحها الطيب . ويتضوّع : يفوح وينتشر .

(٤) الديوان : ص ١٨٧ .

قال عمر :

ألا يا « بكرُ » قد طرَقا	خيالٌ هاجَ لي الأَرَقا[1]
بزينب إنّهــا همّــي	فكيف بحَبْلِها خَلَقا ؟[2]
خدَلَّجَةٌ .. إذا انصرفتْ	رأيتَ وشاحَها قَلِقا[3]
وساقاً تملأُ الخَلْخا	لَ فيه تراهُ مُختَنِقا
إذا مـا زينبٌ ذُكِرَتْ	سكبتُ الدّمعَ مُتّسِقا
كأنّ سَحابةً تَهمي	بماءٍ حُمّلتْ غدَقا[4]

القصيدة الثانية عشرة

٣٦ – يتغزل عمر في القصيدة التاليـة بامرأة تدعى « قُرَيبة » ويصفها بما اعتاد أن يصف به صواحبَه ، من حسن الدلّ ، واعتدال القامة ، وامتلاء الرِّدْفين ، ورقة الخصر ، وأسالة الخد ، ونعومة البشرة ، وطيب الريح .

ويذكر أن صاحبه ابن أبي عتيق وبعضَ نسائها لفتوا نظره اليها بحسن وصفهم ، فاستهام بها إلى الحـد الذي لا يستطيع معه أن يسلوَها أو يصبرَ عنها . وهو لذلك يلوم نفسه لأنـه رآها يوم رَمْي الجمار بمِنىً ، فتركته مفتوناً بها مشوقاً اليها .

(١) الأَرَق : السُّهاد والسَّهَر وذهاب النوم بالليل .

(٢) خَلَقَ الحَبل : بَلِيَ ورَثّ . وهـذا كناية عن أن حبّها له قد ضعف في وقت هي فيه همّه وشاغله .

(٣) الخَدَلَّجة : في الأصل الممتلئة الذراعين والساقين . وقد أراد بها هنا – كما يبدو – الضخمة الممتلئة الجسم بصفة عامة . والوشاح : شيء يُنسَج من أديم ويُرَصَّع بالجواهر ، شبه قلادة تلبسه المرأة وتشده بين عاتقَيْها وكَشْحَيْها .

(٤) الديوان : ص٤٩٧ . الغدَق : المطر الكثير العام . وقيل: الماء الكثير وإن لم يكن مطراً .

قال عمر :

أبهجرٍ يُودّعُ الأجْوارُ
أم مَساءٍ أم قَصْرُ ذاك ابتكارُ ؟[1]

قرّبتني إلى «قُرَيبةَ» عيني
يومَ ذي الشَّرْي والهوَى مستعارُ[2]

ودَواعي الهوَى ، وقلبٌ إذا لَجّ
لجَوجٌ فما يكادُ يُصارُ ...[3]

قمَرَتْهُ فؤادَه أختُ رِيمٍ
ذاتُ دَلٍّ ، خريدةٌ ، مِعْطارُ[4]

طَفلةٌ ، وَعْثَةُ الرّوادف ، خَوْدٌ
كمَهاةٍ إنسابَ عنها الصُّوارُ[5]

حُرّةُ الخدّ ، خَدْلَةُ السّاقِ مهضو
مَةُ كَشْحٍ يَضيق عنها الشّعارُ[6]

نظرَتْ حين وازنَ الركبُ بالنخل
ظلاماً ودونَها الأستارُ

---

(١) الهجر : نصف النهار عند الزوال . والباء بمعنى في ، والأجوار : جمع جار . وقُصر ذاك : غاية ما يصل اليه جهده .

(٢) ذو الشّرْي : موضع قريب من مكة .

(٣) لجوج : دائم على فعل ما يريد ، ويُصار : يُصرَف عما يُقبِل عليه .

(٤) قمرتـه فؤاده : لاعبته فغلبته ، والرّيم : الظبي الخالص البياض ، وأصله بالهمزة ، والدلّ : الدلال أو جمال السمت وحسن الهيئة ، وأصل الخريدة : اللؤلؤة التي لم تثقب ، والمعطار : الطيبة الريح .

(٥) الطّفلة : الناعمة ، ووعثة الروادف : عظيمتها ، والخَود : الفتاة الناعمة ، والمهاة هنا : البقرة الوحشية ، والصُّوار : جماعة المَها ، وإنساب عنها : سار. يريد انها مثل فتاة تركها أترابها.

(٦) حُرة الخدة : حسنة الخد أسيلته ، وخَدْلَة الساق : ممتلئة الساقين ، مهضومة كشح : رقيقة الخصر ، والشعار هنا : الثياب .

ودعـــاني ما قـــال فيها عتيقٌ
وهْوَ بالحسن عـــالمٌ بَيْـطارُ[١]

قولُ نِسوانها إذا حفَلَ النِّسـ
ـوانُ في مجلسٍ ، وقـــلَّ الإمارُ[٢]

إنها عفّةٌ عـــن الخُلُق الوا
ضِـع ، والطّعمةِ التي هيَ عارُ[٣]

نعتــوها فأحسنوا النعت حتى
كِدْتُ من حُسْنِ نعتهم أستطارُ[٤]

فثنائي عليــكِ خــيرُ ثناء ..
إنْ تقرّبْتِ أو نأتْ بــكِ دارُ[٥]

وبكِ الهَمُّ مــا مَشَيْتُ صحيحاً
وسَواري الأحـــلامِ والأشعارُ[٦]

أنــتمُ همُّـــنا وكُبْرُ مُنانا
وأحـــاديثُنا وإنْ لم تُزاروا[٧]

وأرى اليومَ إنْ نأيْتِ طويـلا
والليـــالي إذا دَنوْتِ قِصـــارُ

لم يُقاربْ جمالَهـــا حسنُ شيءٍ
غيرُ شمسِ الضُّحَى عليهـا نهارُ

---

(١) أصل البيطار الذي يعالج الدواب ، وهم ربما استعملوه في الحاذق الفطن الخبير مطلقاً .
(٢) الإمار . أصله مصدر بمعنى المؤامرة . يريد أنه قد قلّ من يأتمر بها وبي .
(٣) الطّعمة : السِّيرة .
(٤) أستطار . أذعَر . تقول : «استطير فلان» تريد انه ذُعِرَ .
(٥) نأت بك دار : بَعُدت .
(٦) بك الهم : أي إن همته مصروفة إليها . والسواري : جمع سارٍ ، وهو هنا الذائع في الناس المنتشر بينهم .
(٧) كبر منانا : أعظم أمانينا التي نتمنى حصولها .

فلو أنّي خشيتُ أو خِفتُ قتلاً
غيرَ أنْ ليس تُدفعَ الأقدارُ
لاتّقيتُ التي بها يُفتَن النا
سُ ، ولكن لكل شيءٍ قِدارُ[1]
فلنفسي أحقُّ باللّوم عمداً
حيثما كنتُ يومَ لَفّ الجمارِ[2]

القصيدة الثالثة عشرة

٢٧ – نفهم من هذه القصيدة أن عمر مرّ يوماً مع ابن أبي عتيق بحيّ « قُرَيْبَةَ » إحدى صواحبه ، وأن ابن أبي عتيق الذي يُدْعَى في القصيدة « بكرا » عرض عليه النزول بحيّ صاحبته للنظر إليه والسؤال عن قومها أيّةً سلكوا ، إذ لا بأس من ذلك .

وقد دفعه هذا الموقف إلى نظم القصيدة التالية التي يصف فيها صاحبته ويشرح حاله معها ، وكيف عرفها ووقع في حبها . قال عمر :

يا صاحبيَّ أقِلّا اللّوْمَ واحتسِبا
في مستهامٍ رماهُ الشوقُ بالذِّكَرِ[3]
ببَيْضَةٍ كمهاةِ الرَّمْلِ آنسةٍ
مِفْتانةِ الدَّلّ رَيّا الخَلْقِ كالقمَرِ[4]

---

(١) القِدار : أحد مصادر « قدر فلان على كذا » من باب نصر وضرب وعلم – إذا دبّره وأطاقه وقَوِيَ عليه .

(٢) الديوان : ص ١٣٢ . الجمار : أراد رَمْيَ الجمار بمنى ، وأراد بيوم لَفّ الجمار اليومَ الذي اجتمع فيه الناس بموسم الحج لرمْيِ الجمار .

(٣) أقِلّا اللوم : أتركاه بَتّةً . والمستهام : من استولى عليه الهيام وهو شدة الحب .

(٤) المهاة : إذا شُبّهت المرأةُ بها في البياض كان المراد بها الدُّرةَ أو البلّورة ، وإن شبهت بها في العينين كان المراد بها بقرةَ الوحش . ومفتانة : شديدة الفتنة . والدّل : السَّمْت والهيئة وريّا الخَلْق : ممتلئة اللحم ، أي عبلة سمينة .

سَيْفَانَةٍ فُنُقٍ جُمٍّ مَرافِقُها
مثلِ المَهاةِ تُراعِي ناعمَ الزَّهَرِ [1]

مَمكورةِ الساقِ غَرْثانٌ مُوَشَّحُها
حُسَّانةِ الجيدِ واللبّاتِ والشَّعَرِ [2]

لو دَبَّ ذَرٌّ رُوَيْداً فوق قَرْقَرِها
لأثَّر الذَّرُّ فوق الثوب في البَشَرِ [3]

قالت قُرَيْبَةُ لمّا طال بي سَقَمِي
وأنكَرَتْ بي انتقاصَ السَّمْعِ والبَصَرِ:

يا لَيْتَني أفْتَدِي ما قد تهمُّ بهِ
ببعضِ لحْمي وبعض النقصِ من عُمُري

قد يَعْلَقُ القلبُ حباً ثم يَتركُهُ
خوفَ المَقالِ وخوفَ الكاشحِ الأشِرِ [4]

دَعْ ذِكرَها وتناسَ الحبَّ تَلْقَ بهِ
واصبرْ وكنْ كَصَرِيعٍ قام من سَكَرِ

فقلتُ قولاً مُصيباً غيرَ ذي خَطَلٍ
أتَى به حُبُّها في فِطْنَةِ الفِكَرِ: [5]

---

(١) السيفانة : الطويلة . وفُنُق . ناعمة ، أي ذات نعمة . وجُمٌّ : جمع أجم ، وهو الملآن . يقال : امرأة جمّاء العظام : أي كثيرة اللحم . والمرافق : جمع مِرفق ، وإنما جُمِع مع أنها ليس لها إلا مرفقان ، لأن الاثنين ينزّلان منزلة الجمع .

(٢) ممكورة السّاق : ممتلئة مع دقة العظام . وغرثان موشحها : أي خميصة البطن دقيقة الخصر . وحُسّانة الجيد : حسنة العنق . واللبات جمع لبّة . وهي في الأصل وسط الصدر والمنحر . ويقال : إنها لحسنة اللبات : أي الأعضاء ، كأنهم جعلوا كل جزء منها لبّة .

(٣) الذرّ : صغار النمل . ودبيبه : سَيْره . والقرقر : ثياب المرأة . والبشر : الجلد . يقول لو مشى الذر فوق ثوبها مشياً هيّناً لأثّر في جلدها . وهذا كناية عن ترفها وأنها منعمة .

(٤) الكاشح : المبغض . والأشِر : الكذاب الذي يختلق الأقاويل .

(٥) الخَطَل : الخطأ .

سَمْعِي وَطَرْفي حَلِيفَاها على جَسَدي
فكيف أصبرُ عن سَمْعِي وعن بصَري ؟
لو تابعاني على أنْ لا أكلّمَها
إذن لقضَيْتُ من أوطارِها وَطَرِي [1]
دَلَّ الفؤادَ عليها بعضُ نِسْوَتِها
ونظرةٌ عَرَضتْ كانت من القَدَرِ [2]
وقولُ « بَكرٍ » ألمْ تُلمِمْ لنسألَهم ؟
وأنظرْ فلا بأسَ بالتسليم والنَّظَرِ [3]
لا أنسَ مَوْقِفَنا يوماً ومَوْقِفَها
وتِرْبُها بترابانا على خَطَرِ [4]
وقولَها ودموعُ العينِ تسبِقُها
في نَحْرِها : دَيْنُ هذا القلبِ من عُمَرِ [5]

القصيدة الرابعة عشرة

٢٨ – ينبئنا الشاعر هنا بأن المرض قد عاوده يوم أبدت له « قُرَيبة » الهجر ، لا لذنب جناه ، ولكنْ لأن هناك مَن سعى بالنميمة بينهما على جهة الإفساد .

ولمّا كان لا يستطيع سُلُوّاً أو صَبْراً عن هذه الحرّة الكريمة التي جمعت إلى حُسْن المنطق رجاحةَ العقل وجمالَ الجسم ، فإنه يفزع إلى

(١) الأوطار : جمع وطر ، وهو الحاجة . المعنى : لو أنّ طرفي وسمعي يوافقاني حين أعتزم ألاّ أكلمها لقضيت حاجة نفسي .
(٢) كانت من القدر : أي مما قدّر الله تعالى ولم يكن لي فيها عمل .
(٣) ألم تُلمم : يريد ألا تنزل بحيّها لنسأل عن قومها أيّة سلكوا ؟
(٤) لا أنس : جزم هذا الفعل المضارع من غير أن يسبقه جازم . والترب : اللدة والمساوي في السّنّ . وبترابانا : أراد آثار السير في الطريق . كان من حق هذا المثنّى أن يُجر بالياء ، ولكنه أجراه على لغة من يُلزم المثنّى الألف في جميع الأحوال . (٥) ديوان عمر : ١١٦ .

صاحبه بكر – ابن أبي عتيق – يسأله عما إذا كان ما بلغها قد حصل حقيقة ، أم هو ، كما يعلم الله ، رَجْمٌ بالغيب وقَذْفٌ بالظنون !

ويطلب إليه بكرٌ أن يتمهّلَ ويتريّثَ حتى يتحرّى هو الأمرَ ويتبيّن حقيقته ، فيتوسّلُ إليه عمر أن يبادر إلى ذلك . ويَمضي بكرٌ إليها ، ثم يروح في عقل وحزم ولطف احتيال يعاتبها على هجران مَن بَراه وأنحلَه حبُّها . وإزاء هذا الهجرانِ الذي يُحَمِّلُها وِزْرَه وإثمَه تُقْسِم لبكرٍ أنه لم يكن شيءٌ مما تقوّلَه الواشي عليها ، وأنها لهذا ترى وَصْلَ صديقها الشاعر حتماً ، حتى تزيد أنفَ العُداة بالوصل رَغْماً !

قال عمر :

عاودَ القلبُ يا لَقومي سُقْمَا
يومَ أبدتْ لنا « قُرَيْبَةُ » صَرْمَا[1]

صَرمتْني وما اجْترمْتُ إليها
غير أنّي أرْعَى المودّةَ جُرْمَا[2]

حُرّةٌ من نساءِ عبدِ منافٍ
جمعتْ مَنْطِقاً ، وعقلاً ، وجِسْمَا!

عمُّها خالُها ، وإنْ عُدّ يوماً
كان خالاً لها إذا عُدّ عمّا

صَرمتْني واللهِ في غيرِ ذنبٍ
ربِّ مُوسَى أميرةُ القلب ظُلْمَا

قلتُ لمّا أتانيَ القولُ زُوراً :
ليت شِعري مَن صاغَ ذا ثم نَمّا ؟[3]

---

(١) السقم – بالضم هنا – المرض ، والصَّرْم : الهجر والصدود .

(٢) صرمتني : قطعتني ، واجترمتُ : جنيتُ ، ومفعوله قوله « جرما » وقوله « غير أني أرعى المودة » . استثناء تقدم على المستثنى منه ، وأرعى المودة : أحفظها . وأصل الكلام : وما اجترمت إليها جرما غير أني أرعى مودتها ، وهو من باب توكيد الكلام بما يشبه الضد .

(٣) نمّ : سعى بينهما على جهة الإفساد .

كيف أسلو ؟ وكيف أصبر عنها
يا لَقومي وحُبُّها كان غُرْماً ؟[١]

ليت شِعري يا بكرُ هل كان هذا
أم يراه الإلهُ بالغيب رَجْماً ؟[٢]

قال : مَهلاً ، فلا تظنَّنَّ هذا
عمرَكَ اللهَ ما قتلناه علماً[٣]

قلتُ : إذهبْ ، ولا تَلَبَّثْ لشيءٍ
واستمعْ ، وأعلمِ الذي كان نَمّاً[٤]

فمضى نحوَها بعَقلٍ وحَزْمٍ
واحتيالٍ ونُصْحِ جَيْبٍ ، فلمّا[٥]

جاءها قال : ما الذي كان بَعدي
حدِّثيني فقد تحمَّلْتِ إثماً ؟

أصَرَمْتِ الذي دَعاهُ هَواكِ
وبَرَى لحمَهُ فلم يُبقِ لحماً ؟[٦]

فاستُفِزَّتْ لقوله ، ثم قالتْ
لا ورَبّي يا بكرُ ما كان مِمّا[٧]

---

(١) كان غرما أراد كان ملازماً لي لا يفارقني ولا أستطيع أن أتخلص منه .
(٢) هل كان هذا ؟ : أي هل حصل حقيقة ؟ ورجماً بالغيب : أي قذفاً بالظنون .
(٣) مهلاً : تمهل وانتظر وتريّث في الأمر ، و « ما قتلناه علماً » ، أي لم نتبيّن حقيقته . وعمرَكَ اللهَ : لفظ الجلالة « الله » نُصب هنا على معنى : عَمرتُكَ اللهَ ، أي سألت الله أن يُعمِّرَكَ .
(٤) لا تلبّث : لا تنتظر ، ونمّ : نقل الحديث على وجهة الإفساد بيننا .
(٥) في هذا البيت من عيوب القافية « التضمين » وهو ألاّ يستقل البيت بمعناه ، بل يكون المعنى مجزّأً بين بيتين . وبعبارة أخرى أن يكون البيت الثاني مكملاً للبيت الأول في معناه .
(٦) أصرمتِ : أي أقطعتِ وهجرتِ ؟ و« دعاه هواكِ » قد حُذف منها هنا جملة معطوفة بفاء محذوفة ، وتقدير الكلام : دعاه هواكِ فلبّاه وبَرَى لحمه : أي أنحله وأهزله .
(٧) استُفِزَّتْ - بالبناء للمجهول - فُزعت وطار فؤادها واستخفها الخوف . وفي هذا البيت أيضاً من عيوب القافية « التضمين » .

قيلَ حَرْفٌ ، فلا تُراعِنَّ منهُ
بَـلْ نَرى وصلَه وربّي حَتْما[1]
لَعنَ اللهُ مَن تقـولَ هـذا
وثَنى مَن وَشى بلعـنٍ وَهمّا[2]
لِيَسوءَ الصديـقَ بالصَّرْمِ مِنّا
زِيدَ أنفُ العُداةِ بالوصلِ رَغْما[3]

* * *

مع قيس بن ذَريح :

٣٩ – ذكر القَحْذَمِيُّ وابنُ عائشة وخالد بن جمل أنَّ ابنَ أبي عتيق صار إلى الحسَنِ[4] والحسين[5] ابنَيْ عليّ بن أبي طالب وعبدِ الله بن جعفر وجماعةٍ من قريش فقال لهم : إنَّ لي حاجةً إلى رجل أخشى أن يَرُدَّني فيها ، وإني أستعين بجاهكم وأموالكم فيها عليه .

قالوا : ذلك مُبْتذَلٌ منّا . فاجتمعوا ليومٍ وعَدَهم فيه ، فمضى بهم لزوج « لُبْنَى » . فلما رآهم أعظمَ مَصيرَهم إليه وأكبرَه . فقالوا : لقد جئناك بأجمعنا في حاجـة لابن أبي عتيق . قال : هي مَقْضيّةٌ كائنةً ما كانت .

قال ابنُ أبي عتيق : قد قضيتَها كائنةً ما كانتْ من مِلْكٍ أو مالٍ

(١) « قيل » هو صلة « ما » الموصولة الواقعة في آخر البيت السابق ، و « حرف » هو اسم كان .

(٢) « وثنى مَن وشى بلعن وَهمّا » . المعنى : وكفَّ وصرف من وشى أو هَمَّ بالوشاية .

(٣) الديوان : ص ٢٣٨ . والصرم : الهجر والقطيعة ، وزيد أنف العُداة رغما : كناية عن زيادة ذلهم وهوانهم . وهذا دعاء عليهم بأن يطول ذلهم ويدوم هوانهم .

(٤) الحسن بن علي: ولد سنة ثلاث من الهجرة، وتوفي مسموماً سنة تسع وأربعين . قيل سَمَّتْه زوجته جعدةُ بنتُ الأشعث بإيعاز من معاوية ، وقيل بإيعاز من يزيدَ بن معاوية ، على أن يتزوجها بعد ذلك. ولما سقت الحسن السم وطالبت يزيدَ أن يتزوجها أبى (تاريخ أبي الفداء : ٩٧/٢)

(٥) الحسين بن علي: ولد سنة أربع ، وقتل يوم عاشوراء سنة ٦١ للهجرة . وكان مقتله بكربلاء على يد جيش عبيدالله بن زياد والي يزيد بن معاوية .

أو أهل ؟ قال : نعم . قال : تَهَبُ لهم ولي « لُبْنَى » زوجتَكَ وتطلّقُها . قال : فإني أُشهِدُكم أنها طالقٌ ثلاثاً .

فاستَحْيَا القومُ واعتذروا وقالوا : والله ما عرفنا حاجتَه ، ولو علمنا أنها هذه ما سألناك إياها . وقال ابنُ عائشة : فعوّضه الحسَن من ذلك مائةَ ألفِ درهم ، وحملها ابنُ أبي عتيق إليه ، فلم تزل عنده حتى انقضت عِدّتُها ، فسأل القومُ أباها فزوّجَها قيْساً ، فلم تزل معه حتى ماتا .

قالوا : فقال قيس يمدح ابنَ أبي عتيق :

جَزَى الرحمنُ أفضلَ ما يُجازِي
على الإحسان خيراً من صديقِ

فقد جَرّبْتُ إخواني جميعاً
فما ألفيتُ كابن أبي عتيقِ

سعَى في جَمْع شَمْلي بعد صَدْعٍ
ورَأيٍ حِدْتُ فيه عن الطريقِ

وأطفأ لوعةً كانتْ بقلبي
أغَصّتْني حرارتُها بريقي

قال : فقال ابنُ أبي عتيق : يا حبيبي أمسِكْ عن هذا المديح ، فما يسمعه أحدٌ إلّا ظنّني قوّاداً ...[1]

***

وقد شك الدكتور طه حسين في صحة نسبة هذه الأبيات إلى قيس ابن ذَريح ، وذلك في معرِض حديثه عن خصائص شعر الشعراء العذريين ، فقد قال : « أما أصحابنا هؤلاء — الشعراءُ العذريون — فقد اتخذوا الغزَل

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

غايةً لا وسيلةً . ولم نعرف أنهم مدحوا أو غنّوا بفنٍّ آخرَ من فنون الشعر إلّا ما كان يضطرهم إليه الغزَل .

فنحن نعلم مثلاً أن جميلاً هجا وفاخرَ ، ولكنا نعلم أنه لم يهجُ رغبةً في الهجاء ، ولم يفاخر رغبةً في الفخر ، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجرير ، وإنما هجا لأن غزَلَه اضطره إلى الهجاء ، وفاخر لأن غزله اضطره إلى الفخر . هجا قوماً كانوا يَعيبونه ويهجونه لغزله ونسيبه ، وفاخر هؤلاء القومَ أنفسَهم ، ولو لم يعرِضوا له لما فاخر ولا هجا .

ونحن نعلم أن قيس بن ذَريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر ، وقد أُضيفتْ له أبياتٌ مدَحَ بها ابنَ أبي عتيق ، ولكنا نعلم أن هذه الأبيات مصنوعة من جهة ، وأنها — إن صحت — فلم يقلها قيس إلّا لأن ابن أبي عتيق جدَّ في وصل الحبل بينه وبين لُبْنَى[1] .

***

٣٠ — قال القَحْذَميُّ : قال ابنُ أبي عتيق لقيس بن ذَريح يوماً : أَنْشِدْني أحرَّ ما قلتَ في « لُبْنَى » فأنشده قوله :

وإني لأهوَى النومَ في غير حينِه
لعلَّ لقاءً في المنامِ يكونُ

تُحدِّثُني الأحلامُ أني أراكمُ
فيا ليت أحلامَ المنامِ يقينُ

شهدتُ بأني لم أحُلْ عن مَوَدَّةٍ
وأني بكُم لو تعلمين ضَنينُ[2]

وأنَّ فؤادي لا يلينُ إلى هَوَى
سِواكِ وإن قالوا : بلَى سيلينُ

(١) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٢٢٤–٢٢٥ . (٢) لم أحُلْ : لم أتحوَّل .

فقال له ابنُ أبي عتيق : لَقَلَّ ما رضيتَ به منها يا قيس . قال : ذلك جُهْدُ المُقِلّ[١] .

***

مع كُثيِّر عزَّة :

٣١ – حدَّث إبراهيم بن عبدالله قال : أنشدَ كُثَيِّرٌ ابن أبي عتيق كلمته التي يقول فيها :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ قليلٍ ولا أرْضَى له بقليلِ

فقال له : هذا كلامُ مكافئٍ ليس بعاشق . القرشيان أقنعُ وأصدق منك : ابنُ أبي ربيعة حيث يقول :

ليتَ حَظّي كلَحْظَةِ العَيْنِ منها
وكثيرٌ منها القليلُ المُهنَّا[٢]

وقولـه أيضاً :

فعِدِي نائلاً وإنْ لم تُنيلي إنه يُقنِعُ المحبَّ الرجاءُ

وابنُ قيس الرُّقيَّات حيث يقول :

رُقيَّ بعيشِكِم لا تهجُرينا ومَنّينا المُنَى ثم امْطُلينا
عِدِينا في غدٍ ما شئتِ إنا نُحبُّ وإنْ مَطلتِ الواعدينا
فإمَّا تُنجِزي عِدَتي وإمَّا نعيش بما نُؤمِّلُ منك حِينا

قال : فذكرتُ ذلك لأبي السائب المخزوميّ ومعه ابنُ المولى فقال : صدق واللهِ ابنُ أبي عتيق وفّقه الله . ألاَ قال المدبون كُثيِّر كما قال هذا – ابنُ المَوْلَى – حيث يقول :

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(٢) ضرب ابن أبي ربيعة لحظة العَين مثلا للزمن القصير الذي يتمنّى رؤيتها فيه، ثم ذكر أن هذا القليل كثير منها إذا وقع موقعه . والمهنّا : أصله المهنّأ فسّهلت الهمزة ، وهو كل ما أتاك بغير تعب ولا مشقة .

وأبكي فلا ليلى بكتْ من صَبابةٍ
لباكٍ ولا ليلَى لذي الوُدِّ تَبذُلُ
وأخْنَعُ[1] بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذنِباً
وإنْ أذنبتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ ؟[2]

***

٣٢ – حدَّث الزبير بن بكّار بسندٍ إلى سائبٍ راويةِ كُثَيِّر أنه قال : كان كُثَيِّر مديوناً[3] ، فقال لي يوماً ونحن بالمدينة : اذهب بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدَّث عنده ؛ قال : فذهبتُ إليه معه ، فاستنشده ابنُ أبي عتيق فأنشده قولَه :

أبائنــةٌ سُعْدَى ؟ نعمْ ستبينُ
كما انْبَتَّ من حبل القرين قَرِينُ

حتى بلغ إلى قوله :

وأخْلَفْنَ ميعادي وخُنَّ أمانتي
وليس لِمَن خـانَ الأمانةَ دِينُ

فقال له ابن أبي عتيق : أَعَلَى الأمانة تبِعْتَها ! فانكفَّ واستغضب نفسَه وصاحَ وقال :

كَذَبْنَ صفاءَ الوُدِّ يومَ مَحِلِّه
وأنكدْنَني مَن وَعْدُهنَّ دُيونُ

فقال له ابن أبي عتيق : ويْلَكَ ! هذا أملحُ لهنَّ وأدْعَى للقلوب إليهنَّ . سيِّدُك ابنُ قيس الرقيَّات كان أعلمَ منك وأوْضَعَ للصواب موضِعَه فيهنَّ . أما سمعت قولَه :

---

(١) أخنع بالعتبى : أخضع بالرضا ، أي أطلب رضاها .
(٢) أتنصل من الذنب : أتبرأ منه وأعتذر ، الأغاني : ج ٥ ص ٩٥-٩٦ .
(٣) المديون في لغة تميم : الذي كثر ما عليه من الدين .

حَبَّ ذاكَ الدَّلُّ والغُنُجُ والتي في عينها دَعَجُ[1]
والتي إنْ حَدَّثتْ كَذَبتْ والتي في وَعْدِها خَلَجُ[2]
وتَرَى في البيت صورَتَها مثلما في البِيعَةِ السُّرُجُ[3]
خَبِّروني هل على رَجُلٍ عاشقٍ في قُبْلَةٍ حَرَجُ؟

قال: فسكن كُثَيِّر واستحلى ذلك، وقال: لا! إن شاء الله. فضحك ابن أبي عتيق حتى ذَهِبَ به[4].

***

وأورد صاحب العقد الفريد هذا الخبر بصورة أخرى فقال: حدَّث أبو عبد الله بن محمد بن عرْفَة بواسط قال: حدَّثني أحمد بن محمد بن يحيي عن الزبير بن بكّار عن سليمان بن عيّاشٍ السَّعديّ عن السائبِ، راويةِ كُثَيِّر عَزَّة قال:

قال لي كُثَيِّر عَزَّة يوماً: قُم بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدَّث عنده.

قال: فجئناه فوجدنا عنده ابنَ مُعاذٍ المُغنّي. فلما رأى كُثَيِّراً قال لابن أبي عتيق: ألاَ أُغنّيكَ بشعر كُثَيِّر عَزَّة؟ قال: بلى. فغنّاه:

أبائنةٌ سُعْدَى؟ نعمْ ستبينُ
كما انْبَتَّ من حبْلِ القرينِ قَرينُ
أإنْ زُمَّ أجمالٌ وفارقَ جِيرةٌ
وصاحَ غرابُ البَيْنِ أنتَ حزينُ؟[5]

---

(١) الغُنُجُ: حُسْنُ الدلّ والتكسُّر والتدلّل. وامرأة غَنِجَةٌ: حسنَة الدلّ، والدَّعَج: شدة سواد العين مع سعتها.
(٢) والخَلَج هنا: يعني الفساد وعدم الوفاء بالوعد.
(٣) البيعة: مُتعبَّد النصارى واليهود.
(٤) الأغاني: ج ٥ ص ٩٨-٩٩.
(٥) زُمَّ أجمال: أي شُدَّ عليها أزِمَّتُها ومَقاودها استعداداً للرحيل.

كأنك لم تسمعْ ولم ترَ قبلَها
تَفرُّقَ أُلافٍ لهنَّ حنينُ
فأخلَفْنَ ميعادي وخُنَّ أمانتي
وليس لمَن خان الأمانةَ دِينُ

فالتفت ابن أبي عتيق إلى كُثَيِّر، فقال: أوَ للدَّين[1] صحبتَهن يا ابن أبي جمعة؟ ذلك والله أشبهُ بهنَّ، وأدعَى للقلوب إليهنَّ. وإنما يُوصَفْنَ بالبخل والامتناع، وليس بالوفاء والأمانة. وذو الرقيات أشعر منك حيث يقول:

حبَّذا الإدلالُ والغُنُجُ والتي في طَرفِها دَعَجُ
والتي إن حدَّثتْ كذبتْ والتي في ثغرها فَلَجُ..
خبِّروني هل على رجُلٍ عاشقٍ في قُبْلَةٍ حَرَجُ؟

فقال كُثَيِّر: قُم بنا من عند هذا، ومضَى[2].

***

مع عُروة بن أذَيْنة:

٣٣ ــ حدَّث الزبير بن بكار بإسناد إلى عبدالله بن عمران بن أبي فَرْوَة قال: أخبرني خالد صامَة المغَنِّي وكان من أحسن الناس غناءً على عُودٍ قال:

بعث إليَّ الوليد بن يزيد فقدِمتُ عليه، فوجدت عنده معبداً ومالكاً والهُذَليَّ وعمر الواديَّ وأبا كامل، فغنَّى القوم ونحن في مجلس يا له من مجلس! وغلامٌ للوليد يُقال له سَبْرةُ يَسقِي القوم الطِّلاء، إذ جاءت نوبة الغناء إليَّ، فأخذت عُودي فغنيتُ بأبيات قالها عُروة بن أذَيْنة يَرثي أخاه بكراً:

---

(١) الدَّين هنا: الجزاء والمكافأة. (٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٦٧-٣٦٨.

سَرَى هَمّي وَهَمُّ المرءِ يَسْرِي
وغارَ النجمُ إلّا قِيدَ فِتْرِ[1]

أراقب في المَجَرَّة كلَّ نجمٍ
تعرّضَ في المَجَرَّة كيف يَجري

بحزنٍ ما أزالُ له مُديماً
كأنَّ القلبَ أُسعِرَ حَرَّ جَمْرِ

على بَكْرٍ أخي ولّى حَميداً
وأيُّ العيشِ يحسنُ بعد بكرِ ؟

قال خالد : فقال لي الوليد : أعِدْ يا صامُ فأعَدْتُ . فقال : مَن يقوله وَيْحَكَ ؟ قلتُ : ابنُ أُذَيْنة[2]. قال : هذا واللهِ العيشُ الذي نحن فيه على رغم أنفه ، لقد تحجّر[3] واسعاً .

قال عبد الرحمن بن عبد الله الزُّهريّ عن عبدالله بن عمران بن أبي فَرْوة : وأنشدها ابنُ أُذَيْنة ابنَ أبي عتيق ، فضحك ابن أبي عتيق وقال : كلُّ العيش يَحسُن حتى الخبزُ والزيتُ ! فحلفَ ابنُ أُذَيْنة لا يكلمه أبداً . فمات ابن أبي عتيق وابن أُذَيْنة مُهاجِرٌ له[4] .

* * *

وروى الزبير بن بكّار هذا الخبر عن عمه مُصعَب بصورة أخرى فقال : لقِيَ ابن أبي عتيق عروةَ بنَ أذينة فأنشده قوله :

لا بكرَ لي إذ دعوتُ بَكْراً
ودونَ بكرٍ ثرًى وطينُ

(١) قِيد فِتر : أي قدر فتر .
(٢) توفي ابن أذينة في حدود سنة ١٣٠ هـ (فوات الوفيات : ج ٢/٧٤) .
(٣) تحجّر واسعاً : أي ضيّق واسعاً .
(٤) الأغاني : ج ٧ ص ٦٢ . مهاجر له : أي مقاطع له .

حتى فرغ منها ثم أنشد :

* سَرَى هَمّي وهَمُّ المرء يَسْرِي *

حتى بلغ إلى قوله :

* وأيُّ العيش يصلح بعد بَكْرِ ؟ *

فقال له ابن أبي عتيق : كل العيش والله يصلح بعده ، حتى الخبز والزيت . فغضب عروة من ابن أبي عتيق ، وقام من مجلسه وحلَف لا يكلمه أبداً . فماتا متهاجرين [1] .

***

مع أبي مَعدان :

٣٤ – حدّث الزبيرُ بن بكّار عن محمدِ بن عبد الرحمن الحكَميّ قال : قَدِم الوليدُ بنُ يزيدَ المدينةَ يريد الحجّ ، وهو إذ ذاك وليُّ عهْدٍ ، فدخل عليه الناسُ ، ودخل عليه الشعراءُ ، فدخل فيهم أبو مَعْدَان مُهاجِرٌ مَوْلى آلِ أبي الحكَم ، وكان راويةَ الأحوص .

وقد استعان – أبو مَعْدَان – بعبدالله بنِ معاويةَ بنِ عبد الله بنِ جعفر ابن أبي طالب ، وعمرَ بنِ مصعب بن الزبير ، وابنِ أبي عتيق ، والمنذرِ بنِ أبي عمرو كاتبِ الوليد بن يزيد ، فأنشده النُّصَيْب ، ثم قام أبو معدان فأنشده :

ألم ترَ للنجم إذْ شُيّعَا
يزاول من بُرْجِه المَرْجِعَا ؟ [2]
تحيّر عن قَصْدِ مَجْرَاتِه
أبَى الغَوْرَ والتمسَ المطلَعَا [3]

(١) الأغاني : ج ٢١ ص ٢٥٨ – ٢٥٩ طبعة دار مكتبة الحياة .

(٢) إذْ شُيّعَا : إذْ ترقبوه عند مغيبه .

(٣) أبى الغَوْرَ : امتنع عن الغروب والغياب ، من « غار النجم يغور » إذا غرب وغاب .

سُرِرْتُ بِهِ إِذْ بَدَا كَابِياً
وأمَّا ابنُ شِمْرانَ فاسترجَعَا[1]
لعَلَّ الوليدَ دَنَا مُلْكُهُ
وأمسَى إليه قد استجمَعَا
نُؤمِّل من مُلْكِهِ حَبْرَةً
كتأميل ذي الجَدْبِ أنْ يُمْرِعَا[2]

قال : فأنكره الوليد وقال : مَن أنتَ ؟ قال : أنا أبو مَعْدَان . قال : فمن ابنُ شِمران ؟ قال : أصلحك اللهُ ، جَرَى به الرَّوِيُّ . قال: فأعاد عليه المسألة ، قال : ومَن أبو مَعدان ؟ قال : مَن لا تُنكِرُ ، أصلحك الله ، مُهاجِرٌ مولاك .

فبدأهم[3] عبدُالله بنُ معاوية فقال : هذا أبو مَعدان ، أصلح اللهُ الأميرَ ، وهو أنْبَهُ عِندنا من أن يُجهَل ، وإنا لنتهادَى شعرَه بيننا كما نتهادى باكورةَ الفاكهة ، ورَفَدَه[4] عمرُ بنُ مُصعَبِ بنِ الزبير ، وخَذَلَه[5] ابنُ أبي عتيق والمنذر بن أبي عمرو ، فأمر له الوليد بمئة دينار وكِسْوةٍ ، فأنشأ أبو مَعدان يقول :

لم أجِدْ مُنذِراً تَخَوَّفَ ذَمِّي
يومَ لاقيتُه ولا ابنَ عتيقِ
أجْرَعَاني مَشُوبةً مَذَاقاها
ليس صِرْفُ الشرابِ كالمَمْذُوقِ[6]

---

(١) « كابيا » ، من قولهم : « كبَا لونُ الشمس والصبح » أظلم وصار كأن عليه غَبَرة ، وابن شِمران : اسم رجل متوهَّم .

(٢) الحَبْرة : النعمة التامة ، وسعة العيش ، والسرور ، ومثله «الحبور» .

(٣) بدأهم : يعني تقدمهم وسبقهم . (٤) رَفَدَه : أعانه وظاهره ، والرَّفْد : الإعانة .

(٥) خَذَلَه : ترك نُصرته وإعانته وتأخر عنه ، بمعنى أنهما لم يريا فيه ولا في شعره رأي عبدالله ابن معاوية وعمر بن مصعب بن الزبير .

(٦) أجْرَعه : سقاه الجرعة . والمشوبة : المخلوطة غير الصافية . ومَذَقَ اللبن والخمر وغيرهما: خلطه ومزجه بالماء . ومنه « مذق له المودة » : أي خلطها ولم يُخلصها .

وأراهـا مِن وِجْهَـةِ الريح تأتي
نَفَخَتْ مثلَ نَفْخِ ريحِ الخَرِيقِ[1]
كيف لا تجعـل المواعيدَ حَتْماً
لَـهْفَ نفسي وأنتَ للصِّدِّيقِ ؟
والزبيريُّ قـد أعانَ عليها
ببليـغٍ من الكلامِ وفيـقِ[2]
فإذا أبرقَ الزبيريُّ بَرْقـاً
فابتغِ الخَـيرَ تحتَ تلك البروقِ
فإذا ما أصبتَـه من قريشٍ
هاشِميًّا أصبتَ وجـهَ الطريقِ[3]

***

مع عُروة بن حِزام

٣٥ – حدث الزبير بن بكار بسند إلى عبدالملك بن عبدالعزيز بن الماجَشون عن أبي السائب قال : أخبرني ابن أبي عتيق قال : والله إني لأسير في أرض عُذرة إذا بامرأة تحمل غلاماً جَزْلاً[4] ليس يُحمَل مثلُه فعجبتُ لذلك حتى أقبلتْ به فإذا له لحية ! فدعوتُها فجاءت فقلتُ لهـا : وَيْحَكِ ! ما هذا ؟ فقالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ فقلت : نعم .

قالت : هـذا والله عُروة . فقلت له : أنت عروة ؟ فكلمني وعيناه تذرفان وتدوران في رأسه وقال : نعم أنا والله القائل :

(١) ريح الخريق : ريح شديدة الهبوب ، تخرق المواضع وتتخللها .

(٢) الوفيق من الرجال : الرفيق منهم . ووصف به « الكلام » هنا : أي هو كلام بليغ رفيق .

(٣) انظر في هذا الخبر « جمهرة نسب قريش وأخبارها » للزبير بن بكار : ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٤) جاء في اللسان مكان كلمة « الجزل » كلمة « الخدل » ، فقد ذكر صاحب لسان العرب في مادة « خَدَل » قوله : الخَدْل العظيم الممتلىء ، ومنه قول ابن أبي عتيق رواه ثعلب قال : « والله إني لأسير في أرض عذرة إذا أنا بامرأة تحمل غلاماً خَدْلاً ليس مثله يُتورَّك » لسان العرب : ج ١١/٢٠١ .

جعلتُ لعرّاف اليمامــة حُكمَهُ
وعرّافِ حِجْرٍ إنْ هما شَفَياني

فقالا : نعم نَشفي من الداء كلّه
وقامــا مــع العُوّاد يَبتدرانِ

فعفراءُ أحظى الناس عندي مَوَدّةً
وعفراءُ عنّي المُعرِضُ المتــواني

قال : وذهبت المرأة فما برِحتُ من الماء حتى سمعتُ الصيحة ، فسألت عنها فقيل : مات عُروة[1] بن حزام .

قال عبد الملك : فقلت لأبي السائب : ومن أي شيء مــات ؟ أظنه شَرِق . فقال سَخُنَتْ[2] عينُك بأيّ شيء شرِق؟ قلت : بريقه — وأنا أريد العبث بأبي السائب — أفترى أحداً يموت من الحب ؟ قال : والله لا تُفلِح أبداً . نعم يموت خوفاً أن يتوب الله عليه[3] .

***

مع العَرجيّ :

٣٦ — جاء في الأغاني أنّ ابنَ جُندَبٍ الهُذَليَّ أنشد ابنَ أبي عتيق قول العَرْجِيِّ[4] :

وما أنسَ مِ الأشياء لا أنسَ قولَها
لخادمها قُومِي اسألي لي عن الوِتْرِ[5]

---

(١) مات عروة في حدود الثلاثين للهجرة في خلافة عثمان . انظر فوات الوفيات : ج ٢ ص ٧٠

(٢) سُخنة العين : نقيض قُرّتها ، وعلى هذا سَخُنَت عينُه : نقيض قرّتْ عينُه ، وأسخن اللهُ عينَه أي أبكاه . (٣) الأغاني : ج ٢٠ ص ٣٧٥/١ طبعة دار الحياة .

(٤) هو الشاعر عبدُالله بنُ عمرَ بنِ عمرو بن عثمان بن عفان . كان من شعراء قريش ، وممّن شُهِر بالغزل منها . ونحا نحوَ عمرَ بن أبي ربيعة في ذلك ، وتشبّه به فأجاد . وكان مشغوفاً باللهو والصيد حريصاً عليهما . وقيل : إنما لُقّب العرجيَّ ، لأنه كان يسكن عَرْجَ الطائف فنُسِب إليه . (٥) الوِتْر هنا : يوم عَرَفة .

فقالت : يقول الناسُ في ستٍّ عَشْرَةٍ

فلا تَعجلي عنه فإنكِ في أجْرِ[1]

فما ليلةٌ عندي وإنْ قيل جُمْعةٌ

ولا ليلةُ الأضحَى ولا ليلةُ الفِطْرِ

بعادلةِ الإثنين عنـدي وبِالحَرَى

يكون سواءً مثلهـــا ليلةُ القَدْرِ[2]

فقال ابنُ أبي عتيق : أُشهِدُكُم أنها — الخادمَ — حُرَّةٌ من مالي إنْ أجاز ذلك أهلُها ! هذه واللهِ أفْقَهُ من ابن شهاب[3] .

* * *

مع نُصَيب بن رباح :

٣٧ — قال محمد بن كُناسَة : أنشد نُصَيْب قولَه :

وكِدتُ ولم أُخلَق من الطير إنْ بَدَا

لها بارقٌ نحوَ الحجاز أطــيرُ

فسمعه ابن أبي عتيق ، فقال : يا ابنَ أمٍّ قُـلْ : غَاقِ فإنك تطير ! يعني أنه غرابٌ أسودُ[4] .

* * *

وحدَّث أحمد بن محمد الأسَدِيّ أسَدِ قريش قال : قال ابن أبي عتيق لِنُصَيْب : إني خارج . أفترسلُ إلى سُعْدَى بشيء ؟ قال : نعم ، بَيتَيْ شعر . قال : قُلْ ، فقال :

---

(١) لا تعجلي عنه : أي لا تستبقي يوم عرفة وترقبي سرعة حلوله .

(٢) وبالحَرَى يكون كذا أو كذا : أي جدير وخليق أن يكون .

(٣) ابن شهاب : هو محمد بن مسلم بن شهاب الزُهري أحد فقهاء المدينة ، توفي سنة ١٢٤ هـ . الأغاني : ج ١ ص ٣٩٩ ، وانظر كذلك زهر الآداب : ص ٥٦٥ .

(٤) الأغاني : ج ١ ص ٣٦٤ .

أتصبر عن سُعْدَى وأنت صبورُ

وأنت بحُسْنِ الصبر منك جديرُ؟

وكدتُ ولم أخلَقْ من الطيرانْ بدَا

سَنَى بارقٍ نحوَ الحجاز أطيرُ

قال: فأنشد ابن أبي عتيق سُعْدَى البيتين، فتنفَّستْ تنفُّسَةً شديدةً. فقال ابن أبي عتيق: أوّهْ! أجبْتِه واللهِ بأجودَ من شعره. ولو سمعكِ خليلُكِ لنَعَق وطار إليك[1]!

* * *

مع ابن قيس الرقيات:

٣٨ – مدح عبيدُالله بنُ قيس الرُّقيّات عبدَالله بن جعفر بقصيدة منها:

تَقَدَّتْ بِيَ الشهباءُ نحوَ ابنِ جعفرٍ

سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها[2]

تزورُ امْرأً قد يعلمُ اللهُ أنه

تجود له كفٌّ بطيءٌ غِرارُها[3]

وواللهِ لولا أن تزورَ ابنَ جعفرٍ

لكان قليلاً في دِمشقَ قرارُها

وأخبر الحسين بن يحيي قال: قال حمّاد: قرأت على أبي: أوَ بلغك أنّ ابنَ أبي عتيق أنشِد قولَ ابنِ قيس:

* سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها *

فقال: كانت هذه يا ابنَ أمٍّ فيما أرى عمياءَ!

---

(١) الأغاني: ج ١ ص ٣٦٤.

(٢) تقدّتْ: أي سارتْ سيراً ليس بعَجِلٍ ولا مُبطيء، فيقال: تقدّى فلانٌ إذا سار سير مَن لا يخاف فوْتَ مقصدِه فلم يعجَل.

(٣) بطيءٌ غِرارُها: يعني أن منعها المعروفَ بطيءٌ. وأصل الغِرار: أن تمنع الناقة دِرَّتها، ثم يستعار في كل ما أشبه ذلك.

وأورد هشام بن سليمان المخزوميّ هذا الخبر بصورة أخرى فقال :

قال ابنُ أبي عتيق لعُبيدالله بن قيس وقد مرَّ به فسلَّمَ عليه ، فقال : وعليكَ السلام يا فارسَ العمياء ! فقال له : ما هذا الاسمُ الحادثُ يا أبا محمد؟ بأبي أنت ! قال : أنت سمَّيْتَ نفسَكَ حيث تقول :

* سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها *

فما يستوي الليلُ والنهارُ إلّا على عمياءَ ! قال : إنما عَنَيْتُ التعبَ . قال ابن أبي عتيق : فبيتُكَ هذا يحتاج إلى تَرْجُمانٍ يُترجِمُ عنه ! [1] .

* * *

مع الحزين الكنانيّ :

٣٩ – وحدَّث الزبير بن بكّار عن أبي بكرٍ المؤمّليّ عن عبد الله ابن عُبَيدة قال : كان الحزينُ الكنانيُّ – الشاعرُ – قد ضرب على كل رجل من قريش درهمين في كل شهر ، منهم ابنُ أبي عتيق . فجاءه لأخذ درهميه على حمارٍ أعجف [2] قال : وكُثَيِّر مع ابن أبي عتيق .

فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين . فقال الحزينُ لابن أبي عتيق : مَن هذا معك ؟ قال : هذا أبو صخرٍ كُثَيِّر بنُ أبي جمعة – قال : وكان قصيراً دميماً .

فقال له الحزين : أتأذن لي أن أهجوَهُ ببيتٍ من شعر ؟ قال : لا ! لَعَمْري لا آذنُ لك أن تهجوَ جليسي ، ولكني أشتري عِرضَه منك بدرهمين آخرَيْن ودعا له بهما .

فأخذهما ثم قال : لا بُدَّ من هجائه ببيتٍ . قال : أوَ أشتري ذلك منك بدرهمين آخرَين ؟ ودعا له بهما . فأخذهما ثم قال : ما أنا بتاركه حتى أهجوَه .

---

(١) الأغاني : ج ٥ ص ٨٦–٨٩ . (٢) أعجف : هزيل ضعيف .

قال : أوَ أشتري ذلك منك بدرهمين ؟ فقال كُثَيِّر : إيذَنْ له . ما عسى أن يقول في بيت ؟ فأذن له ابن أبي عتيق . فقال :

قصيرُ القميصِ فاحِشٌ عندَ بيتِهِ
يَعَضُّ القُرادُ بِاسْتِهِ وهْوَ قائمُ[1]

قال : فوثب كُثَيِّر اليه فلكزه[2] فسقط هو والحمار ، وخلَص ابنُ أبي عتيق بينهما ، وقال لكُثَيِّر : قبّحك الله ! أتأذنُ له وتَسْفَهُ[3] عليه ؟ فقال كُثَيِّر : أوَ أنا ظننتُه أن يبلغَ بي هذا كلّه في بيت واحد؟[4].

***

مع الأحوص :

٤٠ - حدّث الزُّبير بن بكّار عن محمد بن يحيي عن أيوب بن عمر عن أبيه قال : لمّا جاء ابنُ حزْم[5] عمَلَه من قِبَلِ سليمانَ بنِ عبدالملك على المدينة والحج ، جاءه ابن أبي جَهْم بن حُذَيْفة ، وحُمَيْدُ بنُ عبدالرحمن ابن عَوْف وسُراقةُ ، فدخلوا عليه فقالوا له : إيه يا ابنَ حزم ! ما الذي جاء بك ؟

قال : استعملني واللهِ أميرُ المؤمنين على المدينة على رَغْمِ من رَغِمَ أنفُه. فقال له ابنُ أبي جَهْم : يا ابنَ حزم ، فإني أوّلُ مَن يَرْغَمِ من ذلك أنفُه.

(١) فاحش : قبيح ، والقُراد : جمع قُرادَة ، ما يتعلق بالبعير ونحوه ، وهو كالقمل للإنسان .
(٢) لكزه : ضربه بجُمْع كفّه ، أي بكف مقبوضة في صدره .
(٣) تَسْفَهُ عليه : أي تجهل عليه . (٤) الأغاني : ج ٩ ص ١٠ - ١١ .
(٥) ابن حزم : هو أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري القاضي، استعمله سليمان بن عبدالملك على المدينة والحج سنة ٩٦ (الكامل لابن الأثير : ج ٤ ص ١٤٣) ، وقيل : إن عمر بن عبدالعزيز استعمله أيضاً على المدينة والقضاء وموسم الحج . واختُلِف في سنة وفاته من سنة ١٠٠ الى ١١٦، ١١٧ . وقال فيه الأحوص أيضاً :

جعل ابنُ حزمٍ حاجبين إبابِهِ
سبحانَ مَن جعل ابن حزمٍ يُحجَبُ
وعجبتُ أنْ ركِبَ ابنُ حزمٍ بغلةً
وركوبُه فوق المنابر أعجبُ

« رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ٢٩٣ » .

قال : فقال ابنُ حزم : صادقٌ ، والله يحب الصادقين . فقال الأَحْوَص :

سليمانُ إذْ وَلاكَ رَبُّكَ حُكْمَنا
وسلطانَنا فاحكُمْ إذا قلتَ وأعْدِلِ

يَؤُمُّ حجيجَ المسلمين ابنُ فَرْتَنَى
فهبْ ذاك حَجًّا ليس بالمُتَقَبَّلِ[1]

فقال ابنُ أبي عتيق للأحوص : الحمد لله يا أحوص ، إذْ لم أَحُجَّ ذلك العام بنعمة ربي وشكره . قال : الحمد لله الذي صرف ذلك عنك يا ابن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فلم يُضْلِلْ دِينك ، ولم تُعَنِّ[2] نفسك ، وتَرَ ما يَغيظك ويَغيظ المسلمين معك[3] .

(١) فَرْتَنَى : المرأة الفاجرة والأَمَةُ .
(٢) لم تُعَنِّ نفسك : لم تكلفها ما يشُقّ عليها .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص ٢٣٤-٢٣٥ .

القِسم الثاني

أخبارهُ مع أهل الغناء

مع ابن عائشة :

٤١ – حدَّث أيوبُ بنُ عَبَايةَ قال : اجتمع ابنُ عائشة ويُونُس ومالكٌ عند حسن بن حسن بن عليّ – عليهم السلام – فقال الحسنُ لابن عائشة : غَنِّني « مَن رسولي إلى الثريّا ... » ، فسكت عنه فلم يُجِبْه .

فقال له جليس له : أيقول لك غَنِّني فلا تجيبه ؟ فسكت . فقال له الحسنُ : مالك ؟ وَيْحَكَ ! أبِكَ خَبال ؟ كان والله ابنُ أبي عتيق أجودَ منك بما كان عنده ، فإنه لمّا سمع هذا الشعر قال لابن أبي ربيعة : أنا رسولُك إليها ، فمضى نحو « الثريّا » حتى أدّى الرسالة ، وأنت معنا في المجلس تبخل أن تغنّيَه لنا ؟ .

فقال ابن عائشة له : لم أذهب حيث ظننتَ ، إنما كنت أتخيّر لك أيّ الصوتين أغنّي : أقولُه :

مَن رسولي إلى « الثريّا » فإني ضافني الهمُّ واعترتني الهمومُ ؟
يعلم اللهُ أنني مستهامٌ بهواكم وأنني مرحومُ

أم قوله :

مَن رسولي إلى « الثريّا » فإني ضِقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ ؟

فقال له الحسنُ : أسأنا بكَ الظنَّ أبا جعفر ! غَنّ بهما جميعاً ، فغنّاهما ، فقال له الحسنُ : لولا أنك تغضب إذا قلنا لك : أحسنتَ لقلتُ لكَ :

أحسنتَ واللهِ ! قال : ولم يزل يُرَدِّدُهما بقيةَ يومه [1] .

***

٤٢ – حدّث مُصعَبٌ الزبيريُّ عن أبيه قال : رأى ابنُ أبي عتيق حَلْقَ ابنِ عائشةَ – المُغنّي – مخدّشاً فقال : مَن فعل هذا بك ؟ قال : فلان .

فمضى ابن أبي عتيق فنزع ثيابَه وجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتَلْبيبِه [2] وجعل يضربُه ضرباً شديداً والرجلُ يقول : مالكَ تضربني ؟ أيَّ شيءٍ صنعتُ ؟ وهو لا يُجيبه حتى بلغ منه ، ثم خلّاه وأقبل على مَن حضر فقال : هذا أراد أن يَكسِر مزاميرَ داود : شدّ على ابن عائشة فخنقه وخدّش حَلْقَه ! [3] .

***

مع عزّة المَيْلاء :

٤٣ – روى أبو الفرج الأصبهانيُّ قال : أخبرني الحسين بن يحيي عن حمّادٍ عن أبيه قال حُدِّثتُ عن صالح بن حسّان قال :

كان ابنُ أبي عتيق معجباً بغناء « عزّةَ الميلاء » ، كثيرَ الزيارة لها ، وكان يختار عليها قولَ خُزَزَ بنِ لَوْذان :

لِمَنِ الديارُ عرفتُها بالشُّرْبُبِ ؟
ذهب الذين بها ولمّا تَذهبِ [4]

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) التلبيب من الإنسان ما في موضع اللب من ثيابه . واللَّبُّ موضع القلادة من الصدر . يقال أخذ فلان بتلابيب فلان إذا جمع عليه ثوبه الذي هو لابسه عند صدره وقبض عليه يجره .

(٣) الأغاني : ج٢ص٢٠٤ – ٢٠٥ . توفي ابن عائشة في خلافة الوليد بن يزيد (١٢٥ – ١٢٦هـ). انظر في ذلك المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) الشُّرْبُب : وادٍ في ديار بني ربيعة ، والبيت لِخُزَزَ بنِ لوذان ، شاعر قديم جاهلي ، وهو من أبيات قالها لامرأته حين أنكرت عليه إيثار فرسه باللبن . انظر في ذلك كتاب الحيوان للجاحظ : ج ٤ ص ٣٦٣ .

فسألها ذات يوم زيارته فأجابته إلى ذلك ومضت نحوه ، فقال لها بعد أن استقرّ بها المجلس : ياعزّةُ ، أحبُّ أنْ تُغنّيني صوتي الذي أنا له عاشق . فغنّته هذا الصوت فطرب كلّ الطرب وسُرّ غاية السرور .

وكان له جارية ، وكان فتى من أهل المدينة كثيراً ما يعبث بها ، فأعلمت ابن أبي عتيق بذلك ، فقال لها : قولي له : وأنا أحبُّك . فإذا قال لك : وكيف لي بك ؟ فقولي له : مولاي يخرج غداً إلى مالٍ له ، فإذا خرج أدخلتُك المنزل .

وجمع ابن أبي عتيق ناساً من أصحابه فأجلسهم في بيته ومعهم «عزّةُ الميلاء» وأدخلت الجاريةُ الرجل . وقال ابن أبي عتيق لعزّة : غنّي فأعادت الصوت . وخرجت الجارية فمكثتْ ساعة ثم دخلت البيت كأنها تطلب حاجة ، فقال لها الرجلُ : تعالِ . فقالت : الآن آتيك . ثم دعاها فاعتلّتْ ، فوثب فأخذها فضرب بها الحَجَلة[1] ، فوثب ابن أبي عتيق عليه هو وأصحابه ، فقال لهم وهو غير مكترث : يا فُسّاقُ ما يُجلسكم هاهنا مع هذه المغنية ؟

فضحك ابنُ أبي عتيق وقال له : استرْ علينا ستر اللهُ تعالى عليك ! فقالت له عزّةُ : يا ابن الصدّيق[2] ، ما أظرف هذا لولا فِسْقُه ! فاستحيا الرجل فخرج !

***

وبلغ الرجلَ أنّ ابن أبي عتيق قد آلى[3] إن هو وقع في يده أن يصير به إلى السلطان ، فأقبل يعبثَ بالجارية كلما خرجت ، فشكتْ ذلك إلى مولاها ، فقال لها : أوَ لم يَرتدِع من العبث بك ؟ قالت : لا .

---

(١) الحجلة بالتحريك : بيت كالقبة يُستر بالثياب ويكون له أزرار كبار ، وحَجَلةُ العروس : بيت يزيّن بالثياب والأسرّة والستور .

(٢) تريد ابن أبي عتيق ، وهو عبدالله بن أبي عتيق محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر .

(٣) آلى : حلف .

قال : فَهَيِّئي الرَّحَى وهَيِّئي من الطعام طحينَ ليلةٍ إلى الغـــداة . فقالت أفعلُ يا مولاي . فهيأت ذلك على ما أمرها به !

ثم قال لها : عِديه الليلة فإذا جاء فقولي له : إنَّ وظيفتي الليـــلةَ طَحْنُ هذا الـبُرّ كلّه ثم آخرجي من البيت وآتركيه ، ففعلتْ .

فلما دخل طحنت الجارية قليلاً ، ثم قالت له : إنْ كَـفَّـتِ الرَّحَى فإن مولايَ جاءِ إليَّ أو بعضَ مَن وَكّـله بي ، فاطحنْ حتى نأمنَ أن يجيئنا أحدٌ ، ثم أصيرَ إلى قضاء حاجتك ...

ففعل الفتى ومضت الجارية إلى مولاها وتركته . وقد أمر آبنُ أبي عتيق عِدّةً من مَوْلَيَاتِه أنْ يتراوَحْنَ[1] على سَهرِ ليلتهِنّ ويتفقّدْنَ أمرَ الطحين ، ويحْثُثْنَ الفتى عليه كلما أمسك ففعلن ، وجعلْنَ ينادينه كلما كفَّ : يا فلانةُ إنّ مولاكِ مستيقظ ، والساعةَ يعلم أنكِ كففتِ عن الطحن ، فيقومُ اليك بالعصا ، كعادته مع مَن كانت نَوْبَتُها قَـبْلَك إذا هي نامت وكفّت عن الطحن .

فلم يزل الفتى كلما سمع ذلك الكلامَ يجتهد في العمل والجاريةُ تتعهد وتقول : قـد استيقظ مولاي ، والساعةَ ينام فأصيرُ إلى ما تُحب . فلم يزل الرجل يطحن حتى أصبح وفرَغ من جميع القمح !

فلما فرغ وعلمت الجارية أتتْه فقالت : قد أصبحتَ فانجُ بنفسك . قال : أوَ قد فعلتِها يا عدوةَ الله ؟ فخرج تَعِباً نَصِباً فأعقبه ذلك مرضاً شديداً أشرف منه على الموت ، وعاهـد الله تعالى ألّا يعودَ إلى كلامها ، فلم تَرَ منه بعد ذلك شيئاً يُنكَر[2] .

***

٤٤ ـ قال إسحاق : وذُكِر لي عن صالح بن حسّان الأنصاري قال : كانت عزة ـ الميلاء ـ مولاةً لنا ، وكانت عفيفةً جميلة . وكان عبد الله

---

(١) يتراوحن : يتناوبن . (٢) الأغاني : ج ١٢ ص ١٥٦–١٥٨ .

ابن جعفر ، وأبن أبي عتيق ، وعمرُ بنُ أبي ربيعة يغشَوْنَها في منزلها فتُغنّيهم.

وغنّتْ يوماً عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره ، فشقّ ثيابَه ، وصاح صيحةً عظيمة صُعِقَ معها . فلما أفاق قال له القوم : لِغيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب ! قال : إني سمعت والله ما لم أملِكْ معه نفسي ولا عقلي[1] .

***

٤٥ – قال إسحاق : وحدثني أبنُ سلّام عن أبن جَعْدُبَة قال : كان أبنُ أبي عتيق مُعجَباً بعزّة الميلاء ، فأتى يوماً عند عبدَ الله بنَ جعفر ، فقال له : بأبي أنت وأمي ! هل لك في عزّة ، فقد اشتقتُ اليها ! قال: لا ، أنا اليوم مشغول . فقال : بأبي أنت وأمي ! إنها لا تنشط إلا بحضورك ، فأقسمتُ عليك إلّا ساعَدْتَني وتركتَ شغلك ، ففعل ، فأتياها ورسولُ الأمير على بابها يقول لها : دَعِي الغناء فقد ضجّ أهلُ المدينة منك . وذكروا أنك قد فتنتِ رجالَهم ونساءهم .

فقال له أبنُ جعفر : ارجعْ إلى صاحبك فقل له عَنّي : أقسم عليك إلّا ناديتَ في المدينة : أيّما رجلٍ فسَدَ أو أمرأةٍ فُتِنتْ بسبب عزّةَ إلّا كشف نفسَه بذلك لنعرفَه ، ويظهرَ لنا ولكَ أمرُه .

فنادى الرسول بذلك ، فما أظهر أحدٌ نفسَه . ودخل أبنُ جعفر اليها وأبنُ أبي عتيق معه ، فقال لها : لا يَهولَنّكِ ما سمعتِ ، وهاتي فغنّينا فغنّتْه بشعر القُطاميّ :

إنا مُحيُّوكَ فاسلمْ أيُّها الطلَلُ
وإنْ بَلِيتَ وإن طالت بك الطِّيَلُ[2]

---

(١) الأغاني : ج ١٧ ص ١٦٤ .

(٢) الطِّيَلُ : جمع طِيلة ، وهي العُمْر . وقوله : وإن طالت بك الطِّيَلُ : أي وإن امتدّ بك الزمن .

فاهتزّ ابنُ أبي عتيق طرَباً ، فقال عبدُالله بنُ جعفر : ما أراني أدرك ركابَك بعدَ أن سمعتَ هذا الصوتَ من عَزّة ...[1] .

***

مع ابن سُرَيج :

٤٦ – روى إسحاق عن ابن الكلبيّ عن أبيه قال : كان ابن أبي عتيق خرج إلى مكة ، فجاء معه بابنُ سُرَيْج إلى المدينة ، فأسمعوه غِناءَ معبد ، وهو غلام ، وذلك في أيام مسلم[2] بن عقبة المريّ ، وقالوا : ما تقول فيه ؟ فقال : إنْ عاش كان مغنّيَ بلاده[3] .

***

وروى صالح بن حسان هذا الخبر بصورة أخرى فقال : قدم ابن أبي عتيق إلى مكة فسمع غناء ابن سُرَيْج[4] :

فلم أرَ كالتجمير منظرَ ناظرٍ
ولا كليالي الحجّ يَفتِنَّ ذا هَوى[5]

فقال : ما سمعت كاليوم قطُّ ، وما كنت أحسب أن مثل هذا بمكة ، وأمر له بمالٍ وحَدَرَه معه إلى المدينة ، وقال : لأصغّرَنّ إلى معبد نفسَه ، ولأهدِيَنَّ إلى المدينة شيئاً لم ير أهلُها مثلَه حُسْناً وظرفاً وطيبَ مجلس ودماثةَ خُلُق ورِقّةَ منظر ومِقةً[6] عند كل أحد .

---

(١) الأغاني : ج ١٧ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٢) مسلم بن عقبة المريّ : من رجال يزيد بن معاوية ، جاء وهو شيخ كبير ضعيف إلى المدينة على رأس جيش كبير سنة ٦٣ عندما أخرج أهلُها عاملَ يزيد عليها وحاصروا الأمويين في دار مروان بن الحكم ، ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة شخص بمن معه إلى مكة يريد ابن الزبير ولكنه مات في الطريق في آخر المحرم من سنة ٦٤ . ومعنى هذا أن قدوم ابن سريج مع ابن أبي عتيق إلى المدينة كان سنة ٦٣ للهجرة . انظر الطبري : ج ٥ ص ٤٨٣ ، ٤٩٦ .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٣٩ .

(٤) كانت وفاة ابن سريج في خلافة هشام بن عبد الملك ، أي في المدة من سنة ١٠٥ – ١٢٥ للهجرة .

(٥) التجمير : رمي الجمرات في مِنىً ، من مناسك الحج .   (٦) والمقة : المحبة .

فقدم به المدينة وجمع بينه وبين معبد . فقال لابن سُرَيج : ما تقول فيه ؟ قال : إنْ عاش كان مغنّيَ بلاده[1] .

* * *

٤٧ – قال حماد : وقرأت على أبي عن هشام بن المُرّيّة قال : كان ابن أبي عتيق يسوق في كل عام عن ابن سُرَيْج بَدَنَةً[2] ، وينحرُها عنه ، ويقول : هذا أقلُّ حقّه علينا[3] .

* * *

مع سلاّمة القسّ :

٤٨ – جاء في الأغاني والعقد الفريد أن عثمانَ بنَ حيان المُرّي[4] لما قَدِمَ المدينة والياً عليها اجتمع إليه الأشرافُ من قريش والأنصار فقالوا له : إنك قد وَلِيتَ على كثرةٍ من الفساد ، فإن كنت تريد أن تُصلح فطهِّرْها – المدينة – من الغناء والرثاء ، فصاح في ذلك وأجّلَ أهلَها ثلاثاً يَخرجون فيها من المدينة .

وكان ابنُ أبي عتيق غائباً ، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح . فلما كان آخرُ ليلة من الأجَل قَدِمَ فقال : لا أدخل منزلي حتى أدخلَ على سلّامةَ القَسّ . فدخل عليها فقال : ما دخلتُ منزلي حتى جئتُكم أسلّم عليكم .

قالوا : ما أغفلَكَ عن أمرنا ؟ أو ما تدري ما حدث بعدك ؟ وأخبروه الخبر . فقال : أصبروا عليَّ الليلةَ . فقالوا : نخاف ألّا يمكنَك

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٦٨ .

(٢) البدنة : الناقة السمينة التي تُساق للنحر والذبح ، وهي من الإبل ما يُهدَى إلى الكعبة في موسم الحج للتصدق بلحمها لإطعام فقراء بيت الله الحرام . وهذا من شعائر الله .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٢٧٦ .

(٤) قدم عثمان بن حيّان المرّي المدينة والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من شوال سنة ٩٤ للهجرة . انظر في ذلك تاريخ الطبري : ج ٦ ص ٤٨٥ .

شيءٌ ونُنْكَظَ[1] . قال : إن خفتم شيئاً فاخرجوا في السَّحَر .

ثم خرج فاستأذن على عثمانَ بن حيّان فأذِن له فسلَّم عليه وذكر له غَيْبَتَه وأنــه جاءه ليقضيَ حقَّه ، وقال له : إن أفضلَ ما عمِلتَ تحريمُ الغناء والزِّناء .

فقال عثمانُ بنُ حيّان : إنَّ أهلكَ أشاروا عليَّ بذلك . فقال : إنهم وُفِّقوا وَوُفِّقْتَ . ولكنْ ما تقول — أمتعَ اللهُ بك — في امرأة كان الغناءُ صناعتَها ، وكانت تُكرَهُ على ذلك ، ثم تابتْ وتركتْه وأقبلتْ على الصلاة والصوم والخير ، وإني رسولُها إليك ، تقول : أتوجَّه إليك وأعوذ بك ألَّا تُخرجَني من جوار رسول الله ﷺ ومسجدِه ؟

قال : فإني أدَعُها لك ولكلامك ، فقال ابنُ أبي عتيق : لا يَدَعُك الناسُ ، ولكنْ تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها ، فإنْ رأيتَ أنَّ مثلَها ينبغي أنْ يُترَكَ تركتَها . قال : نعم .

فجاءه ابنُ أبي عتيق بها وقال لها : اجعلي معك سُبْحَةً وتَخَشَّعِي[2] ففعلت . فلما دخلت على عثمان سلمت عليه وجلست وحدثته ، وإذا هيَ من أعلم الناس بالناس فأعجب بها ، وحدَّثتْه عن آبائه وأمورهم فَفَكِهَ[3] لذلك .

فقال ابن أبي عتيق : أريد أن أُسمِع الأميرَ قراءتها ، ثم قال لها : اقرئي للأمير فقرأت له ، فقال لها : احْدِي له ففعلت ، فكثر تعجبه ، فقال : فكيف لو سمعتَها في صناعتها ! فلم يَزَلْ يُنزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء .

فقال لها ابن أبي عتيق : غَنِّي ، فغنَّتْ :

سَدَدْنَ خَصاصَ الخَيْمِ لمَّا دَخَلْنَهُ بكلِّ لَبانٍ واضحٍ وجَبينِ[4]

---

(١) يقال أنكَظه إذا أعجَله عن حاجته .

(٢) تخشَّع : رَمَى ببصره نحو الأرض وغَضَّه وخفضَ صوتَه . وتخشَّع أيضاً : بمعنى تضرَّع .

(٣) فَكِهَ لذلك : طابتْ نفسُه .

(٤) الخَصاص : خروق واسعة في الخَيْم ، الواحدة خَصاصة ، وهو يصف نساءً تطلَّعن منها. والخَيْم : أعواد تُنصب في القيظ ، وتُجعَل لها عوارض وتظلل بالشجر فتكون أبردَ من الأخبية . واللَّبَانُ : الصدر .

فقام عثمان من مجلسه ، فقعد بين يديها ، ثم قال : لا والله ما مثلُ هذه تخرج عن المدينة ! فقال له ابن أبي عتيق : لا يَدَعُكَ الناس ، يقولون : أَذِن لسلَامةَ في المُقام وأخرج غيرها ! فقال عثمان : قد أذِنتُ لهم جميعاً [1] .

***

مع الغريض :

٤٩ - حدّث بعض المدنيين قال : خرج ابن أبي عتيق على نَجيب [2] له من المدينة قد أوْقَرَه [3] من طُرَف المدينة المشاربَ [4] وغيرَ ذلك ، فلَقِيَ فتىً من بني مخزوم مُقبِلاً من بعض ضِياعه ، فقال : يا ابن أخي ، أتَصْحَبُني ؟ قال : نعمْ .

قال المخزوميُّ : فمضينا حتى إذا قرُبْنا من مكة جَنَبْنا عنها حتى جُزْناها فصرنا إلى قصرٍ ، فاستأذن ابن أبي عتيق فأذِنَ له ، فدخلنا فإذا رجلٌ جالس كأنه عجوزٌ بَرْبَرِيّةٌ مُختَضِبَةٌ ، لا أشك في ذلك ، وإذا هو الغَرِيض وقد كَبِر !

فقال له ابن أبي عتيق : تشوّقْنا اليك ، وأهْدَى له ما كان معه ، ثم قال له : نُحِبُ أن نسمع ؛ قال : أدْعُ فُلانةَ - جاريةٌ له - فجاءت فغنّتْ ، فقال : ما صنعتِ شيئاً ! ثم حلَّ خِضابَه وغنّى :

عُوجِي علينا رَبّةَ الهَوْدَجِ
إنّكِ إلّا تفعلي تَحْرَجِي [5]

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٣٤١-٣٤٢ ، والعقد الفريد : ج ٦ ص ٤٩ - ٥٠ ، ونهاية الأرب للنويري : ج ٥ ص ٥٥-٥٦ ، وجمع الجواهر للحصري : ص ٥٤-٥٥ .

(٢) النجيب من الإبل : هو القويُّ منها ، الخفيف السريع ، وناقة نجيب ونجيبة .

(٣) أوْقَرَه : حمّله .

(٤) المشارب : جمع مِشربة ، وهي إناء يشرب به .

(٥) تحرجي : تأثمي .

إني أُتِيحَتْ لي يَمانِيَةٌ
إحدى بني الحارثِ من مَذْحِجِ[1]

نلبثُ حَوْلاً كامِلاً كُلَّهُ
لا نلتقي إلَّا على مَنْهَجِ[2]

في الحجِّ إنْ حَجَّتْ، وماذا مِنًى
وأهلُه إنْ هيَ لم تَحْجُجِ ؟

أَيْسَرُ ما نالَ مُحِبٌّ لدَي
بَيْنِ حبيبٍ قولُه : عَرِّجِ

فما سمعتُ أحسنَ منه قطُّ . فأقمنا عنده أياماً كثيرة وخَبّازُه قائمٌ وطعامُه كثير . ثم قال له ابنُ أبي عتيق : إني أريد الشُّخوصَ ، فلم يَبْقَ بمكة تُحْفَةُ عَدَنِيٍّ ولا يَمانٍ ولا عُودٌ إلَّا أَوْقَرَ به راحلتَه .

فلما ارتحلنا وبَرَزْنا صاحَ به الغَريض : هيّا هيّا ، فرجعنا اليه ، فقال : ألم تَرْوُوا عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « يُحشَرُ من بقيعنا[3] هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر ؟ » .

فقال له ابن أبي عتيق : بلى . فقال : هذه سِنٌّ لي انْتُزِعَتْ فأُحبُّ أن تَدْفِنَها بالبقيع . فخرجنا واللهِ أخْسَرَ اثنين ، لم نَعتَمِر ولم ندخُل مكة ، حاملين سِنَّ الغريض حتى دفَنّاها بالبقيع[4] .

* * *

مع الدَّلال :

٥٠ ــ جاء في الأغاني والعقد الفريد أنه قيل للوليد بن عبد الملك : إن نساء قريش يدخل عليهنَّ المخنَّثون بالمدينة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل عليكنَّ هؤلاء » .

---

(١) يمانِيَّة : نسبة الى اليمن ، والمشهور في النسبة إلى اليمن : يمَنيٌّ ويمانٍ بالتخفيف ، والألف عوض عن ياء النسب ، قال سيبويه : وبعضهم يقول يمانيٌّ بالتشديد .

(٢) المَنهج والمِنهاج: الطريق الواضح. (٣) البقيع : مقبرة أهل المدينة ، وهي داخل المدينة.

(٤) الأغاني : ج ٢ ص ٣٦٨-٣٦٩ .

فكتب الوليد بن عبد الملك إلى ابن حزم [1] الأنصاريّ أن اخصهم ، فخصاهم ! فمرّ ابن أبي عتيق فقال : أخَصَيتم الدّلالَ ؟ إنّا لله ! أمَا والله لقد كان يُحسِن :

لِمَن رَبْعٌ بذات الجَيْـ ... ـش أمسى دارساً خَلَقا ؟ [2]
تأبّـدَ بعـدَ ساكنه ... فأصبح أهلُـه فِرَقا [3]
وقفتُ بـه أسائلُـه ... ومـرّتْ عِيسُهمْ حِزَقا [4]

ثم ذهب ثم رجع ، وقيل : ثم استقبل القبلة ، فلما كبّرَ سلّم ، ثم قال لأصحابه : أمَا إنه كان يُحسِن خفيفَه ، أمّا ثقيلُه فلا والله ... ثم كبّر [5] .

* * *

ورَوَى المبرّد هـذا الخبر بصورة أخرى فقال : ... وحُدّثتُ أن ابنَ أبي عتيق ذُكِر له أن المخنّثين بالمدينة قـد خُصُوا ، وأنه خُصِيَ الدّلالُ فيهم ، فقال : إنّا لله ! أمَا والله لئن فُعِلَ ذلك به لقد كان يُحسِن .

لِمَن رَبْـعٌ بذات الجَيْـ ... ـش أمسى دارساً خَلَقا ؟

ثم استقبل ابنُ أبي عتيقٍ القبلة يُصلّي . فلما كبّر سلّم ، ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم : اللهمّ إنه كان يُحسِن خفيفَه ، أما ثقيلُه فلا ... الله أكبر [6] .

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، كان والياً على المدينة من قِبَل الوليد بن عبد الملك من شعبان سنة ٩٣ إلى ٢٨ شوال سنة ٩٤ (الطبري : ٤٨٢/٦) .

(2) ذات الجيش : هو واد قرب المدينة ، فيه انقطع عقد عائشة رضي الله عنها .

(3) تأبّد الرّبع : أقفر وخلا من أهله وألفته الوحوش .

(4) العِيس : جمع أعيس وعَيْساء : الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة . والحِزَق : جمع حِزْقة ، وهي القطعة من كل شيء ، كقول الشاعر :

غَيّر الجِـدّةَ من عِرفانها ... حِزَقُ الريح وطوفانُ المطرْ

(5) الأغاني : ج ٤ ص ٢٧٦ ، وانظر كذلك العقد الفريد : ج ٦ ص ٥٠ .

(6) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ١٩١ . وقـد مر بنا خبر خِصاء المخنثين بالتفصيل في كتاب « الغناء العربيّ » ص ١٣١ .

٥١ – روى المدائنيُّ عن عَوانة بنِ الحكَم قال :

لما أراد عبدُ الله بنُ جعفر إهداءَ بنتِه إلى الحجّاج كان ابنُ أبي عتيق عنده ، فجاءه الدّلال مُتعرّضاً فاستأذن . فقال له ابن جعفر : لقد جئتنا يا دَلالُ في وقت حاجتنا إليك . قال : ذلك قصدتُ .

فقال له ابنُ أبي عتيق : غَنِّنا . فقال ابن جعفر : ليس هذا وقتَ ذلك ؛ نحن في شُغُل عن هذا فقال ابن أبي عتيق : ورَبِّ الكعبة ليُغنّيَنّ . فقال ابن جعفر : هاتِ . فغنّى الدّلالُ ونقرَ بالدُّفّ – والهوادجُ والرواحلُ قد هُيِّئَتْ ، وصُيِّرتْ بنتُ ابن جعفر فيها مع جواريها والمشيِّعين لها – :

يا صاح لو كنتَ عالماً خَبِراً
بما يُلاقي المحبُّ لم تَلُمُهْ[١]

لا ذنبَ لي في مُقرَّطٍ حَسَنٍ
أعجبني دَلُّه ومُبْتَسَمُهْ[٢]

شيمتُهُ البخلُ والبِعادُ لنا
يا حبّذا هُو وحبّذا شِيَمُهْ

مُضَمَّخٌ بالعَبير عارِضُهُ
طوبَى لِمَنْ شمَّهُ ومَن لَثَمُهْ[٣]

---

(١) الخَبِرُ : الخبير . لم تلُمُهْ : الأصل أنه ساكن الميم لجزمه بلم . وقد نُقِلت الضمة عن الهاء « الضمير » إلى الميم . ومثل هذا قول الشاعر :

عَجِبْتُ والدهرُ كثيرٌ عَجَبُهْ من عَنَزِيٍّ سَبَّني لم أضرِبُهْ

(٢) المُقَرَّط : المتحلّي بالقُرط .

(٣) لثَمُهْ : أصل ميمه الفتح ، فنُقِلت إليه ضمة الهاء « الضمير » على لغة لخم ؛ لأنهم يجيزون في الوقف نقلَ حركة الحرف الأخير إلى المتحرك قبله ، كقوله : « مَن يأتمر بالخير فيما قصَدُهْ » . مُضَمَّخ بالعَبير : مُلَطَّخ بالطيب . العارض : صفحة الخد ، طوبى لمن شمه : أي الحسنَى لمن شمّه .

فَطرِبَ ابنُ جعفر وابنُ أبي عتيق ، وقال له ابن جعفر: زِدْنِي وَطرِبَ . فأعاد الدَّلالُ اللحن ثلاثاً ثم غَنّى :

بكَرَ العواذلُ في الصبا ح يَلُمْنَنِي وألومُهُنّه
ويَقُلْنَ شيبٌ قد علا كَ وقد كَبِرْتَ فقلت: إنّه[1]

ومضتْ بنتُ ابن جعفر فاتَّبَعَها يُغنّيها بهذا الشعر :

إنَّ الخليط أجَدَّ فاحتملا وأرادَ غيظَكَ بالذي فعلا[2]
فوقفتُ أنظر بعضَ شأنِهِم والنفسُ مما تأملُ الأملا
وإذا البغالُ تُشَدُّ صافِنَةً وإذا الحُداةُ قد ازمعوا الرحلا[3]
فهناك كاد الشوقُ يقتلُني لو أنَّ شوقاً قبله قتلا

فدَمَعتْ عينا عبدِ الله بنِ جعفر ، وقال للدلال : حَسْبُكَ ! فقد أوجعتَ قلبي ! وقال لهم : امْضُوا في حِفْظ الله على خير طائر وأيْمَنِ نَقيبة[4].

***

مع بُدَيح :

٥٢ – حدّث مُحْرِز بنُ جعفر مولى أبي هُرَيْرة عن أبيه قال : سمعت بُدَيحاً يقول : حَجَّتْ بنتُ محمد بن الأشعث الكِنْدِيّة ، فراسلها عمرُ بنُ أبي ربيعة ووعدها أن يتلقّاها مساءَ الغد ، وجعل الآيةَ[5] بينه وبينها أن تسمع ناشداً يَنْشُد – إنْ لم يمكنْه أن يُرسل رسولا – يُعلمها بمصيره إلى المكان الذي وعدها .

---

(١) إنّهْ هنا : بمعنى نَعَم .

(٢) الخليط : المجاور ، والشريك ، والقوم الذين أمرهم واحد . ويكثر ذكر الخليط في أشعار العرب ، لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد فتقع بينهم الألفة ، فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك .

(٣) تُشَدّ : تُهيّأ عليها الرحال . والصافِنُ من الخيل ونحوه : القائم على ثلاث قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرَف الحافر .

(٤) الأغاني : ج ٤ ص ٢٩٣ – ٢٩٥ . (٥) الآية : العلامة .

قال بُدَيح : فلم أشعر إلّا به مُتلثّماً ، فقال لي : يا بُدَيْح ، أئتِ بنتَ محمد بن الأشعث فأخبرها أني قد جئتُ لموعدها ، فأبيتُ أن أذهب وقلتُ : مثلي لا يُعِين على مثل هذا .

فغيّب بغلته عنّي ثم جاءني فقال لي : قد أضللتُ بغلتي فانشُدْها لي في زُقاقِ الحاجّ ، فذهبتُ فنَشَدْتُها ، فخرجتْ عليَّ بنت محمدِ بن الأشعث ، وقد فهِمَتِ الآيةَ ، فأتَتْهُ لموعده ، وذلك قوله :

وآيةُ ذلك أنْ تسمعي إذا جئتُكمْ ناشداً يَنْشُدُ

قال بُدَيْح : فلما رأيتُها مقبلةً عرفتُ أنه خدَعني بنَشْدِي البغلةَ ، فقلتُ له : يا عمر ، لقد صَدَقَتِ التي قالت لك :

فهذا سِحْرُك النّسْوا نَ ، قد خبَّرْنَني خبَرَكْ

قد سحَرْتَني وأنا رجل ! فكيف برقّةِ قلوبِ النساء وضعفِ رأيِهِنّ ؟ وما آمنُك بعدَها . ولو دخلتَ الطوافَ ظننتُ أنك دخلتَه لبَلِيّةٍ . قال : وحدّثها بحديثي ، فما زالا ليلتَهما يَفْصِلان حديثَهما بالضحك مني... !

* * *

قال الزبير : فحدثني أبو الهِنْدام مولى الرَّبَعيّين عن أبي الحارث عبدِالله الرَّبَعِيّ قال :

لَقِيَ ابنُ أبي عتيق بُدَيْحاً المغنّي فقال له : يا بُدَيْحُ ، أخدَعَكَ ابنُ أبي ربيعة أنه قُرَشيّ ؟ فقال بُدَيْحٌ : نعم ! وقد أخطأه ذلك عند القَسْريّ [1] وصواحبه .

---

(١) يُراد به – فيما يَظن صاحب الأغاني – خالدُ بنُ عبدالله القَسْريّ المعروف بالخِرِّيت . وقد رُوِيَ عنه أنه نشأ بالمدينة ، وكان في حداثته يتخنّث ويتبع المخنّثين ويمشي مع عمر ابن أبي ربيعة ، ويترسّل بينه وبين النساء .

فقال ابنُ أبي عتيق : وَيْحَكَ يا بُدَيْح ! إنَّ من تَغَابَى[1] لك لَيَغْبَى عنك[2] ، فقد ضمِنْتُ عليه قَبْضَتُك إنْ كان لك ذهنٌ ، أما رأيتَ لمن كانت العاقبة ؟ والله ما بالى ابنُ أبي ربيعة أوَقَعَ عليهنَّ أم وَقَعْنَ عليه[3] !

***

مع جميلة :

٥٣ – حدَّث الحسنُ بنُ عتبة اللَّهبيّ قال : حدثني مَن رأى ابنَ أبي عتيق وابنَ أبي ربيعة والأحوصَ بنَ محمدٍ الأنصاريّ وقد نزلوا منزل جميلة فاستأذنوا عليها فأذنتْ لهم .

فلما جلسوا سألت عمرَ وأحفَتْ[4] ، فقال لها : إني قصدتُكِ من مكة للسلام عليك . فقالت له : أهلُ الفضل أنت . قال : وقد أحببتُ أن تُفرِّغي لنا نفسَكِ اليوم وتُخلِي لنا مجلسَكِ ، قالت : أفعل . قال لها الأحوص : أحبُّ ألا تُغنّي إلا ما أسألك . قالت : ليس المجلسُ لك ، والقومُ شركاؤك فيه . قال : أجل .

قال عمر إن تُرِدْ أنْ تفعلَ ذلكَ بك يكنْ . قال الأحوص : كلَّا ! قال عمر : فإني أرى أن نجعل الخيار لها . قال ابن أبي عتيق : وفَّقك الله . فدعت بالعود وغنَّتْ :

تَمْشِي الهُوَيْنَى إذا مشَتْ فُضُلًا
مَشْيَ النَّزيفِ المخمورِ في الصُّعُدِ[5]

تظلُّ من بُعدِ بَيتِ جارتِها
واضعةً كفَّها على الكَبِدِ

---

(١) تغابى لك : تكلف الغباء لك . (٢) ليغبى عنك : ليخفي عنك فلا تعرفه .
(٣) الأغاني : ج ١ ص ٨٧ – ٨٩ . (٤) أحفَتْ : ألَحَّت في السؤال .
(٥) الهوَيْنى : التُّؤدة والرفق والوقار ، والفضل بسكون الضاد وضمها : الزيادة ، والنزيف : السكران ، والصُّعُد : جمع صَعُود ، وهو الطريق صاعداً .

يا مَن لقلبٍ مُتيَّمٍ سَدِمٍ
عَانٍ رَهينٍ مُكَلَّمٍ كَمِدِ[1]

أزْجُرُه وهْوَ غيرُ مُزْدَجِرٍ
عنها وطَرْفي مُكَحَّلُ السَّهَدِ[2]

فقد سُمِعتْ للبيت زَلزلةٌ وللدار هَمْهمَةٌ. فقال عمر : لله درُّكِ يا جميلة ! ماذا أُعطِيتِ ! أنت أولُ الغناء وآخرُه !

ثم سكتتْ ساعةً وأخذوا في الحديث ، ثم أخذت العود وغنَّتْ :

شَطَّتْ سعادُ وأمسى البينُ قد أفِدَا
وأوْرثوكَ سَقاماً يَصدعُ الكَبِدَا

لا أستطيع لها هَجْراً ولا تِرَةً
ولا تزال أحاديثي بها جُدُدَا

فاستخفَّ[3] القومَ أجمعين ، وصَفَّقوا بأيديهم ، وفَحَصوا بأرجلهم ، وحرَّكوا رءوسَهم ، وقالوا : نحن فداؤك من السُّوء وقاؤكِ من المكروه. ما أحسنَ ما غنَّيْتِ وأجملَ ما قلتِ !

وأحضِر الغَداءُ فتغدَّى القومُ بأنواع من الأطعمة الحارَّة والباردة ، ومن الفاكهة الرطبة واليابسة ، ثم دَعَتْ بأنواع من الأشربة . فقال عمر : لا أشرب ، وقال ابنُ أبي عتيق مثلَ ذلك ، فقال الأحوص : لكنني أشرب . وما جزاءُ جميلةَ أن يُمتنَع من شرابها !

قال عمر : ليس ذلك كما ظننتَه . قالت جميلة : من شاء أن يَحمِلَني بنفسه ويَخلِطَ رُوحي بروحه شكرناه ، ومن أبَى ذلك عذَرْناه ، ولم

---

(١) السَّدِم : الحزين المهموم ، وعانٍ : أسير ، ومكلَّم : جريح ، وكَمِدٌ : وصف مشتق من الكَمَد ، وهو الحزن المكتوم . (٢) السَّهَد والسُّهاد : الأرق ونقيض الرقاد .

(٣) فاعل « استخف » ضمير يعود على الغناء المفهوم من « غنَّت » .

يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأنس بمحادثته. قال ابنُ أبي عتيق : ما يحسن بنا إلّا مساعدتُك.

قال عمر : لا أكون أخسّكم. اِفعلوا ما شئتم تجدوني سميعاً مطيعاً : فشرب القومُ أجمعون، فغنّتْ صوتاً بشعرٍ لِعُمر :

ولقـد قالتْ لجاراتٍ لها..
كالمَهَا يلعبْنَ في حُجْرَتِها

خُذْنَ عنّي الظلّ لا يتبعُني
ومضتْ تسعَى إلى قُبّتِها

لم تُعانِقْ رجلاً فيما مَضَى
طَفلةٌ غيداءُ في حُلّتِها[1]

لم يَطِشْ قطُّ لها سَهْمٌ ومَن
تَرْمِه لا ينجُ من رَمْيَتِها

فصاح عمر ويلاه! ويلاه! ثلاثاً، ثم عمد إلى جيب قميصه فشقّه إلى أسفله فصار قَباءً، ثم آبَ[2] إليه عقله فندِم واعتذر وقال : لم أملك من نفسي شيئاً!

قال القوم : قد أصابنا كالذي أصابك وأغمِيَ علينا، غير أنا فارقناك في تخريق الثياب. فدعَتْ جميلةُ بثياب فخلعتْها على عمر، فقبِلَها ولَبِسَها، وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلاً على ابن أبي عتيق، فوجّه عمرُ إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وبعشرة أثواب كانت معه فقبِلَتْها جميلةُ، وانصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسروراً[3].

---

(١) طَفلةٌ : رَخْصَةُ القدمين واليدين رقيقة البشرة ناعمتها في بياض.
(٢) آبَ عاد ورجع.
(٣) الأغاني : ج ٨ ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

مع بعض القيان :

٥٤ ـ حدّث أبو القاسم جعفرُ بن محمد قال : لمّا وصفَ عبدُ الله ابنُ جعفر لعبد الملك بن مروان ابنَ أبي عتيق وحدّثه عن إقلاله وكثرةِ عياله ، أمره عبدُ الملكُ بن مروان أن يَبعثَ به إليه .

فأعلمه ابنُ جعفر بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه . فدخل ابنُ أبي عتيق على عبد الملك فوجده بين جاريتين قائمتين عليه بميسان كغُصْنَيْ بانٍ ، بيدِ كلّ جارية مِرْوَحةٌ تُرَوّح بها عليه ، مكتوبٌ بالذهب على المِروحة الأولى :

إنني أجلبُ الرّيا ح وبي يلعب الخَجَلْ
وحِجابٌ إذا الحبيـ بُ ثنَى الرأسَ للقُبَلْ
وغِياثٌ إذا النّديـ مُ تَغنّى أو ارْتَجَلْ

وفي المِروحة الأخرى :

أنا في الكفِّ لطيفةْ مَسْكَنِي قصرُ الخليفةْ
أنا لا أصْلُحُ إلّا لظريفٍ أو ظريفةْ
أو وَصيفٍ حسَنِ القَدّ م شبيهٍ بالوصيفةْ

قال ابنُ أبي عتيق : فلما نظرتُ إلى الجاريتين هوّنَتا الدنيا عليّ ، وأنْسَتاني سوءَ حالي ، وقلت : إنْ كانتا من الإنْسِ فما نساؤنا إلّا من البهائم ! فكلما كرّرْتُ بصَري فيهما تذكرتُ الجنة ، فإذا تذكّرْتُ امرأتي ، وكنتُ لها مُحِباً ، تذكّرْتُ النار !

قال : فبدأ عبدُ الملك يتوجّع إليّ بما حكي له ابن جعفر عنّي ، ويخبرني بما لي عنده من جميل الرأي . فأكذبتُ له كلّ ما حكاه له ابنُ جعفر عنّي ، ووصفتُ له نفسي بغاية المَلاءِ[1] والجِدَةِ[2] . فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرت له ، وغماً بتكذيبِ ابنِ جعفر .

---

(١) المَلاءة : الغنى . (٢) والجِدَةُ : من وجد يجد جِدّة : أي استغنى غنىً لا فقر بعده .

فلما عاد اليه ابنُ جعفر عاتبه عبدُ الملك على ما حكاه عنّي وأخبره بما حدّثتُ نفسي به. فقال: كذب واللهِ يا أمير المؤمنين، وإنه أحوجُ أهلِ الحجاز إلى قليلِ فضلِك، فضلاً عن كثيره.

ثم خرج عبدالله فلقيني فقال: ما حملكَ أنْ كذّبْتني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنتَ تراني تُجلسني بين شمسٍ وقمرٍ، ثم أتفاقرُ عنده؟ لا واللهِ ما رأيتُ ذلك لنفسي وإنْ رأيتَه لي.

فلما أعلم بذلك عبدُالله بنُ جعفر عبدَ الملك بن مروان قال: فالجاريتان له. قال: فلما صارتا إليّ زرتُ عبدالله بن جعفر فوجدتُه قد امتلأ فرَحاً، وهو يشرب وبين يديه عُسٌّ[1] فيه عسلٌ ممزوج بمسك وكافور. فقال: مَهْيَمْ[2]. قلت: قد واللهِ قبضتُ الجاريتين.

قال: فاشربْ، فتناولت العُسَّ فجرعتُ منه جَرْعةً. فقال لي: زِدْ. فأبيتُ عليه. فقال لجارية عنده تغنّيه: إنّ هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين، فخُذي في نَعْتِهما، فإنهما كما فلكَتْ صُدورُهما[3]. فحرّكتِ الجاريةُ العود ثم غنّتْ.

عَهْدي بها في الحَيّ قد جُرّدَتْ
زهراءَ مثلَ القمرِ الضّامرِ

قد حَجّمَ الثّدْيُ على نَحْرِها
في مُشْرِفٍ ذي بَهجةٍ ناضرِ

لو أسندَتْ مَيْتاً إلى صدرِها
قامَ ولم يُنقَلْ إلى قابرِ

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا
يا عجبَا للميّتِ النّاشرِ!

---

(١) العُسُّ: القدحُ الضخم. (٢) مَهْيَم: كلمة استفهام معناها: ما وراءك؟

(٣) فلك صدر الجارية: إذا استدار ثدْيُها، وصار كالفلكة، وهو دون النهود.

قال ابن أبي عتيق : فلما سمعتُ الأبيات طرِبتُ ، ثم تناولتُ العُسَّ فشرِبتُ علَلاً بعد نَهَلٍ[1] ، ورفعتُ عقيرتي أغنّي :

سَقَوْنِي وقالوا : لا تُغنّي ولو سَقَوْا
جبالَ حُنَيْنٍ ما سَقَوْنِي لغَنَّتِ[2] !

(١) العَلَل والنَّهَلُ : العلل : الشَّرْبة الأولى ، والنَّهَل : الشَّرْبة الثانية .

(٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٢-٢٣ .

القِسمُ الثالِث

أخبـاره
مَعَ غيرِ الشعـراء وأهـلِ الغِنـاء

مع عائشة أمّ المؤمنين :

٥٥ – ذكر رجل من أهل المدينة أن أبن أبي عتيق – وهو عبدُ الله أبنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر الصديق – دخل على عائشةَ أمّ المؤمنين، وهي عمّتُه، فوضع رأسه في حِجْرِها أو على رُكبتِها، ثم رفع عقيرتَه [١] يتغنّى :

ومُقَيَّدٍ حَجِلٍ جَرَرْتُ بِرِجْلِه ..
بعد الهدوءِ له قوائمُ أربـعُ
فاطربْ زمانَ اللهو من زمن الصِّبا
وأنزِعْ إذا قالوا أبَى لك مَنْزَعُ
فلَيأتِينَّ عليك يوماً مَرّةً ..
يُبكَى عليكَ مُقنّعاً لا تَسمعُ !

قالت له عائشة : يا بُنَيَّ، فاتّقِ ذلك اليوم [٢] .

***

٥٦ – حدّث البلاذُريّ بإسناد إلى أبي عمرو بن العلاء أنـه قال :

(١) العقيرة : هي في الأصل ما عُقر من صيد أو غيره وهي الساق المقطوعة . وعقيرة الرجل : صوتُه إذا غنّى أو قرأ أو بكى . (٢) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٠ – ٢١ .

عرضتْ لعائشة — أمّ المؤمنين — حاجةٌ فبعثت إلى آبن أبي عتيق أنْ أرسلْ إليَّ بغلتَك لأركبها في حاجة. قال: وكان مزّاحاً بـطّالاً [1]، فقال لرسولها: قلْ لأمّ المؤمنين: واللهِ ما دَحَضْنَا [2] عارَ يومِ الجمَل، أفـتُريدين أن تأتينا بيوم البغلة [3]؟

* * *

وقد تحدث الجاحظ في «كتاب البغال» عن عناية الأشراف بالبغال، وذكَر فيمن ذكَر من أولئك الأشراف آبنَ أبي عتيق وآبن أبي ربيعة وهشامَ بنَ عبد الملك، وذلك إذ يقول: «وكان آبن أبي عتيق يركب البغال، وكذلك آبن أبي ربيعة. وكان هشامُ بنُ عبدالملك من أكثر الناس ركوباً لها».

ثم نراه بعد ذلك يُورد الخبر السابق بصورة أخرى، وهي: وقالوا: «وقع بين حيَّيْن من قريش مُنازَعـةٌ، فخرجت عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها على بغلة، فلقيَها آبن أبي عتيق، فقال: إلى أين — جُعِلتُ فِداك؟ قالتْ: أُصْلِح بين هذين الحيَّيْن. قال: واللهِ ما غسَلْنا رُءوسَنا من يوم الجمَل، فكيف إذا قيل: يومُ البغل! فضحكتْ وانصرفتْ».

* * *

ويُعقّب الجاحظ على هذا الخبر بقوله:

«هذا — حفِظك الله — حديثٌ مصنوع، ومن توليد الرّوافض [4]، فظنّ الذي ولّدَ هذا الحديثَ، أنه إذا أضافه إلى آبن أبي عتيق، وجعله

---

(١) يقال: رجل بـطّال: أي ذو باطل. (٢) دحض العار: أزاله وأبطله.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري: ج ١ ص ٤٢١.

(٤) الروافض: قوم من الشيعة، سُمّوا بذلك لأنهم تركوا زيد بن عليّ. قال الأصمعي: كانوا بايعوه ثم قالوا له: اِبرأ من الشيخين نقاتلْ معك، فأبَى، وقال: كانا وزيرَيْ جدّي فلا أبرأ منهما، فرفضوه وارفضّوا عنه فسُمّوا رافضة. لسان العرب: ج ٧ ص ١٥٧.

نادرةً ومُلْحَةً ، أنه سيشيع ويَجري عند الناس مَجْرَى الخبر عن أمّ حبيبة وصفية . ولو عرَف الذي اخترع هذا الحديثَ طاعةَ الناس لعائشةَ – رضي الله عنها – لمَا طمِعَ في جَواز هذا عنه » .

« وقال عليُّ بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – : « مُنِيتُ بأربعة : مُنِيتُ بأشجع الناس ، يعني الزُّبَيْر ؛ وأجـودِ الناس ، يعني طلحة ؛ وأنَضّ[1] الناس يعني يَعْلَى بنَ مُنْيَـة ؛ وأطوعِ الناس في الناس ، يعني عائشة » .

« ومن بعدِ هذا ، فأيُّ رئيسِ قبيلٍ من قبائل قريش كانت تَبعث إليه عائشةُ – رضي الله عنها – رسولاً فلا يُسارع ، أو تأمره فلا يطيع ، حتى احتاجت أن تركب بنفسها ؟ وأيُّ شيءٍ كان قبـل الركوب من المُراسلة والمُراوضة والمُدافعة والتقديمِ والتأخير حتى أضطرّها الأمرُ إلى الركوب بنفسها ؟

« وإنّ شرّاً يكون بين حَيَّيْن من أحياء قريش ، تفاقَمَ فيه الأمرُ ، حتى احتاجت عائشةُ – رضي الله عنها – إلى الركوب فيه ، لعظيمُ الخَطر ، مستفيضُ الذِّكْر .

« فمن هذان القبيلان ؟ ومن أيّ ضربٍ كان هـذا الشرُّ ؟ وفي أيّ شيءٍ كان ؟ وما سببُه ؟ ومَن نطَق مِن جميع رجالاتِ قُريش فعصَوْه وردُّوا قوله ، حتى احتاجت عائشة فيه إلى الركوب ؟ ولقد ضربوا قواديمَ الجَمَل ، فلما برَك ومالَ الهَوْدَجُ صاح الفريقان : « أمَّكم ! أمَّكم ! » .

« فأمرُ عائشةُ أعظمُ ، وشأنُها أجلُّ ، عند مَن يعرف أقدارَ الرجال والنساء ، مِن أن يُجوِّزَ مثلَ هـذا الحديثِ المولّد ، والشرّ المجهول ، والقبيلتين اللتين لا تُعرَفان .

(١) أنضُّ الناس : أجودُهم وأسخاهم . ذكر الطبري « ٥ : ١٦٦ » أنَّ يَعْلَى شارك في وقعة الجمل مع عائشة بستمائة بعير وستمائة الف درهم ، كما اشترى لها الجمل الذي ركبت عليه – واسمه عسكر – بمائتي دينار « الطبري ٥ : ٢٠٣ » .

« والحديث ليس له إسناد ، وكيف وابنُ أبي عتيق شاهدٌ بالمدينة ، ولم يَعلَم بركوبها ، ولا بهذا الشرّ المتفاقِم بين هذين القبيلين ؟ ثم ركبتْ وحدَها ، ولو ركبتْ عائشةُ لمَا بَقِيَ مُهاجريٌ ولا أنصاريٌ ، ولا أميرٌ ولا قاضٍ إلّا ركب ، فما ظنّكَ بالسُّوقة والحُشْوَةِ ، وبالدّهماء والعامّة [1] » .

***

كذلك أورد الحكاية السابقة أبو اسحاق إبراهيم الحُصَريُ القيروانيُ في كتابه « جمع الجواهر في المُلَح والنوادر » وعلّق عليها بقوله : « وهذه حكاية أوردها الشَرْقيُ بنُ القَطاميّ لِغِلّه ودَغَلَه [2] على وجه النادرة ، لتُحفَظَ ويُضحَكَ منها ، ويتعلّق بها مَن ضَعُفَ عملُه وقلّ عزمُه ، فيكون ذلك أنجعَ وأنفعَ لمَا أراد من التعرُّض لِعِرْضِ أمّ المؤمنين رضي الله عنها » [3] .

والشرقيُ بنُ القَطاميّ كما يقول صاحب الفهرست : يُكنَى أبا المثنّى الكلبيّ ، واسمه الوليد بن الحصين ، أحدُ النسّابين الرواةِ للأخبار والأنساب والدواوين وكان كذاباً ... وله قصيدة في الغريب [4] .

***

٥٧ – قال محمد بن سعد : حدّثني الواقديُ عن أبي الزناد عن أبيه فقال : دخل ابنُ أبي عتيق على عائشة – أمّ المؤمنين – وهي ثقيلة [5] ، فقال : يا أُمّهْ ، كيف تجدينَكِ جُعِلتُ فداءَك ؟

قالت : هو الموت ! قال ابن أبي عتيق : فلا جُعِلتُ فداءَك إذن !

(١) رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ٢٢٣–٢٢٥ . (٢) الدّغَل : دَخَلٌ في الأمر مُفسد .
(٣) جمع الجواهر للحصري : ص ٤ . (٤) الفهرست لابن النديم : ص ١٣٨ .
(٥) وهي ثقيلة : وهي مريضة مرضاً شديداً أشرفت منه على الموت .

فقالت أما تدع هـــذا على حال ؟[1] . وفي رواية أخرى أنها ضحكت وقالت : ما تدع مَزْحَكَ بحال !![2]

* * *

٥٨ – ومن أخبار ابن أبي عتيق أنه كان أحدَ الأربعة الذين وارَوْا عائشةَ أمَّ المؤمنين التراب . وعائشةُ عَمّةُ أبيه .

جاء في كتاب أنساب الأشراف أن وفاة عائشةُ كانت لسبعَ عشرةَ ، ويقال تِسعَ عشرةَ ، ويقال لثلاثَ عشرةَ من رمضان سنة ثمان وخمسين ، وهي ابنة ست وستين سنة . ودُفنت بالبقيع وصلّى عليها أبو هُرَيْرة .

ونزل في حفرتها عبدُ الله بنُ الزبير ، وهو ابن أختها أسماءَ ابنــة أبي بكر ، وعُروةُ ابنُ الزبير ، والقاسمُ بنُ محمد بن أبي بكر ، وعبدُ الله ابنُ محمدِ بنِ عبدِالرحمن بنِ أبي بكر ، وهو ابنُ أبي عتيق .

وإنما قيل : « ابنُ أبي عتيق » لأنــه كان يرمي ذات يوم فانتمى إلى أبي قُحافة ، فقال : أنا ابن أبي عتيق ، فغلب ذلك الاسم على أبيه[3] .

* * *

مع الحسن بن عليّ :

٥٩ – قيل : وكان لرجل على ابن أبي عتيق مَالٌ ، فتقاضاه ، فقال له : ائتني العشيّةَ في مجلس الولاية ، فسَلْني عن بيت قريش . فوافاه الغريم[4] في ذلك المجلس ، فقال له : إنا تلاحَيْنا[5] في بيت قريش ، ورضِينا بك

(١) أنساب الأشراف للبلاذُريّ : ج ١ ص ٤٢١ .
(٢) جمع الجواهر للحصري : ص ٥٥ .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذُريّ : ص ٤٢٠ – ٤٢١ .
(٤) الغريم هنا : صاحب الدين ، وهو المدين أيضاً . (٥) تلاحينا : تنازعنا .

حَكَماً . فقال : آلُ حَرْب ، قال : ثم مَن ؟ قال : آلُ أبي العاص — والحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنه حاضر — فشَقّ ذلك عليه .

فقال الرجل : فأين بنو عبد المطلب ! فقال : لم أكنْ أظنُّ أن تسألني عن غير بيت الآدميّين . فأمّا إذا صرتَ تسألني عن بيت الملائكة ، وعن رسول الله ربّ العالمين ، وسيّدِ كلّ شهيد ، والطيّارِ مع الملائكة ، فمن يساوي هؤلاء فخراً إلّا وهو منقطعٌ دونهم !

قال : فانجلى عن الحسن عليه السلام ، ثم قال : إني لأحسب أن لك حاجةً ! قال : نعم ، يا ابن رسول الله . لهذا عليّ كذا وكذا .

فاحتملها عنه ، ووصلَه بمثلها [1] .

***

٦٠ — أورد الجاحظ في كتابه القيان الخبر التالي :

« قال الحسن بنُ عليّ يوماً لابن أبي عتيق : هل لك في العقيق [2] ؟ فخرجا فعدَل الحسنُ إلى منزل « حفصة » [3] فدخل اليها فتحدثا طويلا ثم خرج ، ثم قال لابن أبي عتيق : هل لك في العقيق ؟ قال نعم . فنزل بمنزل « حفصة » ودخل ، فقال له — لابن أبي عتيق — مرة أخرى : هل لك في العقيق ؟ فقال يا ابنَ أمّ [4] ، ألاَ تقول : هل لك في حفصة ؟! [5] .

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي : ج ١ ص ٨٨ .

(٢) العقيق متنزه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر . وهو وادٍ عليه أموالُ أهل المدينة ، فيه عيون ونخيل .

(٣) هي حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد مرّ خبرُها مع الحسن وغيرِه من أزواجها في ترجمة أبيها . انظر ص : ٧١ من هذا الكتاب .

(٤) يا ابنَ أمّ : إذا كان المنادي مضافاً الى مضاف الى ياء المتكلم فالياء ثابتةٌ لا غيرُ ، كقولك « يا ابن أخي ويا ابن خالي » إلاّ إنْ كان « ابن أم » أو « ابن عم » فالأكثر الاجتزاء بالكسرة عن الياء ، أو أن يفتحا للتركيب المزجيّ ، ولهذا قرىء « يا ابن أمّ » بالوجهين .

(٥) رسائل الجاحظ : ج ٢ ص ١٥٣ .

***

٦١ – ومن أخباره أن مروان بنَ الحكم قال يوماً : إني لمشغوفٌ ببغلة الحسن بن عليٍّ : فقال له ابنُ أبي عتيق : فإن دفعتها إليك ، أتقضي لي ثلاثين حاجة ؟ ومروانُ يومئذٍ أميرُ المدينة [١] ، قال : نعم .

قال : إذا اجتمع الناس عندك العشيةَ فإني آخذ في مآثر قريش ، ثم أمسك عن الحسن ، فلُمْني على ذلك .

فلما أخذ الناسُ مجالسَهم أخذ في مآثر قريش ، فقال له مروان : ألاَ تذكر أوّليّةَ أبي محمد ، وله في هذا ما ليس لأحد ؟ فقال : إنما كنا في ذِكْرِ الأشراف ، ولو كنا في ذكر الأنبياء لَقدّمْنا ما لأبي محمد ! .

فلما خرج الحسن ليركب البغلة تبعه ابن أبي عتيق : فقال له الحسن وتبسّمَ : ألك حاجة ؟ قال : نعم ! ذكرتُ البغلة ؟ فنزل الحسن ودفعَها إليه [٢] .

***

مع عبد الله بن الزبير :

٦٢ – وحدّث الزبير بن بكار عن عمه مُصْعَبٍ ومحمد بن الضحّاك عن أبيه قال : إنّ أبا ريحانةَ عمّ أبي دَهْبَل – الشاعر – كان شديدَ الخلاف على عبدالله بن الزبير ، فتوعّدَه عبدالله [٣] بن صفوان ، فلحق بعبدالملك ابن مروان ، فاستمدّه الحجاجُ فأمدّه عبد الملك بطارقٍ مولى عثمانَ في أربعة آلاف .

---

(١) وَلِيَ مروان بن الحكم المدينة من قِبل معاوية بن أبي سفيان مرتين : الأولى من سنة ٤٢ إلى سنة ٤٩ ، والثانية من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٨ . (انظر الطبري : ج ٥ ص ٢٣٢ ، وكذلك ص ٣٠٩) .

(٢) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٧ ، وانظر كذلك جمع الجواهر للحصري : ص ٥٤ .

(٣) كان من رجالات عبدالله بن الزبير وحضر معه مشاهده . قتله الحجاج وأرسل برأسه مع رأس ابن الزبير الى عبدالملك بن مروان .

فأشرف أبو ريحانة على أبي قُبَيْس[1] فصاح أبو ريحانة : أليس قد أخزاكم الله يا أهل مكة ؟ فقال له ابن أبي عتيق : بلى والله قد أخزانا الله !

فقال له ابن الزبير : مهلاً يا ابن أخي ! فقال — ابن أبي عتيق — : قلنا لك ائْذَنْ لنا فيهم وهم قليلٌ فأبيتَ حتى صاروا إلى ما ترى من الكثرة !

قال : وقال أبو دَهْبَل في وعيد عبدالله بن صفوان عمَّه أبا ريحانة — واسمه عليُّ بن أُسَيْدِ بن أُحَيْحة — :

ولا تُوعِدْ لتقتلَه عَلياً
فإنَّ وعيدَه كلأٌ وَبيلُ

ونحن ببطن مكة إذْ تَداعَى
لرهطك من بني عمرو رعيلُ[2]

أولُو الجمع المقدَّم حين ثابوا
اليك ومَن يُودِّعُهم قليلُ

فلما أنْ تَفانَيْنا وأوْدَى
بثروتنا الترحُّل والرحيلُ

جعلت لحومَنا غرَضاً كأنَّا
لتهلكنا عروبَةُ أو سَلُولُ[3]

***

٦٣ — رَوَى المدائنيُّ عن ابن ميمون عن ابن أبي عتيق قال : كان ابن الزبير — عبدُ الله — مضطجعاً في المسجد وولَدُه وأهلُ مكة يخرجون إلى الحجَّاج وأنا عند رِجلِه فقال : ما هذه الأصوات ؟ أين يذهبون ؟

(١) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .
(٢) الرعيل : كل قطعة متقدمة من خيل ورجال .
(٣) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٤ ، وانظر كذلك أخبار مكة المشرفة : ج ٢ ص ٢٣ .

قلت : إلى الحجّاج . قال : فما يمنعهم أن يكُفّوا أصواتَهم فقد منعونا من النوم ؟ فقلت في نفسي : أتُراه جادًّا ؟ ثم سمعتُ غطيطَه .

قال : ووقف الحجّاج على جثة ابن الزبير ومعه نافع بن جبير بن مُطعِم ، فقيل لنافع : ما قال لك ؟ قال : أريد أن أصلبه فنهيتُه[1] !

***

مع عبدالله بن جعفر :

٦٤ – قال عبدالله بنُ جعفر لابن أبي عتيق : لو غَنَّتْكَ فلانةُ جاريتي صوتاً ما أدركتْكَ ذكاتُكَ[2] .

فقال ابنُ أبي عتيق : قلْ لها تفعل وليس عليك إنْ متُّ ضمانٌ[3] . فأخذ بيده عبدُ الله بن جعفر وأدخلَه منزلَه ، ثم أمرَ الجارية فخرجت وقال لها : هاتِ ، فغنَّتْ :

بهواكِ صيّرني العذولُ نكالاً
وجدَ السبيلَ إلى المقال فقالا[4]
ونَهَيْتُ نومي عن جفوني فانتهى
وأمرتُ ليلي أن يطولَ فطالا

قال : فرمى بنفسه ابنُ أبي عتيق إلى الأرض وقال : « فإذا وَجبَتْ جُنُوبُها[5] فكُلُوا منها وأطْعِمُوا القانعَ[6] والمُعْتَرّ »[7] .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري : ج ٥ ص ٣٧٧ .

(٢) الذَّكاة : الذبح . وقوله : « ما أدركتك ذكاتك » : أي لَمُتَّ من شدة الطرب قبل أن يدركك الذبح . (٣) الضمان : الدِّيَة أو الغرامة .

(٤) النَّكال : العِبْرَة . وصيرني العذول نكالا : أي جعلني عِبْرَةً للغير .

(٥) جُنوبها : الضمير هنا يعود على البُدْن أي الابل السابقة الذكر في الآية الكريمة . ووجبت جُنُوبها : أي سقطت سقطة قوية على الأرض بعد الذبح .

(٦) القانع : هو الفقير الراضي بما عنده وبما يُعطى من غير سؤال . والمعترّ : هو الفقير الذي يسأل الناس . وقد كنى ابن أبي عتيق بالاستشهاد بهذه الآية الكريمة عن أنَّ لهم إذا مات من شدة الطرب أن يفعلوا به ما يشاءون . (٧) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢١ – ٢٢ .

* * *

مع عائشة بنت طلحة :

٦٥ – قال أبو العباس المبرّد : ومن طريف أخبار ابن أبي عتيق أن عائشة بنتَ طلحة عتَبتْ على مُصْعَب بن الزبير – زوجها – فهجرتْه. فقال مُصْعَب : هذه عشرةُ آلافِ درهمٍ لمن احتال لي أن تكلّمني .

فقال له ابن أبي عتيق : عدّلِ المال . وفي رواية أخرى قال له : عُدّ لي المال . ثم صار إلى عائشة فجعل يستعتِبُها لمصعب ، فقالت : والله ما عزمي أن أكلّمه أبداً .

فلما رأى جِدّها قال : يا بنت عمّ ، إنه قد ضَمِن لي إنْ كلّمتِه عشرةَ آلاف درهمٍ ، فكلّميه حتى آخذَها ، ثم عُودِي إلى ما عوّدَكِ الله [1] .

* * *

وذكر صاحب الأغاني قال : أخبرني محمد بن العباس اليزيديّ بسند إلى محمد بن الحكم قال :

كان أشعبُ يألف مُصْعَباً ، فغضبتْ عليه عائشةُ بنت طلحة يوماً ، وكانت من أحبّ الناس اليه ، فشكا ذلك إلى أشعبَ . فقال : مالي إنْ رَضِيَتْ ؟ قال : حُكْمُك . قال : عشرةُ آلافِ درهمٍ . قال : هيَ لك .

فانطلق حتى أتى عائشة فقال : جُعِلتُ فداءَكِ ! قد علمتِ حُبّي لكِ ، ومَيْلي قديماً وحديثاً اليكِ من غير مَنالةٍ ولا فائدة . وهذه حاجةٌ قد عرَضتْ تقضين بها حقّي وترتهنين بها شكري .

قالت : وما عَناكَ ؟ قال : قد جعل لي الأميرُ عشرةَ آلافِ درهمٍ إنْ رَضِيتِ عنه . قالت : وَيْحكَ ! لا يُمكنني ذلك . قال : بأبي أنتِ ،

---

(١) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

فارْضَيْ عنه حتى يعطيَني ، ثم عُودِي إلى ما عَوَّدَكِ الله من سُـوء الخُـلُق ! فضحكتْ منه ، ورَضِيتْ عن مُصعب !

وقد ذكر المدائنيُّ أن هذه القصة كانت لها مع عمرو[1] بن عبيد الله ابن معمر التيميّ ، وأن الرسولَ اليها والمخاطِبَ لهـا بهذه المخاطبة ابنُ أبي عتيق[2] .

***

مع أبي السائب المخزوميّ :

٦٦ – جاء في العقد الفريد : خرج أبو السائب المخزوميُّ وابن أبي عتيق يتنزهان في بعض نواحي مكة ، فنزل أبو السائب ليبولَ وعليه طويلته ، فانصرف دونها .

فقال له ابن أبي عتيق : ما فعلتْ طويلتُك ؟ قال : تذكرت قولَ كُثَيِّر :

أرى الإزارَ على « لُبْنَى » فأحسدُه
إنَّ الإزارَ على مـا ضَمَّ محسودُ

فتصدَّقتُ بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيتَ على لساني .

فأخذ ابن أبي عتيق طويلتَـه فرمَى بها وقال : أتسبقني أنت على برِّ الشيطان ... ؟[3]

***

مع بعض نسائه :

٦٧ – جاء في كتاب العقد الفريد أن الشيبانيَّ قال : كان ابن أبي عتيق صاحبَ هَزْلٍ ولَـهْو ، واسمه عبدالله بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم.

---

(١) هو ابن عم عائشة ، وقد خلـف عليها بعد مقتل مصعب ، ولم تتزوج بعده .
(٢) الأغاني : ج ١١ ص ١٧٧ . (٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٤ .

وكان له امرأةٌ من أشراف قريش، وكان لهــا فتياتٌ يُغنّين في الأعراس والمآتم، فأمرت جاريةً منهنّ أن تغنّيَ بشِعرٍ لها قالتْه في زوجها، فتغنّتْ الجارية وهو يسمع:

ذهب الإلهُ بمـا تعيش به ... وقَمَرْتَ لُبّكَ أيّما قَمْرِ[1]
أنفقتَ مالكَ غيرَ مُحتشِمٍ ... في كل زانيةٍ وفي الخمرِ!

فقال للجارية: لِمَن هــذا الشعر؟ قالت: لمولاتي. فأخذ قِرطاساً فكتبه وخرج به، فإذا هو بعبد الله بنِ عمرَ بنِ الخطاب، فقال: يا أبا عبدالرحمن، قفْ قليلا أكلّمْك.

فوقف عبدالله بن عمر، فقال: ما تَرَى فيمن هجـاني بهذا الشعر؟ وأنشده البيتين. قال: أرى أن تعفوَ وتصفح. قال: أمَا والله إنْ لقيتُه لأفعلنّ به كذا وكذا. فأخـذ ابن عمر ينكُلُه[2] ويَزجُرُه، وقال: قبّحك الله!

ثم لقيه بعد ذلك بأيام، فلما أبصره ابنُ عمر، أعرض عنه بوجهه، فاستقبله ابن أبي عتيق، فقال له: سألتك بالقبر ومَن فيه إلّا سمعتَ منّي حرفَيْن! فولّاهُ قفاه وأنصتَ له.

قال ابن أبي عتيق: علمتَ أبا عبدالرحمن أني لقيت قائلَ ذلك الشعرِ، وفعلت به كذا وكذا؟ فصُعِقَ عبدالله ولُبِطَ به. فلما رأى ما نزل به دنا من أذنه، وقال: أصلحك الله! إنها امرأتي فلانةُ. فقام ابنُ عمر، وقبّلَ ما بين عينيه وتبسّم ضاحكاً[3].

---

(١) قمرتَ لُبّك: خدعت عقلك وغلَبْتَه.

(٢) ينكُلُه: يدفعه ويُنحّيه.

(٣) لُبِطَ به: ضرب بنفسه الأرض من داء أو أمرٍ يغشاه مفاجأةً، ولُبِط به أيضاً: إذا سقط من قيام، وكذلك إذا صُرِع. العقد الفريد: ج ٢ ص ٤٧٠ – ٤٧١.

***

وأورد الجاحظ الخبر السابق بصورة أخرى في كتابه التاج فقال : إن رَوْحَ بن زِنباع ، وكان من دُهاة العرب ، رأى مِن عبدالملك بن مروان نَبْوَةً وإعراضاً . فقال للوليد : ألاَ ترى ما أنا فيه من إعراض أمير المؤمنين عنّي بوجهه ، حتى لقد فَغرتِ السباعُ أفواهَها نحوي ، وأهوَتْ بمخالبها إلى وجهي ؟

فقال له الوليد : احتلْ في حديثٍ يُضحكه ! فقال رَوْحٌ : إذا اطمأنَّ بنا المجلس ، فسَلْني عن عبدالله بن عمر ، هل كان يمزح أو يسمع مزاحاً ؟ فقال الوليد : أفعل .

وتقدم فسبقه بالدخول وتبِعه رَوْحٌ ، فلما اطمأنَّ بهم المجلس ، قال الوليد لرَوْح : هل كان ابن عمر يسمع المزاح ؟ قال — رَوْحٌ — : حدثني ابن أبي عتيق أن امرأته عاتكة بنت عبدالرحمن هجَتْه ، فقالت :

ذهب الإله بما تعيش به   وقَمرتَ ليلك أيّما قَمْرِ
أنفقت مالك غيرَ محتشمٍ   في كل زانية وفي الخمرِ !

قال : وكان ابن أبي عتيق صاحبَ غَزَلٍ وفكاهة ، فأخذ هذين البيتين — وهما في رقعة — فخرج بها ، فإذا هو بعبدالله بن عمر ، فقال : يا أباعبدالرحمن ! انظر في هذه الرقعة ، وأشِرْ عليّ برأيك فيها .

فلما قرأها ، استرجع عبدالله . فقال : ما ترى فيمن هجاني بهذا ؟ قال عبدالله : أرى أن تعفوَ وتصفح ! قال : والله يا أباعبدالرحمن ، لئن لقيت قائلها لأنيلنّه نيلاً جيداً ! فأخذ ابنَ عمرَ أفكَلُ[1] ، واربدّ لونه وقال : وَيْلَكَ ! أمَا تستحي أن تعصِيَ الله ؟ قال : هو والله ما قلتُ لك .

---

(١) الأفكل : الرّعدة .

وافترقا . فلما كان بعد ذلك بأيام لقيه ، فأعرض آبنُ عمرَ بوجهه ، فقال – آبن أبي عتيق – : بالقبر[1] ومَن فيه إلّا ما سمعت كلامي ! فتحوّب[2] عبدالله ، فوقف وأعرض عنه بوجهه ، فقال : علمتَ يا أبا عبدالرحمن أني لقيتُ قائل هذا الشعر فنلته ؟ فصُعِق آبن عمر ولُبِطَ به . فلما رأى ما حلّ به ، دنا من أذنه فقال : إنها آمرأتي ! فقام آبن عمر فقبّل ما بين عينيه .

فضحك عبدالملك حتى فحص برجله وقال : قاتلك الله يا رَوْحُ ! ما أطيبَ حديثك ! ومدّ اليه يدَه فقام رَوْحٌ فأكبّ عليه وقبّل أطرافه وقال : يا أمير المؤمنين ، ألِذنبٍ فأعتذرَ أم لملالةٍ فأرجوَ عاقبتها ؟ قال : لا والله ! ما ذاك من شيء نكرهه ، ثم عاد له أحسنَ حالاً[3] .

***

كذلك ذكر النُّوَيْرِيُّ الخبر بصورة مخالفة للصورتين السابقتين فقال : لقِيَ آبنُ أبي عتيق عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : ما تقول في إنسان هجاني بشعر ، وهو :

أذْهبتَ مالَكَ غيرَ مُتّرِكٍ
في كل مؤنسةٍ وفي الخمرِ
ذهب الإلهُ بما تعيش به
وبَقِيتَ وحدَكَ غيرَ ذي وَفْرِ

فقال عبدالله بن عمر : أرى أن تأخذ بالفضل وتصفح . فقال له عبدالله آبن محمد بن عبدالرحمن – آبن أبي عتيق – : والله أرى غيرَ ذلك . فقال : وما هو ؟ قال أرى أن ..... أي أن أفعل به كيْتَ وكيْتَ !

---

(١) أقسم عليه بالروضة الشريفة وبالمدفون فيها وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) تحوّب : أي وجد في عدم الوقوف إثماً ، فوقف ولكن معرضاً عنه بوجهه .

(٣) كتاب التاج للجاحظ : ص ٢٢٩-٢٣٢ .

فقال ابن عمر : سبحانَ الله ! ما تترك الهزل ! وافترقا . ثم لقيه بعد ذلك ، فقال له : أتدري ما فعلتُ بذلك الإنسان ؟ فقال : أيّ إنسان؟ قال : الذي أعلمتُك أنه هجاني . قال : ما فعلتَ به ؟ قال : كلُّ مملوكٍ لي حرٌّ إن لم أكن ..... أي فعلتُ بـه كيْت وكيْت . فأعظم ذلك عبدُالله بن عمر واضطرب له .

فقال له – ابن أبي عتيق – : امرأتي واللهِ هي التي قالت الشعر وهجتني به . وكانت امرأتُـه أمَّ إسحاق بنتَ طلحةَ بنِ عُبيد الله [1] .

***

٦٨ – قال ابن أبي عتيق لامرأته : تمنيتُ أن يُهدَى إلينا مَسْلوخٌ [2] ، فنتخـذَ من الطعام لونَ كذا ولونَ كذا ، فسمعتْـه جارةٌ له ، فظنتْ أنه أمرَ بعمل مـا سمِعَتْـه ، فانتظرتْ إلى وقت الطعام ، ثم جاءتْ فقرَعتِ البابَ ، وقالتْ : شمَمْتُ رائحـةَ قُدورِكُمْ فجئْتُ لتطعموني منها . فقال ابن أبي عتيق : أنتِ طالق إنْ أقمنا في هذه الدار التي جيرانُها يتشمَّمُون الأماني ! [3]

***

وورد هذا الخبر في « عيون الأخبار » بصيغة أخرى ، وهي :

تمنّى ابنُ أبي عتيق أن يُهدَى له مسلوخٌ يَتّخِذ منه طعاماً ، فسمعتْـه جارةٌ له ، فظنتْ أنه قد أمرها أن يُشترَى له ، فانتظرتْ إلى وقت الطعام ، ثم جاءت تدقُّ الباب ، وقالت : شمَمتُ رِيحَ قُدوركم فجئْت لتطعموني . فقال ابن أبي عتيق : جيرانُنا يشَمُّونَ رِيحَ الأماني ! [4]

---

(١) كتاب نهاية الأرب للنويري : ج ٤ ص ٥ . (٢) المسلوخ : شاة سُلِخ جلدها .
(٣) جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري : ص ١٨٣ .
(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة : ج ١ ص ٢٦٣ .

***

مع إبراهيم بن هشام :

٦٩ – قال أبو العباس المبرد : رُوِيَ لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند إبراهيم[١] بن هشام ، فأنشد إبراهيمُ قولَ الشاعر :

إذْ أنتِ فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ
وإذْ أجُرُّ اليكم سادراً رَسَني[٢]

فقام ذلك الرجل « هو ابن أبي عتيق » فرمى بشِقِّ ردائـــه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس ثم رجع على تلك الحال فجلس .

فقال له إبراهيم بن هشام : ما بك ؟ فقال : إني كنتُ سمعت هــذا الشعرَ فاستحسنتُـه فآليتُ أنْ لا أسمعُه إلّا جَرَرْتُ ردائي كما ترى ، كما سحب هذا الرجلُ رسَنَه[٣] .

مع نافع ابن جبير :

٧٠ – حدّث مُصْعَبُ بنُ عثمان قال : قال نافعُ بنُ جُبَيْرِ بنِ مُطعمٍ ، لأبي الحارث بن عبد الله بن السائب ، وكان أبو الحارث من فصحاء العرب : ألا تذهب بنا إلى الحَرَّة نتَمَخّرُ الرّيحَ ؟ فقال أبوالحارث : إنما تَمَخّرُ الحمير ![٤] قال : فَنَسْتَنْشِئُ ؟ قال : إنما تسْتَنْشِئُ الكلاب[٥] ! قال : فما أقول ؟ قال : نَتَنَسَّمُ الرّيحَ .

---

(١) هو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خالُ الخليفة هشام بن عبدالملك . وقد ولّاه الخليفة هشام المدينة من سنة ١٠٦ الى ١١٤هـ . «الطبري : ج ٧ ص ٢٩ – ٩٠» .

(٢) السادر : الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع . والرَّسَنُ : أصله الحبل أو ما كان من الزمام على الأنف، ولعل الشاعر استعاره هنا للإزار. (٣) الكامل للمبرد : ج ١ ص ٣٥ طبعة صبيح.

(٤) « تمخّرت الإبل الريح ، واستمخرتها » ، إذا استقبلتها واستنشقتها . وفي الفائق : « إنما يتمخر الكلب » .

(٥) « استنشأ الذئب الريــح ، واستنشى » (بالهمز وبغير الهمز) ، تشمّمها . وفي الفائق . « إنما يستنشى الحمار » .

فقال له نافعُ بنُ جُبَيْر : صَهِ صَهِ ، أنا ابنُ عبدِ منافٍ فَالْطَهْ[1].
فقال أبو الحارث : أَلْصَقَتْكَ واللهِ عبدُ مناف بالدكادك ![2] ذهبتْ عليكَ هاشمٌ بالنُّبُوَّةِ ، وأُمَيَّةُ بالخلافة ، وتركوك بين فَرْثِها[3] والجِيَّةِ ، أنفاً في السماء وسُرْماً[4] في الماء !

فقال ابنُ أبي عتيق لنافع : يا نافع ، « قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا » ![5] فقال نافع : ما أصنعُ بمَن صَحَّ نسبُه وبَذُؤَ لسانُه ؟[6].

***

مع أشعب :

٧١ – رَوَى أبو عليٍّ القاليُّ البغداديُّ في كتابه « النوادر » عن إسحاق قال : كان أشعبُ إذا حدَّث عن عبد الله بن عمر يقول : قال حبيبي عبدُ الله ، وكان يُبغِضُني في الله .

قال إسحاق : قال ابن أبي عتيق : دخلت على أشعبَ يوماً وعنده متاعٌ حسَنٌ وأثاثٌ ، فقلتُ : أما تستحي أن تطلب من الناس وعندك مثلُ هذا ؟ فقال : يا فديتُك ! معي مِن لُطْفِ المسألة ما لا تَطيب نفسي

---

(١) قوله : « فَالْطَهْ » من « لَطِيء بالأرض » ، فحذف الهمزة وأتبعها هاء السكت ، يريد : إذا ذُكر عبد مناف فالتصقوا بالأرض ، ولا تَعُدُّوا أنفسكم ، وكونوا كالتراب . وكأن من هذا عاميَّةَ مصرَ في مثل هذا المعنى حيث يقولون : « التهى » و « اتلهى » على القلب .

(٢) الدكادك : جمع « دكدك » و « ودكداك » ، وهو ما تكبَّسَ من الرمل والتراب وتلبَّد واستوى :

(٣) الفَرْث : السِّرقين ما دام في الكَرِش . و « الجِيَّة » بكسر الجيم وفتحها ، وتشديد الياء المفتوحة : مستنقع ماء خبيث آجن في هبطة من الأرض، تَشرع الناس فيه حُشوشهم.

(٤) السُّرم : الدُّبُر ، وقوله : « أنف في السماء وسُرم في الماء » مثل يضرب للمتكبر الصغير الشأن .

(٥) هذه الآية من سورة هود : ٦٢ .

(٦) جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار : ص ٥٢٤ .

بتركه . وكان يقول : أنا أطمع وأمّي تتيقّن ، فإذا اجتمع طمعي ويقينُ أمّي فقلّ ما يُفلتنا[1] .

***

مع رجل ادّعى معرفته :

٧٢ – وحدّث الزبير بن بكّار بسند إلى المدائنيّ قال : شهد رجل عند قاضٍ بشهادة ، فقيل له : مَن يعرفك ؟ قال : ابن أبي عتيق . فبعث اليه – القاضي – يسأله ، فقال : ابن أبي عتيق – : عَدْلٌ رِضاً . فقيل له : أكُنتَ تعرفه قبل اليوم ؟ قال : لا . ولكني سمعته يُنشِد :

غَيّضْنَ من عَبَراتِهنّ وقُلْنَ لي
ماذا لَقِيتَ من الهوَى ولَقِينا !

فعلمتُ أن هذا لا يرسَخ إلّا في قلب مؤمنٍ ، فشهدتُ له بالعَدالة[2] .

***

مع رجل من الأنصار :

٧٣ – وذكر النُّوَيْريُّ ابنَ أبي عتيق فيمن اشتهر بالمزاح من الصحابة ، وقال عنه : هو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، وكان ذا وَرَعٍ وعفافٍ وشرف ، وكان كثير المجون ، وله نوادر مستظرفة ، منها : أنه تعشّى ليلةً ومعه رجلٌ من الأنصار ، فوقع حجرٌ في الدار ، ووقع آخَرُ وثالثٌ .

فقال للجارية : اخرجي فانظري أذّنوا المغربَ أم لا . فخرجتْ وجاءتْ بعد ساعة ، وقالتْ : قد أذّنوا وصلّوا .

---

(١) كتاب ذيل الأمالي والنوادر للقالي : ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٢) الأغاني : ج ١٦ ص ٣١٨ .

فقال الرجلُ الذي كان عنده : أليس قد صلَّيْنا قبلَ أنْ تدخلَ الجارية ؟ قال — ابن أبي عتيق — : بلَى ، ولكن لو لم أرسلْها تسأل عن ذلك لَرَجِعْنا إلى الغَداة ! أفهمتَ ؟ قال : نعمْ ، قد فهمتُ[1] !

* * *

سؤاله عن اسم :

٧٤ — رَوَى سفيانُ بن عُيَيْنة عن أيوبِ بن موسى قال : قال ابن أبي عتيق لرجلٍ : ما اسمُك ؟ قال : وَثَّاب . قال : فما كان اسمُ كلبك ؟ قال : عمرو . فقال ابن أبي عتيق : وَاخِلافاه ![2]

---

(١) نهاية الأرب للنويري : ج ٤ ص ٧ .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة : ج ٢ ص ٣٩ .

الكتابُ الرابع

أبو السَّائِب المخزوميّ

- ترجمة حياته
- أخباره

الفصل الأول

أبو السائب المخزومي
ترجمة حياة

اسم أبي السائب : عبدُ الله ، وكان جَدُّه يُكنَى أبا السائب أيضاً . وكان جَدُّه هذا خليطاً لرسول الله ﷺ ، وكان الرسول إذا ذكره قال : نِعمَ الخليطُ كان أبو السائب ! لا يُشارِي ولا يُمارِي[1] .

وقد تواترت الأخبار على نَعْتِه بصفات كاشفة لكثيرٍ مما كان يتحلَّى به من حميد السجايا وكريم الشمائل والخِلال .

وصفته صفيةُ بنتُ الزبير بن هشام فقالت : كان أبو السائب المخزوميُّ رجلاً صالحاً زاهداً مُتقلِّلاً يصوم الدهر ، وكان أرقَّ خلقِ اللهِ وأشدَّهم غَزَلاً[2] . وذكر معبدٌ أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة[3] .

وقال عنه عزيز بن يحيي الأرنمي : كان أبو السائب من أهل الفضل والنُسْك[4] . وذكره الحُصَريُّ في كتابه « زهر الآداب » فقال : ... وكان أبو السائب المخزوميُّ غزيرَ الأدب ، كثيرَ الطرب ، وكان أشراف أهل المدينة يستظرفونه ويُقدِّمونه لِشَرَف مَنصِبه وحلاوةِ ظَرْفه . وله فكاهات مذكورة وأخبار مشهورة[5] .

---

(١) زهر الآداب : ج ١ ص ١٧٧ ، والمشاراة والمماراة : العنف في الجدل .

(٢) الأغاني : ج ٧ ص ٢٩٠ .   (٣) الأغاني : ج ١ ص ٢٧٧ .

(٤) الأغاني : ج ٢٠ ص ٣٥٦ طبعة دار الحياة .   (٥) زهر الآداب : ج ١ ص ١٧٧ .

وعرض له أبو عليّ الحسنُ بنُ رشيقٍ القيروانيّ فقال : وكان أبو السائب المخزوميُّ — على شرفه ، وجلالته ، وفضله في الدين والعلم — يقول : أمَا والله لو كان الشعرُ مُحرّماً لَوَرَدْنا الرَّحْبَةَ كلَّ يومٍ مِراراً . والرَّحْبَةُ : الموضع الذي تُقام فيه الحدود ، يريد أنه لا يستطيع الصبر عن الشعر فيُحَدّ في كل يوم مرراً ولا يتركه[1] وذكره ابن رشيق مرةً أخرى فقال : ... وقيل لأبي السائب المخزوميّ : أترى أحداً لا يشتهي النسيب ؟ فقال : أمّا مَن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا[2] .

وأبو السائب نفسُه ينبئنا بأن غرامه بالشعر معلومٌ ، وأن الشعر هو طعامُه وغذاؤه !

• غَدَا ابنُ جُندَبٍ الهُذَليُّ عليه في منزله ، فلما خرج اليه أبو السائب أنشده قولَ جرير :

إنّ الذين غدَوْا بُلبّكَ غادَرُوا
وَشَلاً بعينك مـــا يزال مَعينا

غَيّضْنَ مِن عَبَراتهنّ وقُلْنَ لي :
ماذا لَقِيتَ من الهوى ولَقِينا !؟

فحلف أبو السائب ألّا يردّ على أحدٍ سلاماً ، ولا يكلّمَه إلّا بهذين البيتين حتى يرجعَ إلى منزله .

فخرجا فلقِيَهما عبدالعزيز بن عبدالمطلب وهو قاضٍ ، وكانا يُدعَيان « القرينين » لملازمتهما . فلما رآهما قال : كيف أصبح القرينان ؟ فأنشد أبو السائب البيتين ولم يَرُدّ سلاماً ، وجعل يغمزُ ابنَ جُندَبٍ أن يخبرَه بالقصة وابنُ جُندَبٍ يتغـــافل . فقال — ابن المطلب — لابن جُندَبٍ : ما لأبي السائب ؟ فجعل أبو السائب يغمزُه أنْ أخبرْه بيميني .

---

(١) العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ١٧ . (٢) العمدة : ج ٢ ص ١١١ .

قال ابن جندب : أحمد الله اليك ، ما زلت منكراً لفعله منذ خرجنا !
فانصرف ابن المطلب إلى منزله والخصوم ينتظرونه ، فصرفهم ودخل إلى منزله مغتمّاً !

فلما أتى أبو السائب منزله وبرّت يمينه ، خرج إلى ابن جندب فقال : اذهب بنا إلى ابن المطلب ، فإني أخاف أن يردّ شهادتي . فاستأذنا عليه فأذن لهما ، فقال له أبو السائب : قد علمت — أعزّك الله — غرامي بالشعر ، وإنّ هذا الضالّ جاءني حين خرجت من منزلي فأنشدني بيتين ، فحلفت ألّا أردّ على أحد سلاماً ولا أكلّمه إلّا بهما حتى أرجع إلى منزلي ! فقال ابن المطلب : اللهمّ غفراً ! ألا تترك هذا المجون يا أبا السائب [1] ؟

- وحدّث عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيري أن أبا السائب أتاه ، فقال له عروة بعد الترحيب به : ألك حاجة ؟ فقال : نعم ، أبيات لابن أذينة بلغني أنك سمعته ينشدها ، فأنشدته الأبيات :

إن التي زعمت فؤادك ملّها
خلقت هواك كما خلقت هوًى لها

فبك الذي زعمت بها وكلاكما
أبدى لصاحبه الصبابة كلّها

ويبيت تحت جوانحي حبٌّ لها
لو كان تحت فراشها ... لأقلّها

ولعمرها لو كان حبّك فوقها
يوماً وقد ضحيت ... إذن لأظلّها [2]

فإذا وجدت لها وساوس سلوة
شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها

(١) الأغاني : ج ١٦ ص ٣١٧ - ٣١٨ . (٢) ضحيت : تأذّت من الشمس .

بيضاءُ باكَرَها النعيمُ فصاغَها
بلباقةٍ فأدقَّها ... وأجَلَّها

لمّا عَرَضْتُ مُسَلِّماً ليَ حاجةٌ
أخشى صعوبتَها وأرجو ذُلَّها[1]

منعَتْ تحيّتَها فقلتُ لصاحبي :
ما كان أكثرَها لنا وأقَلَّها !

فدَنَا وقال : لعلَّها معذورةٌ
في بعض رِقْبَتِها[2] ، فقلتُ : لعلَّها !

قال عُروة : فلما بلغتُ البيتَ الأخير طرِب — أبو السائب — وصاح وقال : هذا واللهِ الدائمُ الصَّبابةِ ، الصادقُ العهدِ ، لا الذي يقول :

إن كان أهلُكِ يمنعونكِ رَغبةً
عَنّي ، فأهلي بي أضَنُّ وأرغبُ

لقد تجاوز هذا الأعرابيُّ طورَه ، وتجاوز قدرَه ، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبياتِ لِحُسْن الظنّ بها وطلبِ العذر لها !

قال عروة : فعرضتُ عليه الطعام فقال : لا واللهِ ما كنتُ لِأخلِطَ بهذه الأبياتِ طعاماً حتى الليل . وأنصرف[3] .

• ووجَّه أبو السائب ابنه يوماً يأتيه بما يُفطِر عليه ، فأبطأ الغلامُ إلى العَتَمة . فلما جاء قال له : يا عدوَّ نفسِه ، ما الذي أخَّرَكَ إلى هذا الوقت ؟

قال جُزتُ بباب فلانٍ فسمعتُ منه غناءً ، فوقفتُ حتى أخذتُه . فقال : هاتِ يا بُنَيّ ، فواللهِ لئنْ كنتَ أحسنتَ لأَحْبُوَنَّكَ ، ولئن كنتَ أسأتَ لأضرِبَنَّكَ . فاندفع يغنّي بشعر كُثَيِّر :

---

(١) أرجو ذُلَّها : أراد أرجو سهولةَ قضائها وتذليلَها .

(٢) الرقبة : الحذر والخوف . (٣) زهر الآداب للحصريّ : ج ١ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

ولمّا علَوا شَغْباً تبيّنْتُ أنه
تقطّعَ من أهل الحجاز علائِقي
فلا زِلْنَ حَسْرى ظُلَّعاً لِمْ حَمَلْنَها
إلى بلدٍ ناءٍ قليلِ الأصادقِ ؟

فلم يزل يغنّيه إلى نصف الليل ! فقالت له آمرأته : يا هـذا ، قد آنتصف الليلُ وما أفطرنا ! قال لها : أنتِ طالق إن كان فَطورُنا غيرَه ! فلم يزل يغنّيه إلى السَّحَر . فلما كان السَّحَرُ قالت له زوجتُه : هذا السَّحَرُ وما أفطرنا ! فقال : أنتِ طالق إن كان سَحورُنا غيرَه !... إلى آخر الخبر[1].

فهذه الأخبار تُرينا مدى غرامِه بالشعر الذي كان يقتات عليه ويَعُدُّه طعامَ رُوحِه وشرابَها . وكما مرَّ بنا في ترجمة آبن أبي عتيق كان قيسُ آبنُ ذَريح شاعرَه المفضل . يُنشِدُه عبدُ الملك بنُ عبدِ العزيز شعراً لقيس فيطرب له أبو السائب ويقول : لا جرمَ واللهِ لأُخْلِصَنَّ له الصفاءَ ، ولأغضَبَنَّ لِغَضبه ، ولأرْضَيَنَّ لرضاه[2] .

وحدّث عبد الملك بن عبد العزيز أيضاً أن أبا السائب المخزوميَّ قال له : كنتُ مع عبد الرحمن بن عبدالله بن كَثير في سقيفة دار كَثير ، إذْ مرَّ بجنازةٍ ، فقال لي : يا أبا السائب جارُكَ آبنُ كَلَدة ، ألا تقومُ بنا فنصلّيَ عليه ؟ قال : قلت : بَلَى واللهِ فديتُك ! فقمنا حتى إذا كُنّا عند دار أُوَيْس إذْ ذكرتُ أن جدَّه كان تزوّجَ « لُبْنَى » ونزل بها المدينة ، فرجعتُ فطرحْتُ نفسي في السقيفة وقلتُ : لا يراني اللهُ أصلّي عليه . فرجع الكَثيريُّ فقال : أكنتَ جُنُباً ؟ قلتُ : لا واللهِ . قال : فعلى غيرِ وضوءٍ ؟ قلتُ : لا واللهِ . قال : فما لَك ؟ قلتُ : ذَكرْتُ أنَّ جدَّه كان تزوّج « لُبْنَى » وفرّقَ بينها وبين قيس بن ذَريح لمّا

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٢٩٠ - ٢٩١ . (٢) الأغاني : ج ٧ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

ظعَن بهـا من بلادها . فما كنتُ لِأصلّيَ عليه ! [1]

ولم يكن شغفُه بالغناء أقل من غرامه بالشعر ، قال عنه آبن أبي الزناد : كان أبو السائب ذا فضل ، وكان مشغوفاً بالغناء والغزَل [2] .

ومما جمعناه من أخباره ما يفيد أنه كان يحضر مجالسَ الغناء فيستمعُ إلى بعض مُطربي الحجاز من أمثال مَعبدٍ وآبن سَلمة الزُهريّ والأخضر الجدّيّ ، وكذلك إلى بعض الجواري المغنيات من أمثال الزلفاء والعجفاء وبَصْبَص جاريةِ يحيى بن نفيس ، وكان يأتي بحركات غريبه يُعبّر بها عن طَرَبِـه .

• قال مَعبدٌ : أتيتُ أبا السائب المخزوميّ — وكان يصلّي في كل يوم وليلة ألفَ ركعة — فلما رآني تَـجوّز [3] وقال : ما معك من مُبكيات آبن سُرَيْج ؟ قلت قولَـه :

ولَـهُنّ بالبيت العتيـق لُبانَـةٌ
والبيتُ يعرِفُهـنّ لو يتكلّـمُ

لو كان حَيّا قبلـهُنّ ظعائنـاً
حَيّا الحطيمُ وجُوهَـهُنّ وزَمزمُ

لَبِثوا ثلاثَ مِنىً بمنزل غِبطـةٍ
وهُمُ على سفرٍ لعَمرُك مـا هُمُ

مُتجاورِينَ بغـير دارِ إقامةٍ
لو قـد أجدّ تفرّقٌ لم يندَمُوا [4]

فقال : غـنّه ، فـغنّيْتُه . ثم قـام يصلّي فأطال ، ثم تجوّزَ إليّ فقال : ما معك من مطرباته ومُشْجِياتِه ؟ فقلت قولَـه :

---

(1) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٦ . (2) الأغاني : ج ٦ ص ١٦ .
(3) تجوّز في صلاته : خفّف فيها . (4) أجدّ تفرّق : حدث وأسرع .

لَسْنا نُبالي حين نُدركُ غايةً
ما باتَ أو ظلَّ المَطِيُّ مُعَقَّلا

فقال لي : غَنّه ، فَغَنَّيْتُه . ثم صلّى وتجوَّزَ اليَّ وقال : ما معك من مُرقصاته ؟ فقلتُ :

فلم أرَ كالتجمير مَنظرَ ناظرٍ
ولا كَلَيالي الحجّ يَفْتِنَّ ذا هَوَى

فقال : كما أنتَ حتى أتحرَّمَ لهذا بركعتين[1] !

• وحضر مجلساً فيه « بَصْبَصُ » فغنّت :

قلبي حَبيسٌ عليكِ مَوْقوفُ
والعينُ عَبْرَى والدمعُ مَذروفُ
والنفسُ في حَسْرَةٍ بغُصّتِها
قد شَفَّ أرجاءَها التساويفُ[2]
إنْ كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا
فإنني بالهوَى لموصوفُ
يا حَسْرَتَا حَسْرَةً أموتُ بها
إنْ لم يكن لي لديكِ مَعروفُ

فطرِب أبو السائب ونَعَر[3] ، وقال : لا أعرف لله قَدرَه إنْ لم أعرفْ لكِ معروفَكِ . ثم أخذ قِناعها[4] عن رأسها ، وجعل يلطِم ويبكي ويقول لها : بأبي والله أنتِ . إني لأرجو أن تكوني عند الله أفضلَ من الشهداء ، لما تُولِيناه من السرور ! وجعل يصيح واغَوْثاه ! يا للهِ لما يلقى العاشقون[5] !

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٧٣ .
(٢) شفّها : نقصها ونال منها . وأرجاؤها : نواحيها . والتساويف : جمع تسويف، وهو المماطلة.
(٣) نعَر : صاح . (٤) القناع : ما تغطي به المرأة رأسها ومحاسنها .
(٥) الأغاني : ج ١٥ ص ٣٥ .

وإذا كانت الأريحية قد دفعت ابن أبي عتيق لأن يتحمل مشاقّ السفر من المدينة إلى مكة إلى الطائف ليُصلح ما كان بين « الثريّا » وصاحبه عمرَ بن أبي ربيعة ، فإننا نرى أبا السائب المخزوميّ يفعل ذات الشيء ، فيُصلح ما بين عاشقين .

• قال الزبير بن بكّار : كانت سليمةُ المُشاوِبيّةُ عاشقةً لأفلحَ مولى الزُّهريّين ، فأتاها يوماً أبو السائب المخزوميُّ فقال : حدّثيني ، هل أتاكِ من حبيبك رسول ؟ قالت : لا . قال : فهل قلتِ في ذلك شعراً ؟ قالت : نعم ، ثم أنشدَتْه :

ألا ليت لي نحوَ الحبيب مُبَلّغاً
يُبلّغُه التسليمَ ثم يقولُ :
سليمةُ نِضْوٌ ما تُرَجّي حياتَها
من الشوق ، والشوقُ الشديدُ قَتُولُ[1]
تُعالج أحزاناً وتبكي صَبابةً
وأنتَ لِما تلقاه فيكَ جَهولُ !

فقال أبو السائب : أنا والله رسولُك ، فحفظ الشعرَ وتوجّه نحوَ أفلحَ في يومٍ صائفٍ شديدٍ حرُّه ، فلقيَه رجل من الأنصار فقال : يا أبا السائب ، مِن أين أقبلت ؟ قال : من عند سليمةَ المُشاوِبيّة . قال : والى أين تريد ؟ قال : أريد أفلحَ مولى الزُّهريّين أبلّغه رسالتَها . قال : أفي مثل هذا الوقت ؟ قال : إليكَ يا ابن أخي ، فإن الجنة حُفّتْ بالمكاره ، وما عُبِدَ اللهُ إلّا بالصبر على ما ترى[2] .

* * *

والأخبار التي جمعناها لأبي السائب وعددُها ستة وعشرون خبراً ، منها

---

(١) النضو : المهزول من الإبل وغيرها .

(٢) جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصريّ : ص ٤٥-٤٦ .

أخباره مع أهل الغناء، ومنها ما تضمّن تعليقاتٍ له على شعر الغَزَل الذي كان يروقه ويستحسنه.

والشعراء الذين علّق على أشعارهم كلّهم من أبناء عصره، وهؤلاء هم: قيس بن ذَريح، وأبو دَهْبَل الجُمَحيّ، والأحوص، والعرجيّ، وابن قيس الرقيات، وعُروة بن أذينة، وكُثيّر عزّة، وجميل بثينة، وجرير، وابن المولى، وسليمة المشاوبية.

وتعليقات أبي السائب على غزل هؤلاء الشعراء مصبوبةٌ كلّها في قالبٍ من الفكاهة والظّرف، وإذا كانت في مجموعها تدل على بَصَرٍ بالشعر، ولُطْفٍ في التخيُّل، وقدرةٍ عجيبة على تجسيد المعاني وتمثيلها بالحركات، فإننا لا نستطيع أن نَعُدّها نقداً بمعنى النقد. وكلُّ ما يمكن هو النظر اليها على أنها صورةٌ خفيفة من صور نقد الشعر في عصره. وفيما يلي نموذجان من هذه التعليقات.

- حدّث عبد المطلب بن عبد العزيز قال: أنشدت أبا السائب قول جرير:

غَيّضْنَ من عَبَراتهنّ وقُلْنَ لي:
ماذا لَقِيتَ من الهَوى ولَقِينا!؟

فقال: يا ابن أخي، أتدري ما التغييض؟ قلتُ: لا. قال: هكذا، وأشار بإصبعه إلى جفنه، كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه![1]

- وأنشده عبد الملك بن عبد العزيز قولَ الأحوص:

لقد مَنَعَتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ
وإني إلى معروفها لفقيرُ

فلما انتهى إلى قوله:

أزورُ على أنْ لستُ أنفكُّ كلّما
أتيتُ عَدُوًّا بالبَنان يُشيرُ

(١) الأغاني: ج ١٦ ص ٣١٨.

فأعجَب ذلك أبا السائب وَطَرِب وقال : أتدري يا أبن أخي كيف كانوا يقولون ؟ الساعةَ دخل ، الساعةَ خرج ، الساعةَ مَرّ ، الساعةَ رجع ! وجعل يُومِئ بإبهاميه إلى وراء مَنْكِبَيْه ، وبسَبّابَتَيْه الى حيال وجهه ويُقلّبُهما ، يحكي ذَهابَه ورُجوعَه [١] !

وأبو السائب المخزومي — كصاحبه أبن أبي عتيق — لم نهتـد إلى تاريخ مولده ووفاته . ولكننا نفهم من خبر جاء في الأغاني [٢] أنه كان على قيد الحياة أيام ولاية الحسن بن زيد على المدينـة من قبل أبي جعفر المنصور ، والتي استمرت من سنة ١٥٠ إلى سنة ١٥٥ للهجرة [٣].

ومعنى ذلـك أن أبا السائب كان من مُخَضْرمي الدولتين : الأمويّة والعباسيّة ، وأن عَلاقته بابن أبي عتيق الذي تُوفي قبل سنة ١٣٠ للهجرة بزمنٍ مَا ، كانت في أخريات أيام أبن أبي عتيق .

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) الأغاني : ج ٣ ص ٢٨٩ – ٢٩١ .   (٣) انظر الطبري : ج ٨ ص ٣٢ – ٤٩ .

الفصل الثاني

أخبار أبي السّائب المخزوميّ

- مَع الشعراء
- مَع أهل الغناء

القسم الأول

أخباره مع الشعراء

مع شعر قيس بن ذريح :

١ – قال القحذمي حدثني أبو الوردان قال حدثني أبي قال : أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس بن ذريح :

صدعت القلب ثم ذررت فيه
هواك فليم فالتأم الفطور[١]

تغلغل حيث لم يبلغ شراب
ولا حزن ولم يبلغ سرور !

فصاح بجارية له سندية تسمى « زبدة » فقال : أي زبدة عجلي . فقالت : أنا أعجن . فقال : ويحك ! تعالي ودعي العجين . فجاءت فقال لي : أنشدني بيتي قيس ، فأعدتها . فقال لها : يا زبدة أحسن قيس وإلا فأنت حرة ! ارجعي الآن إلى عجينك أدركيه لا يبرد[٢] .

***

٢ – حدث إسماعيل بن أويس قال : جلست أنا وأبو السائب في « النبالين » فأنشدني قول قيس بن ذريح :

---

(١) ليم : أصلح ، والتأم : التحم وبرأ ، والفطور : الشقوق .
(٢) الأغاني : ج ٩ ص ١٩٠ .

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لُبْنَى ولُبْنَى
داءُ قيسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ

وإذا عادني العوائدُ يوماً
قالتِ العينُ : لا أرَى مَن أريدُ

ليت لُبْنَى تَعُودُني ثم أقضِي
إنها لا تعود فيمن يعودُ !

قال : فأنشدتُه أنا لقيس :

تعلَّق رُوحِي رُوحَها قبل خَلْقِنا
ومن بعدِ ما كُنَّا نِطافاً وفي المَهْدِ[1]

فزادَ كما زِدْنا وأصبح نامياً
وليس إذا مُتْنا بمُنْصَرِمِ العَهْدِ

ولكنَّهُ باقٍ على كلِّ حادثٍ
وزائرُنا في ظُلْمة القبرِ واللَّحْدِ !

فحلَف لا يزال يقوم ويقعد حتى يَرْوِيَها . فدخل « زقاق النَّبَّالين » وجعلتُ أرَدِّدُها عليه ويقوم ويقعد حتى رَوَاها[2] .

***

٣ ـ حدَّث عبدُ الملك بنُ عبدِالعزيز قال : تزوَّج رجل من أهل المدينة يقال له « أبو دُرَّةَ » امرأةً كانت قبلَه عند رجل آخَر من أهل المدينة يقال له « أبو بُطَينة » ، فلقيَه زوجُها الأول فضربه ضربةً شُلَّتْ يدُه منها .

---

(١) نِطافٌ : جمع نُطفة ، وهي ماء الرجل والمرأة .

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ١٩٦ .

فلقيَه أبو السائب المخزوميُّ فقال له : يا أبا دُرَّةَ ! أضرَبكَ أبو بُطَينة في زوجته ؟ قال : نعم . قال : أمَا إني أشهد أنها ليست كما قال قيس ابن ذَريح في زوجته لُبْنَى :

لقد كان فيها للأمانة موْضِعٌ ... وللكفِّ مُرتادٌ وللعين مَنْظَرُ
وللحائم العطشانِ رِيٌّ بِريقِها ... وللمَرِح المختالِ خمرٌ ومُسْكِرُ

قال : وكانت زوجةُ أبي دُرَّةَ هذه سوداءَ كأنها خُنفَساء ! (١)

***

٤ - حدَّث الزبير بن بكَّار قال حدَّثني عبد الملك بن عبد العزيز قال : أنشدتُ أبا السائب المخزوميَّ قولَ قيس بن ذَريح :

أُحِبُّكِ أصنافاً من الحبِّ لم أجِدْ
لها مَثَلاً في سائرِ الناسِ يُوصَفُ

فمنهنَّ حُبٌّ للحبيبِ ورحمةٌ
بمعرفتي منه بما يتكلَّفُ ...

ومنهنَّ ألَّا يَعرِضَ الدهرَ ذِكْرُها
على القلب إلَّا كادتِ النفسُ تَتْلَفُ

وحُبٌّ بَدَا بالجسم واللونِ ظاهرٌ
وحُبٌّ لدى نفسي من الروح ألطفُ

قال أبو السائب : لا جَرَمَ والله لأُخْلِصَنَّ له الصفاءَ ولأَغْضَبَنَّ لغضَبِه ، ولأَرْضَيَنَّ لرضاه (٢) .

---

(١) الخنفساء : دُوَيبَّة سوداء أصغرُ من الجُعَل مُنتنة الريح ، وهي تتولد من عفونة الأرض ، وبينها وبين العقرب صداقة ، ولهذا يسميها أهل المدينة الشريفة جاريةَ العقرب . وقال حنين بن إسحاق: طريق طرد الخنافس أن يُطرَح في أماكنها الكرفس فإنها تهرب من ذلك المكان . « حياة الحيوان الكبرى للدميري : ج ١ ص ٣٠٧ » . الأغاني : ج ٩ ص ٢٠٦ .

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٥-٢١٦ .

* * *

٥ — وحدَّث الزبير بن بكَّار عن عبدالملك بن عبدالعزيز عن أبي السائب المخزوميّ أنه أخبره أنه كان مع عبدالرحمن بن عبدالله بن كَثير في سَقيفة دار كَثير ، إذْ مرَّ بجنازةٍ ، فقال لي : يا أبا السائب ، جارُك ابنُ كَلَدة ، ألاَ تقوم بنا فنصلّيَ عليه ؟ قال : قلت : بَلى والله فديتُك! فقمنا حتى إذا كنا عند دار أُوَيْس إذْ ذكرتُ أنَّ جَدَّه كان تزوَّج لُبْنَى ونزل بها المدينة ، فرجعتُ فطرحتُ نفْسي في السقيفة وقلت : لا يراني اللهُ أُصلّي عليه .

فرجع الكَثيريُّ فقال : أكنتَ جُنُباً ؟ قلتُ : لا والله . قال : فعلى غيرِ وُضوءٍ؟ قلتُ : لا والله . قال : فمالَك؟ قلتُ : ذكرتُ أنَّ جَدَّه كان تزوَّج لُبْنَى وفرَّقَ بينها وبين قيس بن ذَريح لمّا ظعَن بها من بلادها ، فما كنتُ لِأُصلّيَ عليه ![1]

* * *

٦ — وأخبر محمد بن العباس اليزيديّ بإسناد إلى الخليل بن سعيد قال : مررتُ بسوق الطير ، فإذا الناس قد اجتمعوا يركب بعضُهم بعضاً ! فاطّلعتُ فإذا أبو السائب المخزوميُّ قائمٌ على غرابٍ يُباع ، وقد أخذ بطرَفِ ردائه وهو يقول للغراب : يقول لك قيسُ بنُ ذَريح :

ألاَ يا غرابَ البين قد طِرْتَ بالذي
أحاذرُ من لُبْنَى فهل أنت واقعُ ؟

لِمَ لا تقع ؟ ويضربه بردائه والغرابُ يصيح ! قال : فقال قائلٌ له : أصلحكَ اللهُ يا أبا السائب ! ليس هذا ذاكَ الغرابَ . فقال : قد علمتُ ، ولكني آخذُ البريءَ حتى يقع الجريءُ[2] .

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٦ . (٢) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٦ .

* * *

مع شعر أبي دَهْبَل :

٧ – قال الزبير بن بكّار وحدثني عمّي مصعبُ بن عبد الله قال : أنشد رجلٌ أبا السائب المخزوميّ قصيدةَ أبي دَهْبَل[١] :

سقى اللهُ جازاناً فمن حلَّ وليهُ
فكلَّ فسيلٍ من سهامٍ وسُرْدُدِ[٢]

فلما بلغ قولـه :

فوانَدَمِي أنْ لم أعجْ إذْ تقول لي :
تقدَّمْ فشيّعْنا إلى ضحْوةِ الغدِ

قال أبو السائب : ما صنع شيئاً ! ألاَ أكترى حماراً بدرهمين فشيّعهم ولم يَقلْ : « فوَانَدَمي » أو اعتذر ؟ وإني أظن أنه قد كان له عُذرٌ . قال الرجل : وما هو : قال : أظنه كان مثلي لا يجد شيئاً ![٣]

* * *

٨ – حدّث عمر بن شَبّةَ عن أبي غسّان قال : سمع أبو السائب المخزوميُّ رجلاً يُنشِد قولَ أبي دَهْبَل :

أليس عجيباً أن نكونَ ببلدةٍ
كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ ؟

---

(١) أبو دَهْبَل : هو وَهْب بن زمعة بن أُسَيْد الجُمَحيّ . كان رجلاً جميلاً شاعراً ، وكانت له جُمّة يُرسلها فتضرب مَنكِبيه ، وكان عفيفاً ، وقال الشعر في آخر خلافة عليّ بن أبي طالب ، ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير ، وقد كان ابن الزبير ولاّه بعض أعمال اليمن .

(٢) جازان : موضع في طريق حاجّ صنعاء ، والوَليُ : القُرْب ، يقال داره وَليُ داري ، أي قربها . والفسيل : جمع فسيلة وهي الصغيرة من النخل . وسَهام : اسم موضع باليمامة كانت به وقعة أيام أبي بكر بين ثمامة بن أثال ومسيلمة الكذاب . وسُرْدُد : وادٍ مشهور متسع بتهامة اليمن مشتمل على قرى ومدن وضياع .

(٣) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٠ .

فقال له أبو السائب : قفْ يا حبيبي فوقف ، فصاح بجارية : يا سلَامةُ اُخرجي فخرجتْ ، فقال له : أعِدْ بأبي أنتَ البيتَ فأعاده ، فقال : بلى واللهِ إنه لعجيبٌ عظيم ، وإلّا فسلَامةُ حُرّةٌ لوجه الله ! اِذهبْ فدَيْتُكَ مُصاحبا .

ثم دخل ودخلت الجارية تقول له : ما لقِيتُ منك ! لا تزال تقطعني عن شُغلي فيما لا ينفعك ولا ينفعني[1] !

* * *

٩ – حدّث الزبير عن عمّه عن القاسم بن المعتمِر الزُهْري قال : قلتُ لأبي السائب المخزوميّ : يا أبا السائب أمَا أحسنَ أبو دهْبَل حيث يقول :

أأترك ليلى ليس بيني وبينها
سوى ليلةٍ ؟ إني إذَنْ لصبورُ
هَبُوني امْرأً منكم أضلَّ بَعيرَهُ
له ذِمّةٌ إنّ الذِمامَ كبيرُ
ولَلصّاحبُ المتروكُ أفضلُ ذِمّةً
على صاحبٍ من أن يَضلَّ بَعيرُ

قال : فقال لي : وبأبي أنت ! كنتُ واللهِ لا أحبُّك وتَثْقُل عليَّ ، فأنا الآن أحبُّك وتَخِفُّ عليَّ[2] .

* * *

مع شعر الأحوص :

١٠ – حدّث عبد الملك بن عبد العزيز قال : قال لي أبو السائب المخزوميُّ : أنشِدْني للأحوص[3] ، فأنشدتُه قولَه :

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ١٢٠ . (٢) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٣ .

(٣) الأحوص : اسمه عبدالله ، ولقب «الأحوص» لِحَوَص ، أي ضيق كان في مؤخر عينيه أو في إحداهما . عدّه ابن سلام في الطبقة السادسة لشعراء الإسلام ، ولشعره رونق وديباجة صافية ، وحلاوة وعذوبة ألفاظ .

قالتْ – وقلتُ : تحرَّجِي وَصِلِي
حبلَ أمرىءٍ بوِصَالكمْ صَبّ – :

واصلْ إذَنْ بَعلي ، فقلتُ لها :
الغــدرُ شيءٌ ليس مِن ضَرْبي !

قال : فأقبل عليَّ أبو السائب فقال : يا آبنَ أخي ، هذا واللهِ المحبُّ عَيْناً ، لا الذي يقول :

وكنتُ إذا خليلٌ رامَ صُرْمِي
وجدتُ وَرَايَ مُنْفَسَحاً عَريضاً[1]

إذهبْ ، فلا صحبك الله ، ولا وَسَّع عليك ! يعني قائلَ هذا البيت[2].

***

وأورد الحُصَريُّ هذا الخبرَ في كتابه «زهر الآداب» مع زيادة في أبيات الأحوص وتغيير قليل في لفظ الخبر فقال :

رَوى الزُبير عن رجل لم يُسَمِّه ، قال : قال لي أبو السائب : أنشِدْني للأحوص ، فأنشدنه :

قالتْ – وقلتُ : تَحرَّجِي وَصِلِي
حبلَ أمرىءٍ بوصالِكمْ صَبّ – :

صاحبْ إذنْ بَعْلي ، فقلتُ لها :
الغــدرُ شيءٌ ليس من ضَرْبي ![3]

شيئــان لا أدنو لوصــلهما
عِرْسُ الخليلِ وجــارةُ الجَنْبِ

(١) الصُّرم : الهجر . (٢) الأغاني : ج ٤ ص ٢٦٤–٢٦٥ .
(٣) ليس من ضربي : ليس من طبعي وخُلُقي .

أما الخليلُ فلستُ فاجعَهُ
والجارُ أوصاني بهِ رَبّي

عُوجَا كذا نَذكُرْ لغانيةٍ
بعضَ الحديث مَطيَّكُمْ صَحْبي[1]

ونَقُلْ لها: فيمَ الصُّدودُ ولمْ
نُذنبْ بَلَ أنتِ بدأتِ بالذنبِ؟

إنْ تُقبِلي نُقبِلْ ونُنزِلكُمْ
منا بدارِ السَّهلِ والرَّحْبِ

أو تَهجُري تَكْدُرْ معيشَتُنا
وتُصدَّعي مُتلائمَ الشَّعْبِ

فقال — أبو السائب —: هذا واللهِ المحبُّ حقًّا، لا الذي يقول:

وكنتُ إذا حبيبٌ رَامَ هَجْري
وجدتُ وَرَايَ مُنْفَسَحًا عريضًا

ثم قال: اِذهبْ، فلا صَحِبكَ اللهُ ولا وَسَّعَ عليك[2]!

***

١١ — حدَّث الزبير عن عبد الملك بن عبد العزيز قال: أنشدتُ أبا السائب المخزوميَّ قولَ الأحوَص:

لقد مَنعَتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ
وإني إلى معروفها لَفقيرُ

فلما انتهيتُ إلى قوله:

أزورُ على أنْ لستُ أنفكُّ كلَّما
أتيتُ عَدُوًّا بالبَنانِ يُشيرُ

---

(١) عُوجَا مَطيَّكم: قِفا مطيكم، أو مِيلاَ بها وعَرِّجا.

(٢) زهر الآداب للحصري: ج ١ ص ١٧٨ — ١٧٩، وتعليق أبي السائب هنا مُوجَّه إلى صاحب البيت الأخير.

أعجبه ذلك وطَرِب وقال : أتدري يا ابنَ أخي كيف كانوا يقولون ؟ الساعةَ دخل ، الساعةَ خرج ، الساعةَ مرّ ، الساعةَ رجَع ! وجعل يومئ بإبهامَيْه إلى وراء مَنكبيه ، وبسبّابتَيْه إلى حيالِ وجهِه ويقلّبهما ، يحكي ذهابَه ورُجوعَه (١) .

* * *

مع شعر جرير :

١٢ – حدّث الزبير بنُ بكّار قال : حدّثني عمّي وغيرُه قالوا : غدَا عبدُ الله بنُ مُسلم بن جُندَبٍ الهُذَليّ على أبي السائب المخزوميّ في منزله ، فلما خرج إليه أبو السائب أنشده قولَ جرير :

إنّ الذين غدَوْا بلُبّكَ غادَرُوا
وَشَلاً بعينكَ ما يزالُ مَعِينا (٢)

غيَّضْنَ مِن عَبَراتِهنّ وقُلْنَ لي :
ماذا لَقِيتَ من الهوَى ولَقِينا !؟ (٣)

فحلف أبو السائب ألّا يَرُدّ على أحدٍ سلاماً ، ولا يكلّمَه إلّا بهذين البيتين ، حتى يرجع إلى منزله .

فخرجا ، فلَقِيَهما عبدُ العزيز بنُ المطّلب وهو قاضٍ ، وكانا يُدعَيانِ « القرينين » لملازمتهما . فلما رآهما قال : كيف أصبح القرينان ؟ فأنشدَ أبو السائب البيتين ولم يَرُدّ سلاماً ، وجعل يغمِزُ ابنَ جُندَبٍ أنْ يخبره بالقصة وابنُ جُندَبٍ يتغافل ، فقال لابن جُندَبٍ : ما لأبي السائب ؟ فجعل أبو السائب يغمزه أنْ أخبرْه بيميني .

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٥٨–٢٥٩ .
(٢) غادروا : تركوا . والوشَل : الماء القليل . والمَعين : الماء الصافي الجاري .
(٣) غيّضْنَ من عبراتهنّ : أي كفَفْنَها ومسَحْنَها حتى تغيض .

قال ابن جُنْدَبٍ : أحمَدُ اللهَ إليك ، مـا زلتُ مُنكراً لفعله منذُ خرجنا . فانصرف ابنُ المطّلب إلى منزله والخصومُ ينتظرونه ، فصرفهم ، ودخل إلى منزله مُغتمّـًا .

فلما أتى أبوالسائب منزلَـه وبَرّتْ يمينُه ، خرج إلى ابن جندَبٍ فقال : اذهبْ بنا إلى ابن المطّلب ، فإني أخاف أن يَرُدَّ شهادتي . فاستأذنا عليه فأذنَ لهما ، فقال له أبو السائب : قـد علمتَ — أعزّك اللهُ — غرامي بالشعر ، وإنّ هذا الضالّ جاءني حين خرجتُ من منزلي فأنشدني بيتين ، فحلَفتُ ألّا أرُدّ على أحـدٍ سلاماً ولا أكلّمَه إلّا بهما ، حتى أرجعَ إلى منزلي .

فقال ابنُ المطّلب : اللهمّ غَـفْراً ! ألاَ تترك المجونَ يا أبا السائب ؟

ويَرْوِي الزبير بن بكّـار أن عبدالمطلب بن عبدالعزيز هو الذي حدّثه بهذا الخبر ، وأنه عندما أنشد أبا السائب قول جرير :

غَيّضْنَ من عَبَراتِهنّ وقُلْنَ لي :
ماذا لقيتَ من الهوَى ولَـقِينا !؟

قال له أبو السائب : يا ابن أخي ، أتدري ما التّغْييضُ ؟ قلتُ : لا . قال : هكذا ، وأشار بإصبعه إلى جَـفنه ، كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه [١] .

* * *

١٣ — وحدّث الزبير عن محمد بن الحسن ومحمد بن الضحّاك أنهما قالا :

كان أبو السائب المخزوميُّ واقفاً على رأس بئر فأنشده ابن جُندَبٍ :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبّكَ غادروا
وَشَلاً بعينـكَ لا يزال مَعِينَا

---

(١) ينضح الدمع : يَرُشّه . الأغاني : ج ١٦ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

فرمَى بنفسه في البئر بثيابه ، فبعد لأيٍ مَا أخرجوه[1] .

* * *

مع شعر ابن قيس الرقيَّات :

١٤ – حدَّث الزبير بن بكَّار قال حدَّثنا عبد الرحمن بن غُرَيْر الزُّهريّ قال : أنشدتُ أبا السائب المخزوميَّ قولَ أبن قيس الرقيَّات :

قد أتانا من آلِ سُعْدَى رسولُ
حبَّذَا مَا يقولُ لي وأقولُ

من فتَاةٍ كأنها قَرْنُ شمسٍ
ضَاق عنهَا دَمَالِجٌ وحُجُولُ[2]

حبَّذَا ليلتي بمِزَّةِ كلبٍ ..
غالَ عنّي بها الكوانينَ غُولُ[3]

فقال لي : يا أبن الأمير ، ما تُرَاه كان يقول وتقول ؟ قلتُ :

حديثاً كما يَسْري النَّدَى لو سمعتَه
شفَاكَ من أدْواءٍ كثيرٍ وأسْقَمَا

فَطَرِب وقال : بأبي أنت وأمّي ! ما زلتُ أحِبُّك ، ولقد أضْعفَ حُبّي إياك ، حين تفهم عني هذا الفهم !

* * *

وقد دار حول هذه الأبيات حِوارٌ آخر يشبه حِوار أبي السائب مع عبدالرحمن بن غُرَيْر الزُّهري . ونحن نورده هنا لما بينهما من تشابه .

---

(١) الأغاني : ج ١٦ ص ٣١٨ – ٣١٩ .

(٢) الدمالج : جمع دُمْلُج ، وهو حليــة تُلبَس في العَضُد . والحجول : جمع حَجْل ، وهو الخَلخَال . يريد أنها بَضَّة سمينة ضاقت عنها دمالجها وحجولها .

(٣) مِزَّة كلب : قرية كبيرة غنّــاء في وسط بساتين دمشق . والكوانين : الثقلاء من الناس . والغُـول : الداهية .

حدّث عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان قال : أنشد أشعبُ بنُ جُبَيْر أبي أبياتَ عبيدالله بن قيس الرقيات التي يقول فيها :

قد أتانا من آل سُعْدَى رسولُ
حبّذا مـــا يقول لي وأقولُ

فقال أبي : وَيْحكَ يا أشعبُ ! ما تُراه قال وقالتْ له ؟ فقال :

حديثاً لوَ أنّ اللحمَ يَصْلَى بِحَرّه
غَريضاً أتَى أصحابَه وهْو مُنْضَجُ[1]

ذكرَ شوقاً ووصفَ تَوْقاً ، ووَعدَ ووَفى ، والتقيا بِمزّةِ كلب فشفَى واشتفَى ، فذلك قوله :

حَبّذا ليـلتي بِمزّةِ كلبٍ ..
غالَ عنّي بها الكوانينَ غُولُ

فقال له : إنك لعلّامةٌ بهذه الأحوال ! قال : أجـل ! بأبي أنت ! فاسألْ عالماً عن علمه[2] .

***

مع شعر داود بن سَلْم

١٥ - رَوى الحسين بن يحيي بسند إلى ابن أبي الزّناد قال : كنت ليلةً عند الحسن[3] بن زيد ببطحاءِ[4] ابنِ أزهر نِصْفَ الليل جلوساً في القمر ، وأبو السائب المخزوميُّ معنا ، وكان ذا فضل ، وكان مشغوفاً

(١) اللحم الغَريض : الطريّ .
(٢) انظر الخبرين في الأغاني : ج ٥ ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٣) ولي الحسن بن زيد المدينة من قبل أبي جعفر المنصور من سنة ١٥٠ - ١٥٥ انظر الطبري : ج ٨ ص ٣٢ - ٤٩ .
(٤) بطحاء ابن أزهر : على ستة أميال من المدينة ، حيال ذي الحُلَيْفة .

بالسماع والغَزَل ، وبين أيدينا طَبَقٌ عليه فَرِيك[1] ، فنحن نُصِيبُ منه ، والحسنُ يومئذٍ عامِلُ المنصور على المدينة ، فأنشد الحسنُ قول داود بن سَلْم وجعل يَمُدُّ به صوتَه ويُطرِبُه :

فعَرَّسْنا ببطنِ عُرَيْتِنات
ليجمعَنا وفاطمةَ المسيرُ .. [2]

أتَنْسَى إذْ تعرَّضَ وهْوَ بادٍ
مُقَلَّدُها كما بَرَقَ الصَّبِيرُ ؟ [3]

ومَن يُطع الهوَى يُعرَفْ هَواهُ
وقد يُنبيك بالأمر الخبيرُ

على أنّي زَفَرْتُ غداةَ هَرْشَى
فكاد يُريبُهم منّي الزفيرُ [4]

قال : فأخذ أبو السائب الطبقَ ! فوَحَّشَ [5] به إلى السماء ، فوقع الفَريك على رأس الحسن بن زيد ، فقال : مالك ؟ وَيحَكَ ! أجُنِنْتَ ؟ فقال له أبو السائب : أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله ﷺ ، إلّا ما أعدْتَ إنشادَ هذا الصوتِ ومدَدْتَه كما فعلتَ !

قال : فما مَلَكَ الحسنُ نفسَه ضَحِكاً ، وردَّ الحسنُ الأبياتَ لاستحلافه إيّاه . قال ابن أبي الزناد : فلما خرج أبو السائب قال لي : يا ابنَ أبي الزناد ، أما سمعتَ مَدَّه :

ومَن يطعِ الهوَى يُعرَفْ هَواهُ ؟

---

(١) الفريك : طعام يُفرك ويُلَتُّ بسمن أو غيره .
(٢) عرَّسَ القوم : نزلوا في السَّفر آخر الليل للاستراحة ثم يرتحلون ، وعُرَيتنات : اسم وادٍ ، وقيل ماء بعدنة .
(٣) المقلَّد هنا : موضع القلادة من العنق ، والصَّبير : السحاب الأبيض لا يكاد يمطر .
(٤) هَرْشَى : ثنية قرب الجُحْفة في طريق مكة يُرى منها البحر .
(٥) وَحَّشَ : رمَى .

فقلت : نعمْ . قال : لو علمتُ أنــه يقبل مالي لدفعتُه إليه بهذه الأربعة الأبيات ![1] .

* * *

مع شعر العرجيّ :

١٦ – حدّث مُصْعَب بن عبدالله عن أبيه قال : أتاني أبو السائب المخزوميُّ ليلةً بعدَما رقَد السّامرُ فأشرفتُ عليــه فقال : سَهِرتُ وذكرتُ أخاً أستمتعُ به ، فلم أجدْ سواك ، فلو مَضينا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا ! فمضينا فأنشدتُه في بعض ذلك بيتين للعرجيّ :

باتا بأنعَم ليـلةٍ حتى بــدا
صُبْحٌ تلوّحَ كالأغــرِّ الأشقرِ
فتلازَمَا عنــد الفراق صَبابةً
أخْذَ الغريم بفَضل ثوبِ المُعْسِرِ

فقال : أعِدْهُ عليَّ . فأعدتُه . فقال : أحسنَ والله ! امرأتُه طالق إنْ نطقَ بحرفٍ غيرِه حتى يرجعَ إلى بيته .

قال : فلَقِينا عبدَالله بن حسن بن الحسنَ بن عليّ بن أبي طالب ، فلما صِرْنا اليه وقف بنا ، وهو مُنصرفٌ من ماله يريد المدينــةَ فسلّم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ١٦ . وداود بن سَلْم صاحبُ الأبيات شاعر مخضرم من شعراء الدولتين : الأموية والعباسية ، من ساكني المدينــة ، ويقال له : داود الآدم ، لشدة سواده . وكان من أقبح الناس وَجْهاً وأبخلِهم . طرقَـه قومٌ بالعقيق فصاحوا به: العَشَاء والقِرَى يا ابن سَلْم فقال لهم : لا عَشاء لكم عندي ولا قِرًى . قالوا : فأين قولك :

يا دارَ هندٍ ألاَ حُيّيتِ من دارِ   لم أقضِ منكِ لُباناتي وأوطاري
عُوِّدْتُ فيها إذا ما الضيفُ نَبّهني   عَقْرَ العِشارِ على يُسْري وإعْساري؟

قال : لستم من أولئك الذين عَنَيْتُ !

فتلازَمَا عنــد الفراق صَبابةً
أخْذَ الغريمِ بفَضل ثوبِ المُعْسِرِ

فالتفت إليّ فقال : متى أنكرتَ عقلَ صاحبِك ؟ فقلتُ : منـذُ الليـلة ! فقال : إنا لله ! وأيُّ كَهْلٍ أصيبتْ به قريش !

ثم مضينا فلقِينا محمدَ بنَ عمرانَ التيميّ قاضيَ المدينةِ يريد مالاً له على بغلة له وكان أثقلَ الناس جسماً ، ومعه غلامٌ له على عُنُقه مِخلاةٌ فيها قَيْدُ البغلة فسلّم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازَمَا عنــد الفراق صَبابةً
أخْذَ الغريمِ بفَضل ثوبِ المُعْسِرِ

فالتفت إليّ فقال : متى أنكرتَ عقلَ صاحبِك ؟ قلتُ : آنفاً .

فلما أراد المُضيَّ قلت : أفتدَعُه هكذا ؟ والله ما آمَنُ أن يتهوّرَ[1] في بعض آبارِ العقيق[2] ! قال : صدقتَ . يا غلامُ ، هاتِ قَيْدَ البغلة . فأخَذ القيدَ فوضعه في رِجْله وهو يُنشِدُ البيتَ ، ويُشير بيده اليـه يُري أنه يفهَم عنه قِصّتَه . فلما أطالَ نزل الشيخُ عن البغلة وقال لغلامه : يا غلامُ ، احمِلْه على بغلتي وألْحِقْه بأهله .

فلما كان بحيثُ علمتُ أنه قد فاته ، أخبرته بخبره ، فضحك وقال : قبّحكَ اللهُ ماجناً ! فضحْتَ شيخاً من قريش وغرَرْتَني[3] . وفي رواية أخرى قال : وعذبتني وأنا لا أقدر أن أتحرك[4] .

---

(١) تهوّر الرجل : وقع في الأمر بقلة مبالاة ، وتهوّر في البئر : سقط .

(٢) العقيق : لفظة يطلقها العرب على كل مسيل ماء شقه السيل في الأرض فأنهره وأوسعه. والعقيق المراد هنا : هو عقيق المدينة ، وفيه عيون ونخيل .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

(٤) جمع الجوامع للحصري : ص ٤٦ – ٤٧ .

***

مع شعر ابن المولى :

١٧ - حدّث الزبير بن بكّار قال حدثني عبد الملك بن عبد العزيز قال : خرجتُ أنا وأبو السائب المخزوميُّ وعُبَيدُالله بنُ مسلم بن جُنْدَب وابن المولى وأصْبَغُ بنُ عبدالعزيز بن مروان إلى « قُباء »[١] وابنُ المولى متنكّبٌ[٢] قوساً عربية ، فأنشد ابنُ المولى لنفسه :

وأبكي فلا لَيْلَى بكَتْ من صَبابةٍ
إليَّ ولا لَيْلَى لذي الوُدّ تَبذُلُ ...
وأخنع بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذنباً
وإنْ أذنبتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ[٣]

فقال له أبو السائب وعُبَيدُالله بنُ مسلم بن جُنْدَب : مَن لَيْلَى هذه حتى نقودَها اليكَ ؟ فقال لهما ابنُ المولى : ما هي واللهِ إلّا قَوْسِي هذه سمَّيْتُها لَيْلَى !

***

وأورد صاحب الأغاني هذا الخبر بصورة أخرى فقال : أخبرني عمّي بإسناد إلى عمرو بن أبي عمرو قال : بلغني أنّ الحسن بن زيد[٤] دعا بابن المولى فأغلظ له وقال : أتُشَبِّب بِحُرَم المسلمين وتُنشِدُ ذلك في مسجد رسول الله ﷺ وفي الأسواق والمحافل ظاهراً ؟ فحلف له بالطلاق أنه ما تعرّضَ لِحُرَمٍ قطُّ ، ولا شبّب بامرأةٍ مُسْلِمٍ ولا مُعاهَدٍ قطُّ .

---

(١) قُباء : قرية على ميلين من المدينة ذات آبار ومياه عذبة ، وبها مسجد التقوى ، وهو المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم . بناه المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله ومَن نزلوا عليه من الأنصار . ولما هاجر رسول الله وورد «قُباء» صلّى بالمسلمين فيه .

(٢) تنكّبَ القوس إذا ألقاها على مَنكِبِه . (٣) أخنع : أخضع . والعُتبَى : الرِّضا .

(٤) الحسن بن زيد كان عاملاً لأبي جعفر المنصور على المدينة من سنة ١٥٠ – ١٥٥ للهجرة .

قال : فمَن ليلى هذه الذي تَذكُرها في شِعرك ؟ فقال له : أمرأتي طالقٌ إنْ كانتْ إلّا قَوْسِي هذه ، سمّيتُها ليلى لِأذكُرَها في شِعري، فإن الشعر لا يَحسُنُ إلّا بالتشبيب .

فضحك الحسن ثم قال : إذا كانت القصةُ هذه فقلْ ما شئت [1].

***

مع شعر عُروة بن أذَينة :

١٨ — روى مصعبُ بنُ عبدِالله الزبيريُّ عن عُروةَ بنِ عبيدِالله ابن عروةَ الزبيريِّ قال : كان عُروةُ بنُ أذَيْنة [2] نازلاً في دار أبي بالعقيق، فسمعتُه يُنشِد لنفسه :

إنَّ التي زعمتْ فؤادَك مَلَّها
خُلقتْ هواكَ كما خُلقْتَ هوًى لها

فبكَ الذي زَعمتْ بها وكِلاكُما
أبْدَى لصاحبه الصَّبابةَ كُلَّها

ويبيتُ تحتَ جوانحي حُبٌّ لها
لو كان تحتَ فِراشِها لأقلَّها

ولَعَمْرُها لو كان حبُّكَ فَوْقَها
يوماً وقد ضَحِيَتْ إذنْ لأظَلَّها [3]

فإذا وَجَدْتَ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ
شفعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسَلَّها

بيضاءُ باكَرَها النعيمُ فصَاغَها
بِلَباقَةٍ فأدَقَّها وأجَلَّها [4]

---

(١) الأغاني : ج ٣ ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

(٢) هو عروة بن يحيى المتوفى سنة ١٣٠ كان شاعراً غزلاً ، فضلا عن تقدمه في الفقه والحديث .

(٣) ضَحِيَتْ : تأذَّتْ من الشمس .

(٤) أدقَّها وأجلَّها : أدقَّ المواضع التي يجب أن تكون دقيقة ، وأجلَّ المواطن التي يجب أن تكون جليلة ، فهي مثلاً دقيقة الخصر وثيرة الردف .

لمّا عَرَضْتُ مُسَلّماً لِيَ حاجَةٌ
أخشَى صُعوبتَها وأرجُو ذُلّها[1]

مَنَعَتْ تحيّتَها فقلتُ لصاحبي :
ما كان أكثرَها لنا وأقلّها !

فدَنَا وقال : لعلّها معذورةٌ
في بعض رِقْبَتِها فقلتُ : لعلّها[2]

قال : فأتاني أبو السائب المخزوميُّ فقلتُ له بعد الترحيب به : ألكَ حاجةٌ ؟ فقال : نعم ! أبياتٌ لعُروةَ بلغني أنك سمعتَه يُنشِدها ، فأنشدتُه الأبيات ، فلما بلغتُ قولَه :

فدَنَا فقال : لعلّها معذورةٌ
في بعض رِقْبتِها فقلتُ : لعلّها

طَرِب وصاح وقال : هذا واللهِ الدائمُ الصَّبابةِ ، الصادقُ العهدِ ، لا الذي يقول :

إنْ كان أهلُكِ يمنعونكِ رغبةً
عنّي فأهلي بي أضنُّ وأرْغَبُ

لقد عدَا هذا الأعرابيُّ طَوْرَهُ وتجاوز قدرَه ، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبياتِ لِحُسْنِ الظنِّ بها وطلب العذر لها ، قال : فعرضتُ عليه الطعامَ فقال : لا واللهِ ما كنتُ لِأخلط بهذه الأبياتِ طعاماً حتى الليل ، وانصرف[3] .

***

مع سليمة المُشَاوبيّة :

١٩ – قال الزبير بن بكار : كانت سليمةُ المُشَاوبيّةُ عاشقةً لأفلحَ

---

(١) أرجو ذُلّها : أراد أرجو سهولة قضائها وتذليلها .

(٢) الرِّقبةُ هنا : الحذر والخوف .   (٣) زهر الآداب للحصري : ج ١ ص ١٧٦–١٧٧ .

مَوْلى الزُّهريين ، فأتاها يوماً أبو السائب المخزوميُّ فقال : حدثيني ، هل أتاك من حبيبك رسول ؟ قالت : لا . قال : فهل قلت في ذلك شعراً ؟ قالت : نعمْ ، ثم أنشدَتْه :

ألاَ ليت لي نحوَ الحبيب مبلّغاً
يُبلّغُه التسليمَ ثم يقولُ ...

سليمةُ نِضْوٌ ما تُرَجّى حياتُها
من الشوق والشوقُ الشديدُ قَتولُ[1]

تعالِجُ أحزاناً وتبكي صَبابةً
وأنتَ لما تلقاه فيكَ جَهولُ !

فقال أبو السائب : أنا والله رسولُكِ ، فحفِظ الشعرَ وتوجَّه نحو أفلحَ في يومٍ صائفٍ شديدٍ حرُّه ، فلَقِيَه رجلٌ من الأنصار فقال : يا أبا السائب ، من أين أقبلتَ ؟

قال : من عند سليمةَ المُشاوِيَّة . قال : وإلى أين تريد ؟ قال : أريد أفلحَ مَوْلى الزُّهريين أبلّغُه رسالتها . قال : أفي مثل هذا الوقتِ ؟ قال : إليكَ يا ابنَ أخي ، فإنَّ الجنةَ حُفَّتْ بالمكاره ، وما عُبِدَ الله إلّا بالصبر على ما ترى[2] .

(١) النِّضْو : المهزول من الأبل وغيرها .

(٢) جمع الجوامع في الملح والنوادر للحصري : ص ٤٥-٤٦ .

القسم الثاني

أخباره مع أهل الغناء

مع بَصْبَص :

٢٠ - رُوِيَ عن مُصْعَب أنه قال : حضر أبو السائب المخزوميُّ مجلساً فيه « بَصْبَصُ »[١] جاريةُ يحيى بن نَفِيس : فغنَّتْ :

قلبي حبيسٌ عليكِ موقوفُ
والعينُ عَبْرَى والدمعُ مَذْروفُ
والنفسُ في حسرةٍ بغُصَّتِها
قد شَفَّ أرجاءَها التساويفُ[٢]
إنْ كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفتِ لنا
فإنني بالهوى لموصوفُ
يا حسرتا حسرةً أموتُ بها
إنْ لم يكُنْ لي لديكِ معروفُ

قال فَطَرِب أبو السائب ونَعَرَ[٣] ، وقال : لا أعرف الله قدَره إنْ لم أعرفْ لكِ معروفَكِ ، ثم أخذ قِناعَها[٤] عن رأسها وجعل يَلْطِمُ

---

(١) هي جاريةٌ مُولَّدة من مُولَّدات المدينة ، حُلوةُ الوجه ، حَسَنةُ الغناء ، أخذتْ عن الطبقة الأولى من المغنين ، وكان يحيى بن نَفيس مَولاها صاحبَ قيانٍ يغشاه الأشرافُ ويسمعون غناء جواريه ، وكانت « بَصْبَصُ » هذه أنفَسَهنَّ وأشدَّهنَّ تقدُّماً . وكان أبوالسائب المخزوميُّ شغوفاً بها .

(٢) شفَّها : نقصها ونال منها . وأرجاؤها : نواحيها ، والتساويف : جمع تسويف ، وهو المماطلة .

(٣) نَعَرَ : صاح . (٤) القناع : ما تُغطّي به المرأة رأسها ومحاسنَها .

ويبكي ، ويقول لها : بأبي والله أنتِ . إنّي لأرجو أن تكوني عندَ الله أفضلَ من الشهداءِ ، لما تُولينَناه من السرور ! وجعل يصيح ، واغَوْثاه ! يا لله لِمَا يَلْقَى العاشقون ! [١] .

* * *

مع معبد

٢١ ـ حدّث أبو الحسن المدائنيّ قال : قال مَعْبَدٌ أتيتُ أبا السائب المخزوميّ ـ وكان يصلّي في كلّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعةٍ ـ فلما رآني تجوّز [٢] وقال : ما معك من مُبكيات ابنِ سُريج ؟ قلت قولَه :

ولَهُنّ بالبيت العتيق لُبانَةٌ . .
والبيتُ يعرفُهنّ لو يَتكلّمُ . . [٣]

لو كان حيّا قبلَهنّ ظعائناً . .
حيّا الحطيمُ وُجوهَهُنّ وزَمْزَمُ [٤]

لَبِثُوا ثلاثَ مِنًى بمنزل غِبْطةٍ
وهُمُ على سَفَرٍ لَعمرُكَ ما هُمُ [٥]

مُتجاوِرِينَ بغيرِ دارِ إقامةٍ
لو قد أجَدَّ تَفرُّقٌ لم يَندَمُوا [٦]

فقال لي : غَنّه ، فغنّيتُه . ثم قام يصلّي فأطال ، ثم تجوّز إليّ فقال : ما معك من مُطْرباته ومُشْجِياته ؟ فقلتُ : قولُه :

---

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ٢٧ ، ٣٥ . (٢) تجوّز في صلاته : تخفّف فيها .
(٣) اللُّبانة : الحاجة من غير فاقة ولكنْ من هِمّة .
(٤) الظعائن : جمع ظعينة ، وهي المرأة في الهودج ، وقيل : الظعينة المرأة مطلقاً . والحطيم : بمكة ، وهو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطّم الناسُ للدعاء .
(٥) ثلاث مِنًى : يريد ثلاث ليالي التشريق ، وهي التي يبيت فيها الحاجُّ بمِنًى .
(٦) أجَدَّ تفرُّق : حدَثَ أو أسرع .

لسْنَا نُبالي حين نُدركُ حَاجَةً
ما باتَ أو ظلَّ المطيُّ مُعقّلا

فقال لي : غَنّه ، فغنّيْتُه . ثم صلّى وتجوّزَ إليَّ وقال : ما معك من مُرقصاته ؟ فقلت :

فلم أرَ كالتَّجْميرِ مَنْظَرَ ناظرٍ
ولا كليالي الحجِّ يَفْتِنَّ ذَا هَوَى

فقال : كما أنت حتى أتحرَّمَ لهذا بركعتين[1] .

* * *

مع مُطرِبَيْن :

٢٢ - قال العتّابيُّ : حدّثني زكريا بن يحيى عن عبد الله بن محمد العثمانيُّ قال : ذكر بعضُ أصحابنا الحجازيّين قال : التقى ابنُ سَلَمَةَ الزُّهريُّ والأخضرُ الجدّيُّ ببئر الفصح ، فقال ابنُ سَلَمَةَ : هل لك في الاجتماع نستمتع بك ؟ فقال الأخضر : لقد كنتُ إلى ذلك مشتاقاً . قال : فقعَدا يتحدّثان فمرَّ بهما أبو السائب فقال : يا مُطرِبَي الحجاز ، ألشيءٍ كان اجتماعُكما ؟ فقالا : لغير موعد كان ذلك . أفتُؤنِسُنا ؟ قال : فقعدوا يتحدثون . فلما مضى بعضُ الليل ، قال الأخضرُ لابن سَلَمَةَ : يا أبا الأزهر ، قد أبهارَّ[2] الليلُ ، وساعدكَ القمرُ ، فأوقعْ بقهقهة[3] ابن سُرَيج وأصِبْ[4] معْنَاك ، فاندفع يغنّي :

تجنّتْ بلا جُرْمٍ وصدّتْ تغضُّبا
وقالت لِتِرْبَيْها مقالةَ عاتبٍ :

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) ابهارَّ الليلُ : انتصف ، وقيل : مضى أكثره .

(٣) القهقهة : مدُّ الصوت وترجيعه .

(٤) أصبْ معناك : لعله يريد ليكنْ غناؤك ممثّلاً لمعنى ما تغنّيه .

سيَعْلَمُ هـذا أنني بنتُ حُرَّةٍ

سأمنع نفسي من ظُنونٍ كَواذِبِ

فقولي له عنّا : تَنَحّ فإننا

أبِيّاتُ فُحْشٍ طاهراتُ المناسبِ

قال : فجعل أبو السائب يَزْفِنُ[1] ويقول : أبشرْ حبيبي ، فلأنتَ أفضلُ من شهداء قَزْوِينَ[2] .

ثم قال ابن سَلَمَةَ للأخضر : نِعْمَ المساعدُ على هَمّ الليل أنت! فأَوْقِعْ بنَوْح ابنِ سُرَيج ولا تَعْدُ مَعْناك ، فاندفع يغنّي :

فلما التقينا بالحَجُون تنفّسَتْ ..

تنفّسَ محزونِ الفؤاد سَقيمِ[3]

وقالت وما يَرْقَا من الخوف دمعُها :

أقاطِنُها أم أنتَ غيرُ مُقيمِ ؟[4]

فإنّا غداً تُحدَى بنا العيسُ بالضُّحَى

وأنتَ بما نَلْقاه غيرُ عَليمِ !

فقطّعَ قلبي قولُها ثم أَسْبَلَتْ

مَحاجِرُ عَيْنَي دمعَها بسُجُومِ[5]

قال : فجعل أبو السائب يتأفّف ، ويقول : أعْتِقُ ما أملك إنْ لم تكن فِرْدَوْسيّةَ الطّينة ، وإنها بعلمها لأفضلُ من آسِيَةَ امرأةِ فرعونَ[6] .

(١) يزفن : يرقص .

(٢) لعله يريد الإشارة الى الأحاديث الواردة في فضل قزوين وفضل المرابطة بها والقتال فيها .

(٣) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

(٤) ما يرقأ : ما يجف وما يسكن .

(٥) المحاجر : جمع مَحْجِر كمجلس ، وهو ما دار بالعين من جميع جوانبها . وسجمت العين الدمع سَجْما وسُجُوما : أسالته .   (٦) الأغاني : ج ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

* * *

مع الزلفاء :

٢٣ ـ أخبر الحسين بن يحيي عن حمّادٍ عن أبيه عن الهيثم بن عَدِيّ قال : بلغني أن أبا دَهْبَلٍ الجُمَحِيّ قال : كنت أنا وأبو السائب المخزوميُّ عند مغنّية بالمدينة يقال لها « الذّلْفاء » فغنّتنا بشعر جميل ابن مَعْمَرٍ العُذْرِيّ ، واللحنُ لابن سُرَيْج :

لَهُنّ الوَجَى لِمْ كُنّ عَوناً على النّوَى
ولا زالَ منها ظالِعٌ وكَسِيرُ ؟[1]

كأني سُقِيتُ السُّمّ يومَ تحمّلُوا
وَجَدّ بهم حادٍ وحانَ مَسِيرُ !

فقال أبو السائب : يا أبا دَهْبَل ، نحن والله على خَطَرٍ من هذا الغناء . فنسأل اللهَ السلامةَ وأن يَكْفِيَنا كلّ محذُور ، فما آمَنُ أن يَهْجُمَ بي على أمرٍ يَهْتِكُنِي . قال : وجعل يبكي[2] .

* * *

مع مغنية عجفاء :

٢٤ ـ حدّث عزيز بن طلحةَ الأرغميّ قال: قال لي أبو السائب المخزوميُّ وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك في أحسن الناس غناء؟ قلتُ : نعمْ . وكان عليّ يومئذ طيلَسان[3] أسمّيه من غِلَظِه وثِقَلِه « مُقَطّعَ

(١) الوَجَى : الحَفا ، يقال : وَجِيَتِ الدابةُ تَوْجَى وجًى ، إذا حَفِيَتْ . ظالع : مِن ظلَعَ البعير ظلْعا ، إذا غمز في مشيه ، وهو شبيه بالعرج ، ولهذا يقال هو عَرَجٌ يسير .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٢٩٢ .

(٣) الطيلَسان والطيلسُ : ضرب من الثياب أسود . قال المَرّار بن سعيد الفقعَسِيّ :

فرفعتُ رأسي للخيال فما أرى غيرَ المطيّ وظُلْمةً كالطيْلَسِ

الأزْرَار » . فخرجنا حتى جئنا إلى الجبّانة إلى دار سليمان بن يحيى الأرَتّ صاحبِ الخمر مَوْلى بني زُهير ، فأذِن لنا فدخلنا بيتاً طولُه اثنتا عشرةَ ذراعاً في مثلها ، وسُمْكُه في السماء ستّ عشرةَ ذراعاً ، ما فيه إلّا نُمْرُقَتَان[١] قد ذهب منها اللُّحْمَةُ[٢] وبَقِيَ السَّدَى وفِراشٌ مَحشُوٌّ رِيشاً وكرسيّان من خشب قد تقلّع عنهما الصِّبْغُ من فوقهما ، وبينهما مِرفقتان[٣] مَحْشوّتان باللّيف . ثم طلعتْ علينا عجوزٌ كَلْفاءُ[٤] عجفاء[٥] كأن شَعرَها شَعرُ ميّتٍ ، عليها قَرْقَلٌ[٦] هَرَوِيٌّ أصفرُ غسيل ، كأنّ وِرْكَيْها في خيطٍ من رُسْحَتِها[٧] حتى جلستْ .

فقلتُ لأبي السائب : بأبي أنت وأمّي ، ما هذه ؟ قال : اسكُتْ . فتناوَلَتْ عوداً فضربتْ وغنّتْ :

بيدِ الذي شُغِفَ الفؤادُ بهِ ..
فَرَجُ الذي أَلْقَى من الهَمِّ

هَمٌّ مِنَ أجلكِ ليس يكشِفُهُ
إلّا مليكٌ جائرُ الحُكْمِ

ولما بَقِيتُ لَيَبْقَيَنَّ جَوًى
بين الجوانح مُسْقِمٌ جسمي

قد كان صَرْمٌ في المماتِ لنا
فعَجِلتِ قبلَ الموتِ بالصَّرْمِ[٨]

(١) النمرقة : الوسادة ، وقيل : وسادة صغيرة .
(٢) اللحمة من الثوب : ما يُمدّ عرضاً في النَّسْج ، والسَّدَى : ما يُمد طولاً فيه .
(٣) المِرفقة : المُتّكأ والمخدّة .
(٤) كلفاء : يعلو وجهها شيء كالسّمسم .
(٥) عجفاء : هزيلة الجسم .
(٦) القرقل : قميص من قمصان النساء بغير كُمَّيْن .
(٧) الرُّسحة : قلة لحم العجُز والفخذين .
(٨) الصّرم : الهجرانُ والمقاطعة في الكلام .

قال عزيز : فحسُنَتْ في عينيَّ وَصْفاً فأذهبَ الكَلَفُ من وجهها، فزحف أبو السائب وزحفتُ معه ، ثم تغنَّتْ :

بَرِحَ الخفاءُ فأيَّ ما بكَ تكتُمُ ؟
ولَسوف يظهر ما تُسِرُّ فيُعلَمُ

مما تضمَّنَ من عزيزةِ قلبُه
يا قلبُ إنك بالحِسان لمُغرمُ

بل ليت أنّك يا حسامُ بأرضِنا
تُلقِي المراسيَ دائماً ونُخيِّمُ

فتدومَ لذّةُ عيشِنا ونعيمُه
ونكونَ أحراراً فماذا يُنقَمُ ؟

فقال أبو السائب : إنْ نَقِمَ هذا فيعَضُّ بَظْرَ أمّه ، وزحف وزحفتُ معه ، حتى قاربتُ التمَرْقَةَ فرَبَتْ [1] العجفاءُ في عينيَّ كما يربو السَّويقُ [2] شِيبَ بماءِ قِربة ، ثم غنَّتْ :

يا طولَ ليلي أعالج السَّقَما
إذْ حالَ دونَ الأحبّة الحَرَما [3]

ما كنتُ أخشى فراقَ بينِكُمُ
فاليومَ أضحَى فراقُكم عَزَما

قال عزيز : فألقيت طَيْلَسانِي وتناولت شاذَكُونةً [4] فوضعتها على رأسي ، وصِحت كما يُصاح بالمدينة : أوجد بالنّوَى . وقام أبو السائب وتناول رَبْعةً [5] فيها قَوارِيرُ دُهْنٍ كانت في البيت فوضعها على رأسه ،

(١) رَبَتْ في عيني : زادت وعَلَتْ وعَظُمتْ في نظري .
(٢) السَّويق : ما يُتخذ من الحنطة والشعير ، وسَويق الكَرْم : الخمر .
(٣) هكذا وردت في الأصل .
(٤) الشاذَكونة : الفِراشُ وثيابٌ غِلاظ مُضَرَّبة تُعمل باليمن (٥) الرَّبْعة : إناء مُرَبَّع .

وصاح ابنُ الأرَتّ – وكان ألثغَ –: « قَواليلي ! » يريد « قَواريري » ، أسألك بالله !

فلم يلتفت أبو السائب إلى قوله ، وحرّكَ رأسَه ، فاضطربت القواريرُ وتكسّرت ، وسال الدهنُ على وجـه أبي السائب وَظهرِه وصدرِه ، ثم وضع الرّبْعَة وقال لها : لقد هجتِ لي داءً قديماً !

قال : ومكثنا نختلف إليها سنين في كل جمعةٍ يومين . قال : ثم بعث عبد الرحمن بن معـاوية بن هشام من الأندلس فاشْتُرِيَتْ له العجفاء وحُمِلتْ إليه [1] .

* * *

مع جارية مغنية :

٢٥ – حـدّث الزبير بن بكّار عن خالد بن بكرٍ الصوّاف قال : أتيتُ ابنَ أبي العراقيب فسألتُه أن يُدخلَني على جاريةٍ مغنّيةٍ لم يرَ أحدٌ مثلَها قطّ ، فقال لي : إنّ في البيت والله لشيخين كريمين عليّ ، لا أدري ما يوافقهما من دخول أحدٍ عليهما ، فلو أقمتَ حتى أطّلِعَ رأيَهما في ذلك .

فدخل ثم خرج إليّ فقال : ادخلْ فدخلتُ ، فإذا أبو السائب المخزوميُّ وأبو جُندَبٍ الهُذَليّ ، وخرجتْ علينـا الجاريةُ قاطبةً عابسةً . فلما وُضِع العودُ في حِجرها اندفعتْ تغنّي وتقول :

عسى كُرْبةٌ أمسيتِ فيها مقيمةٌ
يكون لنا منهـا نجاةٌ وَمخْرَجُ

وإني لمحجوبٌ غـداةَ أزورُها
وكنتُ إذا ما زُرْتُها لا أعرّجُ

---

(١) الأغاني : ج ٢٠ ص ٣٥٦ . طبعة دار مكتبة الحياة .

قال : ثم بكتْ ، فوثبَا عليه جميعاً فقالاَ له : لعلـك أرَبْـتَـها[1] بشيء . عليك وعلينا إنْ لم تَقم إليها حتى تُقَبِّلَ رأسَها وتترَضّاها ، ففعل[2] .

* * *

مع ابنــــه :

٢٦ – أخبر محمـد بن العباس اليزيديّ بإسناد إلى صفية بنت الزبير ابن هشام قالت : كان أبو السائب المخزوميُّ رجلا صالحاً زاهداً مُتقلّلا يصوم الدهر ، وكان أرقّ خلق الله وأشدّهم غَزَلاً .

وَجّهَ ابنَه يوماً يأتيه بما يُفْطِر عليه ، فأبطأ الغلامُ إلى العَتَمَة . فلما جاء قال له : يا عدوّ نفسِه ، ما أخّرَكَ إلى هذا الوقت ؟

قال : جُزْتُ بباب بني فلانٍ فسمعتُ منه غِناءً فوقفتُ حتى أخذتُه . فقال : هاتِ يا بُنيّ ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأَحْبُوَنّكَ[3] ، ولئن كنتَ أسأتَ لأضربَنّكَ . فاندفع يُغنّي بشعر كُثَيِّر :

ولمّا عَلَوْا شَغْباً تَبَيَّنْتُ أنّهُ
تقطّعَ من أهـل الحجاز عَلائقِي[4]

فلا زِلْنَ حَسْرَى ظُلّعاً لِمْ حَمَلْنَها
إلى بـلـدٍ ناءٍ قليلِ الأصادقِ ؟[5]

---

(١) أرَبْتَها : أقلقتها وأزعجتها .
(٢) الأغاني : ج ٧ ص ١٣٧ .
(٣) لأحبونّك : من حَبَوْتُ الرجل حِباءً ، أي أعطيته الشيء بغير عِوَض أو مقابل .
(٤) شَغْبٌ : مَنْهَل بين طريق مصر والشام .
(٥) حَسْرى : جمع حاسر وحاسرة بمعنى كليلة متعبة ، وظُلّع : جمع ظالعة ، أي عرجاء فلا زلن حَسْرَى ظُلّعاً : دعاء على الأبل بالكلال والإعياء والعَرَج . والأصادق : جمع صديق .

فلم يزل يُغنّيه إلى نصف الليل . فقالت له زوجتُه : يا هـذا ، قد انتصف الليلُ وما أفطَرنا ! قال لها : أنتِ طالقٌ إنْ كان فَطُورُنا غيرَه . فلم يَزلْ يُغنّيه إلى السَّحَرِ . فلما كان السَّحَرُ قالتْ له زوجتُه : هذا السَّحَرُ وما أفطَرْنا ! فقال : أنتِ طالقٌ إنْ كان سَحُورُنا غيرَه . فلما أصبح قال لابنه : خُذْ جُبَّتي هذه وأعطني خَلَقَكَ ليكونَ الحِباءُ فَضْلَ ما بينهما . فقال له : يا أبتِ ، أنتَ شيـخٌ وأنا شابٌ ، وأنا أقوَى على البرد منك . قال يا بُنيَّ ، ما ترك صوتُك هـذا للبرد عليَّ سبيلاً ما حَيِيتُ[1] .

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٢٩٠-٢٩١ .

الكتاب الخامس

في النقد

- النقد في العصر الجاهلي
- النقد في صدر الإسلام
- عصر ابن أبي عتيق
- ابن أبي عتيق والنقد

الفصل الأول

النقد في العصر الجاهلي

إن الكلام عن نقد ابن أبي عتيق لشعراء عصره في الحجاز يستأدينا الأَلمامَ أولاً بحالة النقد العربيّ فيما قبل عصره ، وعلى التحديد في كلٍّ من العصر الجاهليّ وعصر صدر الإسلام .

فعلى ضوء الإلمام بحركة النقد في هذين العصرين يستطيع الباحث أن يتبين مدى تأثر ابن أبي عتيقٍ الناقد بآراء مَن سبقوه إلى النقد ، ثم مدى ما أسهم به هو في تطوير حركة النقد الأدبيّ في الحجاز وتوسيع مجالاته .

***

والعصر الجاهليُّ بالنسبة للنقد العربيّ يمثّــل في الواقع نشأتَه ، أو بعبارة أخرى يمثّــل المحاولات الأولى التي بُذلت في سبيل نقد الشعر الجاهليّ وإبداء الرأي فيه أو في أصحابه .

والمتأمل فيما انتهى إلينا من أوليات النقد العربيّ يدرك لأول وَهْلة أن ملكة النقد عند الجاهليين كانت مبنيةً على الذوق الفطريّ لا الفكر التحليليّ .

فملاحظاتُهم النقدية على بعض مـا وصل إلينا من الشعر الجاهليّ أو مآخذُهم عليه ، تؤكد أن نقدهم كان وليدَ ذوقِهم وفِطرتِهم التي تنفعل وتتأثر بما تسمع من قول ، فتُصدر الحُكم له أو عليه مجملاً غيرَ معلَّل أو غيرَ مشفوع بأسبابه وحيثياته .

فالناقد منهم إذا ما استساغ بذوقه الفطري قصيدةً أو جزءاً من قصيدة ، أو بيتاً أو حتى نصفَ بيتٍ منها ، فما أسرع ما يتأثر ويندفع إلى التعميم في الحكم ، فيجعلُ من الشاعر أشعرَ العرب أو أشعرَ الناس . وقد فطِن بعضُهم إلى هذا الاتجاه في النقد وعلّق عليه بقوله : « الناس أشعرُ الناس ! » .

هذا بالنسبة لملكة النقد عند الجاهليين . أما نقدهم فقد تحرك في ميدانين : ميدان الحكم على الشعر ، وميدان الحكم على الشعراء وتفضيلِ بعضِهم على بعض ، وتلقيب بعض القصائد الجيدة .

ففي ميدان الحكم على الشعراء اتجه نقد الجاهليين إلى الألفاظ والمعاني وبناء الصور الشعرية . فنظمُ الكلام عندهم مُحكَمٌ أو غيرُ مُحكَم ، والشاعرُ متمكنٌ من دلالات الألفاظ التي يستخدمها أو غيرُ متكن ، والمعاني مقبولةٌ أو غيرُ مقبولة ، والصورُ الشعرية كاملةُ البناء أو ناقصةُ البناء .

والإقواء الذي وقع فيه من شعرائهم أمثالُ النابغة الذبيانيّ وبشرِ بن خازم عيبٌ دقيق من عيوب الشعر ، لأن فيه انتقاصاً لأحد عناصر القافية التي تُلتزَم فيها من أول قافية في القصيدة إلى آخر قافية فيها .

أمّا تحرُّكُ النقد الأدبيّ في الميدان الثاني ، ميدان الشعراء والمفاضلة بينهم وخَلْعِ ألقاب خاصة على بعض القصائد ، فقد كان صنيعُ النقاد فيه شبيهاً بصنيعهم في الميدان الأول ، ميدانِ الحُكْم على الشعر .

فالحكْمُ لشاعرٍ بالشاعرية ، أو الحكْمُ بتفضيله على غيره من الشعراء ، أو الحكْمُ بجودة قصيدة وتلقيبها بلقب خاص ، لم يكن حُكْماً مسبَّباً معلّلاً ، وإنما كان حُكْماً تأثرياً قِوامُه الذوق الفطريُّ . فالناقد يصغي للقول فإذا أعجبه وطرِب له ، فهو عنده أحسنُ ما قيل أو أحسن ما سُمِع !

ولكنْ ما الغرضُ المنشود من وراء اتجاه نقّاد الجاهلية إلى مثل هذه

الأحكام ؟ قد يكون الغرضُ من الحكم على شعر شاعرٍ ، أو من الحكم بتفضيله على غيره نوعاً من الإشادة بالمنزلة التي يستحقها ، أو نوعاً من التمييز بين صغار الشعراء وكبارهم ، حتى لا يتقدم الضعافُ الفُحولَ .

وقد يكون الغرضُ من تلقيب قصيدةٍ بلقب خاص ما تضمّنته من بعض حِكَم العرب . فقصيدةُ سُوَيْد بن أبي كاهل مثلاً والتي مطلعها :

بسطتْ رابعــةُ الحبــلَ لنا
فوصَلْنا الحبلَ منها مـا اتّسعْ

يقول عنها الأصمعيُّ : إن العرب كانت تفضلها وتعدُّها في حِكَمها ، وأنها كانت تُسمّى في الجاهلية « اليتيمة »(١) . فإن صَحّ أن في مثـل هذه الأحكامِ نوعاً من التعليل ، فهو تعليل ضمنيٌّ يُفهَم من سياق الروايات وتعليقات الرُّواة .

وخلاصة القول أن النقد الأدبيّ في العصر الجاهليّ كان نقداً جزئيّاً تأثرياً ينطلق من العاطفة والذوق الفطريّ . وتصدر الأحكام فيه مجردة عن ذكر العلل والأسباب .

ومَن يدري ... ؟ فلعل سكوتَ هؤلاء النقادِ عن تعليل أحكامهم كان ناشئاً عن إيثارهم للإيجاز في مثل هذه المواقف ، ولعله كان ناشئاً عن شعورهم بأنهم كانوا يتوجهون بأحكامهم النقدية إلى قوم يتكلمون العربية مثلَهم عن سليقة ، ويعرفون من بلاغتها مثل ما يعرفون . فلم يكن من حق الناقد ، والحالةُ هـذه ، أن يقف من الجمهور الأدبيّ المتحلّق حوله موقفَ المعلّم الذي يُفسّر ويعلّل .

وإذا كان الناقد الأول قد ظهر إلى الوجود بعد الشاعر الأول ، فإن النقد يقف من الشعر موقف التابع الذي يستوحيه دائماً ويُوحي اليه .

---

(١) الأغاني : ج ١٣ ص ١٠٢ .

فالشعر الجاهليُّ كان إحساساً أكثرَ منه عقلاً ، وكذلك كان النقد . والشاعر تستثيره الأحداثُ التي تقع في محيط حياتـه فيندفع إلى التعبير عنها بعاطفته وشعوره ، والناقد يُصغي في نقـده إلى ما تُمليه عليه عواطفُه ومشاعرُه .

والعربيُّ بطبعه مُرهَفُ الإحساس ؛ فهو يغضب ويرضى ، ويثور ويهدأ لأقل الأسباب . وكما ينفعل الشاعر بعواطفه فيشعر ، ينفعل الناقد بِحسّـه فينقد . وكلاهما كان في الجاهلية بدائياً ساذَجاً ، هذا في أدبه ، وهذا في نقده .

والواقع أن نقّاد العرب في العصر الجاهليّ قد وقفوا بالنقد عند هذا الحدّ البدائيّ الفطريّ ، فلم يتجاوزوه إلى الناحية العلمية التحليلية .

أجل ... وقفوا به عند ذلك الحد الذي هدتهم اليه في المعاني فطرتُهم السليمة ، كما هداهم اليـه في الألفاظ ذوق صادق ، ذوقٌ تربّى فيهم بما أطمأنّ اليه الشعر حين جادت صياغتُه ، وعمّ تهذيبُه ، وأنتهى إلى ما أنتهى اليه من تقصيد القصيد على وزن وقافية .

وإذا تذكرنا أن النقد الذي تمخضتْ عنه قرائح النقاد في هذا العصرِ إنما يمثّل نشأةَ النقدِ العربيّ ومرحلتَه الأولى . فإنه يكون من التجنّي أن نتوقع منهم أن يحلّلوا ويعلّلوا ، وأن يخوضوا في قضايا النقد الأخرى ، تلك القضايا التي أخذت قروناً من العـلم والعمل والبحث حتى ظهرت وتبلورت وتطورت ...

الفصل الثاني

النقد في صدر الإسلام

يُطلَق صدر الإسلام على عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، أو على الفترة الزمنية التي بدأت بظهور الإسلام وانتهت بقيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ من الهجرة .

وقد يكون من المناسب في تتبع حركة النقد العربيّ في صدر الإسلام أن نقسم هذا العصر الذي دام أكثر قليلاً من نصف قرن إلى عصرين : عصر الرسول ، وعصر الخلفاء الراشدين ، وذلك ليتسنى لنا الإلمامُ بالجديد الذي أسهم به كلٌّ من هذين العصرين في تطوير حركة النقد وتوجيهها وتوسيع مجالاتها ...

***

النقد في عصر الرسول :

إن الحياة الأدبية في عصر الرسول كانت في جملتها حياةً ضيقةَ النطاق تتمثّل غالباً في شعر الهجاء والمدح والمفاخرات . ولما كان النقد يتبع الأدب ويترسّم خُطاه ، فإنه كان يتحرك في هذا النطاق الضيق .

ولهذا لا نتوقع أن نجد في عصر الرسول حركة نقدٍ نشيطة ، وإن كنا نتوقع أن نجد ما قد يكون فيه من آثار النقد الأدبيّ متأثراً بالمُثُل الجديدة التي جاء بها الإسلام .

ولعل الرسول خيرُ مَن اتجه بالنقد في عصره هذا الاتجاهَ الجديد ،

كما يشهد بذلك بعضُ ما أُثِرَ عنه من أقوال وأفعال تتعلق بالشعر ونقده.

فالرسولُ وهو أفصح العرب كان يتذوق الكلام الجيد، ويخوض في حديث الشعر مع الوافدين عليه ممن أسلموا، كما كان يُؤثِر منه ما لاءمَ دعوته، وأرضى مكارم الأخلاق.

ومن ثَمَّ لم يكن عجباً أن يتحدث الناس في الشعر بمجلسه، وأن يَكثُر اجتماعُ الشعراء به، وأن يُعجَب بالشعر إعجابَ أصحاب الذوق السليم.

يُروَى عن أسماءَ بنتِ أبي بكر أن الزبيرَ بنَ العوّام مرَّ بمجلسٍ لأصحاب النبيِّ وحسّانُ يُنشدهم وهم غيرُ آذنين لما يسمعون من شعره فقال: مالي أراكم غيرَ آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيعة؟ لقد كان يُنشِد رسولَ الله ﷺ فيُحسن استماعه، ويُجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده[1].

وقد أُثِر عن الرسول ﷺ بعضُ كلماتٍ تعبّر عن مفهومه للشعر، وعن الميزان الذي يرتضيه لتقديره، والتمييزِ بين ما يستحسنه وما لا يستحسنه منه.

من هذه الكلمات قوله: «الشعرُ كلام من كلام العرب جَزْلٌ تتكلم به في بواديها، وتَسُلُّ به الضغائن من بينها[2]»، وقوله: «إنما الشعرُ كلام مؤلَّف، فما وافق الحقَّ منه فهو حسَنٌ، وما لم يوافق الحقَّ منه فلا خيرَ فيه[3]»، وقوله: «إنما الشعر كلامٌ، فمن الكلام خبيثٌ وطيّب[4]».

فالشعر عنده كلام من جنس كلام العرب يتميز بالتأليف أي النظم، كما تمتاز لغته وألفاظه بصفة الجزالة، وقوة الأَسْر.

(١) كتاب العمدة: ج ١ ص ١٥. (٢) المرجع السابق: ص ١٤.
(٣) المرجع السابق. (٤) المرجع السابق.

أما ميزانُ الشعر عنده فيتمثّل في مدى مطابقته للحق أو عدم مطابقته. ومعنى هذا أن الحسن من الشعر عنده هو ما وافق الحق، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه.

وبعبارة أخرى إن أحسن الشعر وأطيبه في رأيه هو ما يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، وهو ما يستلُّ الضغائنَ والأحقاد من القلوب ويُحِلُّ محلَّها المودةَ والإخاء. أما الشعر الذي يُولّد الضغائنَ أو يَزيد من حِدَّتها فهو ما لا خيرَ فيه. إنه الشعر الخبيث!

وما من شك في أن الرسول قد استمدَّ ميزانَه هذا للشعر من تعاليم الإسلام، فالحق أو الصدق لا الكذب هو مقياس جودةِ الشعر وحُسْنِه عندَه. وكأني به إذِ اتخذ الحق أو الصدق أساساً للتقديرِ والحكمِ على الشعر، إنما أراد أن ينحرف به عن طريق قِيَمِه الجاهلية، وأن يجعله إسلاميَّ الروحِ والمضمون والاتجاه...

ويبدو أن حسّان بن ثابت كان أولَ شعراء المسلمين تأثراً برأي الرسول القائل بأنَّ أحسنَ الشعر هو ما وافق الحق والصدق، وذلك لأننا نراه يقول في شعره:

وإنما الشعرُ لُبُّ المرءِ يَعرِضه
على المجالس إنْ كَيْساً وإنْ حُمقا

وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُه
بيتٌ يقال — إذا أنشدتَه — صَدَقا [1]

والرسول خير مَن يدرك ما يَعنيه الشعر بالنسبة للعرب فهو عميق متأصّل في نفوسهم، وجزءٌ من طبيعتهم التي فُطِروا عليها. نفهم ذلك من قوله: «لا تدعُ العربُ الشعرَ حتى تدعَ الإبلُ حنينَها» [2].

---

(١) ديوان حسّان: ص ١٦٩. والكَيْس بسكون الياء: العقل، والحمق بضم الحاء وسكون الميم أو ضمها: الحماقة، وهي ضد العقل أو هي قلة العقل. (٢) العمدة: ج ١ ص ١٥.

كذلك أبدى الرسول رأيَه فيمن هو أشعرُ شعراء الجاهلية والمشركين ، فقد رُوي عنه في أمرئ القيس « أنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار »[1]. فامرؤ القيس في رأيه أشعر شعراء الجاهلية من حيث تقدُّمُه وتفوُّقه عليهم في فنه وصناعته الشعرية ، ولكنه في الوقت ذاته يعتبره قائدَهم إلى النار ، لما تضمّنه شعرُه من معانٍ تجافي الحقّ الذي اعتمده مقياساً للشعر .

وهكذا من كل ما تقدم يتضح لنا موقفُ الرسول من الشعر العربيّ ونقده . ومن الملاحظات النقدية التي استقيناها من بعض كلماته السابقة ندرك مدى فهمِه لطبيعة العرب الشعرية ، ومدى علمِه بأهمية الشعر وخطرِه وأثره في نفوسهم .

ومن كلمات الرسول التي مرّت بنا قوله : « إنما الشعر كلام مؤلّف ، فما وافق الحقّ منه فهو حسَنٌ ، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خيرَ فيه » . وهذه الكلمة لا تتضمن المقياس الذي يراه لتقدير الشعر والحكم عليه فحسبُ ، وإنما هي أيضاً دعوةٌ لشيء آخر . إنها دعوة إلى العُدول بالشعر عن طريقه الجاهليّ بكل قِيَمه ، وإلى صَبْغِه بالصِّبغة الإسلامية ككل شيءٍ آخرَ في حياة العرب بعد الإسلام .

وكأني بالرسول ﷺ أراد من كلمته أن يبدأ الشعرُ بالإسلام مرحلةً جديدة تتبدّلُ فيها وظيفتُه ، وتنقطع الصلة بينه وبين قديمه ، مرحلةً يستقِي فيها من نبع الإسلام الصافي ، ثم ينطلق في جميع المجالات على هَدْيٍ من تعاليمه ومبادئه ، وبذلك يَصحُّ اتجاهُه . ويظل على الدوام الصوتَ البليغ الذي يدعو إلى المُثُل العليا ، ويعمل على تعميق معانيها في النفوس .

***

وتتمةً لحركة النقد في عصر الرسول نذكر أنه انفتح في نقد الشعر أمام رجال هذا العصر ميدانان .

---

(١) كتاب العمدة : ج ١ ص ٧٦ .

أحدهما بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين وفيه حكَمَ القومُ حتى الخصومُ للأولين على الآخَرين .

أما الميدان الثاني فيتمثّل فيما كان بين حسانٍ وسائر شعراء المسلمين ، فقد دانَ القومُ بالتفوّق لحسان لما كان له من قوة الشاعرية .

رُوي عن عائشة أن النبيّ بنَى لحسان بن ثابت في المسجد مِنبراً يُنشِد عليه الشعر [١] ورُوي أن الرسول دعا حسّاناً لهجاء قريش بقوله : أهجُهمْ – يعني قريشاً – فوالله لَهجاؤك عليهم أشدُّ من وَقْعِ السهام في غَلَس الظلام [٢] » .

كذلك رُوي أن الرسول قال : « أمرتُ عبدَ الله بنَ رَواحة فقال وأحسن ، وأمرت حسّانَ بن ثابت فشفَى واشتفَى [٣] » . وعن الشعبيّ قال : « لمّا كان عامُ الأحزاب ، وردّهم اللهُ بغيظهم لم ينالوا خيراً ، قال النبيُّ : مَن يحمي أعراضَ المسلمين ؟ فقال كعب بنُ مالك : أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رَواحة : أنا يا رسول الله ، وقال حسّان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال : نعم ، أهجُهم أنت ، فإنه سيُعينك عليهم رُوحُ القُدُس [٤] » .

وحسبنا بهذه الأخبارِ دليلاً على تقديم الرسول لحسانٍ وتفضيله على معاصريه من شعراء المسلمين . فلو لم يكن رأيُ الرسول هكذا فيه ما بنَى له وحدَه مِنبراً في المسجد يُنشِد عليه الشعر ، وما انتدبه دون غيره لهجاء قريش والمشركين .

وشيءٌ آخر هو أن القرآنَ قد تحدّى العرب ببلاغةِ نظمه ، وإنّ عجزَهم عن الإتيان بمثله من نوعه حملَهم على الإقرار بأنّ هناك كلاماً أبلغَ

(١) العمدة : ج ١ ص ١٤ . (٢) المرجع السابق : ج ١ ص ١٨ .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص ١٤٣ . (٤) الأغاني : ج ٤ ص ١٤٥ .

من كلام ، وإنْ يكن من جنس هذا الكلام . وقد كان ذلك مَدْعاةً إلى انصراف مَن انصرف من شعراء المسلمين عن الشعر الى القرآن .

ومن هؤلاء الشعراء لبيدُ بن ربيعة الذي قال إن الله أبدله القرآنَ مكانَ الشعر. ويَروي صاحبُ الأغاني أن لبيداً لم يُؤثَر عنه في الإسلام إلّا بيتٌ واحد هو :

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي
حتى لَبِسْتُ من الإسلام سِرْبالا[1]

***

من كل ما تقدم يظهر أن النقد العربيّ الذي شهد العصر الجاهليُّ نشأته قد استمر في عصر الرسول ، وأن العرب لم يكُفُّوا عن النظر في الشعر والمفاضلة بين الشعراء .

ومع ذلك فهناك شيءٌ جديد تمّ للنقد الأدبيّ في هذه الفترة وتميّز به عن النقد في العصر الجاهليّ . وهذا الجديد يتمثّل في عُدول الرسول بالشعر عن طريقه الجاهليّ بكل قِيَمه ، والاتجاهِ به اتجاهاً إسلامياً يكون مقياس الحكْم فيه على العمل الأدبيّ بمقدار مطابقته أو عدم مطابقته للحق .

أجل هذه هي الخطوة الجديدة التي خطاها النقد الأدبيُّ هنا على طريق التطور . ولكن يبقى بعد ذلك أنه ظل في عصر الرسول كما كان في العصر الجاهليّ نقداً فِطرياً ذوقياً مجرداً عن التعليل ، نقداً يفاضل فيه الناقد بين الشعراء ويحكم لشاعرٍ على آخَر أو على آخَرِين دون أن يشفع الحكم بأسبابه أو حيثياته .

تلك كانت حالة النقد الأدبيّ في عصر الرسول ، عصرِ النبوة والوحي .

---

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ٣٦٩ .

***

النقد في عصر الراشدين :

أمَّا حركةُ النقد الأدبيّ في عصر الخلفاء الراشدين فتُلتَمس أكثرَ ما تُلتَمس في مواقف هؤلاء الخلفاء أنفسِهم من الشعر والشعراء وآرائهم في ذلك ، كما تُلتَمس في الملاحظات النقدية التي صدرت عن بعض معاصريهم من الصحابة والشعراء .

واهتمامُ خلفاء الرسول في هذا الميدان لم يكن مقصوراً على النقد وحدَه ، وإنما تعدّاه إلى الاهتمام باللغة العربية عامةً ، والغَيْرةِ على صحتها وسلامتها من اللحن وخاصةً في قراءة القرآن .

فالعربُ عنـد ظهور الإسلام كانوا يُعرِبون كلامَهم على نحوِ ما في القرآن ، إلّا مَن خالطهم من الموالي فإن هؤلاء كانوا حتى في أيام الرسول يخطئون في الإعراب . وقد ذكروا أن رجلا لحَنَ بحضرة النبيّ فقال : « أرشِدوا أخاكم فقد ضَلّ » .

وعلى سَنَن الرسول وهَدْيه سار خلفاؤه في رعاية اللغة والدعوة إلى سلامتها من شوائب اللحن قولاً وعملاً .

أُثِر عن أبي بكر الصديق قولُه : « لأنْ أقرأ فأُسْقِطَ أحبُّ إليّ من أن أقرأ فألحَنَ[1] » . ورَوَى الجاحظ أن رجلا مرّ به ومعه ثوبٌ ، فقال له أبو بكر : أتبيع الثوب ؟ فقال الرجل : لا عافاك الله . فقال أبو بكر : « لقد عُلّمتم لو تعلمون ! قل : لا وعافاك الله[2] » .

وقال عمر : « تعلموا النحو كما تعلّمون السُّنَنَ والفرائض[3] » . وكتب اليه الحُصينُ بن الحُرّ عاملُه على مَيسان[4] كتاباً فلحَن في حرفٍ

(١) المزهر : ص ١٩٩ . (٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٦٢ .
(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢١٨ .
(٤) مَيسان : كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط .

منه ، فكتب اليه عمر : « أنْ قَنِّعْ كاتبَك سَوْطاً [١] » أي اضربْه سَوْطاً . والجمهور من أهل الرواية على أنَّ أولَ مَن وضع النحوَ الإمامُ عليُّ بن أبي طالب ، وذلك عندما لاحظ ظهورَ اللحن في اللغة [٢].

* * *

ذلك عن اهتمام الخلفاء الراشدين باللغة وغَيرتهم على سلامتها من اللحن ، أما عن الشعر ونقده فقد ساروا فيه سيرة الرسول ، ونهجوا نهجه . كانوا يميّزون بين شعر وشعر ، فيحضُّون على ما هو حسَنٌ مفيد ، ويعاقبون على ما هو شائنٌ ضارٌ ، وما منهم إلّا مَن تمثّل بالشعر أو دعا إلى روايته ، واعتدّها من تمام المروءة والمعرفة .

وإذا نظرنا إلى نشاط هؤلاء الخلفاء في ميدان النقد الأدبيّ رأينا أن الخليفة عمرَ بن الخطاب كان أكثرَهم أثراً وتأثيراً فيه ، حتى ليُعَدُّ بحقٍ الناقدَ الأول في هذه الفترة .

وعن عمرَ الناقدِ يقول الحسن بن رشيق القيروانيّ : « كان من أنقدِ أهلِ زمانه للشعر وأنفذِهم فيه معرفةً [٣] » .

ولعل ثقافته الأدبية هي التي أهّلته لأن يتبوّأ مكانةً عالية في توجيه النقد وتطويره ؛ فقد كان رضي الله عنه أعلمَ الناس بالشعر ذا بَصَرٍ فيه ، يحب الاستماعَ اليه والاستروِاحَ به .

وكانت معرفتُه بالحياة العربية معرفةً دقيقة شاملة ، كما كان راويةً للشعر جيّدَ الاستحضار له ، « لا يكاد يعرِض له أمرٌ إلّا أنشد فيه بيتَ شعر » على حدّ قولِ ابن سلّام [٤] .

---

(١) العمدة : ج ٢ ص ٢١٦ .
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطيّ ج ١ ص ٤ .
(٣) العمدة : ج ١ ص ٢٠ . (٤) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٤١ .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك تشبُّعَه بروح الإسلام وتعاليمِه ، وشعورَه بمسئولية الحاكم المطالَبِ بحماية المجتمع الإسلاميّ الجديد من الانحراف ، فإننا نستطيع أن نتمثّل شخصيةَ عمرَ الأدبية ، واتجاهَه النقديّ الذي لا يخرج عن كونه امتداداً لاتجاه الرسول في نقد الكلام والحُكم عليه .

والواقع أن عمر ظل في إسلامه كما كان في جاهليته حَفِيًّا بالشعر شديدَ الشغف به ، بل ظل كذلك بعد اضطلاعه بأعباء الخلافة واشتغاله بمهامّها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها ، فكان يتمثّل بالشعر ويَرويه ، ويستنشده من أصحابه وحُفّاظه ، ويستقبل الوفود ويخوض معهم في الحديث عن شعر شعرائهم .

وكل ما أُثِر من كلماته في الشعر يشير إلى أنه كان يُعجَب بالشعر الذي يَدخل بالمتعة على النفس ، ويلتقي مع تعاليم الإسلام في الدعوة إلى السموّ ومكارم الأخلاق .

فالشعر الذي يحقّق المُتعة الأدبية ، ويسكّن به الغيظُ ، وتُطفأ به الثائرةُ ، ويُعطى به السائلُ ، ويَنزِع إلى الفضائل بصفة عامة هو الشعرُ الذي يروق له ويستحق التقدير والتشجيع . أما الشعر الذي يهدف إلى عكس ذلك فهو في نظره انتكاسةٌ وردّةٌ إلى الجاهلية يأباها الإسلام ويجب مقاومتها .

يقول عمر : « نِعْمَ ما تعلمته العربُ الأبياتُ من الشعر يُقدّمها الرجلُ أمام حاجته »[1] . ويقول في نفس المعنى : « خيرُ صناعات العرب أبياتٌ يُقدّمها الرجلُ بين يديْ حاجته يستميلُ بها الكريم ويستعطف اللئيم »[2] .

وفي حياة عمر مواقفُ كثيرة تؤكد أن أقوالَه المأثورة عن الشعر كانت تنبُع من تجربته الشخصية الخالصة ، ومن قِيَمه الإنسانية ، ومعرفتِه بأثر الشعر وفاعليتِه في النفوس الكريمة .

---

(١) العمدة : ج ١ ص ٦٥ . (٢) البيان والتبيين : ج ٢ ص ١٠١ .

والشعرُ الخالدُ خلودَ الدهر عند عمر هو ما ينبعث من عاطفة قوية صادقة ، ويُطوِّع نفسَه في الوقت ذاته لخدمة الحق والخير كشعر زهير ابن أبي سلمى .

وزهيرٌ هو شاعرُ عمرَ المفضَّلُ ، وتفضيلُه إياه على غيره من الشعراء لا يرجع إلى ما يمتاز به شعر زهير من جودةٍ وإتقان فحسب ، وإنما يرجع كذلك إلى الصوت الذي كان ينبعث من خلاله داعياً إلى السلام والوئام في مجتمع قَبَليٍّ جاهليٍّ تتجاوب فيه كلُّ أصوات الشعر إشادةً بالحرب وإذكاءً لسعيرها .

فزهيرٌ يُعجَب بموقف الحارث بن عوف وهَرِم بن سنان من حرب عَبْس وذُبيان وتحمُّلِهما للدِّياتِ من أجل الصلح وإقرار السلام بينهما .

ولهذا يجد نفسَه مدفوعاً إلى مدحهما على هذا الصنيع ، ومتخذاً من ذلك مَنْفَذاً إلى تصوير مآسي الحروب وويلاتها ، لعل حِدَّتها تفتُر في النفوس ، ويَحُلّ محلَّها الإخاء والسلام . فمثلُ هذا النوعِ من الشعر في نظر عمرَ هو ما يبقى على الأيام ولا يُبليه الدهر .

قال عمر لابن زهير : « ما فعلت الحُلَلُ التي كساها هَرِمٌ أباك ؟ قال أبلاها الدهر . قال : لكنَّ الحُلَلُ التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبْلِها الدهر »[1] .

وقال عمر لبعض ولد هَرِم : « أنشِدْني بعضَ مدحِ زهيرٍ أباك » فأنشده . فقال عمر : « إنْ كان لَيُحسِنُ فيكم القول » . قال : « ونحن والله إنْ كُنّا لَنُحسِنُ له العطاء » . فقال عمر : « قد ذهب ما أعطيتموه وبَقِيَ ما أعطاكم »[2] .

وكلُّ أحكام عمرَ النقدية تشير إلى أنه كان يقدِّر الشعر ويقيسه بمقياس

---

(١) الأغاني : ج ١٠ ص ٣٠٥ . (٢) المرجع السابق : ص ٣٠٤ .

الرسول . فالحسَنُ من الشعر في رأيه ، وكما كان عند الرسول ، هو ما وافق الحق ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه .

ومعنى ذلك أنه كان يفضل الشعر الذي يجمع بين القِيَم الأخلاقية والقِيَم الفنيّة ؛ فهو يفضّل من الشعر ما يقوم على عنصر الحق أو الصدق ، مع الجودة والإتقان في أسلوب الأداء أو الصنعة الشعرية .

أما الشعر الذي يدعو إلى عكس ذلك ، كشعر الهجاء والمناقضات والمفاخرات والغزل الإباحيّ ، فإنه كان ينهَى عنه ويعاقب عليه ، لأن فيه عودةً إلى روح الجاهلية التي تأباها تعاليم الإسلام . ومن أخبار عمر مع بعض شعراء الهجاء والمدح والغزل في عصره ما يعزّز ذلك .

وما من شك في أن كلّ مواقفِ عمر مع هؤلاء الشعراء كانت مواقفَ الملتزِم بقياس الرسول في النظر إلى الشعر والحُكْم عليه .

وإلى جانب ذلك كان موقفه من الشعر عامةً موقفاً إيجابياً ، بمعنى أنه حاول جاهداً وبشتى الوسائل أن يُطوّر مفهومَ الشعر ، وأن يتّجه به اتجاهاً جديداً يفصله عن ماضيه الجاهليّ ويصلُه بحاضره الإسلاميّ ، فيستلهمَ تعاليمَ الإسلام ويدعوَ لها ، وبذلك يكون الشعرُ من عوامل البناء لا الهدم في المجتمع الجديد .

***

ومن أقوال عمر عن الشعر يتضح أنه كان معجباً بشاعرين ، هما النابغة الذبياني وزهير بن أبي سُلمَى . وإذا كان إعجابه بالنابغة قد دعاه للحكم له مرة بأنه أشعرُ شعراء غطفان ، وأخرى بأنه أشعرُ العرب[1] ، فإن إعجابه بزهير كان أشدّ وأعظم .

---

(١) الأغاني : ج ١١ ص ٤ – ٥ .

قال ابن عباس : « خرجتُ مع عمر في أول غزوةٍ غزاها ، فقال لي ذات ليلة : يا ابن عباس ، أنشِدْني لشاعر الشعراء . قلتُ : ومَن هو يا أمير المؤمنين؟ قال : ابنُ أبي سُلمى . قلتُ : وبمَ صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتتبعُ حوشيَّ الكلام ، ولا يُعاظِلُ في المنطق ، ولا يقولُ إلّا ما يعرف ، ولا يمدحُ الرجلَ إلّا بما يكون فيه . أليس الذي يقول :

إذا ابتدرَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً
مِن المجد مَن يَسْبِقْ إليها يُسوَّدِ[1]

سبقتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبرِّزٍ
سَبوقٍ إلى الغايات غيرِ مُزَنَّدِ[2]

كفعلِ جوادٍ يَسبقُ الخيلَ عَفْوُهُ السّـ
ـراعَ وإنْ يَجْهَدْ ويَجْهَدْنَ يَبْعُدِ[3]

ولو كان حمدٌ يُخلِدُ الناسَ لم تَمُتْ
ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمُخْلِدِ !

أنشِدْني له ، فأنشدتُه حتى برَقَ الفجر . فقال : حَسْبُكَ الآن . اِقرأ القرآن : قلتُ : وما أقرأ؟ قال : اِقرأ « الواقعة » ، فقرأتُها ونزل فأذّن وصلّى[4] » .

ولعل هذا الخبرَ هو أهمُّ الأخبار الأدبيةِ المَرْوِيَّةِ عن عمر ، لما تضمَّنَه من دلالاتٍ كثيرة .

---

(١) يقول : إذا تسابقت قبيلة قيس بن عيلان لإدراك غاية من المجد تسوَّد مَن سبق إليها كنت السابق إليها .

(٢) يقال : رجل طلق اليدين إذا كان معطاء ، وظاهرٌ أنه يريد أن يصف الجواد بأنه ماضٍ يجود بما عنده من العَدْو . والمبرز : الذي سبق الناس إلى الكرم والخير . والمزنَّد هنا : البخيل أو اللئيم .

(٣) عفو الجواد هنا : جَرْيُه .

(٤) الأغاني : ج ١٠ ص ٢٩٠-٢٩١

فهو أولاً يَدلُّ أكثرَ من أيِّ خبرٍ آخرَ على شخصية عمر الأدبيـة ومدى حُبِّه للشعر وتذوُّقـه للجيد منه، والنزوعِ للاستماع اليه. وآيةُ ذلك طلَبُه من ابن عباس أن يُنشده من شعر زهيرٍ شاعرِ الشعراء، وأن يظل ابنُ عباس يُنشِده منه حتى مطلعِ الفجر، فيعدلَ عن الشعر إلى القرآن والصلاة.

والنقدُ بهذا الخبرِ يدخل على يدِ عمرَ في طور جديد لا عهدَ لنا به من قبلُ. فكلُّ الأحكامِ النقدية التي مرَّت بنا منذ العصر الجاهليّ حتى الآن كانت أحكاماً عامةً غيرَ معلَّلة. أما في هذا الخبر فنحن إزاءَ حُكم أدبيٍّ مفصَّلٍ، يقضي فيه عمرُ بأفضليَّة زهيرٍ على سائر الشعراء، مع ذكْرِ الأسباب الفنية التي بَنى عليها حُكمَه.

وهنا نسأل: ما هي هذه الأسبابُ أو الاعتباراتُ الفنية التي جعلت زهيراً شاعرَ الشعراء في رأي عمر؟ بعضُ هذه الأسباب أو الاعتبارات الفنية يرجع إلى الصياغة اللفظية، وبعضُها الآخر يرجع إلى المعاني.

فالصفات أو الخصائص التي تميزت بها صياغةُ زهير اللفظية عند عمر على وجه التحديد هي: تجنُّب حُوشِيِّ الكلام، وتجنُّب المُعاظلة.

وحُوشيُّ الكـلام أو وَحْشِيُّه هو الذي لا يتكرر في كلام العرب كثيراً، فإذا وَرَدَ فيه وردَ مستهجَـناً، أو هو الغريب المستهجَن من الألفاظ، والذي إذا وَرَدَ في الكلام أخلَّ بفصاحته، لصعوبة النطق به أو لثِقَل وَقْعِه على السمع.

أما المُعاظلة في الكلام فهي إركابُ بعض ألفاظه رِقابَ بعض، أو هي شِدَّةُ تعليق الشاعر ألفاظَ البيت بعضَها ببعض، ومُداخلةُ لفظةٍ من أجل لفظةٍ أخرى تشبهها أو تجانسها، وإن اختلَّ المعنى بعضَ الاختلال.

وخُلوُّ شعر زهير أولاً من الغريب المستهجَن، يعني أنه كان بذوقه الأدبيِّ يتخيَّر ألفاظه وينتقيها، وخُلوُّه ثانياً من المعاظلة، يعني أنه كان

ينأى بشعره عن التعقيد اللفظي الذي يؤدي بدوره إلى التعقيد المعنوي.

وكأنّ عمرَ الناقدَ إذْ يذكر حُوشِيَّ الكلام والمُعاظلةَ، كان يريد أن يُقرِّر أنّ صفاتِ الألفاظ ونظمَ الكلام وتلاحمَ أجزائه، إنما هي من الأمور التي ينبغي أخْذُها في الاعتبار عند الحكم على الشعر وتقديره.

وقد التفت رجال البلاغة فيما بعدُ إلى ذلك وعدُّوا غرابةَ الألفاظ والمُعاظلةَ من العيوب التي تخِلُّ بفصاحة الكلام، وأنه بمقدار خُلُوّه من هذين العيبين تكون درجته من البلاغة والفصاحة.

ويبدو أنّ الجاحظ كان متأثراً برأي عمر في ذلك، فهو يرى أنّ فصاحة الكلام إنما هي في بُعده عن الغرابة والحوشية، وفي تلاحم أجزائه وائتلاف ألفاظه، حتى كأنّ البيتَ بأسْره كلمةٌ واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسْرها حَرفٌ واحد[1].

ومن قَبْلِ الجاحظ قال خلفٌ الأحمر: «وأجودُ الشعر ما رأيته متلاحمَ الأجزاء، سهلَ المخارج، فتعلم بذلك أنه أُفرغ إفراغاً واحداً، وسُبِك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدّهان[2].

هذا ما يرجع إلى صياغة زهير اللفظية أو خصائصِ ألفاظه عند عمر، ومنها يُفهَم مذهبُه الأدبيُّ في إيثار الألفاظ السهلة المألوفة والصورِ القريبة، والعباراتِ الدالة على صدق التجربة، إلى جانب تقدير الشعر المعبِّر عن القِيَم الجديدة التي جاء بها الإسلام ودعا إلى إقرارها.

أمّا ما يرجع إلى معانيه فصفتان أيضاً: إحداهما أنه لا يقول إلّا ما يعرِف، والثانية أنه لا يمدح الرجل إلّا بما يكون فيه.

ومعنى ذلك أن عنصر الصدق أصْلٌ من أصول النقد والحكْم عند عمر الذي كان يرى أن الشعر وسيلةٌ من وسائل التهذيب الخُلُقيّ

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥ – ٦٦ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٧ .

والسموّ بالنفس ؛ ولهذا لا يجوز أن يقوم على الكذب والهوَى والتملُّق . وإلّا كان ضررُه أكثرَ من نفعه مهما علَتْ درجتُه من البلاغة .

وهنا يبدو تأثُّرُ عمرَ والتزامُه بمقياس الرسول القائل بأن ما وافق الحقّ من الشعر فهو حسَن ، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه . والواقع أن الروح الإسلامية كانت عميقةً في نفس عمر ، وأنه حاول في خلافته أن يطبع الحياة الجديدة بطابعها ، وأن يكون المعبّرَ عن هذه الروح في مجال الأدب والنقد ، كما كان المعبّرَ عنها في مجال السياسة والحُكم .

***

وقد جارى عمرَ بعضُ الخلفاءِ الآخَرين في تطوير الأحكام النقدية من من أحكام غير معلّلة إلى أحكام معلّلة ، ولكنهم لم يتوسّعوا في هذا الاتجاه توسّعه [1] .

أما عن مشاركة شعراء هذا العهد ومعاصريهم من أهل الثقافة الأدبية في النقد الأدبي ، فقد اقتصر نشاطهم في هذا الميدان على أحكام نقدية مجملة .

فإذا استثنينا المحاولاتِ التي بذلها عمرُ وجاراه فيها إلى حدٍّ ما بعضُ الخلفاء ومعهم ابنُ عباس في توجيه الشعر وجهةً إسلامية يكون فيها المعبّرَ عن قِيَمه الأخلاقية ومُثُله العليا .

وإذا استثنينا كذلك ما أسهم به عمرُ في سبيل تطوير النقد العربيّ وفتح آفاقٍ جديدةٍ أمامه ، فإن ما بَقيَ بعد ذلك مما استجدّ من نقد في عصر الراشدين لا يختلف كثيراً عما كان عليه النقد في عصر الرسول والعصر الجاهليّ .

---

(١) انظر في ذلك كتابنا « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » : ص ٨٠ — ٨٤ .



الفصل الثالث

عصر ابن أبي عتيق

ذكرنا في ترجمة ابن أبي عتيق أن ميلاده كان على الأرجح في خلافة عثمان وأن وفاته كانت على الأرجح أيضاً قبل سنة ثلاثين ومائة للهجرة .

ومعنى ذلك أنه شهد صبياً أحداثَ الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل عثمان ، ثم أحداثَ الصراع المرير الذي قام بعد ذلك بين عليّ ومعاوية من أجل الخلافة ، ثم عاصر الدولة الأموية في معظم أدوار حياتها .

وكانت نشأته بالحجاز ، يقيم في المدينة ، ويتنقل بين مدن الحجاز الأخرى من مثل مكة والطائف عند الاقتضاء ، ويُلِمُّ أحياناً بدمشق مدعُوّاً لزيارة بعض خلفاء الأمويين كزيارته للخليفة عبد الملك بن مروان عندما حدّثه عبدالله بن جعفر عن إقلاله و كثرة عياله [1] .

والحجاز هو مهدُ الإسلام الأولُ . فيه ظهر ثم انتشر حتى عَمَّ أرجاء الجزيرة العربية ، وقد شارك عربُ الحجاز في المغازي ثم في الفتوح الإسلامية في العراق وفارس ومصر والشام ، واتصلوا اتصالاً مباشراً أثناء تلك الفتوح بحضارة هذه الأمم ، ثم عاد مَن عادوا منهم إلى الحجاز يحملون أفكاراً جديدة ومغانمَ شتى .

ولم يكن حظُّ الصحابة من هذه المغانم ضئيلاً ، فالتاريخ يحدثنا أنهم أصابوا منها مالاً وفيراً وثراءً عظيماً ورقيقاً كثيراً .

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٢٢ – ٢٣ .

وقد رسم أبوالحسن المسعوديُّ صورةً لهذا الثراءِ الباذخ في عهد الخليفة عثمان بن عفان فقال : « ... وكان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد ، فسلك عُمّالُه وكثيرٌ من أهل عصره طريقتَه وتأسَّوْا به في فعله ، وبنَى دارَه في المدينة ، وشيَّدها بالحجر والكِلْس [1] ، وجعل أبوابَها من السَّاج والعَرْعَر [2] ، واقتنَى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة » .

« وذكر عبدُ الله بن عتبة أن عثمان يوم قُتِل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائةُ ألفِ دينارٍ وألفُ ألفِ درهم ، وكانت قيمةُ ضِياعه بوادي القُرَى وحُنَيْن وغيرِهما مائةَ ألفِ دينارٍ ، وخلَّف خَيْلاً كثيراً وإبلاً » .

« وفي أيام عثمان اقتنَى جماعةٌ من الصحابة الضِّياعَ والدُّور : منهم الزبيرُ بن العوَّام ، بنَى داره بالبصرة .... وابتنَى دُوراً بمصر والكوفة والإسكندرية . . . وبلغ مالُ الزبير بعد وفاته خمسين ألفَ دينارٍ ، وخلَّف الزبيرُ ألفَ فرس ، وألفَ عبدٍ وأمَةٍ ...

« وكذلك طلحةُ بن عبيدالله التيميّ : ابتنَى داره بالكوفة ... المعروفة بالكُناسة بدار الطلحيِّين ، وكانتْ غلَّتُه من العراق كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ ، وقيل أكثرَ من ذلك ، وبناحية الشَّراة [3] أكثرَ مما ذكرنا ، وشيَّد داره بالمدينة وبناها بالآجُرّ والجِص والسَّاج » .

« وكذلك عبدُ الرحمن بن عَوْفٍ الزُّهريّ : ابتنَى داره ووسَّعها ، وكان على مَرْبِطه مائةُ فرَس ، وله ألفُ بعير ، وعشرةُ آلافِ شاةٍ من الغنم ، وبلغ بعدَ وفاته رُبعُ ثُمنِ مالِه أربعةً وثمانين ألفاً » .

---

(١) الكلس : ما طُلي به حائط أو باطن قصر شِبْهُ الجِص من غير آجُرّ .

(٢) السَّاج : خشب يُجلَب من الهند . والعَرْعَر : شجر عظيم جبليّ لا يزال أخضر تسميه الفُرس السَّرو .

(٣) الشَّراة : هنا صُقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول .

« وابتنى سعدُ بن أبي وقّاص داره بالعقيق، فرفع سَمْكَها[1]، ووسّع فضاءها، وجعل أعلاها شُرُفات ».

« وقد ذكر سعيدُ بن المسيّب أنّ زيدَ بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يُكسَر بالفؤوس، غيرَ ما خلّفَ من الأموال والضِّياع بقيمة مائةِ ألفِ دينار ».

« ومات يَعْلَى بنُ مُنْيَة، وخلّفَ خمسمائةِ ألفِ دينارٍ، وديوناً على الناس، وعقاراتٍ، وغيرَ ذلك من التركة ما قيمتُه ثلاثمائةِ ألفِ دينار».

« وهذا باب يتسع ذِكْرُه ويكثر وصفُه فيمن تملّك من الأموال في أيّامه، ولم يكن مثلُ ذلك في عصر عمرَ بنِ الخطاب، بل كانت جادّةً واضحةً وطريقةً بيّنة. وحجّ عمرُ فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستةَ عشرَ ديناراً، وقال لولده عبدِ الرحمن: لقد أسرَفْنا في نفقتنا في سفرِنا هذا »[2].

وما من شك في أن هذا الثراءَ العريض الذي تدفق على أهل الحجاز، ولاسيما أهل مكة والمدينة، تبِعه تطورٌ في حياتهم وحياةِ أبنائهم، فلم يعودوا يقنعون بما كانوا عليه من قبلُ، وإنما راحوا يتطلعون إلى حياة أرقى ومعيشة أرغد!

ولم يقف التطورُ في حياتهم عند حد تشييد الدور والقصور على النحو الذي ذكره المسعوديُّ، وإنما تجاوزوا ذلك إلى ألوانٍ من الترَف في طعامهم وشرابهم ولباسهم أتاحها لهم ما أفاءه الله عليهم من مغانم الفتوح!

فهم يَطعَمون ويشربون في صِحاف وأوانٍ من الذهب والفضة، ويتخذ الرجالُ منهم ثيابَهم من الخزّ والديباج والحُلَلِ الموشّاة، كما تلبس نساؤهم الشُّفوف[3] وتبالغن في التحلّي باللآلئ والجواهر الكريمة.

---

(١) سَمْك الدار: سقفها. (٢) مروج الذهب للمسعوديّ: ج ٢ ص ٣٤١ – ٣٤٣.
(٣) الشُّفوف: جمع شَفٍّ وشِفٍّ، وهو الثوب الرقيق يُري ما وراءه.

وإذا كان الحجاز في العصر الجاهليّ قد اتصل إلى حدّ ما بالحضارات الأجنبية، فإنه في صدر الإسلام قد زاد اتصالُه وتأثرُه بهذه الحضارات عن طريق الرقيق الذي وفد عليه وأقام فيه منذ الفتوح.

أجل وَفدَ هذا الرقيقُ مع المقاتلين والفاتحين من عرب الحجاز كجزء من غنائمهم، ليعيشوا معهم ويعملوا في خدمتهم. وهكذا أخذ البيت العربيّ يَغمُرهُ بجانب سُكّانه الأصليين عناصرُ أجنبية مختلفةٌ في كل شيء، وبذلك لم يَعُد البيت العربيُّ خالصَ العروبة! وقد كان لهذا الرقيق المتدفق على الحجاز أثرُه الخطير في تطور المجتمع الحجازيّ، وفي إدخال الكثير عليه من مظاهر حياة الفُرس والروم.

***

وإذا نظرنا إلى الحجاز في العصر الأمويّ الذي عاش فيه ابن أبي عتيق معظمَ حياته، رأينا أن الحياة فيه قد تغيرت عما كانت عليه في صدر الإسلام.

وتتجلى مظاهر هذا التغير في انتقالِ الخلافة منه إلى الشام، وانتقالِ المعارضة إلى العراق، وفي سياسةٍ أموية تحدّدُ إقامةَ أبناء الهاشميين فيه، مع تسليط التَّرَف عليهم، وشَغْلِهم بالمال والعطايا عن المُلْك، حتى لا ينازعوهم فيه أو يَشغَبُوا عليهم.

كذلك تتجلّى مظاهر التغيُّر في ازدهار فنّ الغناء وشيوعه، وانتشارِ دوره ومجالسه، وشغَفِ الحجازيين به على النحو الذي أوضحناه في الفصل الخاص بالغناء العربيّ.

وقد اجتمع للحجاز في زمن واحد، ولا سيا في مكة والمدينة ووادي القُرَى، عشراتُ المغنّين والمغنّيات. من هؤلاء المغنّين على سبيل المثال لا الحصر: نشيطٌ، وسائبُ خاثر، وابنُ مِسْجَح، وابنُ مُحرِز، وابنُ سُرَيج، والغريض، ومَعبد، وبُدَيْح المليح، وطُوَيس، ومالك

ابن أبي السَّمْح ، وابن عائشة ، والدَّلال ، وهَيْت ، وطريف ، وابن مِشعب ، ونافع بنُ طنبورة ، وحبيبُ نومةُ الضحى ، وبَرْدُ الفؤاد ، والهُـذَلي النقَّاش ، وعبادلُ بن عطية ، وخليـل بن عمر ، وابن صاحب الوضوء ، وعَطَرّد ، والأبجر ، والبُردان ، وقند ، ورحمة ، وهبة الله ، وحَكَمُ الواديُّ ، وعمرُ الواديُّ ، ويعقوبُ الواديُّ ، وسليمان ، وخُلَيْد ابن عَتيك .

ومن المغنّيات : عزّةُ الميلاء ، وجميلةُ ، وسلّامةُ القسّ ، وأختها رَيّا ، وحَبابةُ ، وبَصْبَصُ ، وفَرْعة ، وبلبلة ، ولذة العيش ، ومَوْليات ابن شمّاس : خُلَيْدةُ المكيّة ، وعُقَيْلة العقيقيّة ، ورَبيحة ، المعروفات بالشمّاسيّات .

ويروي أبو الفرج الأصبهانيُّ أن مكة والمدينة وضواحيَها قد امتلأت بالمغنّين والمغنّيات ، وأنهم كانوا يخرجون إلى الحج قوافلَ ، كما كان الشأن عندما حجّت جميلةُ مغنيةُ المدينة ، فلم يخرج معها الكثيرون من المغنّين والمغنّيات ، فحسبُ ، وإنما خرج معها أيضاً ابن أبي عتيق ، والأحوص ، وكُثيّر عزّة ، ونُصَيب ، وجماعةٌ من الأشراف ، وبعضُ النساء من مواليها وغيرهن [1] .

وقد مرّ بنا الكثير في فصل « الغناء العربي » عن مدى شغف الحجازيين على اختلاف طبقاتهم بالغناء ، وحفاوتهم به ، ورعايتهم لذوي المواهب فيه ، وقد كان لعبدالله بن جعفر ، وابن أبي عتيق نشاطٌ ملحوظ في ذلك .

ولهذا فقد انتشرت دورُ الغناء في مدن الحجاز وأقبل عليها العامة ، كما عُقِدت له المجالسُ الخاصة التي كان يختلف اليها الأشراف والشعراء والفقهاء وغيرُهم من ذوي المكانة المحبين للغناء !

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

ولم تكن هذه المجالسُ مقصورةً على الغناء ، وإنما كانت أيضاً مجالسَ للأدب يُهذَّبُ فيها الشعرُ ويُنَقَّحُ ويُرَقَّقُ بما يتمشّى والذوقَ الموسيقيَّ .

ومنهم مَن دفعه الشغَفُ بالغناء إلى التردد على رَبَّاتِه خارجَ الحجاز . رَوَى الأغاني عن عبد الله بن مُصعب قال : قدم عمرُ بن أبي ربيعة الى الكوفة فنزل على عبد الله بن هلال الذي كان يقال له « صاحبُ إبليس » ، وكان له قينتان حاذقتان ، وكان عمر يأتيها فيسمع منهما ، فقال في ذلك :

يا أهل بابِلَ ما نَفِسْتُ عليكمُ
من عيشكم إلَّا ثلاثَ خِلالِ :

ماءَ الفُراتِ ، وطِيبَ ليلٍ باردٍ
وغناءَ مُسمِعتَيْن لابنِ هلالِ[1]

وإلى جانب حياة البذخ والترف واللهو والغناء هذه ، ظهر في الحجاز وفي مكة والمدينة خاصةً مدرستان للقرآن والحديث والفقه والتشريع والأدب والتاريخ .

وهكذا كان بجانب هذه الحياة العلمية الجادّة الوقورة ، حياةٌ أخرى من المرح والفرح . أجل كان بالحجاز في العصر الأمويّ حديثٌ وفقهٌ ، وزهدٌ وورَع ، وكان به كذلك لَهْوٌ وطرب وشراب وتشبيب بالنساء حتى في موسم الحج ! وكما أنتجت الحياة الأولى علماً غزيراً أنتجت الثانية فناً بديعاً من غناء وأدب ومنادرة[2]. هذا مع ما عُرِف به أهلُ الحجاز من ظَرفٍ ، ولطافةِ حِسٍّ ، وفصاحةِ لسان ، ومحبةِ لَهْوٍ .

كل ذلك كان له أثره في تغيير وجه الحجاز والانتقال به تدريجياً من دَوْر البداوة إلى دَوْر الحضارة ، وفي ظهور ألوانٍ جديدةٍ من الترف والأدب والفن .

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) المنادرة : التطارح بغرائب الكلام والأخبار .

ومن ثَمَّ نرى شبابَ الحجاز ، وقد أتيح لهم ما أتيح من كل ما يستثير العواطف ويُغريها بالانطلاق ، يعكفون على مُتَع الحياة ولذّاتها ، ويستنيمون للبذَخ والنعيم ، ويغشَوْن مجالس الطرب والغناء ، ويذهبون في حياة اللهو والمجون كلَّ مذهب ، ويتعرضون للحسان والقيان في موسم الحج .

وقد كان لموسم الحج أثرُه في حياة أهل الحجاز عامةً ، وأهل الغناء والشعر منهم خاصةً . فهو بالنسبة إلى هؤلاء وإلى كثير من الحسان الوافدات من شتى الأقطار الإسلامية لم يكن موسماً للحج بمقدار ما كان مَعْرِضاً للجمال ، ومَعِيناً للإلهام ، ومَرتَعاً للخيال ، ومَجْلَى للعواطف ، ومَتعةً للعين والأذن !

وإذا أخذنا عمر بن أبي ربيعة مثالاً لشعراء الحجاز ، فإننا نجد في أخباره ما ينبئنا بأنه كان يترقّب موسمَ الحج أيّما ترقّب ، ويستعدُّ له أكملَ استعداد ، حتى يظفر بمن شاء من حِسَان الموسم !

ولعل الدكتور طه حسين خيرُ مَن عبّر عن مفهومه لموسم الحج وصوّر نشاطه ومغامراته فيه ، وذلك إذ يقول : « لم يكن ابن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلّا أنه مَعرِض إسلاميٌّ للجمال ، وكان إذا قرُب الموسم اتخذ أجملَ ما كان يستطيع من زينة ، وظهر في مظهر الفتوّة والقوّة ، وفارق مكة فتعرّض للحجيج في طريق المدينة والشام والعراق يتلمّس نساءَهم ، ويتبيَّن هوادجَهنَّ ، ويعرِض منها لمن تظهر عليها آثار النعمة والترف .

فإذا وافى الحجيجُ مكةَ وغيرَها من مواضع المناسك ، كان عمرُ قد أحصى النساء اللاتي يجب أن يكون بينه وبينهنّ لقاءٌ أو حديثٌ أو مكاتبةٌ . وكانت له رُسُل تعمل في ذلك ، فتأتيه المواعيد في مكة حيناً ، وفي مِنىً حيناً آخر ، وكانت أحبَّ ساعات الدهر اليه أوائلُ الليل من أيام الموسم حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجْنَ للطواف . هنالك

كان عمر بن أبي ربيعة يترصّدهنّ ، ومنهنّ مَن كانت تترصّده . وهنالك كانت تبتدىء الأحاديث لتتمّ بعيداً عن البيت ، حتى إذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة إلى بلادهم ، رأيتَ عمر مُقسّماً بين نساء المدينة ونساء الشأم ونساء العراق ، يشيّع هذه ثم يعود فيشيّع تلك ، ثم يترك هاتين ليشيّع امرأةً أخرى .

وهو لا يفرغ من تشييع امرأة إلّا قال الشعرَ الجيّد يسبقها إلى مواطنها ، ولا يلبث أن يسقط بين أيدي المغنّين فإذا هو مصدرٌ للّهو والطرب لهذه الأرستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسمُ الحج موسمَ شعر وغناء في الحجاز [1] » .

ولم يكن أهلُ الغناء أقلّ من الشعراء أثراً في موسم الحج . جاء في الأغاني أن ابن عائشة كان واقفاً بالموسم متحيّرا ، فمرّ به بعض أصحابه فقال له : ما يُقيمكَ ها هنا ؟ فقال : إني أعرف رجلاً لو تكلم لحَبسَ الناسَ ها هنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجيء ، فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال : أنا ، ثم اندفع يغنّي :

جَرَتْ سُنُحاً فقلت لها : أجيزي
نَوًى مشمولةً فمتى اللقاءُ ؟ [2]
بنفسي مَن تذكّره . . . سَقامٌ
أعانيه ومَطلبُه عَناءُ

قال : فَحُبِسَ الناسُ ، واضطربتِ المحامِلُ ، ومَدّتِ الإبلُ أعناقَها ، وكادت الفتنةُ أن تقع !

فأُتِيَ به هشامُ بنُ عبد الملك ، فقال له : يا عدوّ الله ، أردتَ أن تفتِنَ الناس ! قال : فأمسك عنه وكان تيّاهاً ، فقال له هشام : ارفُقْ

---

(١) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٣٠٩ .

(٢) السانح : ما أقبل من شمالك يريد يمينك ، والبارح ضده . أجيزي : أي انفُذي . ومشمولة : سريعة الانكشاف .

بتيهك . فقال : حقٌ لمن كانت هذه مَقْدِرَتُه على القلوب أن يكون تيّاهاً ! فضحك منه وخلّى سبيله (١) .

وقد كان لحسانِ النساء الوافداتِ كلَّ عام الى الحجاز للحج شأنُهنّ في إضفاءِ جوٍّ من البهجة على الموسم ، وفي استجاشة عواطف الشعراء للغزل والشعر !

وكان عمرُ بن أبي ربيعة أكثرَ شعراء الحجاز ترقّباً لموسم الحج كلَّ عام ، وكأنه كان يرى في حِسَانِه ومغامراتِه معهنّ غذاءً لقلبه وعواطفه ، وينبوعاً عذباً يستقي منه رقيقَ شعره الذي كان يسير في الآفاق .

أليس هو القائل :

ليت ذا الدهرَ كان حَتْماً علينا

كلَّ يومين حِجّــةً واعتمارا ؟

فمن حِسَانِ الموسم مَن كانت تتعرّض له ليعلَقَ بها ويُشيدَ بجمالها في شعره ، ومَن تُناشده اللهَ ألّا يُشهِّرَ بها ، وهي في صميم قلبها تودُّ لو يُشهِّر بها حتى يُحدِثَ لها ذِكْراً ، ومَن تبعث في طلبه إحدى جواريها ليوافيها ليلاً ، حُبّاً في مناجاته ، والاستكثارِ من محادثته ، والاستماعِ الى شعره ، ومَن تضيق بغزله فيها أيامَ الحج وتنعته بالفاسق ، ومَن تطلُع عليه في الطواف فيبهرُه حسنُها وتغلبه على عقله ، فيشبِّب بها .

والحارث بن خالد المخزوميّ والي مكة يحج بالناس ، فترسل اليه عائشة بنتُ طلحــة ، وكان يهواها ، أن أخّرِ الصلاة حتى أفرغَ من طوافي فيستجيبَ لطلبها . ويُنكِرُ أهلُ الموسم ذلك ويبلغُ الأمرُ عبدَالملك بنَ مروان فيعزِلُه ، ويكتب اليه يؤنّبه فيما فعل ، فيقول : ما أهونَ — والله — غضبُه إذا رضِيتْ ! والله لو لم تفرغ من طوافها الى الليل لأخّرتُ الصلاةَ الى الليل ! ثم يُنشد في ذلك شعراً (٢) .

(١) الأغاني : ج ٢ ص ٢٠٨ . (٢) الأغاني : ج ٣ ص ٣٤٠ .

والعرجيُّ يحدثنا في شعره بأنَّ من حِسَانِ الموسم مَن لم يكن حَجُّهنَّ لذات الحج وأداء الفريضة بمقدار ما كان لأَسْرِ القلوب البريئة :

أَمَاطتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهها
وأَدْنَتْ على الخدَّين بُرداً مُهَلهلا

من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبغِين حِسْبةً
ولكِـنْ لِيقتلْنَ البريءَ المغفَّلا(1)

لذلك شاع الحب والغزلُ الإباحيُّ في مدن الحجاز، وأضطرمت عواطفُ أهلها ورَقَّتْ مشاعرُهم، كما شاع الغزل العفيف بين شعراء بادية الحجاز...

***

والآن إذا نظرنا على هذا الضوء إلى الحجاز كبيئة من بيئات الشعر في العصر الأمويّ فإن صورة هذه البيئة تبدو واضحةَ الملامح والقسمات.

فهي بيئةٌ أخذتْ بأسباب حضارةٍ جديدة هي مزيجٌ من الحضارة العربية والحضارات الأخرى التي اتصلت بها وتفاعلت معها. بيئةٌ تختفي من حياتها قِيَمٌ جاهليّةٌ قديمة لتحُلَّ محلّها قِيَمٌ جديدة تصقُل النفوس، وتُرهِف الحسَّ، وتُذكِي العواطف، وتُكسِب الخيال شفافيةً وصفاء.

في هـذه البيئةِ المترفةِ الآخذةِ في التحضُّر انفصل الشعرُ الحجازيُّ في العصر الأمويّ إلى حدٍ كبير عن الشعر الجاهليّ، ففترتْ فيه دَوَاعِي الفخرِ والحماسة، وكاد يختفي منه الهجاء لاختفاء كثيرٍ من مُثيراته، وقلَّ فيه المدحُ؛ لأن أغلب شعراء الحجاز المرموقين في هـذا العصرِ كانوا في رَغَدٍ من العيش، ومِن ثَمَّ لم يكونوا بحاجة الى التكسُّب بشعرهم.

أما الشعر الذي غلب على هذه البيئةِ واستبد بطاقات شعرائها الفنية

(1) الأغاني : ج 1 ص 404 .

فهو « الغزلُ الإباحيُ » . وكلُ شعرائه أو أكثرُهم كانوا من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتّصلين بهم اتصالاً قوياً .

وهذا النوعُ من الغزل هو وليدُ اجتماع اليأس والثراء والفراغ . اليأسُ من عدم القدرة على استرداد ما كان للحجاز وأُخِذَ منه ، والثراءُ الذي آل إليهم من آبائهم ، ومن عطاء الخلفاء مراعاةً لمكانتهم ، واصطناعاً لهم ، والفراغُ الذي أسلمتهم إليه السياسةُ الأموية ، وذلك بعزلهم ، والحيلولة بينهم وبين المشاركة في الحياة العامة !

وكان طبيعياً أن يولّد اجتماع اليأس والثراءِ والفراغِ لدى أبناء الطبقة الأرستقراطيّةِ في الحجاز شيئاً ، ولم يكن ذلك الشيءُ إلّا اللهوَ والإسرافَ فيه والعكوفَ عليه !

أجل لقد أسرفَ أبناء هذه الطبقة في اللهو ، واتخذوا منه عزاءً لهم عمّا أصابهم من الخيبة في الحياة العامة . وفي هذه البيئة ومن هذه الطبقة نشأ شعراءُ الغزلِ الإباحيّ . نشأ عمر بن أبي ربيعة وأمثالُه في مكة ، ونشأ الأحوصُ بن محمدٍ الأنصاريّ وأمثالُه في المدينة ، ونشأت حولهم طوائفُ شتى من أهل الغناء وأهل الظَّرف والفُكاهة والمزاح .

ويتميز الغزَل الإباحيُ أو الحضَريُ بأنه شعر فيه دُعابة وظَرْف ، وفيه وَصْفٌ للنساء صريح ، وفيه قَصص يحكي تجارب الشعراء مع النساء ، وفيه جرأةٌ على التقاليد القديمة ، وخروجٌ على مألوف ما اعتاده الشعراءُ السابقون في الغزَل ، ثم فيه محاولاتٌ للتجديد شكلاً ومضموناً ، ومحاولاتٌ أخرى تهدِف إلى تبديل نظرة كلٍّ من الجنسين إلى الآخر .

وقد فُتِن المجتمعُ الحجازيُ على اختلاف طبقاته بهذا اللون الجديد من الغزَل . ولعل سببَ ذلك أن هذا الغزلَ على حدّ قول الدكتور طه حسين : « لم يخلُص من السذاجة البدويّة ، ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة . ففيه من البداوة سذاجةٌ تستخِفُّكَ وتستَصْبِيك ، وفيه من

الحضارة طِلاءً يبعث في نفسكَ الميلَ إلى الاستطلاع والاستقصاء. وأنت تجد بعد هذا كلّه عذوبةً ولذةً في هذا المزاج الذي يتألف منه الغزَلُ الأمويُّ، والذي يمثّل لك هذا الشعبَ العربيَّ الباديَ وقد أخذ يتحضّر ويترَف، ويُحِسُّ على بداوته كما يُحِسُّ المتحضّرن المترَفون.... فهذا الغزلُ الأمويُّ يمثّل نفس الشاعر والجماعة التي كان يعيش فيها تمثيلاً صادقاً صحيحاً»[1].

وكان عمرُ بن أبي ربيعة أوّلَ مَن عبّدَ طريقَ الغزَلِ الإباحيِّ وحمل لواءه في الحجاز، ثم سار على دَربه ونهَج منهجه كثيرون غيرُه من شعراء مكة والمدينة.

ومما يدل على مكانة ابن أبي ربيعة لدى العرب ما رواه صاحب الأغاني عن يعقوب بن إسحاق، قال: كانت العرب تُقِرُّ لقريش بالتقدم في كل شيءٍ عليها إلّا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمرُ ابن أبي ربيعة، فأقرّتْ لها الشعراءُ بالشعر أيضاً، ولم تُنازِعْها شيئاً[2].

والواقع أن عمر بن أبي ربيعة قد طلع على الحجاز بفنٍّ شعريٍّ أو مذهبٍ شعريٍّ تغلب عليه سِماء الحضارة، ويتّسم بالجدّة في كل شيء. فهو جديدٌ في اتجاهه وروحه، جديدٌ في رقة معانيه ودَماثةِ ألفاظه، جديدٌ في أسلوبه الحِواريِّ الشائق، وصوره الطريفة المبهجة، ثم جديدٌ في جرأته على التحلّل إلى حدٍّ كبير من تقاليد شعر الغزَل القديمة المتوارثة!

وكان من مظاهر جدّةِ عمرَ أو تجديده أنّه وقف شعرَه على الحب والغزَل، فلم يُجاوزه إلى غرض آخر. سأله سليمان بن عبد الملك: ما يمنعك من مدحنا؟ فقال عمر: إني لا أمدح الرجال! إنما أمدح النساء![3].

وخرج مرةً مع الحارث بن خالد وجماعةٍ من الشعراء يُشيّعون بعضَ

---

(١) حديث الأربعاء: ج ١ ص ٢٩٥. (٢) الأغاني ج ١ ص ٧٤.
(٣) المرجع السابق.

خلفاء بني أمية ، فلما انصرفوا نزلوا « بسَرِف » فلاحَ لهم بَرْقٌ ، فقال الحارث : كلُّنا شاعرٌ ، فهلمُّوا نصفِ البرقَ . فوصفه كلُّ واحد منهم في بيت شعرٍ إلّا عمرَ فإنه قال :

أيا رَبِّ لا آلو المودّةَ جاهداً
لأسماءَ فاصنعْ بي الذي أنتَ صانعُ

ثم قال : ما لي وللبرق والشوك ![1]. فأسماء أو المرأة عامةً هي شُغْلُ قلبه ، ومادّةُ شعره ، ومصدرُ إلهامه !

وإذا كان مُصْعَبُ بن الزبير قد قتل عَمْرةَ[2] بنتَ النعمان بن بشير الأنصارية ، امرأةَ المختار بن عُبَيْد والي عبدالله بن الزبير على الكوفة لأسباب سياسية ، فإن ابن أبي ربيعة يرثيها ، والرثاء أخو المدح ، لأسباب عاطفية ؛ لأن المرأة الجميلة التي هي معبودُه وموضوعُ شعره لم تُخلَق للقتل ، وإنما كُتِبَ القتل والقتال على الرجال وحدَهم . وفي ذلك يقول :

إنَّ مِن أعظمِ المصائب عندي
قتلَ حسناءَ غادةٍ عُطْبُولِ[3]
قُتِلَتْ باطلاً على غير ذنب
إنَّ للهِ درَّها من قتيلِ !
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا
وعلى الغانيات جَرُّ الذُّيولِ[4]

ومع فتنة المجتمع الحجازيّ على اختلاف طبقاته بشعر عمرَ الذي

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٥٤ ، وسَرِف : مكان على ستة أميال من مكة : وقيل : سبعة ، وتسعة ، واثني عشر . تزوج به رسول الله ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ، وهناك توفيت (معجم البلدان : ج ٣/٢١٢) . (٢) الكامل لابن الأثير : ج ٣ ص ٣٨٦ .
(٣) العطبول والعيطبول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة الجيد .
(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٧ .

يصف فيه تجاربَه العاطفية مع النساء وَصْفاً صريحاً جريئاً ، فقد كان هناك في هذا المجتمع مَن يعارض هذا الشعر ويخشى منه على الأخلاق ، كابن جُريج الذي يقول : « ما دخل على العواتق [1] في حِجَالهنّ شيءٌ أضرُّ عليهنّ من شعر عمرَ بن أبي ربيعة [2] » .

ومع معارضة ابن جُرَيْج لشعر عمر والإشفاقِ من تأثيره السيّىء على أخلاق العذارَى والفتيات المخدّرات ، فإن في كلمته اعترافاً ضِمنيًّا بأنّ في هذا الغزلِ من الجمال وقوة التأثير ما يسحَر قلوبَ النساء ويخلب ألبابَهنّ ويستثير عواطفَهنّ .

وذلك الاتجاهُ الجديدُ من الغزل الإباحيّ التحرري هو ما غلب في العصر الأمويّ على المجتمع الحجازيّ الذي أخذ طريقَه إلى التحضُّر بفعل العوامل والأسباب التي اجتمعت له .

وكان عمر بن أبي ربيعة زعيمَ مدرسة الغزَل الإباحيّ في عصره ، ثم اقتفى أثَرَه فيه طائفةٌ من شعراء مكة والمدينة من أمثال العرجيّ ، والحارثِ بن خالد المخزوميّ ، وعُبيدِ الله بن قيس الرقيّات ، والأحوص ابن محمدٍ الأنصاريّ ، ونُصَيْبِ بن رَباح ...

***

ذلك عن الغزَل الإباحيّ الذي نَشأ أيامَ بني أميّة في الحجاز ، وفي مكة والمدينة خاصةً على أيدي الشعراء المترَفين اللاهين من أبناء المهاجرين والأنصار .

كذلك نشأ في العصر الأمويّ لونٌ آخرُ من الغزل هو الغزل العُذْريُّ

(١) العواتق : جمع عاتق ، وهي الشابة أول ما تُدرك ، أو التي قد أدركت وبلغت فخُدّرت في بيت أهلها ولم تتزوج : سميت بذلك لأنها عُتِقت من خدمة أبويها ، ولم يملكها زوجٌ بعدُ .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٧٤ . والحِجال : الستر والخِدر .

الذي عُرِف به شعراء أهل البادية الحجازيّة من أمثال جميل بن مَعْمَر ، وعُروة بن حِزام ، وقيس بن ذَريح ، وقيس بن المُلوَّح المعروف بمجنون ليلى ، ممن اتخذوا الغزل العذريّ العفيف مذهباً لهم في الشعر .

والشعراء العذريّون ينتمون الى قبائل عربية ليس لها شأن عظيم في الإسلام ، فجميلٌ مثلاً كان بدويًّا في وادي القُرى ، وقيس بن ذَريح كان بدوياً يعيش في بادية المدينة ، ومجنون ليلى كان نجديًّا يعيش في بادية نجد .

والغزل العذريُّ كالغزل الإباحيّ أثرٌ من آثار الحياة السياسية أيامَ بني أمية ، فهذه الحياة قد أبعدت أهل الحجاز من حضَرٍ وبَدْوٍ عن العمل فأسلمتهم بذلك إلى اليأس ، ولكنها في الوقت ذاته أغنت خاصةَ أهلِ الحضَر فلهَوْا وأسرفوا في اللهو ، وأفقرت أهل البادية فزَهِدُوا وعفُّوا ، وانصرفوا إلى شيء من المثَل الأعلى في الحياة الخلقيـة ، وانكفئوا على أنفسهم يستبطنون دخائلها التي يشعرون بها دون أن يستطيعوا لها شفاء أو إرضاء .

وقد وجدوا في الشعر ، وشعرِ الغزل العذريّ خاصة ، مُتنَفَّساً لكل أشواقهم المكبوتة ، فغنَّوْا بشعرٍ تمتزج فيه السذاجة البدوية بالرقة الإسلامية .

وموضوع الشعر العذريّ هو الحب ، ومـا يترك في القلب من أثر ، وما يبعث في النفس من عاطفة ، وما يُلقي على المحب من كآبة وحزن ، وما يُحيي فيه من أمل ورجاء .

ولاستقاء الشعراء العذريين من مَعين واحد فقـد تشابهت ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ، حتى ليمكن إضافةُ شعرِ أحدهم إلى غيره دون ما حائلٍ فنيّ . فكل واحد منهم أحبّ امرأةً واتخذها مَثلاً أعلى للجمال الماديّ والمعنويّ ، وكلهم وصفها بما يتّصف به هذا المثلُ الأعلى من صفات الحسن والكمال ، مستخدمين في ذلك نفسَ الألفاظ والمعاني والأساليب .

ووصفُ الشاعر العذريّ لجسم المرأة لم يكن غايةً في ذاته ، وإنما كان وسيلةً إلى وصف نفس العاشق وما تلقى بالحب من شقاء أو سعادة أو بؤس أو نعيم . وكانت المرأة عندهم شطراً من النفس لا تطِيب للنفس حياةٌ إلّا به .

والغزَلُ العذريُّ يتّسم بصدق العاطفة القوية المؤثرة ، كما يتّسم بالبداوة التي تُكسب لفظه جزالةً في غير عنف ، ومعناه سذاجة في غير سُخف . والقارىء لهذا الشعر العفيف لا يسعه إلّا أن يتأثر به ، وإلّا أن يتعاطف مع أصحابه الذين طهّر الألمُ والحرمان نفوسَهم !

وإلى جانب الغزَل الإباحيّ والغزَل العذريّ اللذين ظهرا في الحجاز أيامَ بني أمية ، كان هناك نوع ثالث من الغزَل ، هو الغزل التقليديُّ الذي كان يمثّل بعضُه لهوَ أهلِ البادية وعبثَ شبابهم ، ويذكّر بعضُه الآخرُ بغزَل الجاهليين الذي لم يكن يُقصَد لذاته ، وإنما كانُ يتّخذ وسيلةً إلى غيره من فنون الشعر ، كالمدح والهجاء والوصف ونحوها[1].

* * *

تلك صورةٌ موجزة لحياة الحجاز وباديتــه في العصر الأمويّ ، وهي بالتالي صورة لحياة العصر الذي عاش فيه ابن أبي عتيق .

فلقد عاصر هذا الشريفُ القرشيُّ معظمَ أحداث عصره ، وشهد الكثير مما طرأ على بيئة الحجاز من تقلّباتٍ سياسية ، وتطورات اجتماعيـــة ، وحركات علمية وأدبية .

أجل ، لقد شهد صبيّـا الفتنةَ الكبرى التي انتهت بمقتل عثمان ، ثم الصراعَ الذي قام بين عليٍّ ومعاوية من أجـل الخلافة ، ثم انتقالَ مَقرّ الخلافة الإسلامية من الحجاز إلى الشام ، وانتقالَ المعارضة إلى العراق .

وهو لم يشهد هذه التقلباتِ السياسيةَ فحسب ، وإنما شارك في بعضها أيضاً . فهو من الناحية السياسية كان زبيريّ الهوَى . وقد رأينا من قبلُ

(١) انظر حديث الأربعاء : ج ١ ص ٢١٧

انتقاده لعبدالله بن الزبير على عدم الأخذ برأيه في بعض مواقفه السياسية، كما رأينا ولاءه المتصل له، ووقوفه الى جانبه حتى النهاية، على حين تخلّى عن ابن الزبير بعضُ أبنائه وأهله!

ومن الناحية الاجتماعية شهد ابن أبي عتيق كلَّ العوامل التي أتيحت للحجاز، وأخذت تتفاعل فيه وتعمل مجتمعةً على رُقيّه ونهضته، والانتقالِ به تدريجياً من طور البداوة إلى طور الحضارة.

شهد تأثيرَ الإسلام الذي قد بدأ يفعل فِعلَه في نفوس الحجازيين وعقولهم وأخلاقهم. وشهد مغانم الفتوح التي أصابها عربُ الحجاز وأبناؤهم؛ من ثراءٍ عريض دفعَ بأصحابه إلى الرفاهية والترف وإلى أنماط جديدة من الحياة أخذوا بها وبالغوا فيها، ومن رقيقٍ كثيرٍ متباينِ الأجناس والألوان واللهجات، يحمل فيما يحمل أفكاراً وفنوناً جديدة، وعاداتٍ وثقافاتٍ مختلفةً لم يألف العرب من قبلُ مثلها كمًّا وكيفًا.

وشهد تطوُّرَ الغناءِ العربيِّ بفعل ما أدخل عليه من ألحان غناء الروم والفُرس خاصةً، كما شهد ازدهارَ هذا الغناء، وولعَ الحجازيين به والإقبالَ على سماعه، وعَقْدَ المجالس الخاصة والعامة له، وانتشارَ دُوره في مكة والمدينة ووادي القُرَى، وكثرةَ المغنّين والجواري المغنّيات.

ولم يقف ابن أبي عتيق من حركة تجديد الغناء العربيِّ في الحجاز موقف المشاهد المتفرّج، وإنما كان بطبعه للغناء محباً، وكان هو يُغنّي أحياناً، وكان من العاملين في عصره على تشجيع الغناء ونشرِه، وإكرام أهله، ورعاية ذوي المواهب فيه رجالاً ونساء.

ومن يتصفحْ تاريخ الحجاز في العصر الأمويِّ يُخيَّلْ اليه أن الغناء والاستماع اليه كاد يستبد بوقت أبنائه حتى العلماءِ والفقهاءِ والعُبّادِ منهم!

كذلك شهد ابن أبي عتيق في عصره بالحجاز ظهورَ حركةٍ علميةٍ جادّةٍ تُعنَى بالقرآن والحديث والفقه والتشريع، وأخرى أدبيةٍ فنيّةٍ تهتمّ خاصةً بالجديد في شعر الغزل، وتشجّع عليه إنتاجاً ونقداً.

ذلك هو عصرُ ابن أبي عتيق الذي فيه ظهر وعاش ، وبأحداثه تأثر وانفعل . وقد اشتهر هـــذا النبيلُ القرشيُّ بالفضل والنسك ، والصلاح والعفاف ، كما عُرِف بالظَّرف والدُّعابة والفكاهة ، والميـــل إلى اللهو والمزاح والغزَل .

وإلى جانب كل ذلك كان الرجلُ وَلوعاً بالغناء ، محباً للأدب والشعر ، ناقداً له ، فقد كان معاصروه من الشعراء يسعَوْن إليه ، ويُنشدونه من أشعارهم فينقدُها نقدَ الحاذق البصير بما فيها من مواطن القوة والضعف .

وسوف نرى في الفصل التالي والأخير من هذا البحث طبيعةَ نقده ، ومقدارَ ما أسهم به في تطوير حركة النقد الأدبيّ وتوسيعِ مجالاته في الحجاز ، ومدى تفوُّقه فيه كَيْفاً وكَمّاً على نقاد عصره ، حتى عُدَّ بحقٍ ناقدَ الحجاز الأول .

الفصل الرابع

ابن أبي عتيق والنقد

عرفنا من الفصل السابق ملامحَ العصر الذي عاش فيه ابنُ أبي عتيق في الحجاز. وأوضحُ هذه الملامح تتمثّل فيما حظِيَ به الشعر الحجازيُّ من نهضة وتطور في العصر الأمويّ.

فهذا الشعر الحجازيُّ، كما رأينا من قبلُ، قد غلب عليه الغزَل الحضَريُّ الذي أخذ بفعل العوامل الجديدة التي طرأت على بيئته ومجتمعه ينزِع عن نفسه رداء البداوة شيئاً فشيئاً، ويدخل في رداء الحضارة شيئاً فشيئاً كذلك.

وقد استتبعت هذه النهضةُ الشعرية الجديدة في بيئة الحجاز الظريفة المرحة، اللاهيةِ المترفة، نهضةً أخرى في النقد الأدبيّ تجاريها في طبيعتها وروحها، نهضةً تدلُّ إلى حدٍّ ما على رقيٍّ في الذوق، واتساعٍ في الأفق، وعمقٍ في النظرة، والتفاتٍ إلى بعض جوانب النقد التي لم يلتفت إليها النقاد السابقون.

والمتّطلع على تاريخ النقد الأدبيّ في الحجاز أيامَ بني أمية يُدهشه ما يرى من اهتمامٍ عامٍّ بالنقد على جميع المستويات وبين مختلف الطبقات. فقد أسهم في هذا النقد الرجالُ والنساء والشعراءُ وغيرُ الشعراء، كلٌّ على قدر ذوقه وفهمه وروحه ونوع ثقافته.

ولعل هذا الاهتمامَ بالنقد والإقبالَ عليه كان وليدَ الاهتمام بالشعر ذاته، وبما يدور حوله من جدَل ونِقاش بين الناس أنفسِهم في مجالسهم

ومنتدياتهم . ومن عجيب الأمر أن نجد هذا الحماس الشديد للنقد حتى بين موالي بعض الشعراء !

فكل هـذا النشاطِ النقديّ المتنوع الصُّوَر والأساليب ، كما سنرى ، يؤهّلنا للقول بأن النقد العربيّ قد أخذ على أيدي المهتمين به من أهل الحجاز يتطور ويشق طريقه الصحيح ، وأن ما سبقه من نقدٍ لم يكن في الواقع إلّا نواةً أو محاولاتٍ للرّيادة والكشف على طريق النقد القويم .

***

الأحكام غير المعللة :

وأول صورة للنقد الأدبيّ نلتقي بها في بيئة الحجاز إبّانَ العصر الأمويّ هي في الواقع امتدادٌ لاتجاهٍ سابق، وبعبارة أخرى هي صورة للأحكام غير المعلّلة ، التي تذكرنا بأحكام نُقّاد العصر الجاهليّ وصدر الإسلام .

وتتمثّل هذه الصورةُ في نقد الشعراء بعضِهم بعضاً ، سواءٌ أكان أولئك الشعراءُ حجازيّين أو غيرَ حجازيّين .

وكان عمر بن أبي ربيعة أوْفَى شعراء الحجاز نصيباً في ذلك ، فقد أبدَى أربعةٌ من معاصريه رأيَهم فيه أو في شعره في صورة أحكام عامة غير معلّلة . وهؤلاء هم : نُصَيْبُ بنُ رَباح ، وجميلُ بنُ مَعْمَر ، وجريرٌ ، والفرزدق .

أمـا نُصَيْبٌ فيقول عنه : لَعُمَرُ بن أبي ربيعة أوْصفنا لرَبّاتِ الحِجال »[1]. فعمرُ هنا في رأي نُصَيْب أحسنُ معاصريه وصفاً لرَبّات الحِجـال ، أي أحسنُهم وصفاً لمحاسن المصونات المخدّرات من القرشيات

(١) الأغاني ج ١ ص ٧٤ .

وغيرِهنَّ من نساء بيوتات العرب وهذا ، كما نرى ، حكمٌ عامٌ ، لم يكشِف فيه نُصَيْبٌ عن الأسباب التي بناها عليه .

ومع ذلك فالذي يستقرئُ ديوان عمر يجد مِصداقَ قولِ نُصَيْب ، هذا القولِ الذي علّق عليه الدكتور طه حسين بقوله : « ولم يخطئْ نُصَيْبٌ حين قال : عمرُ بن أبي ربيعة أوصفُنا لربّات الحِجال . فلم يعرف العصر الأمويُّ كلُّه شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها عمر ابن أبي ربيعة جودةً وكثرةً ودقّةً بنوع خاص »[1].

وجميلُ بن مَعْمَر يحكم لعمرَ بنِ أبي ربيعة بالتفوّق على سائر الشعراء في مخاطبة النساء والحديث الين ، ويفضّله من هذه الناحية حتى على نفسه . جاء في الأغاني أنهما اجتمعا في الأبطح ، فأنشد جميلٌ قصيدته التي يقول فيها :

لقد فرحَ الواشون أن صرَمتْ حَبلي
بثينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البخلِ

يقولون : مهلاً يا جميـلُ وإنني
لأُقسمُ ما لي عن بُثينةَ من مَهْلِ

حتى أتى على آخرِها ، ثم قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت في هذا الرويِّ شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فأنشِدْنيه ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

جرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينهـا
فقرّبني يومُ الحِصاب إلى قتـلي[2]

فقال جميل : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثلَ هذا سَجيسَ[3] الليالي ! واللهِ ما خاطب النساءَ مخاطبتَك أحدٌ ! وقام مشمّراً[4] .

---

(١) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٣٠١ .

(٢) يوم الحِصاب : أراد به يوم رمي الجِمار في موسم الحج ، وذلك في مِنَى . والجمار : جمع جمرة ، وهي هنا مجمع رمي الحصى بمنى . والجمار تُرمى بالحصباء ، وهي صغار الحصى .

(٣) سجيس الليالي : طوال الليالي . (٤) الأغاني : ج ١ ص ١١٤-١١٦ .

وقد أُثِر عن جرير أكثرُ من حكمٍ عامٍّ غيرِ معلَّل أصدره على عمرَ وشعرِه. أنشِد مرةً بعضَ غزَل عمر فقال: «إن هذا الذي كنا نَدُور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشيُّ[1]».

وكان إذا أنشِد شعرَ عمر قال: هذا شعر تِهاميٌّ إذا أنْجَدَ وجَد البردَ، حتى أنشِد قولَه:

رأتْ رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضتْ
فيَضْحَى وأمّا بالعشيّ فيَخْصَرُ
قليلاً على ظهر المطيّـة ظلُّه
سوى ما نَفَى عنه الرداءُ المحبَّرُ[2]
وأعجبها من عيشها ظِلُّ غُرفةٍ
ورَيّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضرُ
ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها
فليست لشيءٍ آخرَ الليلِ تَسهَرُ

فقال: ما زال هذا القرشيُّ يَهْذِي حتى قال الشعر[3].

وحكم له مرة ثالثة بأنه أنسبُ الناس. لقِيَه عبدُ الله بنُ أسلمَ فقال له: يا أبا حَزْرَةَ، إنّ شعرَك رُفِعَ إلى المدينة، وأنا أحب أن تُسمعني منه شيئاً. فقال: إنكم يا أهل المدينة يُعجبكم النسيب، وإن أنْسَبَ الناسِ المخزوميُّ. يعني ابن أبي ربيعة[4].

هذا عن جرير. أما الفرزدق فيُروَى أنه سمع شيئاً من نسيب عمرَ فقال: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأتْه وبكَتِ الديارَ، ووقعَ هذا عليه[5].

---

(١) الأغاني: ج ١ ص ١٠٦.
(٢) المحبَّر: المزيَّن المحسَّن.
(٣) الأغاني: ج ١ ص ٨١ – ٨٢.
(٤) المرجع السابق: ج ١ ص ٧٦.
(٥) المرجع السابق: ج ١ ص ٧٥.

وأورد الأغاني الخبر السابق منسوباً إلى المدائنيّ بعبارة أخرى فقال: سمع الفرزدق عمرَ بن أبي ربيعة يُنشِد :

جرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها
فقرَّبني يومُ الحِصابِ إلى قتلي

ولما بلغ قولَه :

فقُمْنَ وقـــد أفهمنَ ذا اللبِّ أنما
أتَيْنَ الذي يأتينَ من ذاكَ من أجلي

صاح الفرزدق : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأتْه ، وبكَتْ على الديار [1] .

والذي يقرأ القصيدة التي منها هذان البيتان يتبين له رأيُ الفرزدق في ابن أبي ربيعة واضحاً . فالقصيدة تصوّر إحدى مغامراتِ عمرَ العاطفيةِ بكل خصائص فنّ عمرَ الشعريّ الجديد لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وتصويراً وحواراً وحريةَ تعبير .

وكأنّ الفرزدق برأيه هنا إنما يريد أن يعزُوَ إلى ابن أبي ربيعة نشأةَ الغزَل كما ينبغي أن يكون ، وأن ما سبقه من غزلٍ لم يكن إلّا محاولاتٍ قام بها الشعراء في سبيل اكتشاف هذا الغزلِ فأخطأتْ طريقَه وبكت على الديار واكتشفه عمر .

ففي الخبرين السابقين يقضي الفرزدق لعمر في صورة حكم عـــام غير معلّل بأنه زعيم الغزَل كما ينبغي أن يكون ، وفي الخبر التالي نراه يؤكد هذا الحكم ، فيعُدُّه أغزلَ الناس ، وأن أيَّ شاعرٍ آخرَ لا يستطيع أن يرقى إلى مستواه في النسيب .

جاء في الأغاني أن الهيثم بن عَديّ قال :

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١١٦ .

« قدم الفرزدق المدينة وبها رجلان ، يقال لأحدهما « صُرَيْم » وللآخر « أبنُ أسماء » ، وُصِفَا له فقصدهما ، وكان عندهما قِيَانٌ ، فسلَّم عليهما وقال لهما : مَن أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا فِرْعونُ ، وقال الآخر : أنا هامانُ . قال : فأين منزلكما في النار حتى أقصدَ كما ؟ فقالا : نحن جيرانُ الفرزدق الشاعر ! فضحك ونزلَ ، فسلَّم عليهما وسلَّما عليه وتعاشروا مدةً . ثم سألهما أن يجمعا بينه وبين عمرَ بنِ أبي ربيعة ففعلا ، وأجتمعا وتحادثا وتناشدا إلى أن أنشد عمرُ قصيدتَه التي يقول فيها :

فلمَّا التقينا وأطمأنَّتْ بنا النَّوَى
وغُيِّبَ عنَّا مَن نخافُ ونُشْفِقُ

حتى أنتهى إلى قوله :

فقُمْنَ لكي يُخلِينَنَا فترقرَقَتْ
مدامعُ عينيها وظَلَّتْ تَدَفَّقُ
وقالت : أمَا تَرحَمْنَنِي ! لا تَدَعْنَنِي
لَدَى غَزِلٍ جَمِّ الصَّبابة يَخْرَقُ
فقلنَ : أسْكُتِي عنَّا فلَسْتِ مُطاعةً
وخلُّكِ منَّا — فأعلمي — بكِ أرفَقُ !

فصاح الفرزدق : أنتَ واللهِ يا أبا الخَطَّاب أغْزَلُ الناس ! لا يُحسِن واللهِ الشعراءُ أن يقولوا مثلَ هذا النسيب ، ولا أن يَرْقُوا مثلَ هذه الرُّقْيَة ! وودَّعَه وأنصرف[(١)] .

مما تقدم نرى أن أربعة من كبار الشعراء المعاصرين لعمر بن أبي ربيعة قد حكموا له أحكاماً عامة مَرَدُّها الذوقُ ، تذكّرنا بالاتجاه الغالب على النقد في العصور السابقة .

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٤٩ .

هذا عن ابن أبي ربيعة ، أما جميلٌ فيحكم له كلٌ من عبد الرحمن بن أزهر وعبد الرحمن بن حسّان بعد أن يستمعا إلى أشعاره بحكم غير معلّل أشبهَ بأحكام نقّاد الجاهلية.

فابن أزهر يحكم له بأنه أشعرُ أهـــل الإسلام ، ويحكم له ابن حسّانٍ بأنه أشعرُ أهلِ الإسلام وأشعرُ أهلِ الجاهلية[1] . ولكثيّر حكم فيه غير معلّل أيضاً ، فهو يُنشِد بعض ما يعجبه من شعر جميل ثم يقضي له بأنه أشعر الناس[2] .

والفرزدق وجرير يجتمعان على أن الأحوص أنسبُ الناس[3] . ولجرير رأيٌ خاص في نُصَيب يتمثل في أنه أشعر أهـــل جلدته ، أي أشعر السودان فقط . رُوي أن جريراً مرّ بنُصَيب وهو يُنشِد فقال له : اِذهبْ فأنت أشعر أهل جلدتك . فقال نُصَيب : وجِلدتِك يا أبا حَزْرَة[4] .

***

المفاضلات بين الشعراء :

والمفاضلاتُ والموازنات بين شعراء الحجاز هي الأخرى صورة من صور النقد الذي شهده عصرُ ابن أبي عتيق .

والطابَع الغالب على هذه المفاضلات هو طابَع المفاضلات التي أُثِرت عن نقاد الجاهلية وصدر الإسلام ، أي المفاضلاتِ العامّة غير المعلّلة .

ومن أمثلة ذلك تفضيلُ كُثَيّر لجميل بن مَعْمَر على نفسه . قال جُوَيْرِيَةُ ابن أسماء : « ما استنشدتُ كُثَيّراً قطُّ إلّا بدأ بجميلٍ وأنشدني له ثم أنشدني بعدَه لنفسه . وكان يفضّله ويتّخذه إماماً[5] » .

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٩٥ . (٢) الأغاني : ج ٨ ص ١٢٥ .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص ٢٥٩ . (٤) الأغاني : ج ١ ص ٣٣٩ .
(٥) الأغاني : ج ٨ ص ٩٧ .

والمقصود بهذه الإمامة إمامةُ النسيب. سأل رجل نُصَيْباً: أجميلٌ أنسبُ أم كُثَيِّر؟ فقال أنا سألت كُثَيِّراً عن ذلك فقال: وهل وَطَّأ لنا النسيبَ إلا جميل؟[1].

ومن موازناتهم ما تأتي جزئية، كالمفاضلة بين شاعر وشاعر في قصيدة أو قصائدَ معينة. روى الزبير بسند إلى عمه مصعبٍ قال: كان عمرُ يعارض جميلاً، فإذا قال هذا قصيدةً قال هذا مثلَها. فيقال: إنه – عمرَ – في الرائيَّة والعينيَّة أشعرُ من جميلٍ، وإن جميلاً أشعرُ منه في اللاميَّة، وكلاهما قال بيتاً نادراً ظريفاً. قال جميل:

خليليَّ فيما عِشْتُما هــل رأيـتُما
قتيلاً بكَـى من حبِّ قاتلِه قبلي؟

وقال عمر:

فقالت وأرختْ جانبَ السِّتْـر: إنمـا
معي فتكلَّـمْ غيرَ ذي رِقْبَةٍ أهلي[2]

وكان بعض شيوخ قريش يفضّلون عمر على أهل دهره في النسيب. حدّث الزبير بن بكّار قال: أدركتُ مَشْيَخَةً[3] من قريش لا يزنون بعمرَ بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحون من غيره من مدح نفسه، والتّحلّي بمودته، والابتيار في شعره[4]». والابتيارُ: أن يفعل الإنسانُ الشيءَ فيذكَره ويفخرَ به، والابتهارُ: أن يقول ما لم يفعل.

ومع ذلك فنحن نرى بعضَ النقاد في هذا العصر يتجهون إلى تطوير المفاضلات، وذلك بالالتفات عند الحكم بالتفضيل إلى جوانبَ في الشعر لم يكن النقاد السابقون ينظرون إليها.

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩٧. (٢) الأغاني: ج ١ ص ١١٦.
(٣) مَشيخة: جمع شيخ. (٤) الأغاني: ج ١ ص ١١٨.

جاء في الأغاني أن مُسْلِمَ بنَ وَهْب قال : دخلتُ مسجد رسول الله ﷺ مع نَوْفَل بن مُساحِق ، وإنه لمُعتمِدٌ على يدي إذ مررنا بسعيد ابن المسيِّب في مجلسه فسلّمنا عليه فردَّ سلامنا ، ثم قال لنَوفَل : يا أبا سعيد ، مَن أشعر ؟ أصاحُبنا أم صاحبُكم ؟ يعني : عُبيدُالله بن قيس الرقيّات أو عمرُ بن أبي ربيعة .

فقال نوفل : حين يقولان ماذا ؟ فقال حين يقول صاحبُنا ـ عمرُ ـ :

خليليَّ ما بالُ المَطيِّ كأنما
نراها على الأدبار بالقوم تنكُصُ ؟[1]

وقد أبعدَ الحادي سُراهُنَّ وأنتحى
لهنَّ فما يألو عَجولٌ مُقلِّصُ[2]

وقد قُطِّعتْ أعناقُهنَّ صَبابةً
فأنفُسُنا مما تُكلَّفُ شُخَّصُ

يَزِدْنَ بنا قُرباً فيزدادُ شوقُنا
إذا زادَ طولُ العهد والبُعدُ يَنقُصُ

ويقول صاحبُكم ما شئتَ . قال : فقال له نوفل : صاحبُكم أشهرُ بالقول في الغزل أمتع الله بك ، وصاحبُنا أكثرُ أفانينَ شِعر . قال : صدقتَ .

فلما أنقضى ما بينهما من ذِكر الشعر ، جعل سعيدٌ يستغفر الله ، ويعقِد بيده ، ويَعُدُّه بالخمسِ كلّها حتى وفّى مائةً .

قال مُسلم بن وَهْب : فلما فارقناه قلتُ لنوفل : أتُراه أستغفرَ الله

---

(١) المطيّ : جمع مطية ، وهي الناقة أو البعير ، والمطية من الدواب التي تمطو وتمدُّ في سيرها ، والمطيّ واحد وجمع ، يذكر ويؤنث . وتنكص : تتراجع إلى الخلف .

(٢) انتحى لهنّ : اعترض أو عاد لهنّ أو قصدهنّ ، وما يألو : ما يقصّر : ومقلّص : مُشمّر ماضٍ في سيره .

من إنشاده الشعرَ في مسجد رسول الله ﷺ ؟ قال : كلا ! هو كثيرُ الإنشاد والاستنشاد للشعر ، ولكني أحسبه للفخر بصاحبه[1] .

فسعيد بن المسيِّب أحدُ فقهاء المدينة السبعة ومن المكثرين لإنشاد الشعر واستنشاده يطلب إلى نوفل بن مُساحق أن يفاضل بين هذين الشاعرين ثم يوافقه على حكمه الذي قضى فيــه لعمر بأنه أشهر بالقول في الغزَل ، ولابن قيس بأنه أكثرُ أفانينَ شعر. ومعنى هذا أن نقّاد الحجاز في العصر الأمويّ أخذوا ينظرون في المفاضلات والموازنات الشعرية إلى تنوُّع القول في الأغراض الشعرية كإحدى المزايا التي تحسب للشاعر في ميزان النقـد عند التفضيل .

* * *

ابن أبي عتيق الناقد :

ولعل أكبرَ شخصيةٍ ناقـدةٍ ظهرت بالحجاز في العصر الأمويّ وأُثِر عنها الكثيرُ من النقد هي شخصية ابن أبي عتيق .

لقد ملأ ابن أبي عتيقٍ الحجاز نقـداً ظريفاً لأكثرِ شعراء الغزَل في عصره ، وكان يعتمد في نقده على ذوق مرهف وحِسّ مُترَف ، وقريحة وقّادة ، وبصيرة نافذة في التمييز بين جيّد الشعر ورديئه ، صحيحه وزائفه . وإلى جانب ذلك كان محيطاً بثقافة عصره ومعارفه ، وثيقَ الصلة بحياته الأدبية ، عليماً بتيّاراتها واتجاهاتها ، متجاوباً معها .

كان الرجل بحكم طبعه الظريف وروح الدعابة التي فُطِر عليها ، ينظر إلى الحياة من جانبها الساخر الضاحك ، ولهذا نراه يتخذ الدُّعابة والفكاهة والسخرية التي تصل إلى حدّ الإيجاعِ أحياناً أسلوباً له في النقد الأدبيّ .

وكأني به وقد اصطنع هذا الأسلوبَ واعتمده طابعاً مميّزاً له في نقده ،

(١) الأغاني : ج ٥ ص ٩٢-٩٣ .

إنما أراد أن يمثّل الروحَ الحجازية بما فيها من رِقّة وظَرف ، وأن يجاريَ روحَ الشعر المعبّر عن حياة الحجاز المرحة اللاهية ، وبهذا يتمّ التجانسُ وتتحقق الملاءمةُ بين روح الشعر وروح النقد .

وقد رأينا فيما جمعناه من أخباره نقداً لسبعةٍ من شعراء عصره ، وهؤلاء هم : عمرُ بن أبي ربيعة ، وكُثَيِّر عَزّة ، ونُصَيْبٌ ، والعرجيُّ ، وعبيدُ الله ابنُ قيسِ الرقيّات ، وقيسُ بنُ ذَرِيح ، وعروةُ بنُ أُذَيْنة .

ومَن يدري .. ؟ فلعلنا لو ظفِرنا بكل أخباره لكُنّا واجدين فيها نقداً أكثر لهؤلاء الشعراء ولغيرهم من معاصريه .

وإذا كان الجزء يدلُّ على الكُلّ ، والقليلُ على الكثير ، فإن فيما جمعناه من أخباره المتصلة بالنقد ما يـدلُّ على طبيعة نقده ونوعيته واتجاهه فيه .

ومع ما اتّسم به أسلوبُ نقده من الظَّرْف والدُّعابة والسخرية ، فإنه ينمُّ في جوهره عن نقد نزيهٍ بنّاء يهدف من ورائه إلى التصحيح والتوجيه. وما من شك في أنـه كان لآرائه الثاقبة وملاحظاته الذكية النابعة عن فَهم أثرٌ ملحوظ في تطور النقد العربيّ ورقيّه ، وفتحِ آفاق جديدة فيه .

ومِن النقـاد مَن يرى أن ابن أبي عتيق كان يتعصب لعمر ويفضّله تفضيلاً مطلقاً . ولكنّ ما بين أيدينا من أخباره ، سواءٌ ما كان منه على صعيد العلاقة الشخصية أو صعيد النقد ، لا يدل على هذا التعصُّب .

فمن حيث العلاقةُ الشخصية كان بين الرجلين إعجابٌ متبادَل ، واهتماماتٌ مشتركة ، وصداقة وطيدة .

وفوق ذلك كان ابن أبي عتيق ، على ظَرْفه ودعابته ، يحب الشعر ويتذوقه ، كما كان يرى في صديقه الشاعر خيرَ مُعبّر عن روح العصر وروح الجماعـة بكل تطلّعاتها وأشواقها ونزوعها نحو الانعتاق والطلاقة والتجديد .

فاذا كُنّا نرى في أخباره ما يُفيد أنه كان يبتدر المناسباتِ والمواقفَ العاطفية ويُغري الشاعرَ بها ، فلم يكن ذلك رغبةً منه في معاونة صاحبه على إشباع نَهَمِه للجمال ، بقدار ما كان خدمةً للشعر ذاته .

لقد كان يفعل ما يفعل حتى يظل الشاعرُ الموكَّلُ بالحسن موصولَ الحنين ، مشبوبَ العاطفة ، فيغنّيَ ويملأ الحجاز بأغانيه التي كانت تُنَضِّرُ حياةَ أهله ، وتُفعِم قلوبَهم بالبِشْر والفرح ، ومن ثَمَّ يتهافت عليها أهل الغناء ، ويتناشدها الحاضر والبادي ، وتتجاوب أصداؤها في شتى الأقطار .

ولكن ذلك لا يعني أنه كان يسمح لشخصيته بأن تذوب أو تتلاشى في شخصية عمر ، أو يقبلُ أن يجاريَه في كل أهوائه ونزعاته . لقد كان هناك من وجهة نظر ابن أبي عتيق حدودٌ لما يصح أن يوافق صاحبَه أو يخالفَه فيه من حيث المبدأ والقِيَمُ الأخلاقية والسلوك .

جاء في الأغاني أن عمرَ بنَ أبي ربيعة وابنَ أبي عتيق كانا جالسين بفناء الكعبة ، إذ مرَّ بهما امرأةٌ من آل أبي سفيان ، فدعا عمرُ بكَتِفٍ[1] فكتب إليها وكَنَى عن اسمها :

أَلِمَّا بذاتِ الخالِ فاستطلِعَا لنا
على العهد باقٍ وُدُّهَا أمْ تصَرَّمَا
وقولاَ لها : إنَّ النَّوَى أجْنَبيَّةٌ
بنا وبكم قد خِفْتُ أن تَتَتَمَّمَا

فقال له ابن أبي عتيق : سبحانَ الله ! ماذا تريد إلى امرأة مسْلمة مُحْرِمة أن تكتب إليها مثلَ هذا[2] ؟ .

فابن أبي عتيق مع حبه للشعر ، يأبى عليه عفافُه وأخلاقُه أن يُقِرَّ صديقَه الشاعر على هذا السلوك ، ولهذا فهو يلومه عليه .

---

(١) الكتف : عظم عريض ، كانوا يكتبون فيه وقتذاك لقلة القراطيس عندهم .

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ٢٤٠ - ٢٤١ . والنوى هنا : النية ، أي إن نية الارتحال ومفارقة الديار بعيدة مني ومنك ، وأخاف أن يتمها الذي نواها فتقعَ الفُرقةُ بيننا.

وكان كلاهما ذا طبيعةٍ رقيقة تهوَى الجمال وتنفعل به في شتى صُوَرِه، ولكنَّ الفرقَ بينهما في ذلك، كما يبـــدو، أن عمر كان بحكم شاعريته يستسلم لهواه وينقاد لعاطفته، على حين كان ابن أبي عتيق بحـكم تديُّنه يتحكَّم في عاطفته، ويعصِي هواه وشيطانَـه!

يُروَى أن عمر لما تغزَّل في زينبَ بنتِ موسى الجُمحيَّة عذَلَـه ابن أبي عتيقٍ، وقال له: أتنطق الشعر في ابنة عمي؟ فقال عمر:

لا تَلُمْني عتيقُ حَسْبِي الذي بي
إنَّ بي يا عتيقُ ما قد كفاني

لا تَلُمْنِي وأنتَ زيَّنْتَهــا لي ... ...

فبدره ابن أبي عتيق بقوله:

... ... أنتَ مثلُ الشيطان للانسانِ!

فقال ابن أبي ربيعة: هكذا وربِّ البيت قلتُه. فقال ابن أبي عتيق: إنَّ شيطانك وربِّ القبر[1] رُبَّما ألَمَّ بي فيجِــدُ عندي من عصيانه خلافَ ما يجد عندك من طاعته، فيُصيب مِنّي وأصيب منه[2].

فمن ذلك على سبيل المثال، وعلى صعيد العلاقة الشخصية، نرى أن ابن أبي عتيق لم يكن يتعصب لصاحبه عمر، بل كان على العكس يعارضه ويلومُه على كل ما يتورَّط فيــه عاطفياً، مما يراه هو منافياً لعفافه وقِيمَه الأخلاقية.

أما القول بأنه كان يتعصب له في النقد، فهذا ما سوف نَتبيَّنُه على ضوء نقده لشعره.

---

(١) من عادة أهل المدينة القسمُ بالقبر وربِّ القبر: يريدون قبر النبيِّ.

(٢) الأغاني: ج ١ ص ٩٤–١٠١.

* * *

ولا يسعنا بعد هذه المقدمة وقبل الشروع في الكلام عن نقد ابن ابي عتيق ، إلا أن نقرّر أن أكثر ما أُثِر من آرائه وملاحظاته النقدية متصلٌ بشعر عمر بن أبي ربيعة ، لأنه ، على ما يبدو ، كان في نظره الشاعرَ المعبّرَ في بيئة الحجاز عن روح العصر وأهوائه ، واهتماماته واتجاهاته ....

وإذا كان لكل ناقدٍ طابَعُه الخاص ، فما الطابَع الخاص الذي تميّز به نقدُ ابن أبي عتيق عن نقد غيره ؟ هذا سؤال . وسؤال آخر هو : ما هي الصور الجزئية التي نلتمس فيها آراءه وملاحظاته النقدية ، والتي تعطينا في النهاية صورةً كليةً لما أسهم به في تطوير النقد العربيّ وتوسيع آفاقه ؟

أما عن طابَعه الخاص فقد سبقت الإشارة اليه ، وهو طابَعٌ يتخذ من الدُّعابة والفُكاهة والسخرية في نقد الشعر أسلوباً له . وما من شك في أنه أراد بهذا الأسلوب أن يتجاوب النقدُ مع الشعر في طبيعته وظَرفه ورقته ودماثته ، وبذلك يتمّ التوافق والتزاوج بين روح الشعر وروح النقد .

أما عن الصور الجزئية التي تضمنت آراءَه وملاحظاتِه النقديةَ فنحن نعرض ما اهتدينا إليه منها فيما يلي :

* * *

التعليقات :

وتتمثل هذه الصورةُ في تعليقاتٍ ظريفة ليست في صميم النقد وإنما تأتي على هامشه . وهي إنْ دلّت على شيء فعلى ذوق الناقد ، وبَصَرِه بالشعر ، وبما يُستجاد أو لا يُستجاد منه .

وتتميّز هذه التعليقاتُ أكثرَ ما تتميّز بالإيجاز ، وبالدعابة الساخرة ، وبالتلميح دون التصريح ، ثم بالعبارة التي تحاول محاكاةَ الشعرِ في لغته وبلاغته .

وهذه التعليقات لا تدخل في النقد إلا من باب التجوُّز ، ولكنها مما استحدثه نقاد الحجاز من أمثال ابن أبي عتيق ، وأبي السائب المخزومي ، وسُكَيْنَةَ بنتِ الحسين ، ولهذا كانت الإشارةُ إليها والتنويهُ بها .

• جاء في الأغاني أن عمر بن أبي ربيعة لما أنشد ابن أبي عتيق قصيدته التي يقول فيها :

لا تلوما في آلِ زينبَ إن الـ
ـقلبَ في آلِ زينبَ عاني
لم تدعْ للنساء عندي نصيباً
غيرَ ما قلتُ مازحاً بلساني

علّق ابن أبي عتيق على البيت الأول هنا بقوله : « أما قلبُك فقد غُيِّبَ عنّا ، وأما لسانُك فشاهدٌ عليك ! » .

وعلّق على البيت الثاني بقوله : « رَضيتَ لها بالمودّة ، وللنساء بالدَّهْفَشَةِ »[1] . والدَّهْفَشَةُ : هي التجميش والمداعبة ، والمغازلة والخديعة بالشيء اليسير !

• وأنشده عمرُ أبياتاً منها :

صَرَمَتْ حبلَكَ البَغُومُ وصَدَّتْ
عنكَ في غيرِ ريبةٍ أسماءُ
حبّذا أنتِ يا بَغُومُ وأسما
ءُ وعِيصٌ يَكُنُّنا وخَلاءُ[2]
ولقد قلتُ ليلةَ الجَزْلِ لمّا..
أخضلتْ رَيْطتي عليَّ السماءُ[3]

(١) الأغاني : ج ١ ص ٩٤ - ١٠١ .
(٢) العِيص : الشجر الكثير الملتف .
(٣) الجَزْل : موضع قرب مكة ، وأخضلَ : بلَّ ، والرَّيْطة : مُلاءة بيضاء كلها نسج واحد ، وقطعة واحدة .

ليت شعري ، وهل تَرُدَّنَّ لَيتُ ؟

هل لهـــذا عند الرَّباب جزاءُ ؟

فَعِدي نائـــلاً وإنْ لم تُنيـــلي

إنمـــا ينفـــع المحبَّ الرجـــاءُ

فقال له ابن أبي عتيق : مـا أبقيتَ شيئاً يُتمنّى يا أبا الخطّاب ، إلّا مِرجَلاً يُسخّن لكم فيه الماءُ للغُسْلِ ! »[1] .

• وحجّتْ أمُّ محمدٍ بنتُ مروانَ بنِ الحكَم ، فلما قضت نُسُكَها أتتْ عمرَ بن أبي ربيعة وقد أخفت نفسَها في نسوة ، فحدّثها مَليـّـا ، ثم عادت اليه مرةً أخرى فأخبرها بمعرفتـــه إياها ، فناشدته اللهَ ألّا يُشهّرَها بشعره ، ثم أهدَتْ اليه وأهدَى اليها . فلما رحلت قال فيها :

أيُّها الراكبُ المُجِـــدُّ ابتكارا

قد قضى من تِهامـــةَ الأوطارا

مَن يكنْ قلبُه صَحيحاً سليماً

ففؤادي بالخَيْف أمسَى مُعـارا

ليت ذا الدهرَ كان حَتماً علينا

كلَّ يومـين حِجّـــةً واعتمارا

فلما أنشد ابنَ أبي عتيق هذه الأبياتَ علّق عليها بقوله : « اللهُ أرحمُ بعباده أن يجعلَ عليهم ما سألتَه لِيتِمَّ لكَ فِسْقُك[2] ! » .

• وأنشدَه عمرُ أبياتَه التي مطلعها :

لم ترَ العينُ للثريّا شبيهاً   بسيلِ التّلاعِ يومَ التقَيْنَا

فلما بلغ عمر إلى قوله :

ثم قالتْ لأختها قد ظلمنـــا

إنْ رَدَدْناهُ خائباً واعتدَيْنَا

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٦٤ – ١٦٦ .   (٢) الأغاني : ج ١ ص ١٦٦ – ١٦٨ .

قال ابن أبي عتيق: أحسنتَ والهدايا[1]. ثم أنشد متمثلا قولَ الشاعر:

أريني جواداً مات هَزْلاً لعلَّني

أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مخلَّداً[2]

ولما بلغ عمرُ إلى قوله في الشعر:

في خــلاءٍ من الأنيس وأمْنٍ

فشفَيْنَـا غليلَـه واشتفيْنَا

قال ابن أبي عتيق: أمكَنَتْ للشارب الغُدُرُ «مَن عالَ بعدها فلا انجبرَ[3]».

فلما بلغ إلى قوله:

فمكثنا كذاكَ عشراً تِباعــاً

في قضاءٍ لِدَيْنِنَا واقتضَيْنَا

قال ابن أبي عتيق: أمَا واللهِ ما قَضَيْتَها ذهباً ولا فضــةً ولا اقتَضَيْتَها إيّاه، فلا عرَّفكما اللهُ قبيحاً!

فلما بلغ إلى قوله:

كان ذا في مسيرنا إذْ حَجَجْنَا

عَلِمَ اللهُ فيــه ما قد نَوَيْنَا

قال ابن أبي عتيق: إنَّ ظاهر أمرك لَيدُلُّ على باطنه، فأرْوِدِ[4] التفسير، ولئن مُتَّ لأموتَنَّ معك! أفٍّ للدنيا بعـدك يا أبا الخطاب! فقال له عمر: بل عليها بعدَكَ العَفاءُ يا أبا محمد!

---

(١) الهدايا: هي ما يُهدَى الى البيت الحرام من النَّعَم لتُنحرَ. (٢) الهَزْل: الفقر

(٣) الغُدُر: جمع غدير. وعال: افتقر، وقوله: «مَن عال بعـدها فلا انجبر» مَثَلٌ يضرب في اغتنام الفرصة عند الإمكان.

(٤) أرود التفسير: أي تمهَّلْ به أو دَعْه، والمراد إن ظاهر أمرك ليدل على باطنــه، فدعِ التفسير فلا حاجة اليه.

ولقيَه الحارثُ بنُ خالد بعد ذلك فقال له : قد بلغني ما دار بينك وبين ابن أبي ربيعة ، فكيف لم تتحلّلا [1] مني ؟ فقال له ابن أبي عتيق : يغفر اللهُ لك يا أبا عمرو ! إن ابن أبي ربيعة يُبرِئ القَرْحَ [2] ويضع الهِناءَ [3] مواضعَ النُّقْبِ [4] ، وأنت جميلُ الخَفْضِ [5] .

فضحك الحارث بن خالد وقال : « حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ » [6] . فقال ابن أبي عتيق : هيهاتَ أنا بالحُسْنِ عالمٌ نَظّارٌ ! [7] .

• وأنشده عمرُ قصيدةً ذكر فيها جاريةً له توسّطت في الصلح بينه وبين إحدى صواحبه ، وقد وصف عمرُ هذه الجاريةَ في القصيدة بقوله :

فبعثنا طَبَّةً عالِمةً تخلط الجِدَّ مِراراً باللَّعِبْ [8]
تُغْلِظ القولَ إذا لانَتْ لها وتُراخي عند سَوْراتِ الغضَبْ
لم تزلْ تَصْرِفُها عن رأيها وتأتّاها برفقٍ وأدبْ [9]

فقال له ابن أبي عتيق : الناس يطلبون خليفةً منذُ قُتِل عثمانُ في صفة قَوّادتك هذه يُدبّر أمْرَهم فما يجدونه [10] !.

• وأنشِد أبياتَ عمرَ التي منها :

وما نلتُ منها مَحْرَماً غيرَ أنّنا
كِلانا من الثوب المُوَرَّدِ لابِسُ

فقال : أمِنّا يسخَرُ ابنُ أبي ربيعة ؟ فأيُّ مَحْرَمٍ بَقِيَ ؟ ثم أتى عمرَ

---

(١) لم تتحلا مني : لم تسألاني أن أجعلكما في حِلٍّ .
(٢) القَرْح : جَرَبٌ شديد . (٣) الهِناء : ضَرْبٌ من القَطِران .
(٤) النُّقْب : القِطَع المتفرقة من الجَرَب . (٥) الخَفْض : الدَّعَة .
(٦) حبك الشيء يُعمي ويُصِم : يريد حبك الشيء يُخفي عليك مساويه ويُصِمّك عن سماع العذل فيه .
(٧) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٨ – ٢٣٠ . (٨) طَبَّة : حاذقة خبيرة عارفة بطُرُق الحيلة .
(٩) تأتّاها : أي تستميلها وتطلب منها التأتي . (١٠) الأغاني : ج ١ ص ١٣٤ – ١٣٥ .

فقال له : يا عمرُ ... ألم تخبرْني أنــك ما أتيتَ حراماً قطُ ؟ قال : بلـى ! قال : فأخبرني عن قولك :

* كِلا َنا من الثوب المُورَّدِ لابِسُ *

ما معناه ؟

قال : والله لأخبرَنَّك ! خرجتُ أريــد المسجدَ وخرجتْ زينبُ تريــده ، فالتقينا فاتَّعَدْنا[1] لبعض الشّعاب . فلما توسّطْنا الشّعْب أخذتْنا[2] السماء ، فكرِهتُ أن يُرَى بثيابها بَلَـلُ المطر ، فيقالَ لها : ألا َ آستترتِ بسقائف المسجد أنْ كنتِ فيه ؟ فأمرتُ غِلماني فستروننا بكساءِ خَزٍّ كان عليَّ ، فذلك حين أقول :

* كِلا َنا من الثوب المُورَّدِ لابِسُ *

فقال له آبن أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيتُ يحتاجَ إلى حاضِنة ![3].

• ولقِيَ قيسَ بن ذَريح يوماً فقال له : أنشدْني أحرَّ ما قلتَ في «لُبْنَى» فأنشده قوله :

وإني لأهوَى النومَ في غير حِينِه
لعـلَّ لقاءً في المنـام يكونُ
تحدّثني الأحـلامُ أني أراكمُ ..
فياليت أحلامَ المنـــامِ يَقينُ

فقال له آبن أبي عتيق : لَقلْ ما رضِيتَ بـه منها يا قيسُ ! قال : ذلك جُهدُ المُقِلّ[4] . هذا عن تعليقات آبن أبي عتيق الظريفة التي تأتي على هامش النقد .

---

(١) اتّعدْنا : تواعدنا . (٢) أخذتنا السماء : أمطرت السماء .
(٣) الأغاني : ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ . (٤) الأغاني : ج ٩ ص ٢١٣ .

• ومن تعليقات أبي السائب المخزومي أن رجلا أنشده قصيدة أبي دهبل:

سقى الله جازاناً فمن حل وليه
فكل فسيل من سهام وسردد[1]

فلما بلغ قوله:

فوا ندمي أن لم أعج إذ تقول لي:
تقدم فشيعنا إلى ضحوة الغد

فقال أبو السائب: ما صنع شيئاً! ألا اكترى حماراً بدرهمين فشيعهم ولم يقل: «فوا ندمي» أو اعتذر؟ وإني أظن أنه قد كان له عذر. قال الرجل: ما هو؟ قال: أظنه كان مثلي لا يجد شيئاً[2]!

• وقال مرة لعبدالملك بن عبدالعزيز أنشدني للأحوص فأنشده قوله:

قالت — وقلت: تحرجي وصلي
حبل امرئ بوصالكم صب —:
صاحب إذن بعلي، فقلت لها:
الغدر شيء ليس من ضربي
شيئان لا أدنو ... لوصلهما:
عرس الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست فاجعه
والجار أوصاني به ربي

فقال أبو السائب: هذا والله المحب حقا، لا الذي يقول:

وكنت إذا حبيب رام هجري
وجدت وراي منفسحا عريضا

---

(١) جازان: موضع في طريق حاج صنعاء. والولي: القرب. والفسيل: صغار النخل. وسهام: موضع باليمامة. وسردد: واد مشهور بتهامة اليمن.

(٢) الأغاني: ج ٧ ص ١٤٠.

ثم قال : اذهبْ ، فلا صَحِبَكَ الله ، ولا وسّع عليك ! يعني قائلَ هذا البيت [١] .

• ومن تعليقات سُكينةَ بنتِ الحسين ما يُروَى أنها وقفت مرّةً على عُروةَ بن أُذَيْنة في مَوْكِبها مع جواريها فقالت : يا أبا عامر ، أنت الذي تزعم أنّ لك مروءةً ، وأنّ غزَلَك من وراء عِفّة ، وأنك تقِيٌّ ؟ قال : نعم . قالت : أفأنت الذي تقول :

قالتْ — وأبْثَثْتُها وَجْدي وبُحتُ به — : قد كنتَ عندي تُحِبُّ السَّتْرَ فاسْتَتِرِ

ألستَ تُبصر مَن حَولي ؟ فقلتُ لها : غَطّى هواكِ وما ألقَى على بَصَري ؟

قال لها : نعم . قالت : هُنّ حرائرُ إن كان هـذا خرج من قلبٍ سليم — أو قالت : من قلبٍ صحيح [٢] — !

فهذه التعليقاتُ ونظائرها تصاغ عادة ، وكما رأينا ، في أسلوب يتّسم بالفكاهة والظّرْف مع الفطنة وسلامة الذوق . وهذه الصورة ، وإن كانت من مستحدثات أدباء الحجاز في العصر الأموي ، فهي لا تُعَدُّ من النقد إلا بمقدار ما تُبديه من رأي أصحابها أو مِقدارِ ما تطرحه من وجهة نظرهم في بعض أشعار معاصريهم .

* * *

مقياس العاطفة :

عرَض ابن أبي عتيق في أخباره إلى نقد العاطفة في شعر بعض معاصريه . ومقياسُ الحكم على العاطفة عنده — كما يبدو — مستمَدٌّ من مقياس النقّاد

---

(١) زهر الآداب للحصري : ج ١ ص ١٧٨ ، والأغاني : ج ٤ ص ٢٦٤ .

(٢) الأغاني : ج ٢١ ص ٢٥٢ طبعة دار مكتبة الحياة .

السابقين ، والذي يتمثّل في مدى صدقِ العاطفة أو عدمِ صدقها . والعاطفةُ الصادقة في نظره هي ما تنبعث من أسباب صحيحة غير زائفةٍ أو مفتعلة.

• حضر ابنُ أبي عتيقٍ عمرَ بنَ أبي ربيعة وهو يُنشِد قولَه :

وَمَن كان محزوناً بإهراق عَبْرَةٍ
وَهَى غَرْبُها فلْيَأْتنا نُبْكِهِ غَداً[1]

نُعِنْهُ على الإثكال إنْ كان ثاكلاً
وإنْ كان مَحْرُوباً وإن كان مُقْصَداً[2]

فلما أصبح ابنُ أبي عتيقٍ أخذ معه خالداً الخِرّيت[3] وقال له : قمْ بنا إلى عمر. فمضيَا اليه ، فقال له ابن أبي عتيق : قد جئناك لموعدك . قال : وأيُّ موعدٍ بيننا ؟ قال : قولُك : « فلْيأْتنا نُبْكِه غَداً » . قد جئناك ، والله لا نبرحُ أو تبكيَ إن كنتَ صادقاً في قولك ، أو ننصرفَ على أنك غيرُ صادقٍ ، ثم مضى وتركه[4] .

فابن أبي عتيق في نقده هنا يأخذ على عمر أنه في قوله : « فلْيَأْتِنا نُبْكِهِ غَداً » لم يكن يعبّر عن عاطفة صادقة أو يعني ما يقول حقّاً . وكأنه بهذا النقد الذي صبّه في قالبٍ من السخرية يريد أن يوجّه عمرَ وغيرَ عمرَ من الشعراء إلى أنّ صدقَ العاطفة عنصرٌ من عناصر جمال الشعر ، وأنّ على الشاعر أن يكون أميناً مع نفسه وعواطفه ، فلا يعبّرَ إلّا عمّا يشعر به أو يَعنيه حقّاً .

• ومن هذا القبيل موازنتُه بين كُثيِّرِ عزّةَ من جهة وابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيّات من جهةٍ أخرى في صدق العاطفة وتفضيلها عليه.

---

(١) وَهَى غَرْبُها : يريد ضعُف دمعُها . ونُبكِه هنا : نُعِنْه في البكاء.

(٢) الإثكال: فُقدان الحبيب، وأكثر ما يُستعمَل في فُقدان الرجل والمرأة ولدَهما. والمحروب: المسلوب المنهوب . والمُقصَد : مَن طُعِن أو رُمِيَ بسهم فلم يخطِئ مقاتله .

(٣) خالد الخِرّيت : هو خالد بن عبدالله القسريّ . (٤) الأغاني : ج ١ ص ١٥٢ .

أنشد كُثيّرٌ ابنَ أبي عتيق كلمتَه التي يقول فيها :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ
قليلٍ ولا أرضى له بقليلِ

فقال له : هذا كلامُ مكافىءٍ — وقيل مُكافٍ — ليس بعاشق . القرشيّان أقنعُ وأصدقُ منك : ابنُ ربيعة حيثُ يقول :

ليتَ حظّي كلحظةِ العينِ منها
وكثيرٌ منها القليلُ المُهنّا [١]

وقوله أيضاً :

فعِدي نائلاً وإنْ لم تُنيلي ... إنما يُقنِعُ المحبَّ الرجاءُ

وابن قيس الرقيّاتِ حيث يقول :

رُقيَّ بعيشكم لا تهجُرينا ... ومَنّينا المُنى ثم أمطُلينا
عِدينا في غدٍ ما شئتِ إنّا ... نُحبُّ وإنْ مَطلتِ الواعدينا
فإمّا تُنجِزي عِدَتي وإمّا ... نعيشُ بما نُؤمّل منكِ حِينا

وذُكِر ذلك لأبي السائب المخزوميّ ومعه ابنُ المولى ، فقال : صدق واللهِ ابنُ أبي عتيق وفّقه الله . ألاَ قال المديونُ كُثيّرٌ كما قال هذا — ابنُ المولى — حيث يقول :

وأبكي فلا ليلى بكتْ من صبابةٍ
لباكٍ ولا ليلى لذي الوُدِّ تبذُلُ
وأخنَعُ بالعُتبى إذا كنتُ مذنباً
وإنْ أذنبتْ كنتُ الذي أتنصّلُ ؟ [٢]

---

(١) ضرب ابن أبي عتيق لحة العين مثلا للزمن القصير الذي يتمنى رؤيتها فيه . والمهنا : أصله المهنأ فسُهّلت الهمزة ، وهو كل ما أتاك بغير تعب ولا مشقة .

(٢) الأغاني : ج ٥ ص ٩٥—٩٦ . وأخنع بالعُتبى : أخضع بالرضا ، أي أطلب رضاها . وتنصّلَ من الذنب : تبرّأ منه واعتذر .

فابن أبي عتيق هنا يحكم على كُثيِّر من كلامه بأنه غير عاشق ، لأن عاطفة العشق الصادقةَ عنده ، وكما ينبغي أن تكون ، لا تُبنَى على أساس المكافأة أو المبادلات الماديّة ، بمعنى أن على كِلاَ العاشقين أن يُعطيَ لصاحبه بمقدار ما يأخذ منه !

وكأن ابن أبي عتيق إذ يقول لكُثيِّر بعد الاستماع إلى شعره : « هذا كلامُ مكافئٍ ليس بعاشقٍ » يريد أن يُقرِّر أن عاطفة العشق الصادقة ، إنما تُبنَى على أساس البَذْل والعطاء السمح بلا مقابل ، إذ ليس العاشق أجيراً لدى المعشوق حتى يتوقع الأجرَ منه على ما يقدّمُه له أو يتحمّله فيه !

ومن أجل هذا نراه يوازن بينه وبين القُرشيَّيْن : ابنِ أبي ربيعة وابن قيس في شعر الغزل ، وذلك لبيان الفرق فيه بين زَيْفِ العاطفة وصدقِها .

ونخلص من كل هذا إلى أن ابن أبي عتيقٍ الناقد يُفرّق في القيمة بين شعر الغزل الذي يُمليه العقل والمنطق ، والذي يُوحيه القلبُ والعاطفة ، ويفضّل الثانيَ على الأول ، ويتخذ من الصدق مقياساً للمفاضلة بين عاطفة وأخرى في مجال التعبير عنها .

وقد رأينا من الخبر السابق كيف أن أبا السائب المخزوميّ يلتقي مع صاحبه ومعاصره ابنِ أبي عتيق في اعتماد الصدق مقياساً ومِعياراً للعاطفة .

ولم يكن كُثيِّرٌ وحدَه في هذا الاتجاه ، وإنما كان هناك من شعراء الغزل مَن سلكوا مَسلكه ، كذي الرُّمّة مثلاً الذي يقول :

فيا مَيُّ هل يُجزَى بُكايَ بمثله
مِراراً وأنفاسي اليكِ الزّوافِرُ ؟

فذُو الرُّمّةِ هنا يتمنّى لو يُجزَى بكاؤه وأنفاسُه الزوافرُ من صاحبته مَيّ بمثلها .

وقد أشار من بعدُ أبو عليٍّ المرزوقيُّ في شرح ديوان الحماسة إلى هذا الاتجاه في بعض شعر الغزل ، فقال : « وقد زيّفَ النقادُ هذا وقالوا : ذو الهوَى لا يستدعي ممن يهواه المكافأةَ على ما يتحملُه فيه . وقد عاب ابن أبي عتيق على كُثيِّرٍ قولَه :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائـــلٍ
قليـلٍ ولا أرضَى له بقليـــلِ »[1]

* * *

مقياس المعنى :

وكان لابن أبي عتيقٍ في نقده أكثرُ من مقياسٍ واحدٍ يقيس بـه معانيَ الشعر .

- قاس المعنى بمقياس الوضوح والغموض . جـاء في الأغاني أن عُبيدالله ابن قيس الرقيّات مدح عبدَالله بن جعفر بقصيدةٍ منها :

تقدّتْ بيَ الشهباءُ نحوَ ابنِ جعفرٍ
سواءٌ عليها ليلُـهـا ونهارُهَا[2]
تزور امرأً قـد يعلم اللهُ أنـّه
تجود له كفٌ بطيءٌ غِرارُهَا[3]
وواللهِ لولا أن تزورَ ابنَ جعفرٍ
لـكان قليلاً في دمشقَ قَرارُهَا

قيل : إن ابن أبي عتيق لما أنشـد قولَ ابنِ قيس :

* سواءٌ عليها ليلُها ونهارُهَا *

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ق ٣ ص ١٣٢٤ .
(٢) تقدّت : أي سارت سيراً ليس بعَجِلٍ ولا مبطيء . يقال : تقدّى فلانٌ إذا سار سيرَ مَن لا يخاف فوتَ مَقصدِه فلم يعجَل . الشهباء : أي البغلة الشهباء ، وكان أشراف العَرب في ذاك العصر يؤثرون البغال في الركوب .
(٣) بطيء غِرارها : يعني أن منعَها المعروفَ بطيء .

قال لمن أنشده : هذه يا ابنَ أمّ فيا أرى عمياء !

وقيل : إن عُبيدالله بن قيس مرّ به فسلّم عليه ، فقال له ابن أبي عتيق : وعليكَ السلامُ يا فارسَ العمياء ! فقال له : مـا هذا الاسمُ الحادثُ يا أبا محمد ؟ بأبي أنت !

قال : أنت سمّيْتَ نفسَكَ حيث تقول :

* سواءٌ عليها ليلُها ونهارُهَا *

فما يستوي الليلُ والنهارُ إلّا على عمياءَ ! قال : إنما عَنَيْتُ التعبَ . قال ابنُ أبي عتيق : فبيتُكَ هذا يحتاج إلى تَرْجُمانٍ يُترجِم عنه ![1] .

فابن أبي عتيق بأسلوبه الساخر يأخذ على ابن قيس هنا غموضَ المعنى وعدمَ وضوحِه ، فقد فَهِمَ هو منه شيئاً ، وأراد الشاعر شيئاً آخر لم تستطع عبارته أن تؤدّيَه أداء تامًّا واضحاً. وليس شعراً عند الناقد هذا الذي يحتاج الى تَرْجُمانٍ يُترجِم عنه !

والى جانب ابن أبي عتيق نجد عبدالملك بن مروان قد نقد ابن قيس نقداً معنوياً على البيت الثاني هنا. جاء في الأغاني أن عبدالملك بن مروان قال لعبيدالله بن قيس الرقيّات : وَيْحَكَ يا ابنَ قيس ! أمَا اتّقيتَ اللهَ حين تقول لابن جعفر :

تزور امرأً قـد يعلم اللهُ أنه
تجود له كفٌ قليلٌ غِرارُها ؟

ألاَ قلتَ : قد يعلم الناسُ ولم تقل قد يعلم الله ؟ فقال ابن قيس : قد واللهِ علمه اللهُ ، وعلمتَه أنت ، وعلمتُه أنا ، وعلمه الناس[2] .

• وقاس ابن أبي عتيقٍ المعنى أيضاً بقياس الصدق والكذب . يُروَى أن

(١) الأغاني : ج ٥ ص ٨٦ – ٨٩ . (٢) الأغاني : ج ٥ ص ٨١ .

عمر بن أبي ربيعة قـــدم المدينة فنزل على ابن أبي عتيق ، فلما استلقى قال : أوّهْ !

مَن رسولي إلى الـثريّا فإني ضِقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ

فقال ابن أبي عتيق . كلُّ مملوك لي حُرٌّ إنْ بلّغَها ذلك غيري . فخرج حتى إذا كان بالمصلّي مرّ بنُصَيْبٍ وهو واقف فقال : يا أبا محْجَنٍ . قال : لبَّيْكَ ! قال : أتُودِعِ إلى « سلمى » شيئاً ؟ قال : نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : تقول لها يا ابن الصديق : إنكَ مررت بي فقلتَ لي : أتودِعِ إليها شيئاً ، فقلت :

أتصبر عـن سلمَى وأنتَ صبورُ
وأنت بحُسْنِ العَزْمِ منكَ جديرُ ؟
وكِدْتُ ولم أخلَقْ من الطير إنْ بَدَا
سَنَا بارقٍ نحوَ الحجازِ أطـيرُ

فمرّ – ابن أبي عتيق – بسلمَى ، وهي في قرية يقال لها « القَسْريّة » فأبلغَها الرسالة ، فزَفَرَتْ زَفرةً كادت أن تَفرّق أضلاعَهـا . فقال ابن أبي عتيق : كلُّ مملوك لي حُرٌّ إن لم يكن جوابُكِ أحسنَ من رسالته . ولو سمعك الآن لنعَق وصار غُراباً[1] .

وورد هذا الخبر بصيغة أخرى وهي : قال ابن أبي عتيق لنُصَيْب : إني خارج . أفترسل إلى سُعْدَى بشيء ؟ قال : نعم ، بيتَيْ شعر . قال : قل . فقال :

أتصبر عن سُعْدَى وأنت صبورُ
وأنت بحُسْنِ الصبر منك جديرُ ؟
وكدتُ ولم أخلَق من الطير إنْ بَدَا
سَنَا بارقٍ نحوَ الحجازِ أطـيرُ

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٢٥ .

قال : فأنشد ابنُ أبي عتيق سُعْدَى البيتين ، فتنفسَتْ تَنَفُّسَةً شديدةً . فقال ابن أبي عتيق : أوّهْ ! أجبتِه والله بأجودَ من شعره . ولو سمعك خليلُك لنعَق وطارَ إليك[1] .

وجاء هـذا الخبر مرة ثالثة بسند إلى محمد بن الكُناسة قال : أنشد نُصَيْبٌ قوله :

وكِدْتُ ولم أُخلَق من الطير إنْ بَدَا
لها بارقٌ نحوَ الحجازِ أطيرُ

فسمعه ابن أبي عتيق فقال : « يا ابنَ أمّ ، قل : غَاقِ فإنك تطير ! » . يعني أنه غراب أسود[2] .

ومن هذا الخبر في صوره الثلاث نخرج بحقيقتين تكمّل إحداهما الأخرى ، ومفادهما أن ابن أبي عتيق لا يصدق نُصَيْباً في قوله :

وكدتُ ولم أُخلَق من الطير إنْ بَدَا
لها بارقٌ نحو الحجاز أطيرُ

أما الحقيقة الأولى فهي أنه لا يرى في الوصف المدّعَى هنا ، وهو طيرانُ الشاعر بنفسه كالطير ، مبالغةً أو إغراقاً ، وإنما يرى فيه إفراطاً وغُلُوًّا لامتناعه عقلاً وعادةً ، وهذا أمر يُبعِد المعنى عن الصدق ويُدْنيه من الكذب .

ومع أن الغُلوَّ هنا من النوع الحسن المقبول ، لاقترانه بأداة من أدوات تقريب المعنى الى حيز الصحة والقبول ، وهي « كدت » ، إلّا أن ابن أبي عتيق مع ذلك يأخذ على الشاعر أنه يكذب على نفسه وعلى الناس حين يدّعي ما لا يقدر عليه حقًّا وصدقاً ! ولهذا ينقده بسخريته المعهودة ويقول له : « يا ابنَ أمّ قل : غاقِ فإنك تطير ! » . أي أنه ليس فيه من صفات الغراب ــ أحدِ الطيور ــ إلّا سوادُ لونه !

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٣٦٤ . (٢) المرجع السابق .

فابن أبي عتيق إذ يَعُدُّ المبالغـــةَ بكل صورها من تبليغ وإغراق وغلوّ مُفسِدةً للمعنى ومنافيةً للصدق ، إنما يأخذ بقياس الجاهليين في نظرهم الى المبالغة . فقديماً عابُوها على مُهَلْهِل بن ربيعة ، وعدُّوه بسبب إكثارِه منها في شعره أولَ من كذب في الشعر .

ومما يؤيد نظرةَ الجاهليين إلى المبالغة واعتبارها ضرباً من الكذب ، ما يُروَى من أن رجـلاً قال لزهير بن أبي سُلمى : « إني سمعتك تقول لهَـرِمِ بن سِنان :

ولأنتَ أشجعُ من أسامةَ إذْ
دُعِيَتْ نَزالِ وَلُجَّ في الذُعْرِ

وأنت لا تكذب في شعرك ، فكيف جعلتَه أشجعَ من الأسد؟ فقال : إني رأيته فتحَ مدينةً وحدَه ، وما رأيتُ أسَداً فتحها قطُّ !! وقد علّق ابن رشيق على هذا الخبر بقوله : فقـــد خَرَجَ ـ زهيرٌ ـ لنفسه طريقاً إلى الصدق وعَدَا عن المبالغة [1] » .

والحقيقة الثانية تتمثل في جواب سَلمى أو سُعدَى عندمـا أبلغها رسالةَ خليلها نُصَيْب . قيـــل : إنها زفرتْ زفرةً كادت أن تُفرّق أضلاعها ! وقيل : إنها تنفّسَتْ تَنَفُّسَةً شديدة !

وسواء كان الجوابُ هذه أو تلك ، فقـد عدَّه ابن أبي عتيق أصدقَ تعبيرٍ وأبلغَه عن معنى الحب الذي تُكِنُّه لصاحبها . ومن ثَمَّ علّق على حركتها المعبِّرة هذه بقوله : « أوَّه ! أجبتِهِ واللهِ بأجودَ من شعره . ولو سمعك خليلُكِ لنَعَق وطار اليك ! » .

وجودةُ إجابتها التي فضّلها على جودة شعر صاحبها مبعثُها الجودةُ الناشئة من صدق التعبير ، فقد أثّرتْ فيه زفرتُها القويةُ البليغة وأقنعته

(١) كتاب العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ٨١ .

بصدقها ، أكثرَ مما أثّر فيه وأقنعه شعر نُصَيْب . ومن أجل هذا صدّقها وكذّبه وسَخِر منه !!

• ومن مقاييس المعنى التي أستخدمها كذلك مقياسُ الصحـة والخطأ . فالخطأ قد يصيب المعنى أو يتطرّق اليه من ناحية الجهل بالمدلول اللغوي للألفاظ ، أو الجهلِ بالحقائق ، أو من ناحية مخالفته للواقع والطبيعة ، أو عدم مطابقته لحال المتكلم أو نوع ثقافته .

وقد ألتفت أبن أبي عتيق في النظر إلى المعنى والحكم عليـه من حيث الصحةُ والخطأ الى ناحية عدمِ مطابقته لحال المتكلم أو نوعِ ثقافته .

أنشده أبنُ جُنْدَبٍ الهُذَليُّ قولَ العَرْجيّ :

وما أنْسَ مِ الأشياءِ لا أنْسَ قولـَها
لخادمها : قُومي آسألي لي عن الـوِتْرِ [1]

فقالت : يقول الناسُ في سِتّ عشرةٌ
فلا تعجَلي عنــه فإنكِ في أجْرِ [2]

فما ليـلةٌ عندي وإنْ قيل جُمعةٌ
ولا ليلةُ الأضحَى ولا ليلةُ الفِـطْرِ

بعادلةِ الإثنين عنـــدي وبالحَرَى
يكون سواءٌ مثلـَها ليـلةُ القَدْرِ [3]

فقال أبن أبي عتيق أُشهدكم أنها — الخادم — حرّةٌ من مالي إن أجاز ذلك أهلـُها ! هذه واللهِ أفقهُ من أبن شِهاب [4] !

---

(١) الوِتْر هنا : يوم عرفة . قيل : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عَرَفَةَ . لسان العرب : ج ٥ ص ٢٧٣ . (٢) لا تعجلي عنه : أي لا تستبقي يوم عرفة وتترقبي سرعة حلوله .
(٣) بالحَرَى أن يكون كذا وكذا : أي جدير وخليق أن يكون .
(٤) ابن شهاب : هو محمد بن مسلم بن شهاب أحد فقهاء المدينـة . الأغاني : ج ١ ص ٣٩٩ ، وانظر كذلك زهر الآداب : ص ٥٦٤ .

فهو بأسلوبه الساخر هنا يأخذ على العَرْجيّ عـدمَ مطابقة كلامه لمقتضى الحال ، وذلك بأنْ أطلق على لسان خادمٍ صاحبتِه من المعاني ما لا يمكن أن يجول بخاطرها ، بُحكْم وضْعها وثقافتها ، وإنما هي معانٍ أليقُ ما تكونُ بالفقهاء لا الخدم ! فالصورة التي تُطلّ علينا من أبيات العَرجيّ ، كما يقول ابن أبي عتيق ، هي صورةٌ أقرب ما تكون الى صورةِ فقيهٍ كابن شهاب أحدِ فقهاء المدينة لا صورةِ خادم !

• كذلك اتّخذَ ابن أبي عتيق الوفاءَ بالمعنى مقياساً يقيس به المعاني ، وذلك بأن يستوفيَ الشاعر كلّ ظلال المعنى وأن يأتيَ به تاماً كاملاً .

جاء في الأغاني أن عُروةَ بنَ أُذيْنَةَ رثـى أخـاه بكراً بأبياتٍ قال فيها :

سَرَى همّي وهمُّ المرء يَسْري
وغـارَ النجمُ إلّا قِيـدَ فِتْرٍ [1]

أراقبُ في المَجرّةِ كلّ نجـمٍ
تعرّض في المَجرّةِ كيف يَجري

بُحزْنٍ مـا أزال له مُـديماً
كأنّ القلبَ أُسعِرَ حَرّ جمرٍ

على بَكْرٍ أخي وَلّى حميـداً
وأيُّ العيش يَحسُن بعد بَكْرٍ ؟

وأنشدها ابنُ أُذيْنة ابنَ أبي عتيق ، فضحك ابن أبي عتيق وقال : كلُّ العيش يحْسُن حتى الخبزُ والزيت ! فحلف ابن أُذيْنة لا يكلمه أبـداً . فمات ابن أبي عتيق وابن أذيْنة مُهاجرٌ له [2] .

فابنُ أذيْنة بقوله : « وأيُّ العيش يَحسُن بعد بَكْرٍ ؟ » يريـد أن يقول : إنّ حياته كانت حسنةً صالحة بوجود أخيه بكرٍ على قيد الحياة ،

---

(١) قيد فتر : أي قدر فتر . (٢) الأغاني : ج ٧ ص ٦٢ .

أمّا وقد فارق الحياة فإنه ينفي أن يكون هناك أيُّ حياةٍ تحسن وتصلح له هو من بعده !

ولكنَّ عبارةَ ابنِ أذَيْنَة كما يُفهَم منها هذا المعنى قد يُفهَم منها أيضاً أن حياة الناس عامة كانت حسنةً صالحة بوجود أخيه بكر ، وأنه من بعد وفاته لم يعد هناك أيُّ حياةٍ تحسن وتصلح لكافة الناس . وهذا المعنى غير صحيح لأن حُسْنَ الحياة وطيبَها بالنسبة إلى الناس عامة لا يتوقف على وجود بكر أو عدم وجوده .

ومن هنا كان عدم الوفاء بالمعنى الذي لحَظه ابن أبي عتيق وعبَّر عنه ضاحكاً بقوله : « كلُّ العيش يحسُن حتى الخبزُ والزيتُ ! » .

***

الموازنات الشعرية :

إن الموازناتِ بين شعر وشعر أو بين شاعرٍ وآخَر قد وُجِدتْ في النقد العربيّ من قبلُ كصورة من صوره ، ولكنَّ الأحكامَ بالتفضيل فيها كانت في أغلبها عامّةً غيرَ معلَّلة .

وقد امتدَّ هذا النوعُ من الموازنات إلى النقد في بيئة الحجاز أيامَ بني أميّة ، كالموازنة التي فضّل فيها كُثَيِّرٌ جميلاً على نفسه ، وكالموازنة بين عمرَ بن أبي ربيعة وجميلِ بن مَعْمَر في قصائدَ معيَّنة ، والتي قيل فيها : إنَّ عمرَ أشعرُ من جميلٍ في قصيدتيه الرائيّةِ والعينيّة ، وإن جميلاً أشعرُ منه في اللاميّة .

ولكن إلى جانب ذلك ظهرتْ صُوَرٌ أخرى من الموازنات الشعرية ، يُبنَى التفضيلُ فيها على أحكام معلَّلة ، أو يَلتفت فيها النقّادُ إلى جوانب من النقد غيرِ مسبوقة .

ولعل ابنَ أبي عتيق من بين نقّاد الحجاز هو الوحيدُ الذي اتّجه إلى

توسيع مجال النقد من هذه الناحية . ففي الموازنات التي عقدها بين بعض الشعراء لا نراه ينحو مَنحَى الأحكام المعلّلة عند التفضيل فحسبُ، وإنما نراه أيضاً، ولأول مرةٍ في تاريخ النقد العربيّ، يتحدّث عن قضايا هي في الواقع من صميم النقد .

• زاره في المدينة مرةً كُثيِّرُ عزّةَ فاستنشده فأنشده كُثيِّرٌ قصيدته التي مطلعها :

أبائنــةٌ سُعدَى ؟ نعم ستبينُ
كما انبَتّ من حَبْلِ القرينِ قرينُ

حتى بلغ إلى قوله :

وأخلَفْنَ ميعادي وخُنَّ أمانتي
وليس لمن خانَ الأمانةَ دِينُ

فقال له ابن أبي عتيق : أعلى الأمانة تبِعْتَها ؟ فانكفّ — كُثيِّر — واستغضب نفسه وصاح وقال :

كذَبْنَ صفاءَ الوُدّ يومَ مَحِلّه
وأنكَدْنَني مَن وَعْدُهنّ دُيونُ

فالتفت اليه ابنُ أبي عتيق فقال : وَيلَكَ ! أوَ للدَّين صحِبْتَهنّ يا ابنَ أبي جمعة ؟ ذلك واللهِ أملحُ لهنّ، وأشبهُ بِهنّ، وأدعَى للقلوب إليهِنّ . وإنما يُوصَفْنَ بالبخل والامتناع، وليس بالوفاء والأمانـة . سيّدُكَ ابنُ قيس الرقيّات كان أعلمَ وأشعرَ منـك، وأوضَعَ للصواب موضعَه منهنّ ! أما سمعتَ قولَه :

حَبّ ذاكَ الدَّلُّ والغُنُجُ والتي في طَرْفِها دَعَجُ[1]
والتي إنْ حدَّثتْ كذبتْ والتي في وعْدِها خَلَجُ[2]

(١) الغُنُج : حسن الدلّ والتكسّر . والدَّعَج : شدة سواد العين مع سعتها .
(٢) الخَلَج : الاضطراب وعدم الثبات على حال في الوفاء بالوعد .

وترى في البيت صورتها مثلما في البِيعَة الشُّرُج[1]
خبّروني هل على رجُلٍ عاشقٍ في قُبلَةٍ حَرَجُ ؟

فقال كُثيِّر للسائب راويتِه الذي كان معه : قم بنا من عند هذا ، ثم نهض ومضى[2] .

فابن أبي عتيق يتحدّث في هذه الموازنة عن شيء جديد لم يشهدْه النقدُ العربيُّ من قبلُ وهو صدق التجربة الشعرية .

وهذا الصدق ، كما يبدو من نقده لشعر كُثيِّر ، إنما ينبع من معايشة التجربة لا من تخيُّلها ، ومن التعمق في فهم طبيعتها وأبعادها لا من الحَوَمان حولَها ، ثم من التعامل معها على أساس القِيَم العاطفية لا الأدبية .

وانطلاقاً من وجهة النظر هذه تأتي موازنةُ ابن أبي عتيق بين شعر كُثيِّرٍ وابن قيس . فهو في هذه الموازنة يأخذ على كُثيِّر جهلَه بطبائع النساء ، وبما يستحسنه المُحِبُّ أو لا يستحسنه من صفاتهن ، على حين يقضي لابن قيسٍ بأنه أعلمُ منه بطبائع النساء ، وأوْضَعُ للصواب موضعَه فيهنّ .

ويَزيدنا ابن أبي عتيق علماً بوجهة نظره في قضية صدق التجربة الشعرية وصحتها في الغزل بقوله لكُثيِّر : « وَيْلَكَ ! أوَ للذّين صحبتَهنّ يا ابن أبي جمعة ؟ ذلك والله أملحُ لهنّ ، وأشبهُ بهنّ ، وأدْعَى للقلوب إليهنّ . وإنما يُوصَفْنَ بالبخل والامتناع ، وليس بالوفاء والأمانة ! » .

وهذه في الواقـــع نظراتٌ صائبة في فهم طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في حال الحب . فالبخل والامتناع والتأبّي وما أشبهُ ، من صفات الملاحة في النساء حقّاً ، وهي مما تُغري قلوب الرجال وتَزيدها تعلُّقاً بهنّ . وذاك في رأي ابن أبي عتيق مـــا جهِله كُثيِّرٌ من طبائع النساء

(١) البِيعة : مُتعبَّد النصارى واليهود .
(٢) الأغاني : ج ٥ ص ٩٨ – ٩٩ ، وانظر كذلك العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

وصفاتهنّ وعِلمه ابنُ قيس . ومن ثَمَّ كانت كلمته لكُثيّر : « سيدُك ابن قيس الرقيّات كان أعلمَ وأشعرَ منك ، وأوْضعَ للصواب موضعَه منهنّ » .

من هذه الموازنة نخرج بحقيقتين : الأولى أننا أمامَ موازنةٍ بين كلام شاعرين في موضوع معيّن ، وأن الحُكمَ فيها بأفضلية أحدِهما على الآخر جاء مشفوعاً بأسبابه وحيثياته .

والحقيقة الثانية أن ابنَ أبي عتيق قـد تكلم هنا عن صدق التجربة وصحة العاطفة وأثرهما في قيمة الشعر وميزان النقد . وهذه التفاتة منه مبكرةٌ إلى بعض ما ينبغي أن يأخذه الناقد في أعتباره عند عملية تقديرِ الشعر والحكمِ عليه .

فآراؤه في هذه الموازنة يمكن النظر إليها على أنها محاولةٌ منه في سبيل تطويرِ الموازنات الشعرية والانتقالِ بها خُطوة على طريق النقد القويم ...

• وفي موازنةٍ له بين شاعرين آخَرين عرَض ابن أبي عتيق إلى جوانب أخرى جديدةٍ في النقد العربيّ .

حدّث عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون عن عمـه يوسفَ قال : « ذُكِر شعرُ الحارث بنِ خالد وشعرُ عمرَ بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق في مجلس رجلٍ من وَلَد خالد بن العاصي بن هشام ، فقال الرجل : صاحبُنا – يعني الحارثَ بنَ خالد – أشعرُهما .

فقال له ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا ابنَ أخي ، لِشعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة نَوْطَةٌ[1] في القلب ، وعُلُوقٌ بالنفس ، ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعرٍ ، وما عُصِيَ اللهُ جلّ وعزّ بشعرٍ أكثرَ مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة .

فخُذْ عنّي ما أصفُ لك : أشعرُ قريشٍ مَن دَقّ معناه ، ولَطُفَ

---

(١) نَوْطة في القلب : تعلّق والتصوق به .

مَدْخَلُه ، وسَهُلَ مَخْرَجُه ، ومَتُنَ حَشْوُه ، وتَعَطَّفَتْ حَوَاشِيه ، وأنارتْ معانيه ، وأعربَ عن حاجته .

فقال المفضّل للحارث : أليس صاحبُنا الذي يقول :

إني وما نَحَرُوا غَداةَ مِنًى
عندَ الجِمَارِ يَؤُودُها العَقْلُ[1]

لو بُدِّلَتْ أعلى مساكنِها
سُفْلًا وأصبحَ سُفْلُها يَعْلُو

فيكادُ يعرِفُها الخبيرُ بها
فيرُدُّهُ الإقْواءُ والمَحْلُ[2]

لَعرفْتُ مَغْنَاها بما احتملتْ
مِنّي الضلوعُ لأهلِها قَبْلُ

فقال له ابنُ أبي عتيق : يا ابنَ أخي ، استُرْ على نفسك ، واكتُمْ على صاحبك ، ولا تُشاهدِ المحافلَ بمثل هذا . أما تطيَّرَ الحارثُ عليها حين قلبَ رَبْعَها فجعلَ عاليَه سافلَه ؟ ما بقيَ إلّا أن يسألَ اللهَ تبارك وتعالى لها حِجَارةً من سِجّيلٍ[3] ! ابنُ أبي ربيعة كان أحسنَ صُحْبةً للرَّبْع من صاحبك ، وأجملَ مخاطبةً حيثُ يقول :

سائلًا الرَّبْعَ بالبُلَيِّ وقُولا
هِجْتَ شوقًا لِيَ الغَداةَ طويلا[4]

أينَ حيٌّ حَلُّوكَ إذْ أنت مَحْفُو
فٌ بهم آهِلٌ أراكَ جميلا ؟

(١) العَقْل: الحبس، وذلك لربطها وقيدها بالعِقَال. ويؤودُها العقل: من أدَّها الحبسُ يَؤُدُّهَا ويشدُّهَا إذا دهاها .

(٢) الإقواء : خلُوُّ الدار ، والمَحْلُ : الجَدْب ، وهو انقطاع المطر ، ويُبْس الأرض من الكلإ.

(٣) السِّجّيل : الطين المتحجّر . (٤) البُلَيّ : اسم موضع ، وهجتَ : أثرتَ .

قال : سَارُوا فأمْعَنُوا وأسْتَقلُّوا
وبِرَغْمِي لو استطعتُ سبيلا

سَئِمُونا وما سَئِمْنا مُقاماً
وأحبُّوا دَماثَةً وسُهُولا[1]

قال : فانصرف الرجلُ خَجِلاً مُذْعِناً[2] » .

فهذا الخبر يُظهِرنا أكثرَ من غيره على أهمّ المُثُل والقيم الجمالية والنقدية التي فَطِن اليها بذوقه العربيّ الخالص ، والتي يَرى الاستعانة بها في تقدير الشعر ، وإدراكِ مواطن القوة فيه والضعف .

يقول أبن أبي عتيق في هذا الخبر: « لِشعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة نَوْطةٌ في القلب ، وعُلُوقٌ بالنفس ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر » . فإلى أي شيء ترمز هذه العبارة؟ إنها ترمز في الواقع الى دور العاطفة وإصابة الغرض وأثرهما في جمال الشعر وقيمته .

فالشعر الجيّدُ في نظره هو ما عبّرَ في قوةٍ وصدق عن عاطفةِ قائله ، وأثّرَ في عواطف الآخَرِين ومشاعرِهم ، وكان بليغاً في الوفاء بغرضه والتعبير عنه .

كذلك يؤكد هذا الخبرُ أتجاهَ أبن أبي عتيق إلى الإحكام المعلّلة في نقده . ودلالةُ هذا النوع من الأحكام النقدية ليست في الكشف عن أسبابها وعِلَلِها فحسبُ ، وإنما هي في الكشف أيضاً عن ملكات الناقد وثقافته ، وقدرته على الاستدلال والتمييز بين جيد الشعر ورديئه .

وعلى سبيل المثال فهو إذْ يحكم لعمر بن أبي ربيعة بأنه أشعرُ شعراء قريش ، يُردِفُ حكمَه بالأسباب التي بناه عليها .

(١) الدماثة : السهولة والليونة ، وأصله من الدَّمْث ، وهو الأرض السهلة الليّنة الرخوة غير الجافية . ومنه دماثة الخُلُق : أي سهولته ولينه .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ١٠٨-١٠٩ .

وتتمثَّل هذه الأسبابُ في تحديد الخصائص والسِّمات التي يمتاز بها فنُّ ابن أبي ربيعة الشعريُّ ، وهي : دِقَّةُ المعنَى ، ولُطْفُ المدخل ، وسهولةُ المخرج ، ومتانةُ الحَشْوُ ، وتَعطُّفُ الحواشي ، وإنارةُ المعاني ، والإعرابُ عن الحاجة .

ومن هــذه الخصائص والسِّمات ما يَمُتُّ إلى صفات المعاني ، ومنها ما يَمُتُّ إلى صفات الألفاظ ، ومنها ما يَمُتُّ إلى إصابة الغرض . وهذا كلام أشبهُ بكلام النقاد المحدَثين في المعاني والألفاظ وحُسْنِ الفواتح والخواتم .

وفي الخبر بالإضافة إلى ما تقدم موازنةٌ بين شعرٍ قاله كلٌّ من عمرَ ابن أبي ربيعة والحارثِ بن خالد المخزوميِّ في موضوع واحد ، هو رَبْعُ الحبيبة أو مغناها الذي لا يكاد الشاعر يراه بعد رحيلها عنه ، حتى تهتاجَ عواطفُه ، فيتوجَّهَ إليه بالخطاب كما لو كان يخاطب صاحبتَه وجهاً لوجه !

في هذه الموازنةِ نراه يفضِّل ابنَ أبي ربيعة ، فيحكم له بأنه كان أحسنَ صُحبةً للرَّبْع من الحارث بن خالد وأجملَ مخاطبةً . وليس في هذا الحكم ما يشير إلى أيِّ تعصب من ابن أبي عتيق لصاحبه عمر ، فالمتأمِّلُ في النَّصَّيْن والناقدُ لهما نقداً موضوعيًّا لا يسعه إلّا أن يوافق ابنَ أبي عتيق في حكمه .

وفي نقده لشعر الحارث يقول في سخريته اللاذعة المعهودة : « أما تطيَّرَ الحارث عليها — صاحبتِه — حين قلب ربْعَها فجعل عاليَه سافِلَه ؟ ما بقِيَ إلّا أن يسأل اللهَ تبارك وتعالى لها حجارةً من سِجِّيل ! » .

فهذا النقد الذي يغلب عليه روح الفكاهة والتهكُّم يَدلُّ على فِطْنَة ابن أبي عتيق إلى « الإيحاءات الشعرية » كعنصر من عناصر النقـد . وما قيمةُ الشعر إلّا بمقدار إيحاءاته ؛ فمن الشعر ما يوحي بالتفاؤل ، وبكل القِيَم السامية والجوانب المشرقة في الحياة ، ومنه ما يوحي بعكس كل ذلك .

ومن الشعر الذي يوحي بالتشاؤم والتطيُّر شعرُ الحارث هنا ، فقــد

أباح له خياله أن يقوّض الحياة ، وأن يقلب رَبْعَ صاحبته فيجعل عاليَه سافلَه ، وأن يُصيبه بالإقواء والمَحْل ، لا لشيء إلّا لمجرد الزعم بأنه على الرغم من كل ذلك يستطيع أن يتعرّف مَغْناها بما يُكنّه من حُبٍّ لأهله !

ومن أجل هـذا نرى ابن أبي عتيق يختم نقده له بعبارة تهكّمية ملؤها الجدّ ، وذلك إذ يقول : « ما بقِيَ إلّا أن يسألَ الله تبارك تعالى لها حِجارةً من سِجّيل !! » .

***

تشبيب عمر بنفسه :

رأينا فيما مرّ بنا كيف كان ابن أبي عتيق يُعجَب بشعر صديقِه عمرَ ابن أبي ربيعة ويفضّله على شعراء عصره . أنشدَهُ عمر مرةً إحدى قصائده في صاحبته « الثريّا » فطرب لها غاية الطرب ، وقال له فيما قال : « لئن مُتّ لأموتنّ معك ! أفٍّ للدنيا بعـدك يا أبا الخطاب ! فقال له عمر : بل عليها بعدك العَفاءُ يا أبا محمد ! » .

وأكثرُ ما أُثِر من آرائه وملاحظاته النقدية متصلٌ بشعر عمر ، لأنه على ما يبدو ، كان في نظره الشاعرَ المعَبّرَ عن نزوع عصره وأهوائه واتجاهاته .

ولكنّ كلّ ذلك لم يمنعه أن ينقد صاحبَه على ما بدا في بعض شعره من انحرافٍ تأباه طبيعةُ الرجلِ السّوِيّ ، ولا يُقِرُّه هو أو غيرُه عليه .

- أنشده عمرُ مرةً قولَه :

بينـا يَنْعَتْنَنِي أبْصَرْنَنِي
دونَ قِيدِ المِيلِ يَعْدُو بِي الأغَرّْ
قالتِ الكبرى : أتعرِفْنَ الفتَى ؟
قالتِ الوُسطَى : نعمْ هـذا عمرْ

قالتِ الصغرى وقد تيَّمْتُها :

قد عرفناهُ ... وهل يخفَى القمرْ ؟

فقال له ٱبن أبي عتيق : — وقد أنشدها — أنتَ لم تَنْسُب بها ، وإنما نَسَبْتَ بنفْسك ! كان ينبغي أن تقول : قلتُ لها فقالتْ لي ، فوضعتُ خَدّي فوطِئَتْ عليه [1] .

فابن أبي عتيق يرى من هذه الأبيات أن صاحبَه واقعٌ في حبٍّ نفْسه مفتونٌ بها ، يظن أنه يتغزّل في المرأة ، وهو من حيث يدري أو لا يدري يتغزّل في ذات نفسه !

ومن أجل هذا قال له ما قال تقويماً لما ظهر في غزله من ٱنحرافٍ تأباه طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الرجل والمرأة المتحابَّيْن .

وإذا كانت المرأة هي موضوعَ الغـزل ومعبودةَ الشاعر التي يُعليها فوق كل شيء ، ويحاول الوصول إلى قلبها بِرُقـَى الشعر ، فإن عليه إنْ كان مُحبًّا حقًّا وصادقاً في عاطفته حقًّا ألّا يبتذلَها ويُرخِصَ عواطفَها ويجعلَها تتهالكُ عليه .

فاتجاهُ الغزلِ الطبيعيّ في نظر ٱبن أبي عتيق ، هو ما ظهرت ٱلمرأةُ فيه في صورة مَن تتمنّعُ وتَتأبّى ، والرجـلُ في صورة من يَتودّدُ اليها ويتذلّل .

ولم يكن هو وحدَه الذي فطِن إلى تشبيب عمر بنفسه وعابه عليه . وإنما كان هناك في عصره مَن فطِنوا كذلك الى هذا الانحراف وٱستقبحوه .

● حدّث الزبير بن بكّار قال : أدركتُ مَشْيَخَةً من قريش لا يزنون بعمرَ بن أبي ربيعة شاعراً من أهـل دهره في النسيب ، ويستحسنون

(١) الأغاني : ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه ، والتحلّي بمودّته ، والابتيار في شعره [١] .

فبعض شيوخ قريش ، كما يُفهَم من هذا الحديث ، كانوا كابن أبي عتيق يستقبحون من الشاعر أن يمدح نفسه في النسيب ، وأن يفخر بأن النساء يخطبن وُدّه ، وأن يدفعه الإعجابُ والزهوُ بنفسه ، والإدلالُ بها الى التعبير صراحةً عما يجري بينه وبينهنّ من مغامرات عاطفية ، ولكنهم بدافع العصبية القرشية كانوا يستحسنون منه ما يستقبحون من غيره !

• وممن جارى ابنَ أبي عتيق في نقده لعمرَ على تشبيبه بنفسه كُثيّرُ عَزّة . جاء في العقد الفريد أن مجلساً ضمّهما في المدينة هما والأحوصَ ونُصَيْباً فجعلوا يتحدثون ساعةً . ثم التفت كُثيّرٌ الى عمر بن أبي ربيعة فقال له : إنك لشاعر ، لولا أنك تشبّب بالمرأة ، ثم تَدَعُها وتُشبّب بنفسك . أخبرني عن قولك :

ثم اسْبَطَرّتْ تَشْتَدُّ في أثَري
تسأل أهــلَ الطوافِ عن عُمَرِ [٢]

والله لو وصفتَ بهذا هِرّةَ أهلِك لكان كثيراً ! فانكسرتْ نَخْوةُ عمرَ بنِ أبي ربيعة [٣] . فكُثيّرٌ في هذا الخبر ينقد عمر ويَعيب عليه تشبيبه بنفسه .

• ومن النساء مَن فطِنتْ أيضاً إلى هــذه الظاهرةِ الانحرافية في غزلَ عمرَ وانتقدته عليها .

ذكر أبو الفرج أن عمر بن أبي ربيعة خرج يريد الشام ، فلما كان بالجَناب [٤]

(١) الأغاني : ج ١ ص ١١٨ ، والابتيار : أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر بــه . والابتهار أن يقول ما لم يفعل . (٢) اسبطرّت : أسرعت في المشي .
(٣) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٧٢ ، والنخوة : العظمة والكبر والفخر .
(٤) الجناب : موضع في أرض كلب في السماوة بين العراق والشام .

لقيَه « جميلٌ » فتناشدَا الأشعار ، ثم قال عمر : « آذهبْ بنا إلى بثينة نُسلّمْ عليها . فقال له جميل : قد أهدرَ السلطانُ دمي إنْ وجدوني عندها ، وهاتيك أبياتُها .

فأتاها عمرُ حتى وقف على أبياتها ، وتأنّسَ حتى كُلّم . فقال : يا جاريةُ ، أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني ، فخرجت إليه بثينة في مَباذِلها وقالت : والله يا عمرُ ، لا أكون من نسائك اللائي يزعمن أنْ قتلَهُنّ الوجدُ بك ، فانكسر عمر » .

فبُثينة إذ قالت لعمر ما قالت إنما تنتقده على هذا الاتجاه المنحرف في غزله ، حيث يصوّر نفسَه في صورة المعشوقِ لا العاشق ، والمطلوبِ لا الطالب ، ويصوّر صواحبه أو نساءه في صورة مَن قتلهُنّ الوجد به !!

ويبدو أن هذا الاتجاهَ الذي أخذه النقادُ على عمر كان جزءاً من طبيعته ، ذلك لأنه لم يقف في الإدلال بنفسه والفخرِ بعشق النساء له والتحلّي بمودته عند حدّ الشعر ، وإنما نراه يذكره ويباهي به كذلك في مجالسه .

حدّث قيس بن داود قال حدثني أبي قال : سمعت عمر بن أبي ربيعة يقول : لقد كنتُ وأنا شابٌّ أَعْشَق ولا أَعْشَق ، فاليوم صرتُ إلى مُداراةِ الحِسان إلى المات . ولقد لقيَتْني فتاتان مرّةً فقالت لي إحداهما : أُدْنُ منّي يا آبن أبي ربيعة أُسِرّ إليك شيئاً . فدَنَوْتُ منها ودَنَتِ الأخرى فجعلتْ تَعَضُّنِي ، فما شعرتُ بِعَضّ هذه من لذّة سِرَارِ هذه[1] .

***

التحول في مقياس النقد :

أخذ المجتمعُ الحجازيُّ في العصر الأمويّ يتحضّرُ بفعل عواملَ شتّى جديدةٍ طرأتْ عليه من الداخل والخارج . وكان الطابَعُ الغالبُ على

(١) الأغاني : ج ١ ص ٧٦ .

الحياة الحجازية الجديدة في هذا العصر هو طابعَ التّرَف في كل شيء .

وعلى سبيل المثال فالغناءُ الحجازيُ يُشجّعُ الى أقصى مَدى ، فيزدهر ويترَف ، وتستحيل مجالسه الخاصة والعامـة إلى منتدياتٍ للفن والأدب والسَّمَر والاستمتاع ، فيجتمع فيها الشعر والغزل والغنـاء ، والطرَب واللهو والمجون .

والشعرُ الحجازيُ كذلك أصابه التّرَفُ وسَرَى الى كِيانه ، فإذا هو شعرٌ مترَف في موضوعه واتجاهه ، وفي معانيه وصوره ، وفي ألفاظه وأساليبه .

فموضوعه الغزلُ بالمرأة ، ووصفُ حسنِها وجمالها ، والتعبيرُ عن أشواقها وعواطفها الحبيسة ، مما تَوَدُّ أن تقولَه أو يقالَ لها ، ثم يحول دون ذلك ميراثٌ هائل من التقاليد الصارمة التي تحدّدُ نوعَ العَلاقـة المسموحِ بها بين الرجل والمرأة .

وأكثرُ صوره ومعانيه منتزَعةٌ من محيط حياة الحجاز المترفة اللاهية العابثة ، أو التي أراد لها الشعراء المترفون أن تلهُوَ وتعبَث !

كذلك مَسّ التّرَفُ ديباجةَ هذا الشعرِ المتمثلةَ في ألفاظه وصياغته وأساليبه ، فهي ديباجة تتسم بالرقـة والعذوبة ، والدّماثة والسماحة ، والوضوح والإشراق . إنها ديباجةٌ أبعدُ ما تكون عن الجفوة والغلظة ، والتعقيد والالتواء ، والغموض والإبهام . وما أشبهَ سِمَاتِها بسِمَات الحياة الظاهرة والباطنة التي كان يحياها شعراء الغزل في الحجاز .

ولعلنا من كل ذلك ندرك الآن اتجاهَ هذا الشعر . فقد اتجه أكثرَ ما اتجـه إلى الإغراء بتقويض القِيَم الاجتماعية التي كانت تَكبِت عواطفَ الإنسان في أعماق نفسه ، وتحكم عليه بالانغلاق ، وتجعله يعيش معذّباً بين الرغبة العارمة في الإفصاح عن عواطفه ، والإشفاق على نفسه وسمعته من الإفصاح عنها !

وإذا شئتَ فقلْ : إن هذا الشعر يتجه الى مخاطبة القلوب ، فيدعوها إلى التحرر والانعتاق من كل ما يعوق حركة العواطف ، ويحبس صوتَها، ويَشُلُّ فاعليتها ، فإذا الإنسانُ جسمٌ بلا قلبٍ ولا روحٍ ولا عاطفة !

وإذا شئت مرةً أخرى فقلْ : إنه شعر جعل اتجاهَه الدعوةَ الى الحب الصريح الخالص من العُقَد والقيود ، الحبُّ الذي يُنضّر الحياة ويجمّلها ، ويُكسب المجتمع سلامةً وصحة ، ونشاطاً وحيويّة . وبذلك يتم التوافق والتزاوج في حياة الحجاز الجديدة بين مظاهر الحضارة الماديّة والروحيّة ، ويتضافران معاً على إثراء هذه الحياة ورقيّها ...

***

وهكذا ظهر الغزل الإباحيُّ الصريح ، وقامت له في الحجاز مدرسةٌ بزعامة عمر بن أبي ربيعة ، وسواءٌ قصدَ عمرُ أو لم يقصِد فقد جاء شعرُه الغزَليُّ المترَفُ معبِّراً عن نزوع العصر وأهوائه .

وقد أشرنا من قبل الى الأثر الذي كان يتركه شعرُ عمرَ في نفوس أهلِ الحجاز وغير الحجاز ، وكيف كان الجديدُ منه يسافر في الآفاق ، وكيف كان الناس على اختلاف طبقاتهم يُعجَبون به ، ويُعبّرون عن إعجابهم بطرق شتى !

فالمغنون يتلقّفون الجديدَ منه ويضعون له الألحان ثم يتغَنّوْن به في المجالس الخاصة والعامة فتضطرم عواطف السامعين ويشتد بهم الطرب !

والشعراء المعاصرون لا يسعُهم عند سماع شعرِ عمرَ إلّا أن يشهدوا له بالتفوق في الغزل . فالفرزدقُ مثلاً يسمع شعره فيصيح : « هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وبكت الديار » . وجريرٌ يقول : إن هذا الذي كنا نَدُور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشيُّ » . وجميلٌ يخاطبه بعد سماع بعضِ شعره : « هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول مثلَ هذا سَجيسَ

الليالي ! والله ما خاطب النساءَ مخاطبتَكَ أحدٌ » . ونُصَيْب يشهد له بقوله : « لَعمرُ بنُ أبي ربيعة أوصفُنا لرَبَّاتِ الحِجال » .

ومن الرجال مَن يروح يُفتِّش عمّا لا يعرف من شعره ويكتبه . حدَّث الزبيرُ بسندٍ إلى عِمامَةَ بنِ عمرو قال : رأيت عامر بن صالح ابن عبدالله بن عروة بن الزبير يسأل المِسْوَرَ بنَ عبدالملك عن شعر عمر بن أبي ربيعة ، فجعل يذكر له شيئاً لا يعرفه ، فيسأله أن يُكْتِبَهُ إيّاه فيفعل ، فرأيتُه يكتبُ ويدُه ترتعد من الفرَح[1] !

ومن النساء مَن تدوّنُه في دفتر وتدخل به على النساء . حدَّث الزبير ابن بكّار قال : حدثتْني ظبيةُ مولاةُ فاطمةَ بنتِ عمرَ بنِ مُصْعَب قالت : مررتُ بِجَدِّك عبدِالله بن مُصعَب وأنا داخلةٌ منزلَه وهو بفِنائه ومعي دفترٌ ، فقال : ما هذا معك ؟ ودعاني فجئتُه وقلتُ : شعرُ عمرَ ابن أبي ربيعة . فقال : وَيْحكِ ! تدخلين على النساء بشعر عمرَ بنِ أبي ربيعة ! إنَّ لِشعرِه لموقعاً من القلوب ومَدْخَلاً لطيفاً . لو كان شِعرٌ يَسْحَر لكان هو ، فارجعي به . قالت : ففعلت »[2] .

ومن النساء ، كما يحدثنا عمرُ في شعره ، مَن كانت تخرج إلى الحج من أجله :

أوْمَتْ بعينَيْها من الهَوْدَجِ :
لولاكَ في ذا العامِ لم أحْجُجِ
أنتَ إلى مكةَ أخرَجْتَني
ولو تركتَ الحجَّ ... لم أخرُجِ[3]

وليس أدلَّ على مكانة عمر في نفوس أهل عصره من هذا الخبر الذي أورده صاحب الأغاني بسند إلى مصعبٍ قال :

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٠٨ . (٢) الأغاني : ج ١ ص ٧٨ .
(٣) ديوان عمر : ص ٤٨٧ .

« كانت حَبَشِيَّةٌ من مُوَلَّدات مكةَ ظريفةٌ صارتْ إلى المدينة ، فلما أتاهم موتُ عمرَ بنِ أبي ربيعة اشتدَّ جزَعُها وجعلتْ تبكي وتقول : مَن لمكةَ وشِعَابِها وأباطحِها ونُزَهِهَا ووصفِ نسائِها وحُسْنِهِنَّ وجمالِهنَّ ووصْفِ ما فيها ! فقيل لها : خَفِّضِي عليكِ ، فقد نشأ فتًى من وَلَد عثمانَ رضيَ الله عنه ، يأخذ مأخذَه ويَسلُكُ مَسلَكَه . فقالت : أنشدوني من شعره . فأنشدُوها ، فمسَحتْ عينَيْها وضَحِكتْ وقالت : الحمدُ لله الذي لم يُضيِّعْ حَرَمَه »[1] .

* * *

ولكن على الجانب الآخر عاب المحافظون والمتشددون في دينهم من أهل الحجاز ما في شعر ابن أبي ربيعة من إباحيةٍ صريحة يُخشَى منها على على أخلاق النساء .

- فعبد الله بن مُصْعَب يمنع ظبيةَ مولاةَ فاطمةَ بنتِ أخيه عمرَ من الدخول على نسائه بدفترٍ فيه شعرُ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، ويأمرها بالرجوع به ، لأنه في نظره شعرٌ يَعلَقُ بالقلوب ، ويفعل فيها فعل السِّحر ! .

- وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع قولَ عمرَ بن أبي ربيعة :

* فيَضحَى وأمَّا بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ *

قال : لا ، بل :

* فيَخْزَى وأمَّا بالعَشِيِّ فيخسَرُ *[2]

- وكان ابن جُرَيْج فقيهُ الحَرَمِ المكّيِّ يقول : « ما دخلَ على العواتق

(١) الأغاني : ج ١ ص ٣٨٧ ، والفتى المشار إليه في هذا الخبر هو الشاعر العرجيُّ ، عبدُ الله ابن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان .
(٢) الأغاني : ج ١ ص ٧٣ .

في حِجَالِهِنّ شيءٌ أضرُّ عليهنّ من شعر عمرَ بن أبي ربيعة »[1] .

• وقال هشام بن عُرْوَةَ : « لا تُرَوُّوا[2] فتياتِكم شعرَ عمرَ بن أبي ربيعة لا يَتَوَرَّطْنَ في الزِّنا تورُّطاً ، وأنشد :

لقــد أرسلتُ جاريــتي وقلتُ لها : خُذي حذَرَكْ
وقُــولي في مُلاطفــةٍ لزينبَ : نَوِّلي عُمَـرَكْ[3]

***

وما من شك في أن المعارضين لشعر عمرَ بن أبي ربيعة والمشفقين منه على أخلاق المرأة المسلمة كانوا ينظرون إلى الشعر ويقيسونه بمقياس الرسول الذي استوحاه من تعاليم الإسلام وقِيَمِه الأخلاقية ، والقائل : « إنما الشعر كلام مؤلّف ، فما وافق الحقّ منه فهو حسَن ، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خيرَ فيه »[4] .

هذا هو مقياسُ الرسول الذي كان يقيس به الشعر، ثم تبنّاه الخلفاء الراشدون من بعده في تقدير الشعر والحكم عليه . فهو مقياس يتخذ من الحق أساساً له ، ويدعو إلى التمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق . فالحسَنُ من الشعر طِبقاً لهذا المقياس هو ما وافق الحق ، وما لم يوافق الحق منه فباطلٌ لا خير فيه .

وكأني بالرسول إذ اعتمد الحق مقياساً للشعر ، إنما أراد أن ينحرف به عن طريق قِيَمِه الجاهلية ، وأن يجعله إسلاميَّ الروح والمضمون والاتجاه ، وبذلك يكون عاملاً من عوامل البناء لا الهدم في المجتمع الجديد .

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٧٤ . والعواتق : جمع عاتق ، وهي الفتاة التي قد أدركت فخُدِّرت في بيت أهلها ولم تتزوج ، سميت بذلك لأنها عُتِقت من خدمة أبويها ولم يملكها زوج بعدُ .

(٢) أي لا تحملوهنّ على روايته ، يقال : روَّيتُه الشعرَ وأرويتُه إياه ، إذا حمّلتَه على روايته .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٧٤ . (٤) كتاب العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ١٤ .

وقد التزم الخلفاء الراشدون ، ولاسيما عمر بن الخطاب ، بقياس الرسول هذا في تقدير الشعر وتوجيهه . فكلُّ أحكامه النقدية تشير إلى أنه كان يفضّل الشعر الذي يجمع بين القِيَم الأخلاقية والقيمة الأدبية .

فعمرُ المتشبعُ بروح الإسلام وتعاليمه ، وعمرُ الشاعرُ بمسؤولية الحاكم المطالب بحماية المجتمع الإسلاميّ الجديـد من الانحراف ، كان يعمل دائماً على توجيه الشعر وِجْهةً إسلامية ويراقبه في ذلك مراقبة شديدة .

كان يراقب شعرَ المدح مخافةَ أن ينزلق الشاعرُ بدافع الحاجة أو أي دافع آخر ، فيمدحَ الناسَ بغير ما فيهم ، وبهذا يأتي شعرُه غيرَ مطابق للحق ، وفي ذلك ما فيه من كذبٍ على التاريخ ، وامتهانٍ لكرامة المادح ، واستعلاءٍ بغير حق للممدوح ، وشرٍّ على المجتمع ، كما كانَ الشأنُ مع الأعشى الذي « جعل الشعر مَتْجَراً يتَّجِرُ به نحوَ البلدان[1] » .

رُويَ أن الحطيئة مدح أبا موسى الأشعريّ وقد جمع جيشاً للغَزْوِ ، فوصله أبو موسى ، فكتب اليه عمرُ يلومه على ذلك ، فكتب اليه أبو موسى : إني اشتريتُ عِرضي منه بها . فكتب اليه عمر : إنْ كان هذا هكذا ، وإنما فديتَ عِرضك من لسانه ، ولم تعطه للمدح والفخر ، فقد أحسنت[2] .

وكانتْ رَقابتُـه على شعر الهجاء أشدَّ وأقسى ، لأن الهجاء بطبيعته يقوم على النَّيْل من أخلاق المَهجُوّ ومروءته وعِرْضِه ، وهذا نوعٌ من القذف يُحرّمه الإسلام ويعاقب عليه .

ومن أخباره في ذلك أنه أمرَ بحبس الحطيئة لهجائه الزِّبْرِقانَ بن بدر . ولمّا استعطفه من مَحْبِسه بقصيدته التي يقول فيها :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بـذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجَرُ ؟

(١) كتاب العمدة : ج ١ ص ٦٤ .   (٢) الأغاني : ج ٢ ص ١٧٥–١٧٦ .

ألقيتَ كاسبَهم في قَعْرِ مُظْلِمةٍ
فاغفرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ

تأثر خليفةُ المسلمين لحال عيالِ هذا الشاعر، فأخرجه وقال له: إيّاكَ وهجاءَ الناس. قال إذنْ يموتُ عيالي جوعاً، هذا مكسَبي ومنه مَعاشي. قال: فإيّاكَ والمُقْذِعَ من القول. قال: ومَا المُقْذِعُ؟ قال: أن تخايرَ بين الناس، فتقولَ: فلانٌ خيرٌ من فلان، وآلُ فلان خيرٌ من آل فلان. قال: فأنت واللهِ أهجَى منّي. فقال عمر: واللهِ لولا أن تكون سُنّةً لقطعتُ لسانَك...[1]». ويقال: إنه لما أطلق الحطيئةَ أراد أن يؤكّد عليه الحُجّةَ، فاشترى منه أعراضَ المسلمين جميعاً بثلاثة آلافِ درهم، فقال الحطيئة في ذلك:

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تَدَعْ
شَتْماً يضُرُّ ولا مَديحاً يَنفعُ
وحَمَيْتَني عِرْضَ اللئيم فلم يَخَفْ
ذمّي وأصبحَ آمناً لا يَفْزَعُ[2]

كذلك راقب شعرَ الغزل فنَهَى الشعراءَ عن التشبيب بالمرأة. وقد وجد بعضُ معاصريه من الشعراء في هذه الرقابة شيئاً من الحَجْر على عواطفهم فشكَوْا منها في شعرهم، واضطروا في سبيل التوفيق بين توجيهات عمرَ ورغباتِهم العاطفية أن يَعدلوا عن ذكر اسم المرأة إلى الكناية عنه، وأن يلجأوا إلى التلميح بدل التصريح.

جاء في الأغاني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقدم إلى الشعراء ألّا يُشبّبَ أحدٌ بامرأة إلّا جَلَده. فقال حُمَيْدُ[3] بن ثور:

---

(١) الأغاني: ج ٢ ص ١٨٥–١٨٧. وذو مَرخ: وادٍ بالحجاز، والحواصل: جمع حَوْصلة وهي من الطائر والظليم بمنزلة المعدة في الإنسان. (٢) الأغاني: ج ٢ ص ١٨٩.
(٣) حُمَيد بن ثور: شاعر مخضرم، أدرك عمر بن الخطاب، وقال الشعر في أيامه.

أبى اللهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالكٍ
على كُلِّ أفنانِ العِضَاهِ تَرُوقُ[1]

فقد ذهبتْ عَرْضاً وما فوقَ طُولِها
من السَّرْحِ إلّا عَشَّةٌ وسَحُوقُ[2]

فلا الظّلُّ من بَرْدِ الضُّحَى تستطيعُه
ولا الفَيْءَ مِن بَرْدِ العَشِيّ تَذُوقُ[3]

فهل أنا إنْ عَلَّلْتُ نفسي بسَرحةٍ
من السَّرْحِ موجودٌ عليَّ طريقُ؟[4]

وأنشدَه شاعرٌ آخَرُ مُخضرَمٌ هو سُحَيْمٌ عبدُ بني الحَسْحاس قولَه :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إنْ تجهَّزْتَ غادِيا
كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيًا

فقال عمر : لو قلتَ شعرَك كلَّه مثلَ هذا لأعطيتُك . فلما وصل سُحَيْمٌ في إنشاده إلى قوله :

وبِتْنَا وِسَادَانا إلى عَلَجَانَةٍ
وحِقْفٍ تَهادَاهُ الرياحُ تَهادِيا[5]

وهبَّتْ شِمالاً آخرَ الليلِ قِرَّةٌ
ولا ثوبَ إلّا بُرْدُها ورِدائيا[6]

---

(١) السرحة : الشجرة الطويلة ، ويكني الشعراء بها عن المرأة . والعِضاهُ : أعظم الشجر ، أو ما عَظُمَ منه وطال . واحدتُه عِضاهة . وتروق : أي تزيد عليها بحسنها وبهائها .

(٢) العَشَّة : القليلة الأغصان والورق . والسَّحُوق : الطويلة المفرطة .

(٣) الظل : ما كان من أول النهار إلى الزوال ، والفَيْء : ما كان بعد الزوال إلى الليل .

(٤) الأغاني : ج ٤ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٥) العلَجانة : شجرة تنبت في الرمال ، والحِقْف : الرمل المستطيل مع ارتفاع وانحناء ، وتهاداه الرياح تهاديا : تنقله من موضع إلى موضع ، وتتلاعب به تلاعباً .

(٦) القِرَّة والقُرُّ : البَرْد .

فما زال بُرْدي طيِّباً من ثيابِها
إلى الحَوْل حتى أنْهجَ البُرْدُ باليا[1]

تُوَسِّدُني كفًّا وتَثْنِي بمِعْصَمٍ
عليَّ وتَحْوِي رِجْلَها من ورائيا

قال له عمر : وَيْلَكَ إنك مقتول ![2].

فعمرُ يُعجَب ببيت سُحَيْمٍ الأول ، ويَعِدُه بالعطاء لو كان كلُّ شعره من هذا النوع المتأثّر بالإسلام ، ولكنه في الوقت ذاته ينهَره ويزجره عند سماع الجزء الثاني من شعره ، لما فيه من تَهتُّكٍ ظاهر ، ويتنبأ له بالقتل إن هو تمادَى في هذا اللون من الشعر الذي يُزيّن المعصية ، ويُغري بالفساد . وقد قُتِل سُحَيْمٌ فِعْلا بسبب تشبيبه بنساء مولاه !

***

هذا عن مقياس الشعر الذي أعتمده الرسول والتزم به الخلفاء الراشدون من بعده في نقد الشعر وتوجيهه .

وقد رأينا كيف كان عمرُ بن الخطاب يراقب الشعرَ من مدحٍ وهجاء وتشبيب ، وكيف كان يُنذر ويتوعّد بل ويعاقب مَن يرى في شعره قِيَمًا تُجافِي روحَ الإسلام وتعاليمَه.

ولم يقف مقياس الرسول عند عصر النبوّة أو عصر الراشدين ، وإنما أمتدّ الى بيئة الحجاز في العصر الأمويّ ، وأخذَ به المحافظون والمتشدّدون في دينهم .

ومن ثَمَّ نراهم يعارضون أتجاه الغزَلِ الإباحيّ ، هذا الاتجاهَ الذي طلع به عليهم عمرُ بن أبي ربيعة وغيرُه من شعراء مكة والمدينة ممن أخذوا مأخذه ، وسلكوا مَسْلكه.

---

(١) يقال : أنهج البُردُ أو الثوب ، أي أخْلَق وبَلِيَ .
(٢) الأغاني : ج ٢٠ ص ٦ طبعة دار مكتبة الحياة .

لقد رأوا في غزل هؤلاء الشعراء المترفين اللاهين أموراً يأباها الإسلام، وتتنافى مع مبادئه ومُثُله الأخلاقية أشدّ المنافاة!

وعندما عرضوه على مقياس الرسول سقط بعيداً عنه. ألم يقل الرسول: «إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافقَ الحقَّ منه فهو حسَن، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه؟».

فأين هو من الحق الذي جعله الرسولُ أصلاً في تقدير الشعر والحكم عليه؟ إنه شعر يغلب عليه العبثُ والمجون، ويكثر فيه التعرض للمُحصَنات في مواسم الحج، وغيرِ مواسم الحج، وتجري فيه الأحاديث مع النساء، حقيقةً كانت هذه الأحاديث أو خيالية، بصورة تستثير العواطف والغرائز، وتدفع إلى التورُّط في المعاصي. فأين هـذا الشعرُ من الحق؟ إن الحق غائبٌ عنه، والباطلَ حاضرٌ فيه. إنه إذن شعر لا خير فيه.

وعلى أساسٍ من هذه النظرة رفضوا شعر ابن أبي ربيعة وشعرَ مدرستِه وعابوه، وراحوا يقاومونه، لما يحمل في ثناياه من تحلُّلٍ خُلُقيٍّ، ومن خطرٍ شديد على أخلاق النساء!

ولكنَّ الغزلَ الإباحيَّ كنزعةٍ من النزعات الجديدة التي بدأت تشيع في الحجاز كانت أقوى وأكبرَ من أن تقاوم، لأنها في حقيقتها لم تكن إلّا تعبيراً عن نزوع العصر وأهوائه واتجاهاته.

***

ولما كان النقدُ يتْبع الشعرَ ويتطوَّر بتطوّره، فإن ما طرأ على الغزل الحجازيّ من تحوُّلٍ خطير قد أدّى بالنقد إلى تحوُّلٍ مماثل، والى ظهور مقياسٍ جديد يلائم هذا الغزلَ الإباحيَّ في روحه وطبيعته واتجاهه.

وقد كان ابنُ أبي عتيقٍ الناقدُ أولَ مَن فَطِن في عصره الى مقياس النقد الجديد واستخدَمَه في نقد الشعر. فما هو هذا المقياس...؟

لقد مَرَّ بنا خبرُ الموازنة التي أجراها بــين شعرِ كلٍّ من عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد ، وفضّل فيها شعرَ الأول على الثاني .

فمن أوجه التفضيل التي ذكرها في هذه الموازنة قولـه : « لِشعرِ عمرَ ابن أبي ربيعة نَوْطَـةٌ في القلب ، وعُلـوقٌ بالنفس ، ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر ، وما عُصِيَ الله جَـلَّ وعزَّ بشعرٍ أكثرَ مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة [1] » .

والنصُّ الذي يَعنينا في هذه العبارة ، ويُستدَلُّ به على تحوُّل مقياس النقد عما كان عليـه في صدر الإسلام الى مقياس آخر جديد ، هو قول ابن أبي عتيق : « ما عُصِيَ اللهُ جَلَّ وعزَّ بشعرٍ أكثر مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة » .

وهذا القولُ ، كما يُفهَم منــه ، يعني أن الشعر الذي يُلبّي نزعاتِ النفوسِ في عصره ، ويدفعها بجمال تصويره وقـوة تأثيره الى عصيان الله في سبيل إشباع رغباتها المكبوتة ، قد صار من الأصول أو القِيَم النقدية التي تُؤخَذ في الإعتبار عنـد إرادة التفضيل بين شعر وشعر ، أو بين شاعر وآخر .

وإذن فالشعرُ الأحسن عنده من جميع الوجوه هو ما كان أكثرَ من غيره قدرةً على الإيقاع في المعاصي أو الإغراء بها .

وقد كان ابن أبي عتيق أوّلَ مَن نوّهَ بهذا المقياس ، ولَفَتَ الأنظار إليه في مفاضلاته الشعرية . فقد رأينا كيف اتّخذَ من إباحيّة عمرَ معياراً جديداً يفاضل به بين شعرِه وشعرِ أحدِ معاصريه ، على أساس أن هذا اللونَ من الشعر ، هو الذي يمثّل ذَوْقَ مُجتمعِه المترَفِ وأهواءَه وأشواقَه .

ومن النقاد مَن تسرّع في الحكم على ابن أبي عتيق فزعم أنه إذْ قال : « ما عُصِيَ اللهُ جلَّ وعزَّ بشعرٍ أكثرَ مما عُصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة » ،

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٠٨ – ١٠٩ .

إنما أراد أن يفرض على شعراء عصره اتجاهاً ليس موجوداً في شعرهم ، وأن يتخذ من الفسوق عن أوامر الدين وتعاليم الإسلام مقياساً جديداً من مقاييس الفنّ .

ولكنّ الأمرَ في حقيقته على خلاف ذلك تماماً ، لأن هناك ، كما مرّ بنا في ترجمة حياته ، تواتراً وإجماعاً على عفافِ الرجل وتديُّنه ، وشرفِه ونُبْله .

وكل ما هنالك أن ابنَ أبي عتيق كناقدٍ موضوعيٍّ يتوخّى النزاهة والدقة في آرائه النقدية ، قد قرّر بكلمته واقعاً ملموساً ، واتجاهاً موجوداً في شعر معاصريه الحجازيين . وإزاءَ ذلك لم يسَعْه إلّا أن يعترف به ، وأن ينظر إليه كقيمةٍ جديدة يجب أخذُها في الاعتبار عند التصدّي لنقد الشعر وتقديره ...

أما كونُه من الناحية الأخلاقية يُقِرُّ هذا الاتجاهَ الإباحيّ في الشعر أو لا يُقرّه ، فهذا موضوعٌ آخر . ولعلنا نذكر من تعليقاته على شعر صديقه عمرَ بن أبي ربيعة ، أنه كثيراً ما كان يلومه ويُعنّفه في أسلوب تهكّميّ على ما يصدرُ عنه من قولٍ أو فعلٍ يأباه الدّين ويتعارض مع مكارمِ الأخلاق ...

المَراجع

– ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة
لعز الدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني
تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م .

– ابن أبي ربيعة : ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ .
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م .

– ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
للإمام عز الدين أبي الحسن عليّ بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزريّ .
دار الكتاب العربي ، بيروت .

– ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكيّ
دار الكتب المصرية ، القاهرة .

– ابن حَجَر : كتاب الإصابة في تميز الصحابة
لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن عليّ بن محمد بن عليّ الكناني العسقلاني ، المعروف بابن حجَر
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م .

: كتاب تهذيب التهذيب
للمؤلف نفسه
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، ١٣٢٥ هـ .

– ابن حزم : كتاب جمهرة أنساب العرب
للإمام أبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسيّ
تحقيق عبد السلام هارون
دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م .

- ابن رشيق : كتاب العمدة
لأبي عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ – ١٩٣٤م .

- ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى
لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصريّ الزّهريّ
دار بيروت وصادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م .

- ابن شاكر الكتبي : كتاب فوات الوفيات
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

- ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبدِ ربّه الأندلسيّ
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٩هـ – ١٩٤٠م .

- ابن قتيبة : كتاب المعارف
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ
تحقيق ثروت عكاشة
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

: كتاب عيون الأخبار
للمؤلف نفسه
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سلسلة (تراثنا) .

- ابن منظور : معجم لسان العرب
لجمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الأفريقيّ المصريّ
دار بيروت وصادر ، بيروت ، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥ م .

- ابن النديم : كتاب الفهرست لابن النديم
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

- ابو الحسن الموسويّ : كتاب نهج البلاغة
مجموع ما اختاره الشريف أبوالحسن محمد الرضيّ بن الحسن الموسويّ
من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام
تحقيق صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٨٧هـ .

- أبو الفداء : كتاب المختصر في أخبار البشر
للملك المؤيد إسماعيل بن عليّ ، صاحب حماة ، والمعروف بأبي الفداء
دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

- أحمد أمين : كتاب فجر الإسلام
لأحمد أمين
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ – ١٩٣٥ م .
: كتاب ضحى الإسلام
للمؤلف نفسه
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ – ١٩٣٨ م .
: كتاب النقد الأدبي
للمؤلف نفسه
دار الكتاب العربي ، بيروت .
- الأزرقي : كتاب أخبار مكة
لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي .
- الأصبهاني : كتاب الأغاني ١٨ جزءاً
لأبي الفرج الأصبهاني عليّ بن الحسين
طبعة دار الكتب المصرية القاهرة
: كتاب الأغاني ٢١ جزءاً
للمؤلف نفسه
دار الفكر ودار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٥٦ م .
- الألوسي : كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب
للسيد محمود شكري الألوسي البغدادي
طبعة مكتبة محمد الطيب ، القاهرة .
- البلاذُريّ : كتاب أنساب الأشراف
لأحمد بن يحيي بن جابر ، المعروف بالبلاذُريّ
دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ م .
- البيهقيّ : كتاب المحاسن والمساوىء
للشيخ إبرهيم بن محمد البيهقيّ
دار صادر وبيروت ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .
- الثعاليّ : كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب
لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبيّ النيسابوريّ
دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٥م .
- الجاحظ : كتاب البيان والتبيين
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .

- الجاحظ : كتاب الحيوان
للمؤلف نفسه
تحقيق عبدالسلام هارون
مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
: رسائل الجاحظ
للمؤلف نفسه
تحقيق عبد السلام هارون
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .
: كتاب التاج في أخلاق الملوك
للمؤلف نفسه
دار الفكر ودار النجار ، بيروت ، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .
- الحافظ الأصبهاني : كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني
دار الكتاب العربي ، بيروت .
- حسان بن ثابت : ديوان حسان بن ثابت
دار صادر بيروت ، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .
- الحصري : كتاب زهر الآداب
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
المكتبة التجارية بالقاهرة ، ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م .
: كتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر
للمؤلف نفسه
مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م .
- الدميري : حياة الحيوان الكبرى
للشيخ كمال الدين الدميري
المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م .
- الدينوري : كتاب الأخبار الطوال
لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري
وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة ، سلسلة (تراثنا) ١٩٦٠ م .
- الذهبي : كتاب سير أعلام النبلاء
لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
تحقيق صلاح الدين المنجد
معهد المخطوطات العربية ، ودار المعارف بمصر .

– الزبير بن بكّار : كتاب جمهرة أنساب قريش وأخبارها
لأبي عبدالله الزبير بن بكّار
تحقيق محمود محمد شاكر
مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨١ ﻫ .

– شعراء هذيل : ديوان الهذليين
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٤ ﻫ – ١٩٤٥ م .

– شير : كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة
للسيد أدّى شير
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٨ م .

– الطبري : تاريخ الرسل والملوك
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ
تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
دار المعارف بمصر (ذخائر العرب ٣٠)

– طه حسين : حديث الأربعاء
للدكتور طه حسين
دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م .

– عتيق : تاريخ النقد الأدبي عند العرب
لمؤلف هذا الكتاب ، عبد العزيز عتيق
دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١م .

– القـالي : كتاب الأمالي
لأبي عليّ إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٤ﻫ – ١٩٢٦م .

– القرشيّ : جمهرة أشعار العرب
لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشيّ
دار صادر وبيروت ، ١٣٨٣ﻫ – ١٩٦٣م .

– القرطبيّ : الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، على هامش الإصابة لابن حجَر
لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبيّ
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٨ﻫ – ١٩٣٩م .

– القِفطيّ : كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة
للوزير جمال الدين أبي الحسن عليّ بن يوسف القِفطيّ
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩ﻫ – ١٩٥٠م .

- الكاندهلوي : كتاب حياة الصحابة
محمد يوسف الكاندهلوي
دار القلم ، دمشق – حلبوني

- المبرد : كتاب الكامل
لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد
تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، والسيد شحاته
مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٦م .

: كتاب الكامل
للمؤلف نفسه
طبعة مكتبة صبيح ، القاهرة

- المرتضى : كتاب أمالي المرتضى
للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي
تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
دار الكتاب العربي ، بيروت .

- المرزوقي : كتاب شرح ديوان الحماسة
لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧١هـ – ١٩٥١م .

- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر
لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م .

- النُّوَيْري : كتاب نهاية الأرب
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٣ م .

- ياقوت : كتاب معجم البلدان
للإمـــام شهاب الدين أبي عبيدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي .
دار صادر وبيروت ، ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م .

تصويبـــات

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصـواب
١١	٦	فعلى على سبيــل المثال	فعلى سبيــل المثال
١٨	٤	بن تيم	ابن تيم
	١٧	بن قيس	ابن قيس
١٩	٨	قبل يُسلم	قبل أن يُسلم
٢١	٤	مناسكنهم	مناسكهم
	٩	فإن قد	فإني قد
٣٥	٩	ويسنهزئون	ويستهزئون
٣٦	٢	أمّ	أمّ
٣٧	٢	بن دُهمان	ابن دُهمان
	١١	« أمّ كلثوم »	« أمّ كلثوم »
٤٢	٣	غُبْتَر	غُبْتَر
٥١	١١	عمر بن العاص	عمرو بن العاص
٥٥	١ هامش	لا تحملّليه	لا تحملّيه
٦٢	٥ هامش	تأيّمتْ	تأيّمتْ
٦٣	١٨	لا يُدْرُك	لا يُدْرِك
٩٥	٢١	مدارُسه	مدارِسه
١٠٢	٤	يهوي	يهوَى
١١٧	١ هامش	وصيغَر	وصِغَر
١٢٣	٥	ألّا	إلّا
١٢٤	٢٣	والله أنّ	والله إنّ
١٢٦	١٤	أعجاب	إعجاب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٢	١٤ + ١ هامش	المِلاء	المَلاء
١٧٩	١	كثير	كثيراً
١٨٣	١ هامش	حسان ثابت	حسان بن ثابت
١٨٧	١٨	جزلأ	جزلاً
٢٠١	١٦	دَمْعةٍ	عَنْبَرَةٍ
٢٠٨	١٣	عبدالعزيز بن مروان	عبدالعزيز بن عمران
٢١٥	٨	المُرِّيْ	المُرِّيّ
٢٢٥	٤ هامش	مَرْجُوْءُ	مَرْجُوُّ
٣٠٣	٩	عزيز بن يحيي	عزيز بن طلحة
٣٤١	٧	بأرضُنا	بأرضِنا
٣٩٦	١٦	تصَرُّمَا	تصَرَّمَا

الفهرس

الكتاب الرابع

أبو السائب المخزومي

الكتاب الخامس

في النقـــد

at the time. Encouraged by their critical and literary value, I also collected Abu as-Sā'ib's AKHBAR. On the one hand they can be compared as critical studies with those of Ibn Abī-'Atīq. On the other hand they could be considered as a good starting-point for any one who would like to study this fascinating personality : Abu as-Sā'ib al-Makhzumi.

***

So far the scheme of this research has become evident. It is divided into five parts which run as follows:

The first part comprises the biographies of Abu Bakr aṣ-Ṣiddīq and members of his family.

The second part deals with the history of Arabic singing up to the end of the Umayyad Period.

The third part is devoted to Ibn Abī-'Atīq's biography, followed by his AKHBAR which I have been able to trace and collect from various Arabic sources.

The fourth part includes Abu as-Sā'ib al-Makhzumi's biography together with his AKHBAR.

The fifth and last part contains four chapters:

The first is about the state of Arabic criticism in the pre-Islamid period ; the second is about the state of Arabic criticism from the beginning of Islam until the establishment of the Umayyad Dynasty, the third is about the state of Ḥijāz during the time of Ibn Abī-'Atīq, the fourth and last chapter deals with the salient aspects of Ibn Abī-'Atīq's criticism.

during this period. The revival of the art of singing in Ḥijāz in this period had greatly helped in raising the standard of the social and literary life of the people, and in their refinement. To Ibn-Abī-'Atīq, his ardent love for singing had not only constituted an important element in his general culture, but it had also its bearing on both his temperament and critical faculty.

As Ibn Abī-'Atīq was one of the great patrons of this fine art, I deemed it highly necessary and in accord with the nature of this research to investigate the state of the art of singing at that time as well as the factors which contributed to its revival and later development. With this objective in mind, I had to pursue the history of Arabic singing and the reactions of the people for and against it up to the end of the Umayyad period.

* * *

Amongst the contemporaries of Ibn Abī-Atīq, his friend Abu as-Sā'ib al-Makhzumi (أبو السائب المخزومي) can be singled out as having many things in common with him. They belonged to the nobility of Al-Madīna, and were counted in Ḥijāz among those renowned for their purity, righteousness, integrity and sense of humour. Besides they had an ardent love for both singing and poetry in general and lyric poetry in particular. Moreover, they matched each other in humour though they had each a different approach.

While tracing Ibn Abī-'Atīq's AKHBAR in various Arabic sources I came across **26** of Abu as-Sā'ib's AKHBAR which bear much similarity to those of Ibn Abī-'Atīq. These AKHBAR on the whole contain fascinating comments on poetry, and to some extent, they represent one form of criticism in Ḥijāz

are enough to show his literary tendencies as well as the nature and scope of his criticism.

* * *

During the process of collecting the material needed for my research on Ibn Abī-'Atīq, I was faced with the apparent confusion in some of his AKHBAR and narratives. Ibn Abī-'Atīq's lineage leads back to the family of Abu-Bakr aṣ-Ṣiddīq, the first orthodox caliph. So many of the sons and grandsons of Abu-Bakr bear identical first names. In writing about them, most Arab historians and scholars of early times, used to mention their names in an abbreviated form. This inaccurate reporting in its turn, had led to much confusion in their AKHBAR, to the extent that one cannot help make mistakes by attributing the AKHBAR of one member to another bearing the same first name. Faced with this difficulty, I had to study the history of Abu-Bakr's family with the aim of writing a short biography of each renowned member. This had greatly helped me to overcome the confusion in their AKHBAR and find out what really belonged to Ibn-Abī-'Atīq, and not to another bearing the same first name.

* * *

Another fact about Ibn Abī-'Atīq is that he was greatly fond of singing. Accordingly he used to frequent the special gatherings to enjoy hearing the best singers of the time. Like his friend 'Abdullāh Ibn Ga'afar, he encouraged the movement of singing in Ḥijāz, and patronised those who were gifted singers. In fact he himself was blessed with a melodious voice. Because of different internal and external factors, the art of singing had noticeably developed and flourished

opportunity presented itself then for me to look deeply into his criticism, as the subject fell within the scope of that course of lectures. The material that I collected about him, when working on that course of lectures was more than required for an undergraduate university course. This factor, together with the striking originality of his criticism led me to embark upon writing this book on Ibn Abī-'Atīq the shrewdest and the most charming critic of Ḥijāz.

* * *

My first step in this direction, was to collect as much material as possible on the subject, Ibn Al-Nadīm [1] in his book 'Al-Fahrast' الفَهْرَسْت tells us, that Al-Madā'inī and Ibn Ayyoub Al-Madīnī had each written a book called Kitab Ibn Abī-'Atīq (كتاب ابن أبي عتيق). These two books would have been of great help to me had they been available, but alas! they are counted as lost. The only alternative open to me then was to dig up every hint either by or on Ibn Abī-'Atīq in every available source on Arabic books of History and literature. This task, though tiring, had taken a great deal of time, but at long last, I was able to collect 74 of his AKHBAR (tidings, comments and observations), which were to me illuminating. The job of collecting these Akhbar was in itself an interesting piece of research-work. So anyone who now wishes to study Ibn Abī-'Atīq or write about him will find, for the first time, a collection of his AKHBAR which will save much time and effort. He is no longer in need of tracing the scattered information about him in so many Arabic sources. True these are not all his AKHBAR but still they

(1) Ibn Al-Nadim, Al-Fahrust pp. 153/158 pp. 217/218.

tion only two : Professor Aḥmad Amīn in his book 'Literary Criticism' and Dr. Ṭahā Ḥussein in his book 'Ḥadīth Al-Arbī'aā'. Professor Amīn, for instance, considers him by far the best among the Ḥijāzī critics of his time.

Speaking of him, professor Amīn says, "Ibn Abī-'Atīq has filled Ḥijāz with shrewd criticism of many contemporary poets". Furthermore he states, "Most of his criticism deals with the love-lyrics of the Qurayshite 'Omar Ibn Abī-Rabī'a (d. c. 720), the most remarkable of all the poets of the Umayyad Age". As for Dr. Ṭahā Ḥussein, he shares professor Amīn's opinion of Ibn Abī-'Atīq, and says that he would like one day to devote some of his time to write a study on this satirist.

* * *

On my part, I first became acquainted with Ibn Abī-'Atīq a long time ago through reading kitab Al-Aghānī (Book of Songs) of Abu'l-Faraj Al-Iṣfahānī (d. 967). Reading at random in Al-Aghānī I came across some of his comments on poetry in general and on that of 'Omar Ibn Abī-Rabī'a in particular. I could detect in his comments a genuine critical sense. It was surprising that criticism of this nature could be made at such an early date.

I began then to look upon him as a critic who knew much about poetry and its technique, and who had a very charming style tinged with humour and sarcasm. Thus, my admiration for him as a critic, rather than as a humorist, has grown gradually ever since.

Two years ago, I was asked by Beirut Arab University, to lecture on the history of Arabic literary criticism. So the

This book deals with Ibn Abī-'Atīq (ابن أبي عتيق) the Ḥijāzī critic. His name is 'Abdullāh Ibn Muḥammad Ibn 'Abd ar-Raḥmān Ibn Abī-Bakr aṣ-Ṣiddīq (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) But in Arabic literature, he is well-known as Ibn Abī-'Atīq (ابن أبي عتيق), the 'Kunya' or appellation of his father Muḥammed. His birth-place is known to be al-Madīna, the city of the prophet, but neither the date of his birth nor that of his death is definitely known. There is evidence, however, in stories told about him and related to his early life, that he must have been born some time during the reign of the third caliph 'Osman Ibn 'Affān (عثمان بن عفان) 23-33 A. H., and that his death occurred some time before 130 A. H. Consequently he lived most of his life in the Umayyad Period.

***

From what was written about him by early Arab scholars, one gathers that they admired him mostly for his humorous and sarcastic comments on poetry and people. They hardly attempted to make a serious assessment of his original contribution to the development of Arabic literary criticism.

This aspect of Ibn-Abī-'Atīq was left almost completely to the efforts of modern Arab scholars. True they shared their predecessors' admiration for his humour and sarcasm, but at the same time, they were the first to draw attention to his criticism, and to speak of him as a critic. Of these modern Arab scholars one can mention by way of illustra-

PRINTED IN LEBANON BY BOUHEIRY BROTHERS - BEIRUT

BEIRUT ARAB UNIVERSITY

IBN ABĪ-ʿATĪQ

THE CRITIC OF ḤIJĀZ

BY

DR. ʿABDUL-ʿAZĪZ ʿATĪQ

1972



BEIRUT ARAB UNIVERSITY

IBN ABĪ-ᶜATĪQ
THE CRITIC OF ḤIJĀZ

BY

DR. ᶜABDUL-ᶜAZĪZ ᶜATĪQ

1972